المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

نادر شاه أفشار

مؤسس الدولة الأفشارية

وأول مُفعِّل للتقريب بين المذاهب الإسلامية

١١٠٠ - ١١٦٠ هـ / ١٦٨٨ - ١٧٤٨ م

فى نظر المستشرقين



اختاره وترجمه إلى الفارسية:
رضا زاده شفق
ترجمة وتقديم وتعليق:
أحمد الخولى

1618

نادر شاه أفشار

مؤسس الدولة الأفشارية

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1618
- نادر شاه أفشار: مؤسس الدولة الأفشارية
- رضا زاده شفق
- أحمد الخولى
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

نـــادر شـــاه
رضا زاده شفق

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. , Opera House, El Gezira, Cairo
Tel.: 27354524 – 27354526 **Fax:** 27354554
E-mail: egyptcouncil @ yahoo. com

نادر شـــاه أفشـــار

مؤسس الدولة الأفشارية

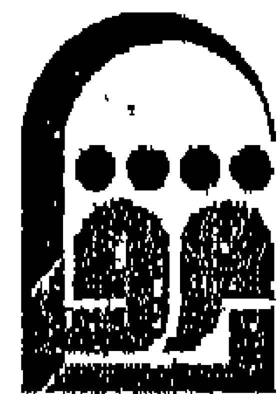
وأول مُفعِّل للتقريب بين المذاهب الإسلامية

١١٠٠ - ١١٦٠ هـ/ ١٦٨٨-١٧٤٨م

فى نظر المستشرقين

اختـــاره وترجمـــه إلى الفارسية: رضا زاده شفق

ترجمـــــة وتقـديـم وتعـليق: أحمد الخـــولى



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

نادر شاه أفشار: مؤسس الدولة الأفشارية /اختاره وترجمه إلى الفارسية: رضا زاده شفق، ترجمة وتقديم وتعليق: أحمد الخولى.
ط ١ – القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠
٣٢٨ ص ، ٢٤ سم
١ – إيران – تاريخ
(أ) شفق، رضا زاده (مترجم إلى الفارسية)
(ب) الخولى، أحمد (ترجمة وتقديم وتعليق)
(جـ) العنوان
٩٥٥

رقم الإيداع ١١٢٩٠ / ٢٠١٠
الترقيم الدولى : I.S.B.N -978-977 -704-122-5
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتـــويـــات



نادر شاه افشار

مقدمة المترجم

يعتقد الكثير أن "نادر شاه" كان شخصا متهورًا بطبعه، لكن ينبغي أن نعرف أن شاهات الصفوية كانوا قد لجأوا إلى تهجير القبائل المقاتلة(*) إلى الأنحاء الشمالية من خراسان لمنع العشائر الأزبكية وغيرها التي كانت تهاجم هذه الأنحاء لوفرة حاصلاتها وعلى الأخص "أتك، درگز، فوجان وبجنورد" ثم تعود إلى مواطنها بالغنائم والأسرى بعد معارك ضارية؛ حتى أن "نادر شاه" نفسه كان ضمن الأسرى هو وأمه؛ فساقته الأقدار بعد أن هرب من خاطفيه وماتت أمه إلى أن يشب عودا ويؤدب هذه القبائل، ويصمم على أن ينشر الأمن والأمان في ربوع أوديته، ويتخلص من حياة البداوة وحرفة الرعي التي كان يمتهنها أبوه مرتحلا بسببها بين الأودية في الشتاء والصيف وباحثاً عن الكلأ حتى أن ولادته كانت في خيمة من الخيام المتناثرة (**).

وهب الله "نادر شاه" كثيرًا من الصفات الجسدية والفكرية ومنحه الشجاعة الفائقة والقدرة على اتخاذ القرار حسب الموقف الماثل فأحسن وأساء، وإن كان يُعدُّ من الفاتحين الذين يشار إليهم بالبنان في مصاف الإسكندر الأكبر والسلطان محمود الغزنوي والأمير تيمور.

(*) من هذه القبائل قبيلة افشار التي ينتسب إليها "نادر شاه" ومن بطون هذه القبائل وأفخادها "القراخلسو" و "قراقلو" آباؤه وأجداده على وجه التحديد، "البابلو، جلاير، كوسه أحمد لو، كندوزلو، ايناتكو، اليلو، امرلو، بكشلو". يرجع إلى محمد حسين قدوسي في "نادر نامه" نشر انجمن آثار ملى خراسان، ص٢٠.

(**) يقولون إن "نادر شاه" لجأ إلى حيلة تمثلت في إغراق الحراس الأزبك باحتساء الخمر فسكروا وغفلوا وهرب هو ورفقاؤه.

اغتنم "نادر شاه" ما حباه الله من صفات، وترقى فى مدارج الظهور باعتماد الحكام عليه بل وتزّويجه من بناتهم وتوليته المناصب العسكرية الكبيرة، حتى صار ملكاً على إيران ومؤسساً للدولة الافشارية، وسيقت الحكايات حوله تمثلاً به وتشبها فى حياته وبعد مماته؛ ذلك أنه وضع نصب عينيه رفع الظلم عن كاهل الناس(*)، ومن أجل ذلك يبدو للنظر أنه لم يكن بالشخص المتجاوز فى حياته.

يعيب البعض من المؤرخين على "نادر شاه" القسوة البالغة التى وصلت إلى حد سمل عينى ابنه "رضا قلى ميرزا" – كما سيقرأ القراء الأفاضل – فى ثنايا هذا الكتاب ولكن جاء هذا الصنيع منه لما لاحظه من تساهل فى أداء واجبه من ناحية واتهامه بالتحريض على قتل أبيه من ناحية أخرى. أضف إلى ذلك قتله أعقاب الصفوية وعيالهم ونسائهم وعصيان الأوامر كرفضه الحضور إلى هرات واستهجانه من زواج ابنتىّ "أبو الفيض" حاكم بخارا من ابنه وابن أخيه وعدم الانصياع لنصائح والده وأوامره وإقدامه على عزل المسئولين من أعوان أبيه لدى توليه نيابة السلطنة(**).

كل هذا – وهو بعض من كل – أدى بالأب إلى سمل عينى ابنه إبقاء على إبصاره بالعين الأخرى. وعلى فرض أن غير نادر فعل هذا الصنيع بابنه ماذا سيكون التصرف؟ يقول المعاصرون لـــ "نادر" كانت هذه الفعلة من أسباب توتر "نادر" وعصبيته فى أخريات حياته(***).

(*) من أمثلة ذلك حكاية الماعز والعجوز وإعادته إليها.

(**) أيا كان عيب "نادر" فإنه لم يكن متعصباً ومتشدداً وإذا كان قد وضع الشيعة أحيانا تحـــت ضـــغط فقـــد كانت العلة فى هذا سياسية، وقد قُبلت مطالب تتصل بانضمام "نادر" فى التوحيد بين التـــشيع والتـــسنن والتآلف بينهما، ولكن ينبغى العلم أن نظرته كانت متسعة وتنشد العالمية، وكان يريد أن يـــستقر علـــى رأس عالم إسلامى متحد.

(***) لو أصاب هذا السهم هدفه ربما كان ذلك فى صالح "نادر" وفى صلاح إيران لأنه كان قد وصل فى ذلك الزمان إلى أوج الشهرة؛ إذ حرر وطنه من رعب الأفغان وأوقف العثمانيين عند حدودهم، ودفـــع الروس إلى أن يردوا الأراضى الإيرانية، وأخضع البختياريين والأبداليين والغلچائيين وفتح الهند=

وقد عَدَّ جمع من المؤرخين أن حملات "نادر" على شبه القارة الهندية كان من باب الاعتداء والتوسع، وهذا الاتجاه على العكس فقد كانت الثروات الضخمة التى تختزنها هذه الديار الواسعة تُنهب بسبب ضعف الأسرة المغولية الحاكمة وانهيارها فى وقت الملك " محمد شاه" ابن العشرين ربيعاً فتنازعتها الأهواء واستولى عليها الفساد وراج فيها النفاق.

ومادام الأمر كذلك فقد انفتحت حدودها لتقبل الفارّين من مختلف الأجناس وعلى رأسهم الأفغان بقبائلها اللزگية والأبدالية والغلچائية (*). وكان هؤلاء أكثر الذين استقروا فى أرض إيران وعاثوا فيها فسادا مما جعل "نادر" يخاطب حكام الهند بضرورة إغلاق الحدود فى وجههم إلا أنهم لم يلقوا بالا إلى هذه المخاطبات خاصة أن هؤلاء الفارّين كانوا أشبه برجال العصابات التى تروح وتجىء تحصّلا للغنائم أو نهبا لها، ثم إنهم قتلوا موفداً آخر لـــ "نادر" يحمل رسالة تؤكد على توخّى العلاقات الطيبة وغلق الحدود.

اتخذ "نادر" هذه حجة لغزو الهند والاستفادة من ثرواتها. ولكن ليته استخدمها فى ترفيه شعبه فقط اختزن بعضها فى خزائنه بمسقط رأسه، وضاع الكثير منها جراء تجهيز الجيوش وزحفها وما صحب ذلك من بذخ، بما جعل "نادر" يمثل حقبة مهمة فى تاريخها أثناء إخضاعه لها وإقامته فيها خاصة أنها حروب ومعارك غطت مناطق داخلية وخارجية من هذه الأنحاء المترامية؛ الدولة العثمانية بحدودها متسعة الأطراف والمتشابكة مع الحدود الإيرانية والداخلة فى أرض العراق بمدنه الشهيرة.

= وسخّر التركستان، وأخذ جزءًا من الجزيرة العربية وأوجد أسطولا فى الخليج الفارسى الـــذى كـــان يبدو بالتدريج أكبر قوة بحرية عندئذ مع تصاعد الأحداث..

(*) كان مسكن هذه القبائل بين غزنين وقندهار وهرات وهى قبائل تشترك فى خصائص عديدة أهمها قـــوة الشكيمة وشدة الباس والقدرة على المواجهة. راجع قدوسى : المرجع السابق، ص٨٠. وهذا يفسر لنـــا أن الافغان صعب أن يهزموا إن لم ينتصروا، وهذا هو الحال الذى حدث فى إيران فى نهايـــة حكـــم الصفويين وعصر نادر ويحدث فى العصر الحديث.

وهذا ينقلنا إلى قضية لافتة للانتباه أو هى أهم القضايا التى خاضها "نادر" وهى : هل كان نادر شيعيا أم سنيا أم جمع بين الاثنين؟ الرأى المؤسس على دقائق فكره حال ظهوره أو أثناء حكمه هو أنه كان يجمع بين الاثنين بطبعه النافذ ومن المتمثلين بالقول القرآنى الكريم ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾(*) دون أن يدرى، وما ذلك إلا لأن الدين الإسلامى هو دين الفطرة التى فطر الله الخلق عليها. وعلى الرغم من تشكيك بعض المؤرخين فيما جرى عليه "نادر" فى فهمه الدينى؛ فالرأى عندى هو أنه كان من أتباع "إسلام بلا مذاهب" ومن ثم خاطب الدولة العثمانية بعقد معاهدات من شأنها التوحيد بين المسلمين أو التقريب بين المذاهب الإسلامية على الأقل فصار بذلك أول داع للوحدة الإسلامية، بل هو أول من أصر على تأكيدها من خلال الفرامانات التالية :

أ- أصدر الفرامين بمنع سب الخلفاء الثلاثة الراشدين من خلال المذهب الشيعى الذى أقره الشاه إسماعيل الصفوى(**).

ب- عقد المجامع العلمية فى العتبات المقدسة لترسيخ الدعوة إلى تبنى فكرته.

(*) سورة البقرة : الآية ١٤٣.

(**) يلزم التنويه أن "نادر" لمّا دعا إلى إقلاع الشيعة عن سب الخلفاء الثلاثة الراشدين كان يثبت فى نفس الوقت نفوره من آبائه وأجداده القوميين، إذ كان مؤرخه الرسمى يذكر دائماً الجيش الخراسانى مقابل الجيش القزلباشى جيش الصفويين. كما أنه ابتكر قبعة لجنوده تختلف تماماً عن القبعة التى كانت قد ابتكرت منذ عهد الشيخ حيدر جد الشاه إسماعيل، وإن كان هذا يدلل فى نفس الوقت على عدم توافقه مع الصفويين، فبينما تشير قبعة الصفويين إلى اثنى عشر إماماً تشير قبعته إلى الخلفاء الراشدين بدون تمييز بين واحد وآخر، وهو فى هذه الناحية كان يجتهد فى تعظيم وتجليل "على بن أبى طالب" رضي الله عنه. فعندما عهد إليه "طهماسب الثانى" بإمارة خراسان توجه "نادر" إلى ضرب سكة مضروب عليها اسم الإمام الثامن للشيعة المدفون فى مشهد. ويقول "الاسترآبادى" كذلك إنه اهتم بتقديم النذور والهدايا للعتبات المقدسة، وإن كان البعض من المستشرقين مثل "اوتر"، "هانوى" و "عبدالكريم كشميرى" يرون أنه بهذا الاتجاه المذهبى كان يقصد فتح باب للهجوم على الدولة العثمانية، وهذا فى رأيى أمر يجانب الصواب.

ج- أن يُعمل بأحكام الله ورسوله ﷺ ، وأن تكون هى المرشد. ولا ينبغى أن يُغيرها السلاطين أو أن يجددوا فيها.

د- الرأى بأن يكون تجنيب المذهب الشيعى السائد هو بداية عهد جديد للسلطنة، وقتل المرجع الشيعى لمعارضته.

هـ- ابتكار قبعة غير قبعة الصفويين وعدم التصديق بمعتقدات المذهب الشيعى.

و- تحويل أموال الأوقاف الشيعية الباهظة إلى مصارف مدنية وعسكرية وضبطها لمعرفة وجوه الإنفاق.

وفى مقابل هذا طلب من الدولة العثمانية ما يلى :

أ- أن يكون المذهب الجعفرى مذهباً خامساً ومكملاً للمذاهب السنية الأربعة وله ركن فى الحرم المكى وأن يُعين أمير للحج الإيرانى.

ب- أن يُسمح بالسفر للحجاج الإيرانيين عن طريق الشام، ويتعهد مأمورو المنافذ وولاة الأمصار بإيصالهم وحمايتهم من منزل إلى آخر.

جـ- أن يكون للدولتين سفراء فى العاصمتين للقيام على الاتصال بينهما، ففى رأيه أن إيجاد الصلح أهم من الماء والتراب، وأنه مستعد للذهاب إلى حاضرة الدولة العثمانية لتحقيق هذا الهدف(*)، وتذهيب العتبات الشيعية المقدسة وقبر أبى حنيفة.

وقد مثلت هذه المطالب شدًا وجذباً مع الدولة العثمانية، فوافقت على بعضها ورفضت البعض الآخر فى أثناء المفاوضات؛ إلا أنه لم يُقدر لها أن تتم وتدخل مرحلة التنفيذ .

(*) كان هذا الصنيع منه شبيهاً بصنيع الرئيس السادات فى ذهابه إلى تل أبيب عاصمة إسرائيل، ولكنه قياس مع الفارق.

وعندما كان "نادر" مهتمًّا بتوحيد العالم الإسلامى تحت قيادة دينية واحدة لا فرق بين سنته وشيعته كان مكترثاً أيضاً بالفهم الدينى على حد علمه الأمِّى فى نفس الوقت كما وضح له من الآية التاسعة والعشرين من سورة "الفتح" على إطلاقها من ناحية، ومن ناحية أخرى تكليفه لكاتبه ومؤرخه "مهديخان الاسترآبادى" بترجمة التوراة والإنجيل تحت إشرافه مستعيناً فى ذلك بعلماء من الديانتين وتوجيهه دعوة إلى أتباعهما بقولته المأثورة "إذا كان الرب واحداً فالأديان ينبغى أن تكون واحدة".

وإذا كان ظهور "نادرشاه" وجلوسه على عرش إيران مؤسساً للدولة الافشارية فإن هذا يُعدّ خطوة رئيسية فى سبيل توحيد المذاهب الإسلامية أو التقريب بينها على الأقل منذ ثلاثة قرون مضت أملاً فى القضاء على الفرقة بين المسلمين. ومن ثم وجب استدعاؤه من جديد ليتعرف القراء على شخصه وفكره السابق لزمنه من ناحية، وأن القدرة على توحيد المذاهب أو تقريبها على الأقل – وهى الدعوة الموجودة الآن – ممكنة إذا صلحت النوايا وأنه بالإمكان تحقيقها(*).

يُحمد إذاً له أنه أكد على مبدأ "إسلام بلا مذاهب" بعد ألف سنة من وفاة الرسول ﷺ وأنه أول مناضل حقيقى مسلم يملك ويحكم قنَّن هذا المطلب فى مواد تعاهدية مع أكبر قوة سنية عندئذ(**).

(*) سبقت "نادرشاه" محاولات فردية فى هذا الصدد منها المحاولة الجادة للسلطان "أولجايتو" يرجع إلى "فاطمة نبهان" فى بحثها بعنوان "السلطان أولجايتو بين التسنن والتشيع"، زهدى للطباعة ٢٠٠٩م، والأخرى للشاه "إسماعيل الثانى" يرجع إلى بديع جمعة وأحمد الخولى فى تاريخ الصفويين وحضارتهم، القاهرة، ١٩٧٦م وإنه كثيرا ماعُقدت لجان بهذا الشأن.

(**) كان أول عمل متكامل عن "نادرشاه" هى رسالة الماجستير التى أتمها "حاتم محمد رشاد" تحت إشرافى ونشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٤م تحت عنوان "دره' نادره" للاسترآبادى ترجمة ودراسة . وكان هذا الرجل هو مؤرخ "نادر" وسفيره ومحل ثقته. ولمَّا كان هذا الكتاب قد نفدت طبعته بمضى خمسة عشر عاماً فمن باب التحية إلى روح "نادرشاه" أقدمنا على إبراز رأى المستشرقين حوله من خلال تشجيع المركز القومى للترجمة كإحياء للتراث من ناحية وتقدير لدور "نادرشاه" فى هذا الوقت المضطرب بسبب الخلاف المذهبى بين المسلمين من ناحية أخرى.

وقد ذهب عدد من المؤرخين إلى أن ما ارتكبه "نادر" من فظائع أثناء تواجده فى الهند تراوحت بين سفك للدماء وتعذيب للنفوس فلم يمنعه هذا من اتخاذ بعض الإجراءات الإدارية لصالح استتباب الأوضاع التى تهاوت فى ظل حكم الأسرة المغولية؛ وإن كان هذا من باب العرف وليس من باب التسجيل الإدارى، كما نقل إلى إيران معالم الحضارات الهندية، ولذلك نظموا فيه هذا الشعر وترجمته :

– سيد خراسان ومليك الشرق ورائده
؛ كان عبداً وفرمانه قضاء وقدر
– خديوى ديار إيران والهند "نادرشاه"
؛ ضمير الدنيا وحاكمها الأغر
– لمّا سطع كوكب إقباله من ناحية الشرق
؛ شابه الشمس فى إشراقها على هذه الديار
– فلم يبق عنيد فى أنحائها
؛ فمن بقى هو الذى يدور هوس التمرد فى رأسه(*)

كان من الطبيعى أن يبتلى "نادرشاه" فى أخريات حياته بالعصبية وجفاف الطبع وجمود العاطفة ، ولكن بالنظر إلى الحروب التى خاضها والأحداث التى

(*) خدايگان خراسان وخسرو خاور
كه بود بنده وفرمانبرش قضاء وقدر
خديو خطهٔ ايران وهند نادرشاه
بزرگ مايه جهان پهلوىجان داور
چو تافت كوكب اقبالش از كرانهٔ شرق
چو آفتاب برافروخت روى اينكشور
نماند سركشى اندر سراسر اين ملک
كه ماند اورا سوداى سركشى درسر
وهذا الشعر للشاعر المعاصر "محمود فرخ" فى فتح دهلى نقلاً عن كتاب "سفينهٔ فرخ" وأورده "جيمس فريزر" الإنجليزى وهى قصيدة طويلة فى فتح الهند. قدوسى : المرجع السابق ص ٢٣ ومابعدها.

واجهها يصعُب ألا يقع فيما وقع فيه. ومن هنا جاء الحكم على شخصيته وفكره وأعماله بما له أو عليه.

وقد تباينت نظرات المستشرقين المعاصرين لـ "نادر" واللاحقين له فى الحكم عليه وتبيان الجوانب الإيجابية والسلبية التى طبعت فكره، ولكنها جاءت فى بعضها إيجابية فى الحكم عليه: كما فى بداية أمر "نادر" من حيث وضع أبيه هل هو صاحب منصب أم رقيق الحال ؟ وأيضاً الاختلاف فى تاريخ ولادته، وأنه كان يميل إلى التسنن. وأن مستشرقاً يُعطى معلومات أكثر من الآخر عن بعض الحوادث والأشخاص والأماكن. وفى النذر اليسير سلبية جهلاً منهم بمفاهيم المشرق؛ فمثلاً ذكر أحد المستشرقين أن طبيبه الخاص "بربازن" قال : "إن نادر حال إقامته فى عاصمة إيران السابقة – يقصد أصفهان – وكل ما يدخل فى العقل من تصور للظلم والتوحش قد تم ارتكابه بأمر منه». وسيجد القراء أحكامهم بين دفتى هذه الترجمة، ولكن يلزم القول إنها قد تقاربت فى بعض الأحيان فيما بينها وتباعدت فى أحيان أخرى [*]. وقد جاء هذا التغير بين من لازموه مثل "بربازن" طبيبه الخاص وبين من كان بعيداً عنه، والأصح طبعاً عند من لازمه وكان شاهد عيان على الأحداث. كذلك "جيمس فريزر" الذى يسجل الوقائع يوماً بيوم.

أظهر "نادر" بعد الوصول إلى هذا المنصب الكبير من حُسن الإدارة والكفاية ما هو كثير إلى حد أن الملك الصفوى فوّضه فى أمور العسكر تماماً ولم يعد يتدخل فيها أبداً. صمم "نادر" استحقاقاً لهذه الثقة التى مُنحت له على أن يشرع فى إصلاح شئون العسكر فعزل الأشخاص الذين كان يتصور أنهم لا يدينون له بالوفاء، وعين مكانهم أولئك الذين كانوا يرتبطون به. وكان يعطى رواتب العسكر بيده كلما كانت الأموال تصل إليه ويحسب لهم لباسهم بالقيمة التى كان يُثمن بها.

(*) ولزيادة التوضيح مثال الاختلاف على معدنه وطريقة قتله وأخلاقه وتفصيل الأحداث واستخدام التاريخ الميلادى من لاكهرت دون غيره كما يرى البعض من المستشرقين أن أصل "نادر" مغولى والآخر تركمانى.

كما يلقى الكتاب الضوء من خلال آراء المستشرقين على علاقات إيران وروسيا فى الحقبة الافشارية كما الوضع تماماً بالنسبة للدولة العثمانية، وأيضاً تمثل فتوحات "نادر شاه" فى الهند حقبة جديرة بالدراسة. وهذا أمر لم تتطرق إليه الدراسات التاريخية وبالتالى الاجتماعية(*).

أما "رضا زاده شفق" مترجم هذه النصوص(**) إلى الفارسية التى نقلناها إلى العربية فقد كثرت توضيحاته وتعريفاته لأنه ابن البيئة، وعليه تجرى بعض الملاحظات ومنها على سبيل المثال ما يلى:

– لم يقابل التواريخ الهجرية بالميلادية فى بعض الأحيان، وأخطأ فى حساب بعضها (***).

– استخدام الكلمات العربية التى لا تعرفها اللغة الفارسية أو هى نادرة الاستخدام أو فى غير معناها مثل : استرداد، نجار، السفلى، أعظم، انحلال، مملو، مزعج، توهمات ، دفينة، منهوبة وغيرها كثير.

– قدم كتابين لاثنين من المستشرقين، أحدهما فى اللغة والآخر فى الأدب فى صدر الترجمة، وكان عليه أن يقدم الكتب التاريخية وإن جاء هذا منه تأثراً بميله إلى الأدب.

(*) توخيت فى الكتاب الأخير للمستشرق "فريزر" تقسيم ما جاء عن "نادر" تلخيصاً إلى موضوعات تحت أرقام توضيحاً لما جاء فى ملخص فريزر.

(**) تركت تعليقات وتوضيحات الدكتور/ رضا زاده شفق تحت الأرقام التى وردت فى الهامش كما هى، أما التعليقات والتوضيحات المضافة فى الترجمة العربية فقد وضعتها فى المتن والهامش تحت نجوم لتوضيح ماهو للمترجم الفارسى وماهو للمترجم العربى.

(***) درجنا فى مقابلة التواريخ الهجرية بالميلادية والعكس على برنامج الحاسب الآلى، فما يُلاحظ أن تاريخ مقتل "نادر شاه" قد اختلف فيه المستشرقون نتيجة تحول التاريخ الهجرى بمقابلته مع التاريخ الميلادى. ولذلك آثرنا أن تكون فترة حكم "نادر شاه" مابين ١١٠٠-١١٦٠هـ/١٦٨٨-١٧٤٨م وهو تاريخ ميلاده ووفاته وقد يجد القارئ فى ثنايا الكتاب اختلافاً ما بين ١٧٤٧م بـ ١٧٤٨م وهو التاريخ الذى وضع على غلاف الكتاب.

– استخدام أفعال مساعدة على نمط واحد فى جملة واحدة مثال : قبول كردن، واستدعاكردن.

– جمع بعض الأسماء التى تدل على العاقل بـــ "الهاء والألف" خلافاً لقاعدة جمعها بـــ "الألف والنون".

هذه بعض الملاحظات التى لم نرد أن نستطرد فيها حتى لا يمل القارئ.

ولمّا كان للشخص من اسمه نصيب(*)، فكأننا بـــ "نادر" نادرة عصره وسابقة زمانه هبة من الله؛ وإلا لما أسماه أبواه "نادر" ثم دعوه "نادرقلى"، "طهماسب قلى" إلى أن صار "نادرشاه" مؤسس الدولة الافشارية.

أحمد الخولى – الجيزة

غرة صفر ١٤٣١هـ / منتصف يناير ٢٠١٠م

(*) يُلاحظ من إطراء القنصل الفرنسى "شواليه دى كاردان" الذى عاصر "نادر" وشاهده شخصياً أنه جـــدير بما يستحق من سيرة حسنة.

الديباجة الفارسية

نبذة عن "نادرشاه" بقلم دكتور "رضا زاده شفق".

طلب منتدى الآثار الوطنية بواسطة الفريق "فرج الله آق اولى(*)" والفاضل المكرم السيد "سيد محمد تقى مصطفوى" أن أجمع المطالب التى كتبها المستشرقون حول شخص "نادر شاه افشار" في كتاب، فاستجبت لهذا المطلب، وصار معلوماً من ملخص المعلومات أن هذا النوع من الكتابات يمكن أن ينقسم إلى مجموعتين: الأولى: ما كتبه الأجانب المعاصرون لـ "نادر" ودوَّنوه، ونقله يحتاج إلى كتاب ضخم. والثانية: المطالب والأخبار التى كتبها الأجانب المعاصرون لنا حوله، ولمَّا كانت هذه المجموعة من الكتابات تقوم فى استنادها الرئيسى على روايات الأوائل مع ضم الدراسات المتأخرة، فقد استقر الرأى على أن نقلها ونشرها يمثل فرصة فى التعرف على مؤلفات المعاصرين لـ "نادر" إلا واحداً من تلك المؤلفات وهو كتاب "فريزر" الذى تُرجم إلى الفارسية السلسة الصحيحة على يد الكاتب القدير والمترجم النابه "أبو القاسم ناصر الملك". ولمَّا كانت نسخ طبعته الحجرية قد نفدت، أعدنا طبع القسم الذى اتصل بـ "نادر" فى هذا الكتاب وأيضاً مقالات الأجانب المتأخرين وكتبهم والذين يندرج اسمهم فى الفهرست، ومما لا شك فيه أن أهمها وأكثرها شمولاً كتاب "نادر شاه" للمؤلف الإنجليزى الفاضل "لاكهارت" الذى يُعَدّ بحق أكثر الكتب الأجنبية تجميعًا فيما يتعلق بـ "نادر"، وقد لخصته بناء على إذن المنتدى الموقر. وأيضًا كتاب "نادر نامه" تأليف الفاضل والناقد السيد "محمد حسين قدوسى" الذى طُبع فى خراسان فى عامنا الحالى، وهو الآن بين يدى أرباب الفضل والأدب، ويمكن أن يوجد تفصيل لمجمل هذا الكتاب فى هذا المؤلف الجامع.

(*) يرجع اهتمام هذا الشخص إلى أن "نادرشاه" يدخل فى مصاف المحاربين والفاتحين الكبار كالإسكندر الأكبر ومحمود الغزنوى والأمير تيمور.

ومن ثم أجد لزاماً عليّ أن أعرب عن شكرى لصديقى السيد "سيد جعفر شهيدى"(*) الذى بذل مجهوداً فى التصحيح والطبع خاصة فهرست المحتويات وفهرست أسماء هذا الكتاب، وهو مشغول فى تصحيح وشرح كتاب "دره ٔ نادره" الذى سيطبع - إن شاء الله - بهمة بالغة وجدية وافرة.

وفى النهاية، أشكر أصحاب ومستخدمى مطبعة "تابان" وقد رغبت فى أن أنقل فى هذا العمل الأقوال التى أثبتها عن المؤلفين الأجانب، إذ هى فرصة لمقارنتها الدقيقة وإرجاعها إلى مظانها ومصادرها، على الأقل المصادر والمراجع التى وردت فى آخر كتاب "لاكهارت" و "نادر نامه" لقدوسى زيادة فى الفائدة. ولكن من أسف أن مثل هذه الفرصة لم تتحقق، فرأيت أن أحيل القراء المتفحصين إلى سائر المؤلفات الإيرانية. والله المتعال أسأل أن يجدوا بغيتهم فى مطالعة التاريخ وكشف الحقيقة.

كلمات فى شخص "نادر شاه افشار"

أحداث كبيرة تلك التى أوجدت تأثيراً عظيماً فى تاريخ إيران القديم، وعرّضت جميع أنحاء البلاد لتحولات كالسفن العملاقة التى تمخر عباب المحيطات من ناحية، وعبرت بشعب إيران مرة أخرى من دوامة أمواج الحوادث الطاغية، وأثارت الفتن، وأوجدت التخريب، وتسببت فى إراقة الدماء الغزيرة من ناحية ثانية، إلا أن الشعب الإيرانى وإن ورد هذه المحنة متداعياً متعباً فقد خرج منها حراً قوياً بظهور رجل شجاع فاتح عُرف باسم "نادر شاه".

كانت إيران قد نحت نحو التدهور وانطفأت شعلة سلطنتها الوهّاجة، وتلاشت عظمة دولة السلالة الصفوية نتيجة لانتشار الفساد والفرقة والعجز فى زمن آخر حكام هذه الأسرة وسقوط الوطن تحت أقدام العشائر المتمردة. فكان أن رفع

(*) تولى منصب رئيس مؤسسة "لغت نامه" الإيرانية فى سنواته الأخيرة، وله جهود علمية وافرة.

المدّعون فى الأنحاء المختلفة راية الطغيان فى الداخل وكان أن استولت الحكومات القوية والمعتدية فى الخارج مثل روسيا القيصرية والدولة العثمانية على الأطراف الغربية، وكان أن تسلط أشرار العشائر والمدَّعون وقطعوا الطرق واعتدوا على أرواح الناس وأموالهم.

شاء التقدير الإلهى فى هذه الفترة أن يتغير وضع إيران المتردى الذى لا يتفق مع وضعها بعد غزو المغول السفاحين، فأراد الله العظيم مرة أخرى وبهمة شعب إيران ونخوة شاب مغمور من أهل الجبال هو "نادر قلى" يعنى "عبد الله الواحد" ابن "امام قلى" بمعنى "عبد الإمام" العبور بالوطن إلى مسرح الحياة بإيمان قوى، ولم يكن لشخص أن يتوقع أن هذا الشاب البدوى البسيط سيكون له الأثر العظيم فى مستقبل وطنه الإيرانى.

كان أجداد "نادر" من عشيرة "افشار قرقلو"، وكانت قبيلته مثل سائر القبائل تقضى أوقاتها فى أنحاء خراسان من خلال حياة البداوة.

ولد "نادر" فى ٢٨ من المحرم عام ١١٠٠هـ/ ١٦٨٩م، وتولى عرش إيران فى سن الأربعين(*)، وقتل فى ١١ من جمادى الآخرة عام ١١٦٠هـ/١٧٤٧م. ويمكن القول إن أغلب الستين عاماً كانت مليئة بالنشاط الدائم والإقدام والعمل الخارق وحوادث التاريخ المهمة. ويُعد هذا الشخص من حيث صحة الجسم والجسارة والإرادة الحديدية والخبرة الحربية والدراية بمواقع العصابات ما يفوق به الرجال العاديين. والسر فى توفيقه الذى لا نظير له كان فى تمتعه بهذه الصفات التى وضعته فى مصاف الفاتحين الكبار فى التاريخ.

ومن أسف أن "نادر" شأنه شأن الكثير من المشاهير خاصة المحاربين والقادة العظام له بعض المثالب ، هذه المثالب وأهمها القسوة وسفك الدماء قد اشتدت وغلبت عليه فى أواخر عمره بعد أن سمل عينى ابنه الأكبر "رضا قلى ميرزا" عام ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م.

(*) سن الأربعين عادة يشير إلى إرهاص الحكمة عند الشخص إن لم يكن توخيها على الأقل.

هذا القائد المشهور ابتلى بهاجس سوء الظن والوحشة فى أخريات حياته، ولكن موقف المؤرخ المتفحص عندما يمعن النظر فى مطالعة الأدوار المهمة ورجال التاريخ الكبار فإنه ينظر فى الأسباب الحقيقية لتكون نتيجة حكمه صحيحة بلا إفراط أو تفريط. وفى هذه المرحلة من التفكير لنا أن ننظر فى أسباب طبعه الحسن لأنه فى حياته المليئة بالحوادث نجد أن أغلبها وقعت لأسباب خاصة :

١- فى بادئ الأمر لا محيص عن أن نعد التربية الجبلية والبدوية الخشنة ذات أثر فى سلوكياته(*).

٢- من خلال التربية الأولى التى مررنا بها كان مسار حياته والحوادث المفجعة المتعاقبة قد وصلت إلى حد يفقد معه كل شخص متزن صبره، بل كان يخرجه حتماً عن الحالة العادية. نهض "نادر" وعمره حوالى عشرين عاماً إلى الدفاع والنزال وحارب فى الأربعين سنة المتبقية من عمره الطوائف والعشائر الكثيرة والمدّعين والمتمردين على اختلاف أعراقهم، وخونة الأطراف والمتعاهدين معهم والقبائل التى كانت قد تسلطت على حكومة إيران. بالإضافة إلى تلك الجيوش الجرارة لهاتين الدولتين الكبيرتين القويتين الجارتين روسيا ودولة آل عثمان. وفى عام ١١٥١هـ/١٧٣٨م قاد الجيوش صوب شبه القارة الهندية ووصل إلى "دهلى"، ولم يسترح فى الأربعين سنة هذه خاصة الثلاثين الأخيرة منها قط، ولم يهدأ من ركوب الخيل أو العيش فى خيام المعسكرات، وإذا ما اتفق تصعيد الفتوحات مع عيد النيروز(**) كان يفسح له أسبوعاً أو اثنين ثم تُعاد الفتوحات، وإذا ما توقفت بفواصل قصيرة كان يقضيها فى بحث التظلمات والشكاوى والتوظيف والعزل، ولم يكن النوم يطاوله إلا عدة ساعات فى الليل ينامها عادة فى الصحروات، وما كاد يفرغ من حرب حتى يبدأ أخرى، ويقضى على فتنة حتى تنهض أخرى، وكما قلت: يجوز أنه كان يتألم ويتضجر أكثر من أى شىء آخر لدى خيانة بعض أصحاب

(*) الحياة الجبلية تعلم المبادئ القائمة على الفضائل فى أغلبها.

(**) هو عيد إيران القومى.

المناصب ورفقائه وجحودهم أكثر من حروبه مع الأعداء. وقد وصل احتراف الخيانة إلى حد أنهم وصموا ابنه "رضا قلى ميرزا" بعارها، وعدُّوه شريكاً فى حادثة اغتيال أبيه التى وقعت عام ١١٥٤هـ/١٧٤١م فى غابات طريق "سواد كوه". مع هذه العوامل المؤثرة والمهولة لا عجب إذاً من تردى "نادر" على الرغم من طاقته الجسمانية ومتانة أعصابه وصلابته ومثابرته التى تيسرت له. وفى النهاية اضطربت أعصابه وأدى هذا إلى أن يسىء الظن ويصبح قلقاً بل يتوحش ويعنف.

وكانت حروبه المتعاقبة مع الدول الكبرى والعشائر والأشرار لا تعتمد فقط على الساعد والعدّة والعتاد والاستعداد بل تلزمها الأعصاب الفولاذية، ذلك أن التصادمات المتوالية مع "الأوزبك" وقبائل الـ "يموت" و "التركمان" و "الأفغان" و"العرب" والترك" و"الداغستانيين" و "اللزگيين"(*) و "البلوچ"(**) وطوائف "التركستان" والمدَّعين مثل "محمود السجستانى" و "ايلبرس التركستانى" و "على قلى خان يموت" و "تقى خان" حاكم فارس و "محمد حسن قاجار" و "خوانين "خيوه وبخارا" وأمثالهم تكفى لأن يفقد الرجل أعصابه، ويصل بحكم عمله إلى أن يخرج عن طبعه ومعه الحق فى ذلك. ففى منتصف ليلة السبت الحادى عشر من جمادى الآخرة يُقتل فجأة فى منطقة "محل آباد" على بُعد فرسخين من "خبوشان" من توابع خراسان وهو يستريح فى خيمته بعد متاعب يومه على يد أولئك الذين يعيشون فى كنفه ويتولون المحافظة عليه(***).

٣- ومن أخص أحوال "نادر" التى ينبغى أن تكون محل اهتمام كل مؤرخ دقيق هو أنه على الرغم من انتسابه إلى عامة الناس المحرومين من التربية

(*) هم طوائف أفغانية أيضًا.

(**) هم سكان إقليم بلوچستان على الحدود الإيرانية الباكستانية.

(***) هل هى خيانة أم ضيق صدر بما يفعله أم طمعاً فى تولى الحكم مكانه؟ وللقارئ أن يحكم على هذه الأفكار

الصحيحة، فقد كان ذا نظرة فى التدبير والتشخيص كما يقول المؤرخون الأجانب الذين عاصروه: إنه لطيف وصاحب رؤية وذكى. والأعجب من ذلك أن هذا الرجل المحارب الرشيد لم يكن يتردد فى قراراته المهمة مطلقاً إلى حد أنى أتذكر أنه لم ينجز عملياته التاريخية الكبرى دون علة منطقية معقولة، ومهما ينتقده أصحاب الظن السيئ فلا أقل من أنه يجب أن يقبلوا أنه لم يقدم دون دليل ودون توجه عملى مهم سياسياً كان أم حربياً. وحسناً فى هذا المقام أن ترد عدة أمثلة لتوضيح هذا الموضوع .

إحدى المسائل التى تقبل الملاحظة تصرف "نادر" تجاه "طهماسب ميرزا" ابن الشاه "سلطان حسين الصفوى" الذى كان يجلس على العرش بعد استيلاء الأفغان وأسر أبيه فى ناحية "مازندران" كعقاب للدولة الصفوية، دخل "نادر" معه فى البداية فى طاعته وخضع له ولكن نيته مهما كانت فى الظاهر على هذا النحو إلا أن الأمير الشاب سلك مع "نادر" سبيل الخداع بإيعاز من بعض رجال البلاط المغرضين؛ فأضمر "نادر" فى نفسه العداء ولم يُبد فى عمله الجدية اللازمة بدوره، وصرف غالب وقته فى النزوات والترويح، وفى عام ١١٤٤هـ/١٧٣١م أراد أن يعارض العثمانيين استفادة من سطوة "نادر" ودون أخذ رأيه فى نفس الوقت مما أنزل به هزيمة شديدة فقد بها إقليم "ارس" والحدود الغربية لإيران، وعقد اتفاقية مع الفاتحين خضوعاً لهزيمته وأخرى شبيهة بها مع الروس مما أثار حفيظة "نادر" بهذه الأعمال وجعله يعترض على الأمير الضعيف ويتجاهل هذه الاتفاقيات ويطالب الدولتين برد أراضى إيران أو أن الحرب هي البديل.

هذا الوضع المؤسف للأمير الصفوى الذى كان "نادر" قد أجلسه على العرش ومعارضته له وانشغاله بالنزوات والإصرار على قبول الاتفاقيات سوغت لـ "نادر" أن يعزله، وعندما خلعه لم يعاده واختار ابنه الصغير عباس ميرزا ملكاً بدلاً منه وقبل هو نيابة العرش.

٤- من الحوادث المفجعة لسلطنة "نادر" سمل عينى ابنه الذى وقع فى عام ١١٥٤هـ/١٧٤١م. وهذا العمل لم يكن نتيجة عاطفته وحبه لسفك الدماء فهو كأى أب يحب ابنه ويعهد إليه بالمهام. اختاره عام ١١٥٠هـ/١٧٣٧م لمعاونته فى السلطنة وزاده فى المقام، ولكن الابن اغتر بالتدريج وشرع يتعالى ويتباهى حتى نهض يشكل الفرسان بعدة وعتاد السلطنة وعظمتها كى يحصّل الشهرة؛ وما ذلك إلا لأن الرغبة فى السلطنة تدور برأسه، كما كان من أعماله المخزية والظالمة قتل "طهماسب ميرزا" وأولاده الصغار فى عام ١١٥٣هـ/١٧٤٠م الذى مثل نموذجاً للقسوة البالغة وسفك الدماء والعنف، وفوق كل ذلك قال البعض بوضوح إن له نصيباً فى إثارة مثل هذا العمل على الأقل. هذه العوامل وأمثالها أوجدت عقدة كبيرة فى داخل "نادر"، وجعلت الدنيا تسودّ فى نظره، ومن ثم فنحن مضطرون أن نخفف فى الحكم على أعماله حال إبداء الرأى فيه.

٥- لم يكن وصول "نادر" إلى العرش من فراغ أو بلا مقدمات، فلدى بلوغه العام الثامن والأربعين كان قد أمضى ثمانية وعشرين عاماً بالتقريب فى النزاع والقتال مع المتمردين والمدّعين المحتلين والروس والعثمانيين لكى يسترد إيران السليبة ويحررها. وعندئذ لزم الوطن حكومة قوية وحاكم مقتدر فشرع فى إنجاز هذا الأمر المهم بأن قام على هذا العمل الذى قلّما تتحقق أمثاله فى التاريخ لدى عقده مجلس وطنى كبير فى عام ١١٤٨هـ/١٧٣٥م فى "دشت مغان" ودعا إليه أركان الدولة والأعيان وأمناء الشعب بحضور الوزراء والسفراء وأطلعهم على أوضاع الوطن وأحواله بعد أن شرح خدماته وأبدى متاعبه وأعرب عن رغبته فى التنحى وطلب من المجلس أن يختاروا ملكاً جديراً بالحكم وبصيراً.

إذاً نجده يصمم بالعزم الذى كان من سجاياه على أن يختاروا ملكاً جديراً وبصيراً بالأمور لإدارة شئون الدولة، وإذا تشككنا فى نيته فلابد أن نثنى على عمله وسعة فكره وبعد نظره؛ ذلك أنه فى خلال مائتين وخمسين عاماً مضت لم نجد أنه قد أنجز أول إقدام يشبه الحكومة الوطنية فى قارة آسيا(*).

(*) هذا الرأى يُجانب الصواب؛ ذلك أن المؤرخين يعدّون الدولة الصفوية أول دولة أقامت حكماً وطنياً فى إيران وبالتالى فى آسيا.

٦- كانت من الموضوعات القابلة للاهتمام والجديرة بالبحث والاعتراض فى تاريخ "نادر" حملته على الهند والحادث المؤسف لقتاله فى "دهلى" عام ١١٥١هـ/١٧٣٨م، فلم يكن هذا المطلب بدون قصد ولمجرد التوسع والهجوم وممارسة الحرب، فكما نعلم أن "نادر" كان يسعى منذ بدء أمره إلى القضاء على المتمردين وقطاع الطرق فى القبائل المتوحشة وسد طريق الهجوم عليهم حتى لا تُفسد جهوده ضد كر وفر هذه الزمرة. لهذا السبب كثيراً ما ذكر "محمد شاه" ملك الهند وأعوانه سواء بالرسائل أو بإرسال الوفود فلم تسد حكومة الهند الطريق على الفارّين من إيران ولم تمنعهم بهذا النحو ولم تتلق مشروعه بعناية. إذن نجده يصمم بالعزم الذى كان من سجاياه على أن يهاجم الهند، وبعد عبور طرق وعرة وخوض عمليات حربية ضارية وإخماد مواجهات ظهرت طوال طريقه ومقاومة قوة الهند العظمى التى تفوق مائتى ألف رجل وقعت حرب فى منطقة "كرنال" انتصر فيها بينما لم تكن قوته تزيد على نصف قوة العدو، بل إنه يحارب فى غير أرضه. وعلى الرغم من هذا النصر دخل فى صلح مع "محمد شاه" واستقبله باحترام فى خيمته وقلده تاج الملك وتركه يعود إلى "دهلى" بحرية وذهب هو إليها بناء على دعوته.

وفى "دهلى" أُديت صلاة الأمن والسلام. وبينما كان "نادر" بصدد الرجوع إلى إيران إذ بالمحرضين وصنّاع الفتنة الذين يسعون فى إثارة المشاكل فى كل زمان ومكان يكيدون له ويعادون الإيرانيين حتى أنهم استهدفوا "نادر" نفسه، ونهضوا يوماً إلى ذبح الإيرانيين فى تمرد بعض من أهالى المدينة إلى حد أنهم ذكروا أن خسائر الإيرانيين تجاوزت سبعة آلاف شخص، فأبدى "نادر" صبراً على الرغم من هذه الفتنة الخطيرة. وفى البداية أمر قادة العسكر أن يكونوا فى حالة دفاع وألا يرتكبوا عملاً ضد الناس، وأرسل عدة مرات إلى "محمد شاه" ورجال بلاطه حتى يخمدوا الفتنة ولكن لم يقع مطلب "نادر" موقع القبول، ولم تستطع حكومة الهند أن تمنع المذبحة أو لم ترد فأخذت "نادر" صدمة شديدة وأصدر تنبيهاً لأهل "دهلى" وحدث ما لم ينبغ أن يحدث.

٧- وفى ذكر "نادر شاه" وسياسته المذهبية لا ينبغى التغافل عن موضوع له معناه التاريخى، هذا الموضوع يدلل مرة أخرى على رشد الشخص الذى عاش فى الصحراء وسعة فكره، ولم يجد مجالاً للتعليم أو التأدب، ولم يكن ينتظر منه مثل هذا المنطق. وعلى الرغم من أنه حارب بضراوة من أجل تحرير الأراضى الإيرانية السليبة من تسلط حكومة آل عثمان فإنه أدرك فى نفس الوقت فكراً مهماً يخدم التوحيد بين المذاهب الإسلامية خاصة بين التشيع والتسنن وجعله من بين الأهداف المهمّة فى سياسته، بل إنه بحث التعاليم اليهودية والمسيحية واهتم بفهم الحقائق المشتركة بين الأديان.

ومن أجل تقوية التآلف بين الشيعة والسنة، ذهب لزيارة العتبات المقدسة وجمع مجلساً فى النجف الأشرف تشكل من علماء الفريقين، أى أنه عقد مجلساً مذهبيًا فى النجف بعد قرابة عشر سنوات من مجلسه السياسى فى "دشت مغان" وهذا الأمر كان من الأمور النادرة فى تاريخ العالم وعلى وجه الخصوص فى تاريخ الشرق الأوسط.

وعلى الرغم من وجود الوقف الخاص الذى وفّره "نادر" بالنسبة للإمام على أمير المؤمنين وسلالته جليلة القدر، وهذه حقيقة تستبين من مراسلاته الرسمية ومن اهتمامه هو وزوجته فى تعمير وتزيين ضريح الإمام الهمام وسائر الأئمة ومن تقديمه للمذهب الجعفرى فقد طلب من هذا المجلس المذهبى الكبير أنه من أجل تأمين الوحدة بين المسلمين لابد أن يتخلى الشيعة عن سب الخلفاء الراشدين وأن يُسمح لأرباب العامة أيضًا أن يُعد المذهب الجعفرى فى مصاف المذاهب السنية الأربعة، وأصدر أمرًا بأن يُصان عن كل نوع من الفكر والذكر المخالف للوحدة والأخوة وتحريك التفرقة وإثارة العداوة. هذه الدعوة على الرغم من أنها وقعت موقع القبول فى ذلك المجلس المذهبى الأعلى المشكل من علماء الفريقين فإنها لم تصل إلى نتيجة، مما أصاب "نادر" من فشل فى هذا السبيل من أسف.

٨- وعلى فرض أننا ظننا جميع النقاط الواردة فى الفقرات السابقة عدم صحتها أو تغافلناها فإن حقيقة بارزة وظاهرة فى تاريخ فكر "نادر" وأسلوبه هى أنه على الرغم من أنه برىء من أى عيب يمكن أن يصدر عنه، فقد منع إيران من التجزء والتسلط العشائرى والأجنبى بيد الدول القوية ورفع من روح أهل هذه الديار التى كانت قد امتدت فى وقت ما بين حدود نهر السند حتى البحر الأبيض المتوسط، وصارت كإمبراطورية الروم من جديد، وبرهن مرة أخرى على أن إيران من الممكن أن تقف فى وجه الخطوب الجلل مثل هجوم الإسكندر والمغول. ولكن لم يمض وقت طويل حتى انبعثت نفس من جديد تبرز بطولة قوية تحمل على العدو. وهذا هو تقويم شخص "نادر" الكبير فى تجديد وإثبات هذا الاستعداد الفطرى والقومى الإيرانى.

دكتور رضا زاده شفق

طهران بهمن ماه ١٣٣٩هـ.ش/١٩٦٠م

الفصــل الأول

تاريـخ إيـران فـى العصـر الإسـلامـى [١]

نـــادر شـــاه :

لم يجن "طهماسب" الثانى من طرد الأفغان فائدة فلم يطل الوقت حتى استبد قائده "طهماسب قلى" بمعنى "خادم طهماسب" – وهو اللقب الذى خلعه عليه – بأزمّة الأمور. فخلع فى عام ١١٤٥هـ/ ١٧٣٢م "طهماسب" بحجة أنه قد ارتكب عملاً منافياً للسيادة الوطنية بمنحه أرضاً من إيران إلى تركيا وروسيا، ولكنه لم يجلس مكانه حتى هذا الوقت، بل نصَّب ابنه ذا الثمانية أشهر باسم "الشاه عباس الثالث"، وعندما مات هذا الطفل فى ١١٤٩هـ/١٧٣٦م وجد من اللازم أيضاً أن يُظهر أن قصده ليس اغتصاب الحقوق الصفوية مطلقاً، وانتظر شهراً مثل قيصر الروم "جول سزار" الذى أصر أعيان الدولة على تكليفه بالسلطة إلى أن قبل فى النهاية تلك التكاليف بهدف مصالح الوطن، ومرة أخرى ظهر أحد الفاتحين الكبار فى التاريخ فى شخص "نادر". هذا القائد النابغة أنقذ شعبه من التدهور والانهيار فنال جيشه النصر تلو النصر والفتح فى إثر الفتح، وبالضمن خفف من نفوذ رجال الدين وراقب الأوقاف الكثيرة ، وسدت انتصاراته العجيبة فى الميدان الطريق على كل أنواع المعارضة فى هذا الصدد. وبعد أن قوى جيشه حمل على "قندهار" فى عام ١١٥١هـ/ ١٧٣٨م لمواجهة "البختياريين" الذين ينتسبون لقبائل "اللور" وسخّرها والتحق الأفغان بجيشه كما كان ينتظر، وفى هذه الأثناء ظفر بـ "بلخ" فى

---

(١) عن كتاب فقه اللغة الألمانية ، جزء ١٢، اشتراسبورج ١٨٩٦-١٩٠٤م، ص ٥٨٩، تأليف باول هورن.

نفس العام وهزم "الأزبك".

اتجه "نادر" إلى الهند عن طريق "كابل" وقد جسَّم انتصاره السهل فى "بانى بت"(*) ١١٥١هـ/ ١٧٣٩م ضد حكومة "محمد شاه" المغولى الكبير، فقد ذكروا أنه بعد هذه الحرب تشجع "نادر" عن طريق أحد أعيان الهند(**) على التقدم صوب "دهلى" إلا أن هذا الأمر غير قابل للتصديق. فلم يكن ممكناً لمثل "نادر" أن يفقد نتيجة لتوفيقاته، ولم يكن به حاجة لشخص يتعهد بثروة المغول وخزائنهم الكبيرة التى تراكمت فى العاصمة دونه. وعلى خلاف هدف "نادر" الأول صارت هذه المدينة عرضة لنهب كبير، وكانت الغنائم التى اغتنمها جيش إيران لا تُعد ولا تحصى. وطبقاً لقول "هانوى" فإن قيمة هذه الغنائم ألف وسبعمائة وخمسون مليون مارك(***) منها سبعمائة وخمسون مليون نقداً والباقى جواهر ومتاع، فقد كان عرش الطاوس يحسب بما قيمته مائتان وخمسة وعشرون مليون مارك.

وبغض النظر عن هذه الغنائم تعهد "الشاه محمد" برد أراضى ما وراء نهر السند -التى كانت تتبع إيران فى القديم- إليها مرة أخرى، واحتفل نادر شاه فى عام ١١٥٣هـ/١٧٤٠م بفتوحاته فى "هراة"، ولكن لم تطل راحته لأن أوضاع "خيوه"(****) و"بخارا" استوجبت وجوده. وبعد الانتصار فى هذه الناحية ألحق عدداً كبيراً من الأزبك بحرسه الخاص. ثم حل دور العثمانيين الذين كانوا قد استقروا فى

(*) هى إحدى مدن إقليم "هريانه" بشمال الهند، دارت بها العديد من المعارك الفاصلة فى تاريخ الهند، من أشهرها تلك المعركة التى دارت بين "بابر" و"إبراهيم اللودهى" سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٦م. وبعد انتصار "بابر" فى هذه المعركة استطاع أن يؤسس الدولة المغولية فى الهند، وأن يبسط نفوذه على شمالها كله، وظل يمارس الحكم من مدينة "بانى بت" حتى توفى، وتعد من أهم مراكز تجارة الحبوب، ومن أهم الشخصيات التى ولدت ودفنت بها "الطاف حسين حالى". أحمد محمود الساداتى: تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم، جـ٢، القاهرة، ص١٨-١٩.

(**) يعتقدون أن هذا الشخص هو "نظام الملك"، وسيأتى ذكر كثير عنه فيما يلى من صفحات.

(***) بقيمة زمانها.

(****) هى خوارزم الحالية.

أذربيجان والعراق، ولكن الإقدام عليهم كان يقتضى أن يهاجم "اللزگيين" فى "القفقاز" وهم الذين كانوا قد قتلوا أخاه "إبراهيم" فى عام ١١٥٤هـ/١٧٤١م عندما جرح برصاصة قاتله الذى كمن له، واتهم الأمير "رضا قلى" ولى العهد الذى كان محلاً لثقة "نادر" بتهمة إثارة القاتل المتهم فأصبح محلاً لسوء الظن وسُملت عيناه. ومن هذا الوقت فصاعداً وقعت حكومة "نادر" تحت ضغط سوء الظن وسفك الدماء، وكان يلائم بين انتصاراته فى الهند وبخارا وبين أعوانه المغلوبين فقط، فقد قتل حاكم " خيوه" بسبب المعارضة، وصار "نادر" بعد ذلك نهماً فى سفك دم الإيرانيين، لم يحصّــل الوطن الفائدة المرجوة من غنائم الهند الوفيرة لأنها حُفظت جميعاً فى خزينة الدولة، ولم يصل خيرها إلى الناس فى الوقت الذى بُذل فيه غاية الجهد لإصلاح الوضع الاجتماعى المضطرب ، فالمليارات الخمسة خسارة الحرب فى عام ١٢٨٨هـ/١٨٧١م التى أخذتها ألمانيا من فرنسا مثلاً عمت فائدتها بين الناس ووصلت إلى يد أصغر مستهلك ألمانى، بينما جُمدت غنائم "نادر" الزائدة فى مسقط رأسه "كلات"(*)؛ إذ احتفظ الملك بخزائنه هناك مغلقة حتى أنه لم يستخدمها فى سبيل أفكاره الجديدة، مثلاً نهض لمواصلة خطة الشاه عباس وأراد أن يجعل إيران قوة بحرية، ولكن هذا التصور بقى بلا نتيجة مثل فعل الشاه عباس؛ وذلك راجع إلى أن الإيرانيين لم يبدوا نشاطاً لهم من أقدم العصور فى مجال البحرية؛ لأن الأسطول الهخمانشى الذى كان يُستخدم ضد اليونان ومصر كان يُدار بيد الفينيقيين واليونانيين المقيمين فى آسيا الصغرى. وفى زمان الساسانيين نسمع عن التقدم البحرى فى عصر "كسرى أنوشيروان" ضد اليمن عام ٥٧٠م و"خسرو برويز" ضد مصر، ذلك أن مصر بقت لسنوات تحت تسلط إيران، ولكن لم تشهد إيران فى نفس الحملتين البحريتين –اللتين كانتا بهدف تجارى إيرانى– نجاحًا. وفى

(*) هى خامس ناحية من المنطقة التى تحدها تركمانستان شمالاً ومشهد وقوچان جنوباً وسرخس شرقاً وبجنورد وتركمانستان غرباً . انظر: محمد حسين قدوسى فى نادر نامه، خراسان ١٣٣٥هـ.ش، ص١٤

المطالب التى كان يسوقها الفردوسى(**) عن البحارة يُلاحظ بوضوح أن المعلومات الجغرافية فيها مبتورة.

وبندر عباس التى أنشأها الشاه "عباس" الأول باسم "جامرون" والتى كانت تُصلح وتعمر السفن الإنجليزية والبرتغالية والفرنسية الغاصة فيها هى نفسها التى أنهت نفوذ السفن الأوروبية ونحت بها ثانية نحو الدمار، واليوم فإن السفن(١) التى تبحر فى الخليج الفارسى هى عربية الأصل. ومن هنا فإن إقدام نادر من أجل إيجاد قوة بحرية بقى بلا نتيجة بهذا الصنيع. ومما لا شك فيه أنه لو استخدم ذهنه بإمعان فى هذا الصدد لكان يمكن أن يوفق.

واليوم فإن أحداً من حكام إيران لا يفكر فى مستقبله السياسى يمكن ألا ينتظر منه أن ينفق ثروته فى سبيل إصلاح أحوال وطنه الاجتماعية بدلاً من زيادتها وحفظها فى الخزائن، ولكن كان ينتظر بلا شك من مؤسس الدولة وشخص بعيد النظر مثل "نادر" أن يرسى قواعد هذا العمل، ولكن يبدو أن الحرص على جمع المال وصل إلى حد غلبته على كل شيء وأن هوسه بالفتوحات وما تلى موت "رضا قلى" جعله غير قادر على حرب مهمة، والظاهر أنه فقد الأمل فى مستقبل دولته على وجه العموم(*).

ظهر سخط عميق بين طبقات العامة بواسطة تهييج رجال الدين الذين كانوا قد حرموا من صلاحيتهم السابقة، كما صار حكم الحاكم الذى كان قد زاد بسبب تسامحه فى ضرائب ثلاث سنوات لدى الهجوم على الدولة المغولية فى الهند قد خبا على العكس منه فى هذه الفترة؛ فقد أصدر فرماناً بأن يأخذوا ما كان قد تسامح فيه من قبل. وفى هذه الأثناء بدا الانحطاط الداخلى للوطن متصلاً. وفى عام

(**) هو شاعر إيران الكبير.

(١) أى منذ ٦٠ عاماً قبل تأليف هذا الكتاب. (شفق)

(*) هذه هى رؤية المستشرق تجاه فكر "نادر".

١١٥٩هـ/١٧٤٦م قام "نادر" بحرب موفقة ضد الدولة العثمانية دون تمهل، فأجبر هذه الدولة على أن ترد الأراضى الإيرانية التى كانت قد اقتطعتها.

إذن إلى أين آلت خطة المساواة بين الشيعة والسنة التى كانت قد أعدت يوماً ما؟ إن السنوات الخمس الأخيرة فى حياة "نادر" مرت من خلال سلسلة من سفك الدماء الذى كان قد احترفه وعرّض من خلاله حياة الإيرانيين للظلم بمعاونة العسكر الذين كانوا من أقوام أخرى، ووضع الشيعة فى مصاف الأعداء، ثم تعقبهم بالتخويف ووصلت الأوضاع إلى حال لا يحتمل إلى حد أن وصلت إلى منازلات بين حراسه والنتيجة أن قُتل "نادر" عام ١١٦٠هـ/ ١٧٤٧م.

و"نادر شاه"، شأنه فى ذلك شأن سائر الفاتحين، كان يعد نفسه حاملاً لنوع من المهام السماوية فلم يبق على عقائده المتفرقة فى باب الدين فى حدود مذهب السنة الذى استقر التشيع فى مقابله ، بل كان يصرح بأن الدين بلا مذاهب فى مسار الأحداث وهو نوبة تعلو على المذاهب البشرية كلها، إلا أنه لم يصل إلى حد مبادئ واضحة ونهائية. وعلى أية حال لو تيسر له أن يسن مذهباً فهذا المذهب منذ ١١٥٤هـ/١٧٤١م إلى ذلك الحين كان مذهباً دمويًا.

وقد جلس ابن أخيه واسمه "على" بلقب "عادل شاه" مكانه لمدة عام على العرش، ولم يكن جديراً بهذا المنصب، ذلك أن الشاه "صفى" كان قد اختار كلمة "عادل" تخلصاً شعريًا له، وكان يأخذ على عاتقه المسئولية فى قتل "نادر" ويستشعر تحسين أحوال الناس فى ذلك. كان هذا منه بدافع مسرتهم للخلاص من قبضة شخص لم يكونوا يقولون كلمة فى الثناء عليه. وبعد نادر تحررت "قندهار" فى أقل وقت، وذهب قائد "نادر" الأفغانى أى "أحمد خان الابدالى" والذى عرف بعد ذلك بـــ "الدرانى" بسرعة إلى هناك حيث أسس دولته، وفى هذه الأثناء رفع علماء المذهب الشيعى رءوسهم، وتوارى التسنن وبالتالي وجدت نهضة ردة، وخلع "عادل شاه" بيد أخيه "إبراهيم" والذى عنون نفسه ملكاً غير أنه سقط بيد جنوده، وعندئذ كان الشخص الوحيد من سلالة "نادر" ابناً من نسل "رضا قلى" الذى كان يصل نسبه إلى

الصفويين. هذا الشخص كان اسمه "شاهرخ" نفس أسم ابن "تيمورلنگ" ظناً منهم أنه يليق بخلافة نادر. ومن أسف أن هذا الشاب كان له من العمر خمس عشرة سنة، وهُزم فى حرب مع المدّعين الذين سملوا عينيه فاكتفى بحكومة الطوائف بخراسان، وفى أواخر عام ١١٦٣هـ/ ٤٩-١٧٥٠م قبض "سيد محمد نامى"- الذى كان يصل فى النسب من ناحية الأم إلى الصفويين- على أزّمة الأمور غير أنه ما إن مضت عدة شهور حتى قتله عسكر "شاهرخ"(*) انتقاماً من سمل عين سلطانهم(**).

(*) شاهرخ ابن تيمور قد لا يعرفه الكثير من القراء جلس على العرش عام ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م، ساعدته الظروف السائدة فوسع ملكه بضم مازيدران وما وراء النهر وفارس وكرمان وأذربيجان وبذل جهداً كبيراً فى سبيل استقرار الأوضاع وإنقاذ مملكته الإيرانية من التردى الاجتماعى وإعادة الأمور إلى نصابها. انظر الدولة الصفوية ، تاريخها السياسى والاجتماعي وعلاقاتها مع العثمانيين، القاهرة ٢٠٠٨م، ص ٥ ومابعدها.

(**) كان عقاباً شائعاً عندئذ.

الفصـــل الثـــانى

عن كتاب تاريخ الأدب فى إيران

الجزء الرابع (*)

ما كاد خطر الحرب بين المهاجمين الأفغان والعثمانيين يتلاشى؛ إذ بخطر أكبر يظهر ليحيِّر الأفغان فى أقل زمن، وقد تمثل هذا الخطر فى ظهور "نادر قلى" الذى عُرف فى الأمصار بعد ذلك باسم "نادر شاه". كان واحدًا من أجسر النوابغ العسكريين الذين أنجبتهم أرض إيران. وعلى الرغم من أنه كان فى هذا الوقت له من العمر إحدى وأربعين سنة ولم يزل مغموراً؛ فإنه قد خرج من حصنه الطبيعى أى "كلات" النادرية وهزم قوة أفغانية سخَّر بعدها نيشابور باسم الشاه "طهماسب الثانى" الذى كان قد استقر فى "فرح آباد" بمازندران" حيث كان يؤيده "فتحعليخان" زعيم عشيرة قاجار لرغبة خفية فى نفسه. وصل نادر بعد هذا النصر إلى خدمة "طهماسب" وبعد أن لفت نظره أثار حفيظته وسوء ظنه تجاه "فتحعليخان" بما هيأ أسباب قتله، وبعد سنة وصل برفقة الشاه فى ١١٤١هـ/ ١٥ مايو ١٧٢٨م إلى نيشابور فاستقبلهما أهلها فى احتفال وسرور بالغين. وبعد فترة قليلة سخَّر مشهد وهرات أيضًا ، وأرسل سفيرًا إلى البلاط العثمانى الذى بعث بـ "سليمان أفندى نامى" فى المقابل إلى إيران.

فى هذه الأثناء زحف "أشرف" الأفغانى الذى كان قد أخذ يزد وكرمان على رأس ثلاثين ألف فرد صوب خراسان، ولكنه لقى هزيمة قاسية من "نادر" على مقربة من "دامغان"، كما وقعت فى السنة التالية حرب أخرى حاسمة فى "مورچه

(*) تأليف إدوارد جرانفيل براون، وهذا الحديث يقع ما بين صفحتى ٣٨-١٣٢، وقد قام الزميل الدكتور علاء الدين منصور بترجمة هذا الجزء إلى اللغة العربية ونشره المركز القومى للترجمة عام ٢٠٠٢م ضمن موسوعة تاريخ الأدب فى إيران.

خور" من أعمال أصفهان. وهُزم الأفغان مرة ثانية. وأخلوها تاركين اثنى عشر ألفاً، أما "أشرف" الذى كان قد خرَّب أصفهان فقتل "سلطان حسين" المخلوع وسيئ الحظ لدى تركه هذه المدينة، وحمل معه عددًا من نساء القصر أسرى معهم الخزينة الملكية. وعندما وصل الشاه "طهماسب" إلى أصفهان عرف أمه التى كانت قد فلتت من يد المهاجمين بتبديل الملابس كخادمة، وكان الدمع ينحدر من عينيها لما شاهدته من أوضاع مفجعة وأعمال بشعة للمعتدين.

شرع "نادر" بعد كسب إجازة الشاه فى ترتيب أوضاع الضرائب بما يتطابق مع نظره فى تعقب الأفغان والتقدم صوب الجنوب فلحق بهم على مقربة من "تخت جمشيد" وهزمهم، فيمّم أشرف وجهه صوب موطنه قادمًا من شيراز؛ إلا أن الجوع من ناحية وصدام الناس فى المناطق من ناحية أخرى ضيّق عليه الخناق فتفرق عسكره واضطر إلى ترك ما سلبه من أصفهان، وقُتل فى النهاية على يد جماعة من البلوچ. وعلى هذا النحو انتهى تسلط الأفغان العنيف على إيران فى عام ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م أى بعد ثمان سنوات.

أعمال نادر حتى مقتله فى ١١٦٠هـ/ ١٧٤٧م

إن كان "نادر" حتى عام ١١٤٩هـ/١٧٣٦م لم ير صلاحًا فى قبول تاج السلطنة فإنه كان فى إدارة الأمور يعتبر الحاكم الفعلى لإيران. والبحث عن أسرته المتواضعة، وبداية أعماله هنا كثيرٌ ورد شرحه بالتفصيل وحتى الإمكان فى صفحات كتاب "هانوى" و "ملكلم" والمؤرخين الإيرانيين؛ إذ كان "طهماسب" ليس فعّالًا فى الحكم. والعمل الوحيد الذى أقدم عليه هو الحرب ضد العثمانيين التى انتهت بهزيمته هزيمة قاسية عام ١١٤٤هـ/ ١٧٣١م ذلك أن تبريز وهمدان قد سُلبا، وعقد فى العام نفسه صلحًا مخزيًا تخلى بمقتضاه عن جورجيا وأرمينيا للعثمانيين بشرط أن تساعده هذه الدولة على أن يخرج الروس من "جيلان وشيروان ودربند". غضب "نادر" من هذا الإقدام وجاء إلى أصفهان وأسر

"طهماسب" بالحيلة وحدد إقامته وعُيِّن بدلًا منه ابنه ذو الستة شهور باسم "عباس الثالث" ملكًا على إيران. وأرسلت على الفور رسالة تهديد إلى "أحمد باشا" فى بغداد وأُعلنت الحرب بعدها. وصل "نادر" بعد تسخير "كرمانشاه" فى ١١٤٥هـ/١٧٣٣م على رأس ثمانين ألفًا إلى مشارف بغداد ولكنه هُزم وتقهقر إلى همدان، وشرع فى ترتيب قواته وجمع المزيد من العسكر ثم عاد ليهزم العثمانيين فى خريف العام نفسه وعلى وجه التحديد فى شهر أكتوبر من خلال قتال ضار. وقُتل القائد "طوبال عثمان" باشا الذى كان محاربًا شجاعًا. وفى أثناء العودة أسكت التمرد الذى كان قد نهض لصالح الشاه "طهماسب"، وفى عام ١١٤٧هـ/١٧٣٤م هاجم "جرجيا وتفليس وگنجه وشماخى" واسترد من روسيا كلا من "جيلان وشيروان ودربند ورشت" ثم هزم العثمانيين مرة ثانية بجوار "ايروان" فى ١١٤٨هـ/١٧٣٥م وسخَّر "ارضروم".

فى نوروز ١٨ ذو القعدة ١١٤٩هـ/ ٢١ مارس ١٧٣٦م حضر "نادر" فى جمع مع العسكريين والمدنيين وأعلن وفاة الشاه "عباس الثالث" وطلب منهم أن يتخذوا قرارًا فيما يتعلق بعودة أبى الشاه المخلوع أو يختاروا ملكًا جديدًا وكانت نيته تتفق مع أكثر الأعيان وأركان العسكر دون الإفصاح عنها، بينما كان المعارضون يشكلون أقلية خائفة مرتعدة، وعلى هذا الأساس اختير ملكًا بإجماع الآراء، وقَبِلَ هذا التكليف بثلاثة شروط عبارة عن أن تُوَرَّث السلطنة فى أسرته، وألا تعود الأسرة الصفوية مرة أخرى للحكم، وألا يساعد أحد المدّعين الذين يظهرون من هذه السلالة، وأن يُقلع عن سب الخلفاء الثلاثة ومجالس التعزية(*) وسائر مراسم الشيعة الخاصة. وكان هذا الشرط الثالث غير مقبول فى الذوق

(*) التعزية يطلق عليها بالفارسية "تعزيه خوانى" وفيها تُرتَّل الأشعار والأناشيد والأدعية ذات الصفة الحزينة تأبينًا لرجالات الشيعة الذين قُتلوا فى مشاهد موجعة، مثل مقتل الحسين وكذلك مناسباتهم الدينية كعاشوراء، وقد اعتبرت التعزية إرهاصًا لظهور فن المسرح عند الإيرانيين فى العصر الحديث.

الإيرانى، بل إن المرجع الشيعى عندما أجاب عن السؤال الذى وُجّه إليه قائلًا بوضوح : "إن هذا الموضوع على خلاف واقع المقاصد الإسلامية"، فكانت روحه فداء لهذه الكلمات، إذ خُنق على الفور بأمر من "نادر" الذى لم يكتف بهذا العمل بل خصص جمع الأوقاف الشيعية للصرف على عسكره لدى وصوله إلى قزوين وقال: "إن إيران بحاجة إلى قوة حربية أكثر من حاجتها إلى الملالى(*)"، وأقر "نادر" فى أواخر العام صلحًا مع العثمانيين استردت إيران بمقتضاه كل الأراضى السليبة.

توجه "نادر" في شهر ديسمبر على رأس مائة ألف صوب أفغانستان والهند، وعهد بنيابة السلطنة إلى ابنه "رضاقلى" وشخّصت أكبر فتوحاته الحربية فى السنتين التاليتين؛ ذلك أنه سخّر لاهور ودهلى لدى تواجده فى الهند، وعاد بالغنائم الوفيرة التى كان قد أخذها وهى بتقدير "هانوى" سبعة وثمانون مليونًا وخمسمائة ألف جنيه إنجليزى. وبعد أن أخذ فى طريقه قندهار وكابل وبيشاور فى عام ١١٥١هـ/ ١٧٣٨م عبر نهر السند واستولى على لاهور، وهزم جيشها الكبير الذى كان قد تمركز فى صحراء "كرنال" بتعداد يصل إلى مائتى ألف جندى أو يزيد(**)، واحتل مدينة دهلى بأسلوب سلمى، ولكن ما إن مضت عدة أيام إلا وقُتل عدد من جنوده فأعطى أمرًا بإعمال القتل العام انتقاما؛ فقتلوا عشرة آلاف من الساعة الثامنة صباحًا حتى الثالثة بعد الظهر، وحمل "نادر" الذى لم يكن لديه عزم البقاء غنائم حربية عديدة، وأبقى "محمد شاه" فى سلطنته وهدده بأنه سوف يعود إلى الهند ثانية إذا لزم الأمر. عاد نادر إلى الوطن فى شهر مايو منتصراً، واستولى على "خيوه وبخارا" فى شعبان ١١٥٢هـ/ نوفمبر ١٧٣٩م بهدف تنبيه الأزبك.

(*) الملالى جمع "ملا" وهو رجل الدين الشيعى.

(**) يذهب البعض الآخر من زملائه المستشرقين إلى أن تعداد الجيش قد تجاوز الثلاثمائة ألف.

قُتل "طهماسب" المسكين فى "سبزوار" على يد "رضاقلى" هو وعدد كثير من أفراد أسرته فى غياب أبيه فتجاوز الابن بذلك حدود تثبيت المقام الذى كان أبوه قد عهد به إليه، ولما وقعت حادثة اغتيال "نادر" صار محل سوء الظن من جانب أبيه فأمر بحرمانه من نعمة البصر فأدار هذا العمل الظالم ظهره للحظ الباهر الذى حالف "نادر" الفاتح الكبير، وكان أن وقع محلًا لنفور العامة بسبب القسوة والاستبداد وفرض الضرائب وربما ما هو أكثر من ذلك من حض الإيرانيين على قبول المذهب السنى يومًا بعد يوم، ومن بدعه ترجمة معانى القرآن(*) والإنجيل، ولدى مجيئه إلى طهران أمر أن يقرأوا له ترجمة الإنجيل التى كانت قد تمت بواسطة جمع من المسيحيين فأبدى وجهة نظره بلحن ذى استهزاء بأنه إذا أتيحت له الفرصة سيسنن دينًا جديدًا. وربما كان ذلك منه تقليدًا لـ "أكبرشاه"(**) حتى يخلف دين اليهود والمسيح والإسلام. وبالضمن كانت عملياته الحربية تنحو نحو الضعف أيضًا فلم يتحقق المقصود فى حربه ضد اللزكيين التى وقعت فى عامى ٤-١١٥٥هـ/١-١٧٤٢م، ولم يستطع أن يستولى على الموصل فى الحرب ضد العثمانيين فى عام ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م، وأسكت تمرد فارس وشيروان بمشقة بالغة وسفك دماء زائد، وعلى الرغم من ذلك ينبغى القول بأنه وضع حدًا لعصيان القاجاريين عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م وهزم العثمانيين فى حرب "ايروان" عام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م وعقد صلحًا موفقًا معهم عام ١١٥٩هـ/ ١٧٤٦م. ذهب نادر فى العام التالى إلى كرمان وأنزل بأهلها ضغوطًا شديدة وجبا ضرائب ثقيلة وتقدم منها إلى مشهد فوصلها فى نهاية شهر ربيع الثانى ١١٦٠هـ/ مايو ١٧٤٧م. وهناك كان له ما أراده من تنفيذ خطته فى قتل قادته وجنوده الإيرانيين" كان أكثر جنوده يتشكلون من الأزبك والتركمان وكانوا سنة"، لكن أبلغ غلام جرجى هؤلاء

(*) المقصود ليس القرآن الكريم وإنما التوراة بمعنى أنه أمر كاتبه الخاص أن يشرف على ترجمة التوراة والإنجيل باعتبارها كتب سماوية بواسطة عدد من أتباع هاتين الديانتين، وفى هذا خلاف بين "براون" وغيره من المستشرقين الذين اعتمد عليهم فى كتابته.

(**) هو من ملوك الدولة المغولية فى الهند وصحتها الدولة التيمورية أو البابرية على الأقل.

بهذه الخطة فسبقوا نادر طبقًا للمثل القائل "أتغدى بيه قبل أن يتعشى بى" إذ اتفق من يُدعى "صالح بيگ نامى"(*) بمساعدة أربعة آخرين موثوق فيهم على تنفيذ هذه المهمة، ودلفوا ليلًا إلى خيمته لينهوا بالخيانة حياة الشخص الذى خلَّص فى بداية أمره الوطن من الأفغان، وبالتالى تحمل عبئًا أثقل وقتلوه على نحو مأساوى وله من العمر واحد وستون عامًا بعد إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر فى عام ١١٦٠هـ/ ١٧٤٨م فى السلطنة. جلس ابن أخيه "على قليخان" تحت لقب "عادلشاه" مكانه ولكنه قُتل فى العام التالى على يد أخيه إبراهيم الذى قُتل هو الآخر بعد عام أى فى سنة ١١٦٢هـ/١٧٤٩م على يد مؤيدى حفيد "نادر" "شاهرخ" ابن "رضاقلى" من أم صفوية هى ابنة "شاه سلطان حسين"، ولم يتخلق هذا الشاب الجميل بالأخلاق الإنسانية أيضًا من الطالع الشؤم فسملت عيناه بعد مدة على يد "سيد محمد نامى" الذى كان يتصل فى نسبه بالشاه "سليمان الصفوى الثانى" من ناحية الأم، وخُلع وحُرم من البصر، وأعطى مكانه إلى "شاهرخ" مرة أخرى فى خضم الاضطراب الذى كان قد ساد كل أنحاء الوطن وخُلع، ثم نُصب مرة أُخرى وحكم خراسان اسما، وكان هذا الوضع على هوى "أحمد خان الابدالى" الذى عرف بعد ذلك بـ "أحمد خان الدرانى" والذى كان يريد أن يوحّد الحكومة بين إيران وأفغانستان.

وقد استمر حكم "شاهرخ" كفيف البصر دون حادثة تُذكر. وقد عاش حتى عام ١٢١٠هـ/ ١٧٩٦م وحكم لخمسين عامًا.

(*) يقولون له محمد صالح خان.

الفصل الثالث

اتصال نادر بالشاه طهماسب

عام ١١٣٩هـ/١٧٢٧م[١]

ما إن تخلص الحاكم الأفغاني من خوف الأتراك في هذا الوقت حتى واجه خطرًا أكبر وكان من أسباب ضعفه أنه لم يظفر بتسخير مدينة قندهار. وقد تسبب هذا الأمر في أن يتوقف سيل الأفغانيين المتدفق صوب إيران تقريبًا. والواقع أنه لعجيب أن يحدث هذا بعد التسلط على أصفهان، ذلك أنه لم يحدث إقدام من جانب العشائر الأفغانية إلا نفرًا قليلًا ولّوا وجوههم شطر إيران، وفي هذا الوقت كان الشاه طهماسب قد اختار "فرح آباد" من توابع "مازندران" مقرًا لسلطنته. فكان أن استشار "نادر" الطالع فإذ به يفتح آسيا ويكسب شهرة خالدة، فالتحق ببلاط "طهماسب" واجتمع حوله خمسة آلاف من المحاربين الافشار والأكراد فحشد "فتحعلي خان" القاجاري ألف جندي أيضًا لهذا السبب وكان العدد يزداد وفي الواقع كانت أن بدأت ردة فعل قومية.

فتح خراسان على يد "نادر قلي"

كانت أول أعمال "نادر" أن حض الشاه الشاب على ضرورة الهجوم على خراسان التي كانت مدنها "مشهد" و"هرات" تحت تصرف الملك "محمود" وسائر الأفغانيين الأبداليين[*] وأن يقطع الطريق على "فتحعلي خان" مؤسس السلالة

---

(١) عن كتاب تاريخ إيران، تأليف سايكس ، جزء ٤، ص ٣٨-١٣٢. (شفق)

(*) هذه الطائفة من حيث العدد تزيد على الطائفة الغلچائية، فكانوا ستين ألف نسمة وكلهم أفغانيو الأصل، وقد رحلوا من مسكنهم الأصلي في كابل إلى هرات. قدوسي ، مرجع سابق، ص١١.

القاجارية والذى كان ينافس على قتله(*). والظاهر أن هذا العمل كان قد تم من جانب الشاه فنصَّبه قائدًا للجيش. وفى هذه الحملة على خراسان انتصر المحاربون الصفويون وأخذوا مشهد وهرات كما سيرد ذكره. ومن هذا التاريخ شرع نادر يحظى بالمزايا ومن ضمنها منحه لقب "طهماسب قلى خان".

هزيمة الأفغان فى منطقة "مهماندوست" عام ١١٤١هـ/١٧٢٩م

خلال هذه الأوضاع فإن "أشرف"(**) الذى كان يدرك الهزيمة قد جرب طالعه فإذ به أمام حرب حاسمة فكان أن انشغل بتجميع جنوده، ولكن بحكم التمرد فى مسقط رأسه من ناحية وضرورة رعاية سراياه فى المعسكرات المتعددة ولم تكن تتجاوز الثلاثين ألفًا نصفهم من الأفغان من ناحية أخرى، وبفعل الانتصار الذى كان قد حققه هؤلاء الجنود أمام الأتراك منذ فترة قليلة كان لزامًا أن تقوى روحهم المعنوية.

اجتهد "نادر" فى أن يقنع الشاه فى أن تُخلى أصفهان من وجود الأفغان، ودخل هذا الرأى العاقل فى مرحلة التنفيذ، وعندما لاحظ أشرف الزيادة المستمرة فى قوة إيران قرر الهجوم على خراسان، وحتى لا تضيع الفرصة وتتوفر أى من الحيل وقعت أول المعارك بين الطرفين فى "دامغان" وكان أول نصر من نصيب الأسلحة الإيرانية فى مقابل العدو الأجنبى يعنى أن الإيرانيين وقفوا بعد نوبة ظلام وتدهور.

هاجم الأفغان فى جلبة مهولة إلا أن عسكر "نادر" لم يتقهقروا بل إن مشاته ومدفعيته أوقعتا خسائر فادحة فى صفوف العدو، ففصل أشرف بسرعة جزئين من الجيش ليلتفا حول العدو من اليمين واليسار، أما هو فحمل بنفسه على جبهة القتال،

(*) شاهد المؤلف ضريحه فى جوار مشهد

(**) هو رئيس الأفاغنة، الدولة الصفوية ، ص ٢٣، القاهرة ١٩٨١م

ولكن "نادر" القائد كان أكثر تجربة من ذلك فسمح بأن تنفذ تدابير خاصة بل إنه دفع بالهجوم ثم أعطى الأمر بالزحف العام، وهزم الأفغان الذين كانوا قد يئسوا بسبب قتل حامل العلم وقائدهم وفروا تاركين مقر قيادتهم خلف ظهورهم صوب طهران فى حالة من الاضطراب والتشتت.

والظاهر أن أشرف وصل فى يومين إلى هذه المدينة بعد قطع مسافة قدرها مائتا ميل ومكان الحرب معروف باسم "مهماندوست" وذلك الاسم هو للنهر الذى كان قد فُصل الجيشان عنده.

الهزيمة الثانية للأفغان فى "مورچه خور"(١) سنة ١٤٤١هـ/١٧٢٩م :

انسحب العسكر المهزومون إلى أصفهان، وهناك وضع "أشرف" أموال الأفغان وأسرهم فى قلعة ثم تمركز فى "مورچه خور" التى تبعد ستة وثلاثين ميلًا عن المدينة وعزم هناك على أن يجهز لحرب حاسمة إنقاذًا لعرشه، فحث "نادر" الشاه طهماسب على أن يبقى فى "دامغان" وأن يسلك هو طريق الجنوب إلى طهران وكان الناس يلتحقون به على قارعة الطريق من كل ناحية ويسمونه منقذ إيران ويطالبونه بالمساعدة فى القضاء على المعتدين. وصل نادر إلى جموع الأفغان ووجدهم فى موقع حصين وإن كان عددهم قليلاً، ولم تتحمل العشائر المنتصرة المصاحبة له أن يناقشوه فى أن الحرب قد اندلعت، وأن الأفغان الشجعان يحاربون وأنهم منوا بخسائر عددها أربعة آلاف قتيل وهربوا إلى أصفهان، وشرعوا هناك يستعدون للحرب مرة أخرى، وأنهم لذلك سرّبوا أموالهم وعيالهم من أصفهان إلى شيراز، وأن أشرف قتل السلطان "حسين" الذى كان بدون سلطة فعلية قبل الرحيل.

---

(١) هذا هو اللفظ العادى وهكذا قال به المؤرخون المعاصرون لـــ "نادر". ولكنه ورد فى عالم آراى عباسى وبعض الكتب الجغرافية "مورچه خورت". (شفق)

استرداد أصفهان :

لم يتعقب "نادر" الجيش المهزوم لأسباب غير معلومة إلى أن سمع خبر فرار الأفغان من هناك وأمر البعض أن يدلفوا إلى المدينة ويسيطروا على القصر الملكى، ووصل هو بعد ثلاثة أيام، ولدى وصوله نبش الناس قبر "محمود"(*)، وأخرجوا رفاته وألقوا بها فى أماكن القمامة بأمر من "نادر" الذى لم يأت فى خاطره أنه من الممكن أن يعاملوا قبره بنفس المعاملة يومًا ما. فى هذه الأثناء التى كان الشاه طهماسب قد تحرك فيها من "دامغان" إلى طهران قاصدًا أصفهان بعد رحيل "نادر" عنها بمدة قصيرة. فإنه – كما قالوا – عندما شاهد القصور الصفوية المختلفة انساب الدمع من عينيه وبدا مشهدًا مثيرًا كان عبارة عن ترحيب الأم بمقدم ابنها الشاه الذى صار من المعلوم أنها كانت تعيش فى أصفهان لسبع سنوات كخادمة مغمورة وأنها كانت تفى بمهمتها.

فرار الأفغان الأخير عام ١١٤٢هـ/١٧٣٠م :

مُنحت فرصة كافية للأفغان فى شيراز لتجديد القوى، وعلى الرغم من أن الشاه "طهماسب" كان يعطى أمر تعقبهم، كان "نادر" يريد منه فى نفس الوقت أن يختص بوضع الضرائب لأن مثل هذا الاختصاص للقائد تسليم بالقدرة له. وفى البداية تردد طهماسب ولكنه وافق فى النهاية. وعندئذ اتجه نادر عازمًا على قتال الأفغان واصطدم بمواجهتهم فى منطقة "زرقان" على بعد عشرين ميلاً من شيراز هجم الأفغان الغلچائيون(**) ولكنهم تزحزحوا من مواقعهم أمام قصف مشاة "نادر"

(*) هو محمود بن أويس رئيس الأفغان الغلچائيين. محمد حسن قدوسى : مرجع سابق، ص٤٤.

(**) سكنت هذه الطائفة الأفغانية نواحى قندهار وتعرف فى نفس الوقت بـ الغلزائيين.

وهزموا بهجومه وعادوا إلى شيراز فى عدة ساعات بلا متاع، وطلب "أشرف" أن يعقد اتفاقًا مع "نادر" من أجل انسحاب الأفغان ولكن الأخير أجاب بأنه طالما لم يسلم الأفغان قائدهم فسوف يقتلون. قبل خانات الأفغان الغلچائيون المطلب غير أن أشرف هرب فجأة مع مائتين من أعوانه فكانت هذه الموقعة علامة على تفكك جيش الأفغان الذين ولّوا وجوههم فرادى وجماعات إلى قندهار(*) من طرق مختلفة. أما تتبع الإيرانيين لهم فقد صار دليلًا على التوفيق لأنهم كانوا يكتشفون هذا العدو من أسنام الجمال وأجساد الشيوخ والأطفال، ذلك أن الأفغان أنفسهم يخافون من أن يقتلوا على قارعة الطريق بانتقام من فرسان إيران.

موت "أشرف" ١١٤٢/١٧٣٠م :

فى هذه الأثناء ثار أهل "لرستان" و "كرمان" أيضًا، ولمَّا رأى "أشرف" أنه لا يستطيع الحفاظ على نفسه حتى فى مثل هذه الولايات النائية عزم على أن يرحل إلى مسقط رأسه عن طريق "سجستان"(**) مضطرًا، ولكن قبائل "البلوچ" التى كانت قد اتفقت مع الأفغان وهيأت نفسها للغارة فى وقت ما على هذه الجماعة وأوقعتها فى حبائل الهزيمة، وقتلت "أشرف" الذى كان قد فقد الطريق فى صحراء "لوت" هو وأحد خانات البلوچ واثنان من مرافقيه وأرسلوا رأسه برفقة ماسة كبرى كانت قد وجدت معه إلى الشاه طهماسب. ومن المسلَّم به أنه قد سُرَّ لمشاهدة قاتل أبيه وقد لقى جزاء عمله.

(*) كانت فى القديم جزءًا من إيران وأهلها آريون فى الأصل وتقع بين إيران والسند، فكانت تخضع حينًا للهند وآخر لإيران ولكن منذ حكم الشاه عباس الأول حتى عصر السلطان شاه "حسين" كانت تتبع إيران.

(**) انظر كتاب : سجستان بين العرب والفرس، دراسة تاريخية حضارية للتعرف أكثر عن أثر هذا الإقليم فى التاريخ الإسلامى، القاهرة ١٩٨٢م.

كان "أشرف" بدوره قد خرج على عهده ، ولم يكن سوء حظه منبعثًا فقط من أخطائه بل كان نتيجة لأوضاع كان يريد أن يتسلط عليها، ولمّا لم يوفق؛ كان الموت ينتظره. وهو يُعد من سائر المهاجمين المعدودين الذين استطاعوا أن يجدوا خلاصاً، وقصد جماعة هربت عن طريق البحر، ولكن ما إن وطأت أقدامهم أرض "البحرين" حتى تفرقوا بفعل الناس وبعد ذلك شوهدت بقايا منهم فى "مسقط" اعتراهم الاضطراب زمنًا.

فرار الأفغان :

هكذا غرق الأفغان فى بحر من الدماء. صحيح أنهم صاروا جديرين بفتوحات قليلة والتحقت بهم على إثرها عشائرهم بأعداد زائدة. وبهذا الوضع كانوا يستطيعون أن يقفوا مقاومين فى مقابل البعث الوطنى الإيرانى. ولكن لمّا تفوق أسلوبهم الوحشى فى التسخير والقتل والتخريب فلم يكن هناك تقبل لأى نوع من الإدارة الحكومية(*). إذن كانت جبلة هؤلاء المهاجمين تتمثل دائما فى جماعات صغيرة تروح وتجيء فلم ينصلح حالها حتى تحت قيادة مثل "أشرف". ومن ثم لم يستطيعوا الثبات أمام عسكر "نادر"(**).

(*) تعبير الإدارة الحكومية هذا تعبير كبير أطلقه المستشرق بفكره الذى قد يكون معتادًا عليه فى بلده، غير أن ديار إيران وما حولها لم تكن تصلح للإدارة الحكومية وإن وجدت فهى على شاكلة الحكم العرفى الذى يتولاه شيخ العشيرة على أساس أن هذه المناطق مناطق قبلية تجمعها عشائر متضاربة.

(**) عسكر نادر هؤلاء أفراد جمعهم "نادرشاه" من قبائل مختلفة وسنجد منهم الكردى والأزبكى والأفغانى والافشارى تحت صفات مختلفة منها الشجاعة والقدرة على الكر والفر والنهب والسلب والغارة والارتباط بشخصية البطل والإعجاب به.

الفصــل الرابــع

جلوس نادر على عرش إيران(١)

نحن أمام رجل بداية أمره بل إن ولادته تحفها ظلمة بالغة من الصعب تبينها. هذا الرجل تقفى كل الوسائل فى إثر هدفه عزما وثباتا، وهيأ نفسه بكل تصميم وبصيرة فصار صانعًا لطالع مستقبله، وعندئذ نظم خططه بتطبيق لا يقبل النصب إلى حد أنه وضع قارة آسيا فى خضم الوحشة مثل سائر الفاتحين من قبله فصار حاكم المشرق.

١

مسقط رأس ومولد "نادرقلى"

ولد وتربى "نادر شاه" آخر فاتح آسيوى كبير فى خراسان وكان يعدُّ هذا الإقليم دائمًا موطنه، وقد تيسَّرت لى رؤية مسقط رأسه "وكلات نادر" وسائر الأماكن المتعلقة بقبيلة افشار الكبيرة، بل لقد حصلت لى فرصة التعرف بأعقابه. ومن هذا المنطلق أستطيع أن أروى قصصًا وأساطير حول هذا البطل مازالت سائدة فى خراسان حتى اليوم، وقد سمعتها من أصدقاء إيرانيين عديدين.

"نادر قلى" هو عبد الله الواحد ذلك أن كلمة "نادر" إحدى صفات الله. وهو ابن "إمام قلى" وأحد أفراد قبيلة قرقلو المغمورة التى كانت تنتمى إلى عشيرة أفشار القوية، ومسقط رأس "إمام قلى" كان فى قرية تعرف بـــ "كوبكان" تقع جنوب محل

---

(١) يقابل الفصل ٧٠ فى كتاب سايكس – نقلا عن كتاب "هانوى" حول نادر شاه. (شفق)

الله أكبر الواقعة بين طريق "قوجان ووادى گز". كان هذا الرجل يرتدى لباسًا من جلد الخروف ويقضى حياته فى الطرق بعدد من الماعز والخراف يمتلكها وهو فى الصيف قريب من قريته وفى الشتاء يرعاها فى النواحى الشمالية. وفى حدود عام ١١٠٠هـ/١٦٨٨م انتقل "امام قلى" وزوجته من ارتفاعات الله أكبر إلى جوار أراضى "ابيورد" المنخفضة ونزلا فى قصبة "محمد آباد"[١] وكان أن ولدُ هناك مليك إيران القادم.

أسر نادر وخلاصه :

كان "نادر " يقضى شبابه فى الرعى بحمار وجمل بعد موت أبيه وهذا كل ما تمتلك الأسرة[*] وعندما بلغ سن الثامنة عشرة حُمل هو وأمه أسيرين على يد جماعة من قطاع الطرق إلى "خيوه" حيث قضى هناك أربعة أعوام ماتت أمه خلالها وهرب "نادر" الشاب بحيلة ووصل إلى خراسان بلا مال، وهناك عمل فى خدمة "بابا على بيگ أحمد لو افشار" الذى كان حاكمًا على "ابيورد" وكانت هذه المدينة فى ذلك الزمان مقر حاكم هذه الولاية[٢].

تنصيب نادر فى أبيورد :

كما شرحنا سابقًا غادر الملك "محمود" أصفهان لطالع توقعه ووجد فرصة فى التمرد الذى كان قد حدث فى مشهد واستولى على هذه المدينة[٣] وحتى يطمئن

(١) تسمى محمد آباد الآن بـ "كلاكهته" وتبعد عن المدينة الجديدة بمسافة ميل. (شفق)

(*) وهذا يفسر اهتمامه بالمال والجواهر التى احتفظ بها فى مسقط رأسه كلات بعد غزوه الهند واستيلائه على غنائمها فكأنه هو الذى أوجد لإنجلترا مثل هذا الحق فى التاريخ الحديث.

(٢) أبيورد أو باورد هى الآن خراب ومكانها على مقربة من أطلال قصر بجوار سكة حديد آسيا الوسطى. (شفق)

(٣) كان الملك محمود من أهل سجستان وكان نسبه يصل إلى الكيانيين. جمع قوة وحمل على گلناباد من توابع أصفهان وبكل أسف فإنه بالحرص على الجاه والوعد بحكومة خراسان غفل عن واجبه الوطنى وبدلًا من طرد الأعداء أسرع إلى حكومة خراسان. (شفق)

لتسخير هذه المدينة المقررة أعد لنفسه تاجًا على طريقة الكيانيين واستقر حاكمًا مستقلًا ومؤسسًا لقوة مكونة من المشاة والمدفعية والفرسان النظاميين. وطبقًا للاتفاق كان أمر الموظفين يأتي إلى "أبيورد" في غياب "بابا علي بيگ". ولما نسبت إلى أسرته سوء المعاملة فإن "نادر قلي" قتله بدون تباطؤ جزاء لتصرفاته، ذلك أن "بابا على بيگ" وجد أن عودته ستضعه في وضع سيئ إلا أن "نادر" حضر بكل جرأة إلى مشهد ليذهب إليها بشخصه. وهناك صرح أن حق الخدمة كان يقتضي أن يدافع عن رئيسه بشرف الأسرة، فلم يسامح الملك محمود "نادر" فقط بل منحه خلعته. ولم يمض كثير وقت حتى تزوج "نادر" ابنة رئيسه فكانت أمًا لابنه "رضا قلي" الفاشل. وبعد موت "بابا على" الذي كان بناء على رواية من فعل "نادر" نفسه أن تولى هو حكومة "أبيورد".

٢

نادر في خدمة الملك محمود :

في هذه الأوقات استمر هوس الترقي عند هذا الرجل الذكي صاحب العزم السريع، وفي هذه الأثناء أيضًا استخدمه "الملك محمود" بهدف الهجوم على الأزبك فصار فاتحًا مشهورًا ولكنه تزيّد أكثر من طلبه حكومة خراسان التي كان قد وُعد بها فوقع الغضب فنبه وأبعد، غير أن التجارب التي حصّلها في قيادة الفرسان المنظمين والمدفعية والمشاة لاشك أنها أثرت في مسلكه القادم.

تسخير كلات ونيشابور :

احترف "نادر" بعد طالع النحس هذا حرفة قطع الطريق مثل سلفه يعقوب ابن ليث الصفار(*). وقد أدى استعداده وتوفيقه إلى أن يجتمع الناس حوله، فجمع

(*) هو مؤسس الدولة الصفّارية في المشرق الإسلامي. راجع كتاب سجستان بين العرب والفرس، دراسة تاريخية حضارية، القاهرة ١٩٨٢م.

قوة كبيرة فى أثناء الهرج والمرج الذى كان قد حدث بعد سقوط أصفهان، ووضع نظامًا للضرائب فى خراسان وسيطر على كلات. وفى تلك القلعة الحصينة أحكم نفوذه، ومن هذا الوقت اشتهرت باسم "كلات نادر" قلعة نادر ولم يعد لـ "نادر" غير زعامة جماعة من قطاع الطرق فكان أن بسط نفوذه فى كل مكان.

ولم يكن "نادر" ليكتفى بهذا الوضع، ولذلك عزم على أن يحمل على نيشابور التى كانت فى حراسة جنود "الملك محمود" بعد تسخير كلات فغافل فى البداية ستمائة شخص كانوا مكلفين بجمع الإمدادات وشتتهم ثم أدخل القسم الرئيسى للقوة المكلفة بالحراسة فى كمين وقضى عليهم. وفى النهاية فتحت نيشابور بوابتها له وسخّرها باسم الشاه "طهماسب" ودخل بعد ذلك فى دائرة أتباعه.

أحلام نادر:

كانت الرغبة فى الجاه عند "نادر" تتصاعد وذات مرة رأى فى المنام أنه قد اصطاد سمكة لها أربعة قرون وأن هذا كان إشارة إلى تسخير أربعة أوطان. ثم رأى ثانية أن سيدنا عليًا يمنطقه بالسيف ويعده بملك إيران.

تسخير مشهد وقتل الملك محمود:

كان تسخير مشهد بحاجة إلى قوة كبرى أمّنها "نادر" بالنسبة للأسرة الصفوية. فى البداية حدثت تصادمات كثيرة، وفى إحدى الحروب صار النصر من نصيبه، ولكن مشهد لم تستسلم بهذه الطرق. وأفادت الخيانة "نادر" أى أنهم فتحوا إحدى بوابات المدينة له وأدخلوه إلى وسط المدينة وكان "الملك محمود" يحارب وهو مستسلم فهُزم، وبعد أن دخلت مشهد فى تصرف "نادر" سلّم محمود نفسه. وفى البداية سمحوا له أن يعيش فى حجرة فى صحن مسجد الإمام الثامن ولكن عندما تبين أنه يسعى إلى الفتنة والإثارة قُتل بأمر من "نادر".

مكافأة فى مقابل طرد الأفغان :

كان "طهماسب" فى الظاهر جاهلًا بخصال قائده الكبير إلى حد بعيد، غير أن طرد الأفغان الذى سبق أن نوهنا عنه سابقًا كان أهم من أن يُقدّره بالأسلوب العادى. ومن ثم وجد الشاه نفسه مضطرًا إلى أن يعهد إليه بحكم خراسان وسجستان وكرمان ومازندران إضافة إلى لقب سلطان. كان "نادر" أذكى من أن يقبل هذه الامتيازات فسك العملة باسمه ووزعها بين جنوده. وهذا المسلك هو فى ديار المشرق دليل على الارتباط بالحاكم.

٣

مواجهة نادر الأولى مع العثمانيين :

بعد أن قضى نادر على المهاجمين الأفغان اتجه بفكره صوب الأتراك، كان الوضع حادًا على أشده؛ لأن أذربيجان كلها والقسم الأكبر من العراق كانت قد دخلت تحت تصرف السلطان. والواقع أنه كان أسوأ من الوضع فى زمان الشاه عباس؛ لأنه تسلط على كل المصادر الإيرانية كملك قادم فى الوقت الذى لم يكن أمر "نادر" مع وجود الشاه طهماسب خاليًا من التعقيد. انتهت أول مواجهاته بالتوفيق لأنه هزم الجيش العثمانى على مقربة من همدان واسترد العراق وأذربيجان وحاصر ايروان ولكن وصل خبر فى هذه الأثناء أن فتنة فى خراسان قد اندلعت فتعوق الحصار وقطع ألفا وأربعمائة ميل صوب المشرق كى يسيطر على هرات.

حرب طهماسب الفاشلة مع الأتراك عام ١١٤٤هـ/١٧٣١م :

عزم الشاه "طهماسب" على أن يذهب إلى الميدان من أجل الحرب ضد العثمانيين بشخصه فى إثر التقدم الذى قد تحقق لـــ "نادر" الصاعد ولم تكن هزيمة الجيش العثمانى خالية من التأثير فى وضع الديار العثمانية، ذلك أن الإنكشارية خلعوا السلطان "أحمد" الثالث ونصّبوا مكانه السلطان "محمود" الخامس فأرسل "نادر" موفدًا إلى السلطان، غير أن "طهماسب" حاصر "ايروان" مرة أخرى قبل أن تتحقق نتيجة. والنهاية أنه انسحب من القلعة وهُزم من جيش تركى فى "قوريجان" بجوار همدان وتكبد خسائر فادحة، والنتيجة أنه خسر ما كان "نادر قد حققه فى خلال شهر، وعقد اتفاقا مع الأتراك فى السنة التالية يُعلن بمقتضاه نهر "أرس" أرضًا إيرانية وعثمانية ويُعهد بموجبه بأرض "گنجه وتفليس وايروان ونخجوان وشماخى وداغستان" إلى العثمانيين على أن يحتفظ هو بـــ "تبريز واردلان وكرمانشاه ولرستان". وفى هذا الاتفاق الذى تكون من ثمانين مادة وردت مواد بخصوص زيارة مكة وتأسيس قنصليتين فى كل من استانبول وأصفهان ومطالب أخرى، ولكن لم تأت إشارة إلى الأسرى الإيرانيين.

٤

خلع الشاه طهماسب عام ١١٤٥هـ/١٧٣٥م :

كانت هزيمة طهماسب هى الحجة التى أرادها "نادر" فأصدر بداية بيانًا يعلن فيه أنه يعترض بشدة بالغة على الحلف الإيرانى العثمانى. وهذا جزء منقول عنه :

" لمّا كان السنّور[١] المذكور ملكًا لزمن على غير رضا الله عز وجل وعلى خلاف الدولة الخالدة، لهذا لم تتوفر لنا الموافقة.

من هنا فإن القبضة المشوقة إلى الطواف بروضة الملائكة الطوّافة بحضرة أمير المؤمنين ومولى المتقين غالب كل غالب على بن أبى طالب الآخذ بتلابيب القلب والمستخلص لأسرى المسلمين تسأل العتبات الأحدية"[٢].

وبعد ذلك أصدر المكاتبات إلى حكام الولايات حول رفض الحلف، وهدد جميع الأفراد المرتشين الذين يعارضون الحرب بالبعد عن المذهب [*] والقتل من أجل هذا المقصد.

وفى نفس الوقت اتخذ خطوة أخرى وأرسل موفدًا ممثلاً له إلى استانبول محملًا بالرسالة الآتية على نحو مختصر "إما أن تردوا ولايات إيران أو تستعدوا للحرب".

أثار "نادر" الناس ضد الشاه بهذه الأعمال وذهب هو إلى أصفهان، وهناك قرر أن يوبّخ طهماسب ثم أسره وأرسله إلى خراسان تحت المراقبة، ولمّا لم ير عندئذ أن الوقت ليس مناسبا للجلوس على العرش مارس فكرًا شرقيا قديما؛ أى أنه أجلس الابن الطفل لـــ "طهماسب" مكان الأب حفاظًا على الشكل، ونصّب نفسه وصيًّا على السلطنة.

---

(١) السنّور بكسر السين وتشديد النون كلمة عربية وجمعها السنانير بمعنى القط. (شفق).

(٢) الترجمة التى أتى بها المؤلف ليست كاملة. (شفق).

(*) كان الانتقال من مذهب إلى آخر ممكنًا فى ذلك الوقت.

٥

الحرب الأولى ضد العثمانيين :

حرب كركوك عام ١١٤٦هـ/١٧٣٣م :

بدأت ثانى حروب "نادر" ضد العثمانيين بمحاصرة بغداد ذلك أن قائدها "أحمد باشا" تهيأ لمقاومة يائسة لدى هزيمته فى الميدان. وفى هذه الأثناء تغير الوضع بمجيء جيش قوى تحت إمرة "طوبال عثمان" فقسم "نادر" قواته إلى قسمين على خلاف المصلحة، ووضع اثنى عشر ألفًا فى خنادق جبهة بغداد وتقدم هو لمواجهة الأتراك صوب كركوك على مقربة من سامراء، وكانت هذه الحرب من أشد الحروب بين الشعبين.

المواجهة ضد جيش مجهز :

فى البداية تقدم الإيرانيون وتمكنوا من إنزال الهزيمة بالفرسان الأتراك ولكن فرار الفرسان العثمانيين لم يزلزل مشاتهم الأقوياء فعدّلوا من وضعهم وانتظر "نادر" المساعدة من بعض مشايخ العرب ولكن لم يهبّوا إلى نجدته. وبالتدريج نحا طالع الحرب نحو هزيمة الإيرانيين وأصيب جواد القائد الإيرانى فى مقدمته وسقط، كما هرب حامل رايته بزعم أن قائده قد قتل. وقد حدثت هذه الحادثة نتيجةَ الحرب، ذلك أن جنود إيران منوا بالهزيمة بعد ثمان ساعات من بدايتها ولدى وصول هذا الخبر إلى بغداد كانوا قد قضوا على جيش إيران المنكسر، فانسحبت القوة الأصلية بتوزع وتشتت إلى أن وجدت مأمنا فى جوار همدان بعد قطع مسافة مائتى ميل.

وبالضرورة كان وضع "نادر" بعد هذه الهزيمة حساسا إلى حد كبير ولكنه تدارك الموقف، وبدلًا من أن يؤنب جنوده شجعهم على تعديل أوضاعهم لتعويض الهزائم بجميع الوسائل الأخرى. وكانت شخصية "نادر" تتسم بقدر عال إلى حد أن يأتي إليه المتطوعون من كل مكان في الوطن فاستعدوا بعد ثلاثة أشهر من الهزيمة النكراء التي كان قد ابتلى بها لكي يعود مرة أخرى.

انتصارات إيران في مواجهة "طوبال عثمان باشا" عام ١١٤٥هـ/١٧٣٣م:

بعد هذا النصر الساحق اختال القائد التركي بنفسه في استانبول، وانقطع عن تقوية قواته وتفوقها، وبناء على ذلك كانت مناقشاته ضعيفة في البداية ولمّا لم يكن الجبن من طبعه أدلف فرسانه حتى يواجهوا الإيرانيين على مقربة من "ليلان" بجوار نهر دجلة، وهنا تفوق الفرسان الإيرانيون مثل الحرب السابقة غير أن الفرسان الأتراك اصطحبوا معهم في هذه المرة المشاة في وقت الفرار وقتل "طوبال عثمان باشا" الذي كان على رأس قيادته وبذلك توارى جيش الترك.

تقدم "نادر" بعد تعويض هزيمته إلى بغداد من خلال انتصاره الساحق غير أنه في هذه الأثناء نما إلى سمعه نبأ عصيان في فارس فعقد صلحًا مع "أحمد باشا" وعاد مضطرًا وهاجم فجأة "ميرزا محمد تقي خان بلوچ" الذي كان زعيمًا لجماعة من الأشرار وأسره وحمله إلى شيراز حيث انتحر هناك.

انتصارات إيران في "بغاوند" عام ١١٤٨هـ/١٧٣٥م :

امتنع السلطان العثماني عن توقيع الاتفاقية التي كان والي بغداد قد عقدها مع "نادر"، وأرسل جيشًا جديدًا تحت قيادة "عبد الله كوبرلو" إلى بغداد. حاصر "نادر" تفليس وايروان وكنجه بلا تباطؤ، وكانت فكرته أن يجر العثمانيين إلى حرب شاملة. وكان هذا العمل من "نادر" صحيحًا ذلك أن "عبد الله" قد حفر خنادقه

فى قارص واتجه هو على رأس ثمانين ألف جندى إلى "ايروان"، وهاجم الإيرانيين الذين كانوا قد عسكروا فى صحراء "بغاوند" غير أن قوة إيران ظفرت بنصر حاسم على الرغم من أنها كانت أقل فى العدد، وهرب الجنود الأتراك بعد الخسائر الفادحة إلى حد أن "عبد الله" نفسه كان من بين القتلى، ودخلت "تفليس وگنجه وايروان" فى حوزة الإيرانيين ضمن غنائم هذا النصر، وخضع البلاط العثمانى بهذا الدرس المر الذى تلقاه لشروط اتفاقية بغداد وإخلاء ولايات ساحل بحر الخزر(*) من جانب الروس.

توارت السياسة التوسعية الروسية بعد موت "بطرس الكبير" وقررت الملكة "آنا" ومشاوروها أن يخلوا الولايات الإيرانية بإدراك التغير فى أوضاع إيران والتى كانت فى غير صالح روسيا، وهكذا ردّوا "مازندران واستراباد" اللتين لاتزالان تحت التسلط الروسى إلى إيران طبقًا لاتفاق "رشت" عام ١١٥٤هـ/١٧٣٢م.

وبمقتضى الأخبار الإيرانية أرسل "نادر" الحجة إلى القائد الروسى بأن يغادر الأراضى الإيرانية وإلا سيطرد الموظفين بالقوة. أُوفد سفير من موسكو إلى مجلس "نادر" ولكنه امتنع عن استقباله وكان أن استوقف بجانب المعسكر حتى استدعاه "نادر" ذات يوم بينما هو يفترش الأرض بيد ولباس يشوبهما الدم ويأكل الخبز، سأل السفير عن سبب إحضاره أجاب "نادر" : كنت أريد أن ترى كيف آكل غذاء خشنا بيدين ملوثتين بالدماء وأن تقول لحاكمك إن مثل هذا الشخص لن يسلم "جيلان" مطلقاً(**).

(*) بحر الخزر هو بحر قزوين.

(**) ربط الجديد بالقديم؛ يذكرنا هذا الصنيع من نادر بصنيع الملك فيصل رحمه الله لدى استقباله لوزير الخارجية الأمريكية فى أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣م فى بيت من الشعر مكانه آخر القصر، وهو يصطحب معزة على طريقة غاندى وقال لكيسنجر عندما هدده بوقف إنتاج البترول أجابه «نحن على استعداد لأن نعود إلى حياة الخيام ثانية». وخرج الوزير الأمريكى وهو يردد: هذا شخص يصعب التفاهم معه.

تسليم "باكو" و "دربند" إلى "نادر" عام ١١٤٨هـ/١٧٣٥م :

أدركت دولة روسيا بعد ثلاث سنوات من إخلاء ولايات بحر الخزر أن الحرب مع العثمانيين غير قابلة للتأجيل ، فاستفاد "نادر" من هذه الفرصة وأخطر روسيا أنه إن لم ترد "باكو" و "دربند" فإنه سيعقد مع الأتراك اتفاقاً؛ مما جعل روسيا تقبل مضطرة، وردت المنطقتين اللتين كانتا آخر فتوحات "بطرس الكبير"، غير أن سياسته فيما يتعلق بمنع الأتراك من الوصول إلى بحر الخزر قد استمرت وإن لم يقلق هذا الأمر بال "نادر".

٦

جلوس "نادر" على العرش عام ١١٤٨هـ/١٧٣٦م :

اغتنم "نادر" الذى كان قد وصل إلى قمة الاقتدار فرصة موت الشاه الصغير ليصل إلى هدفه فى كسب التاج والجلوس على العرش، فدعى كبار الدولة للاحتفال بعيد النيروز فى "دشت مغان". هذه الصحراء المبهجة والمعروفة التى تمتد من ناحية "أردبيل" حتى نهر "كور". خاطب "نادر" – بكل وسائل القدرة التى كان قد اكتسبها – الموجودين وكلفهم باختيار ملك جدير من بين الأمراء حتى يجلس على العرش حارسًا لإيران. وعلى النحو الذى كان ينتظره اتفق الجميع على اختياره ليجلس هو على العرش ولكنه امتنع فى حدود الشهر عن القبول ثم انتهى الأمر بالموافقة فى النهاية توافقًا مع الحضور. وبهذا النحو انتهت هذه المسرحية.

غض الطرف عن تعاليم الشيعة :

بجلوس "نادر" على العرش فكر فى أنه يجب على شعب إيران ترك المذهب الشيعى الذى كان الصفويون قد أقروه وأن يعود مذهب السنة ثانية، وعلى هذا النحو كتب : « لقد شرع ملك العالم المستعان الشاه "إسماعيل الصفوى" فى بادئ الأمر وبناء على صلاح دولته فى التخلى عن المذهب السنى ونشر المذهب الشيعى، ولم يكتف بذلك بل إنه سلك مسلك السب والرفض للخلفاء الراشدين حيث كان ذلك عملًا أهوج وأساسًا للمفاسد التى جرت على ألسنة وأفواه العامة والسوقة ومحركًا لشرر شرارة حجر النار وخلطها معًا ومزجًا لتركيبة شعب إيران بدم الفتنة والفساد(*). وطالما هذا الأمر الذميم قد شاع وأن هذه المفسدة لن ترفع من بين أهل الإسلام إلا إذا أراد شعب إيران سلطانًا لهم برغبتهم، وعليهم بحب هذا المذهب المخالف لمذهب الأسلاف الكرام والسادة العظام اتباع مذهب أهل السنة والجماعة، لكن نظرًا لأن حضرة الإمام "جعفر الصادق" من ذرية الرسول وممدوح الأمم وأهل إيران عارفون بمذهب هذا الإمام فإننا سنجعله زعيم مذهبنا وإمام طريقتنا فى الفروع والتقليد»(**).

وبناء على رأى "هانوى" أوصى المجتهد الكبير "نادر" بأن يكتفى بالأمور العرفية، ولكن موته المفاجئ ذكّر رفقاءه بدرس مفاده أن يتوقفوا عن المعارضة. إذن قبل التغيير فى المجمع الكبير كما هو متفق عليه وإن كان يُظن أن أكثر الحاضرين يضمرون مخالفة التغيير. أعلن "نادر" أنه من الأفضل أن يضاف المذهب الجعفرى كمذهب خامس للمذاهب السنية الأربعة لكى ينقص من حجم الإقدام الجديد. ومع هذا التغيير الأساسى كان مأمولاً فى أن ينسى شعب إيران

(*) هذا يدل على فكر "نادر" المستنير.

(**) حاتم رشاد فى "دره" نادره" للاسترآبادى ، مرجع سابق، ص١٨، ١٩.

السلالة الصفوية المشهورة، وأن يقتنع بفكر عالم إسلامى متحد بانضمام الممالك العثمانية، إلا أنه ما إن مضت مدة على هذه العقيدة العامة بأن "نادر" هو الشخص الجدير بالحكم فى المملكة سرعان ما اندثرت العلاقة مع أسرته وكان حماة أعقابه معدودين.

تتويج نادر شاه :

فى قاعة مجللة صُنعت خصيصًا فى ساعة سعد حددها المنجمون المشهورون وضع تاج السلطنة على مفرق "نادر شاه" وجلس على عرش مطعّم بالجواهر، ووقع محل سعادة الناس واحترامهم، وضُربت السكة بذكرى ذلك اليوم صيغ عليها هذا البيت :

- رُقم على السكة بالذهب اسم السلطنة فى الدنيا ؛

نـــادر ديـــار إيـــران والمليك الآخـــذ بالدنيـــا [1]

وعلى هذا النحو كان أن خلّص راع افشارى بنبوغه العسكرى إيران من الأفغان والأتراك وسائر المهاجمين بل حققه. وبذلك جلس على عرش "كوروش"[*] و "الشاه عباس"[**].

---

(١) نقلت هذه الترجمة الإنجليزية لهذا البيت من كتاب (سكه ملوك ايران) تأليف ستانلى بولR.S. Poole ولم أجد أصله فى "تاريخ جهانگشاى نادرى" ووجدته فى كتاب روسى فيما يتعلق بـــ "نادر شاه" تأليف "كشمشوف" وقد ترجم بواسطة مصطفى موسوى (نسخة المكتبة الوطنية) إلى اللغة الفارسية. وعلى الوجه الأخر من السكه كُتبت عبارة: "الخير فيما وقع" التى تعطى تاريخ جلوس "نادر" أيضاً. (شفق)

(*) هو مؤسس أول دولة فى إيران فى تاريخها القديم.

(**) هو باعث نهضة الدولة الصفوية بعد فترة من الضعف والتردى، وإليه يعود ازدهار هذه الدولة ومجدها.

٧

فتوحـــات نادر شـــاه

تجهيز الجيش لتنبيه البختياريين :

لاشك أن "نادر شاه" كان قد عزم على التوسع قبل أن يجلس على العرش، وبغض النظر عن ذلك كان مضطرًا لأن ينظر فى أن وضعه مرهون بالجيش ويلزم له تقدمٌ أكثر للحفاظ علىٰ عسكره، ذلك أن الأعداء لهم قوة كبيرة وثابتة ولا يكفيها إيرادات إيران نفسها.

أول زحف لـــ "نادر" تم بعد التتويج كان ضد قبائل البختياريين، هذه القبائل التى قتلت حاكمها منذ عدة سنوات، فهاجم "نادر" ديارهم بدليل أن "تاريخ جهانگشاى نادرى " يعدّ الطريق إليهم صعباً.

وفى ذلك المكان استسلم البختياريون الأشداء الذين فقدوا القدرة على المقاومة أمام قوة "نادر" العظيمة ونقل ثلاثة آلاف أسرة بختيارية إلى خراسان عقابًا لهم. وفى هذه الأثناء حمل "نادر" مرة أخرى لإخماد فتنة كانت قد نشبت فى جزء من ديارهم، وفرّق شملهم فى أنحاء الجبال. وهنا أدرك "نادرشاه" أن سبب الغارة عند البختياريين هو الفقر مثل ما عليه طوائف الشمال الغربى فى الحدود الهندية. وبناء على هذا التفكير فإن "نادر" عهد إليهم بالأراضى التى فى حوزتهم بعد قتل زعيم العشيرة وسائر الأسرى، وثبّت عددا من محاربيهم ضمن أتباعه، وكان هذا الصنيع منه من باب السياسة التى أعطت نتيجة طيبة.

الزحف إلى أفغانستان عام ٥٠-١١٥١هـ ٣٥-١٧٣٧م :

كانت "قندهار" تحت ولاية "حسين" أخي "محمود" فاتح أصفهان، ولمّا لم يكن قويًّا وقادرًا على مواجهة ثمانين ألف جندى تحت إمرة "نادر" فى الميدان فقد تمركز فى المدينة، وكانت لديه الذخيرة الكافية بل له قوة الاستطلاع القوية. وبعد أن تعرف نادر شاه على الوضع وجد أنه بدون المدافع القوية سيكون الهجوم على المدينة من الصعوبة بمكان فأعطى الأمر بحصارها ودعمه بكافة الوسائل العملية بمعنى أنه استحدث خطًا من الأبراج بطول ثمانية وعشرين ميلًا حول المدينة وجهزه بنظام مسلح بالبنادق إلى حد أن انعزلت "قندهار" عن كل اتصال بالخارج، وظلت المدينة تقاوم لمدة عام حتى أعطى نادر قرارًا باتخاذ عمليات أكثر. ولأن "قندهار" تستقر على هضبة وكانت تدافع من نواحٍ مختلفة عن طريق قلعتها فقد استطاع المهاجمون أن ينفذوا من بعض هذه الأبراج بالتدريج ويصوبوا المدافع منها بجهد شديد، وحسَّن أهلها من وضعهم بالاستيلاء على واحد من أهم الأبراج، ولم تكن "قندهار" عندئذ تحت تصرف "نادر" الذى تصرف بحنكة متأنية وأدخل جمعًا من الأفغان أنفسهم فى صفوف قواته حتى يؤدوا له ما يرغب بحكم الصداقة. وفى النهاية هرب "حسين" واستسلم بعد ذلك وأُرسل إلى مازندران تحت المراقبة ونُقل عدد كبير من "الغلچائيين" إلى نواحى "نيشابور" وأُحضر جمع من "الابداليين" إلى "قندهار".

لم يكن حصار "قندهار" مدعاة للفخر بالنسبة إلى نادر لأنه بقى فيه مدة عام دون أن يتخذ وسائل فعَّالة أخرى، وتدل الحوادث على أن المدينة كانت غير قابلة للنفاذ، وكان فتحها من الممكن أن يتم بعمليات أكثر حسماً.

زحف "رضا قلى ميرزا" صوب بلخ :

اتجه "رضا قلى ميرزا" الابن الأكبر لـ "نادر" من خراسان صوب "بلخ" فى جيش من اثنى عشر ألفًا من صفوة الجنود للهجوم عليها؛ ذلك أن حاكمها كان قد أعطى وعدًا بالمساعدة إلى "حسين" استسلمت من خلاله "بلخ" التى لقبت بـ "أم البلاد" بعد ثلاثة أيام لم تنقطع الحرب الضارية فيها، وتقدم "رضا قلى" من هناك عابرًا نهر "جيحون" وهزم جيش "الأزبك" المكوّن من أربعين ألف فرد فاستدعاه "نادر شاه" لأنه لم يكن يريد أن يقع أسيرًا لهذا المكان المتقاطع، فأرسل رسالة إلى أمير "بخارا" قائلًا : إنه أمر ابنه ألا يستثير حافظة أهل تلك الأماكن فسلطنتنا سليلة "چنكيزخان" من ناحية ودوحة أسرة "التركمان"[1] من ناحية أخرى.

من اليقين أن وضع الهند فى عام ١١٥١هـ/١٧٣٨م كان يتأتى على لسان "نادر" من حيث زحفه على "دهلى" خلال شهور محاصرة "قندهار"، وكان هذا الأمر نتيجة العمليات الحربية الموفقة فى ديار الأفغان، وبناء على ذلك يجدر أن تقال كلمات عدة فيما يتصل بوضع الهند.

تصادف أن من أواخر الحكام المغول على الهند "اورنگ زيب"، وكانت ممتلكاته تمتد بين "كابل" حتى "خليج البنغال" عند موته فى عام ١١١٩هـ/١٧٠٧م. ولمّا كانت كل الهند فى الحقيقة باستثناء الجزء الشمالى المسمى بـ "الدكن" تحسب على أنها تابعة له بينما كان الجنوب من ممتلكاته محاصرًا بقلاع ومدن عدة وكانت تحت حراسة قواته، وبعد موته انقسمت شبه القارة الهندية، ذلك أن طوائف "المارتين" التى كانت تحدث المشاكل فى زمان "اورنگ زيب" نفسه بالكر والفر وتأخذ الخراج منه عادت لتزيد من قوتها.

---

(١) ترجم المؤلف نفس العبارات السالفة التى جاءت فى تاريخ نادرى كجزء من حوادث تسخير بلخ. (شفق)

كان عام ١١٣١هـ/١٧١٩م عندما جلس "محمد شاه" على عرش الهند وكان من غير الأسوياء خلافًا عن المغول الكبار، ولم يكن هذا الرجل المتبلد والمحب للشهوات يمثل شيئًا ذا قيمة مقابل "نادر" الجسور واليقظ؛ ذلك أنه لم يكن يفرغ من الكأس ومجالسة المعشوقات، وبالتالى فإن عسكره المتهاون لا جدارة لهم مقابل عسكر إيران. ومن المؤكد أن الخيانة كانت تعمل عملها بينهم وأن بعضًا من أعيان الهند كانوا يخبرون "نادر" عنها وبذلك يُضعفون بها عمل القادة وحُراس القلاع.

المخابرات والاستطلاع:

كان "نادر" قد أخبر بلاط "دهلى" بزحفه على أفغانستان طالبًا ألا يسمحوا للهاربين الأفغان باللجوء إلى حدود الهند، وأخذ مبعوث "نادر" "عليمردان شاملو" وعدًا فى هذا الصدد من بلاط الهند، وهكذا كان شأن المبعوث الآخر عن حال الهاربين الذين لجأوا إلى "كابل" و "غزنه". ولكن عُرف أنه لم يصدر قرارًا نهائيًا من أجل منعهم. أرسل "نادر" موفدًا آخر يعترض ولكنهم احتفظوا به فى "دهلى". وكانت الأخبار عن حصار "قندهار" على هذا النحو: إنه بعد انتهاء العمل وانبساط يد "نادر" فى تحرك قولته إلى أى مكان يريده قد بعث بثلاثة من ممثليه طالبين ردًا حاسمًا أو عقد صلح. وفى هذه المرة كتب "نادر" رسالة غاضبة إلى الملك المغولى، ولكن الرسول قُتل بواسطة "ولد مير عباس" حاكم "جلال آباد" فسار معلومًا أن مشاورى الملك لا يدركون خطورة الوضع، وكانوا يتصورون أن "قندهار" لن تسقط، وإذا ما عاد أكراد إيران إلى مراكزهم كما كان يظن "محمد شاه"(*) فإن المهاجمين المغول لن يقووا على عبور نهر "جيحون".

(*) ذُكر لقب محمد الخوارزمشاه في المتن، وحتى لا يوجد خلط بين مؤسس الدولة الخوارزمشاهية ومحمد شاه الهندى آخر حكام المغول الذى حدثت فتوحات نادر فى عهده ، فقد آثرنا أن يبقى الاسم على حاله.

٨

الهجوم على الهند :

اتجه "نادر" من "قندهار" صوب الشمال حيث "كابل" واستولى على رأس الطريق إلى "غزنة" وأبدت "كابل" مواجهة عن طريق ممر "خيبر"(*) الذى هو البوابة الترابية الرئيسية إلى الهند، غير أنها استسلمت فى النهاية، وحُصّلت غنائم حرب وفيرة عبارة عن أموال إضافة إلى كونها أسلحة وجواهر، كما بُذلت جهود من أجل إعداد الجنوب.

إذا كان التقدم من خلال هذا التوفيق رغم مقاومة العشائر القاطنة حول مدخل "خيبر" هادئًا جداً، فإن "نادر" أخذ "بيشاور" قبل أن يعرف المنافقون الجبناء بالحوادث فى "دهلى" وعبر نهر "السند" من ناحية "اتوك".

حرب "كرنال" عام ١١٥١هـ/١٧٣٨م :

فى أثناء هذه الفترة اضطرب "محمد شاه" فى الواقع، وكل ما امتلكه من قوة وتقدم صوب صحراء "كرنال" وتمركز هناك على ساحل "جومنه" على بُعد ستين ميلًا من "دهلى" وجلس ينتظر فى استرخاء الجيش المهاجم الذى كان يعبر "البنجاب" عندئذ ، وعرف "نادر" بقوة المعسكر الهندى، فكان أن اعتراه بعض التشكك، ذلك أن "محمد شاه" قد استدرك الموقف ووضع قوة مساعدة من الاحتياطى عددها ثلاثون ألف جندى تحت قيادة "سعادت خان" أحد الأمراء. ولدى الوصول إلى مقربة من "محمد شاه" أصر على أن يبدأ عملياته الحربية قبل أن يتوزع الجنود

(*) ممر خيبر هذا يلعب دوره الجغرافى فى الحرب بين الأفغان ودول التحالف فى وقتنا الحالى..

لنفاذ الذخيرة، وعندما سمع أن قسمًا من ستة آلاف كردى قد فتحوا الهجوم حمل عليهم وساقهم إلى الخلف، ثم أقدم الطرفان بالإمدادات اللازمة واندلعت الحرب الشاملة واستخدم "نادر" أسلوب زرع الأكمنة هذه المرة بكفاءة، وهُزم "سعادت خان" وأُسر كما جرح قائد كبير آخر وجفلت الفيلة من كرات النار، وبذلك هُزم الجيش الهندى الكثيف فى الوقت الذى كان قسم صغير من الطرفين يخوض العمليات عندئذ.

ووصف "نادر" نفسه لهذه الحرب فى الرسالة التى كتبها إلى ابنه ومن حسن الحظ أنها بين أيدينا، ويجدر بنا أن يُنقل شرح لها : « دارت المعركة ساعتين ولساعتين ونصف على الأكثر، شرع جنودنا الفاتحون فى تعقب العدو وأُخلى ميدان الحرب من وجود العدو قبل الغروب بساعة، ولكن لمّا كانت استحكاماتهم قوية وخنادقهم محكمة لم يكن ممكنًا أن نعطى أمرًا بالهجوم، وصارت من نصيبنا خزائن كثيرة وواحد وسبعون فيلاً وجزء من المدفعية الملكية، وغنائم أخرى مختلفة(١)، وقُتل عشرون ألف معتد منهم بينما كان جمع كبير قد أسر. وبعد تحقيق هذا الفتح الكبير أمرنا بمحاصرة عسكرهم من الجهات الأربع حتى يُسد رأس الطريق على الفارّين، وأمرنا فحملوا المدفعية والمجانيق على مسافة من خنادقهم ومهدوا تلك التى حفروها فى المقابل. ولما انتهى عمل تلك الجماعة شاهدوا أن العمل قد توقف بمجىء "نظام الملك" من طرف "محمد شاه" بفاصل يوم الخميس الموافق ١٧ من ذى القعدة إلى معسكر "فاتح العالم". ووصل "محمد شاه" أيضًا مع الخانات والأمراء المحليين الآخرين إلى البلاط المختار، وفى وقت مجيئه لمّا كان الملك من التركمان وسليل سلسلة "الجرجان" أمرنا(٢) أن يكون "نصر الله ميرزا" خارج المعسكر المجلل فى استقباله، وأدخلوا الملك المذكور وأودعوا خاتم السلطنة موكب الملك.

---

(١) ترجمت هذه العبارة عن المتن، ولكن لم أجدها فى "فتحنامه' نادرى" التى طبعت فى "مخزن الإنشاء". (شفق)

(٢) نقلت الجمل ذات القوسين التى وردت فى النص الإنجليزى عن "مخزن الإنشاء" والتى لا تنطبق ثانية أما الترجمة والمتن فكلاهما صحيح. (شفق)

ويحب الإيرانيون أن ينقلوا أن "نادر" عندما أشار إلى الصعوبات التي كانت قد واجهتهم وأقسم أن يذكرها أمام "محمد شاه" وأنه لم يرد أن يغيرها طوال زحف الجيش، فإنه من أجل إثبات هذا القول كشف عن ملابسه الممزقة وأبان له عما تحتها وكان قد تمزق بالفعل.

تسليم "دهلى" وغنائمها :

تقدم "نادر" إلى "دهلى" فاتحًا واستقبله "محمد شاه" استقبالاً كبيرًا وسلمه خزائن أجداده الثمينة، وكان من بين هذه الغنائم "عرش الطاوس" الذى وصفه "تارونيه" على هذا النحو :

« العرش الأكبر الذى وضع فى قاعة القصر الأول على شكل واحد من عروشنا الصحراوية له ستة قوائم فى الطول وأربعة قوائم فى العرض، له مخدع محيط به يشبه الفراش ومخادع الأجناب مطعمة، والجزء السفلى تحت مظلة ومزدان باللؤلؤ والماس وحافته مرصعة باللؤلؤ، وأعلى العرش الذى هو على شكل طاق مطعم وأضلاعه الأربعة بالحرير منثورة وزُينت بالياقوت الأزرق وسائر الأحجار الملونة، وإطارها مُطعم بالذهب والجواهر البارزة وعلى صدرها ياقوتة كبيرة عُلّقت فى مقدمتها ماسة بوزن خمسين قيراطاً، وفى ناحيتين منها نُصبت مزهرية ورودها مذهبة ومرصعة. وعندما يجلس الشاه على العرش تبدو جوهرة شفافة من الماس وزن ثمانين قيراطًا أو تسعين من الأجناب كأنهم يُعلقونها مستقرة أمام الأعين. وقد زُينت القوائم التى تحمل العرش بلؤلؤات تحيط بها، كل منها تزن عشرة قراريط . وهذا هو العرش المشهور الذى شرع فى صناعته الأمير تيمور وأتمه "شاه جهان" والذى يقولون إن ثمنه مائة وستون مليون ومائة ألف ليرة بعملتنا الحالية.

وقد حسب "هانوى" قيمة هذه الغنائم بما يساوى سبعة وسبعين ونصف مليون ليرة إنجليزى على الحد الأقصى وثلاثين مليون ليرة على الحد الأدنى، وعلى كل حال كان هذا مبلغًا باهظًا، ولو أن "نادر" وظَّفه بتعقل فى تكلفة الجيش وخدمة الأمور العامة لمثل هذا أكبر سعادة لإيران التى شاع فيها الفقر، ولكن من أسف أن هذه الثروة أنقصت من قدر "نادر" ولم تجن إيران فائدة من هذا الكنز الثقيل فى حياته وضاع هباء بعد مماته.

سفك الدماء :

انتهت الحرب بصلح ولكن من أسف حدث تمرد فى "دهلى" سببه قتل عدد من الإيرانيين، واجتهد "نادر" فى أول الأمر فى أن يسكت الغوغاء غير أنه اضطر فى النّهاية إلى أن يخلّص جنده ويُعمل القتل والغارة فيهم ويجعلهم طعمة للنيران. ومهما توسط "محمد شاه" كانت النيران تضطرم فى كل جزء من المدينة، وقد شاهدت لوحة لمسجد "روشن الدولة" و "نادر" ينظر من أعلى قبته المرتفعة التى تُشاهد من جهات المدينة الثلاث. هذا المسجد يقع على مقربة من بوابة "خونى" – التى ظهر فيها القتال أول ما ظهر – واليوم يوجد فى "دهلى" سوق يسمى "نادرشاهى" (مملكة نادر) يُذكر بمعنى سفك الدماء[١].

عروس "نصر اللّه" :

ومن أجل ضمان الاتفاق بين الملكين عُقد على ابنة الإمبراطور المغولى زوجة لـــ "نصر الله" الابن الثانى. ويقولون إن الصهر قد سُئل أن سمّ أجدادك حتى الصلب السابع ، أجاب قائلًا : "ابن "نادر شاه" ابن السيف حتى الصلب السابع.

(١) تفصيل هذه الواقعة التى تعطى الحق لنادر أوردها السيد قدوسى فى كتابه "نادر نامه". (شفق)



عرش الطاوس

الزحف :

أحدث هذا الزحف الذى امتد عدة أشهر شهرة لـــ "نادر" وسمع دويها فى كل الدنيا. وإن كانت فتوحاته قد تمت حتى ذلك الوقت فإن الأقاليم السليبة قد استردت فيما بعد، وفى هذا الزحف الموفق وضع "نادر" يده على ثروة الهند الأسطورية وتبين شهرة عالمية باقتنائها. ومن ناحية أخرى وضع نصب عينيه التحوط السياسى فأبقى "محمد شاه" على عرشه من جهة، ومن جهة أخرى فإنه كل من كان يظن أن الجرأة على معارضته كان يلزم أن يدرك أن المحافظة على "دهلى" فوق قدرته. لكن استردت الأقاليم الواقعة على الساحل الأيمن لنهر "السند" التى كانت فى القديم جزءًا من المملكة الإيرانية. هذا وقد عبر الفاتح الكبير بقدرته وشهرته وثروته هذا النهر مرة أخرى وأعطى برغبته عشائر "خيبر" ما يريدون وهو على رأس الطريق حتى يصون الكنز الذى أخذه من الخطر ويصل به سالمًا إلى كابل.

الزحف إلى السند عام ١١٥٢ـ٥١ هـ/ ١٧٣٩م :

توقف الجنود فترة فى ارتفاعات "أفغانستان"[1] وذهب "نادر" فى الشتاء التالى إلى نواحى "السند" حتى يسيطر على الولايات المفتوحة ولم تلاحظ مقاومة تذكر في المقابل، وكان التوجه الرئيسى لـــ "نادر" تنبيها لـــ "خدايار" الحاكم العباسى الذى هرب إلى الصحراء ولفتت نظره إلى تقدم آنى صوب أسير "كوت" وإجباره على التسليم.

---

(1) هذه المرتفعات هى التى تهزم جنود الناتو فى أفغانستان فى الوقت الحالى.

وبناء على قول أحد الأشخاص[1] فلدى معاينة أمواله استبانت أشياء أخرى كثيرة كان الأفغان قد نهبوها من أصفهان، قسّم "نادر" الأراضى المفتوحة على ثلاث ولايات، وأقر الأوضاع هناك. وعندئذ توجه إلى المرتفعات عن طريق "پيشين" و "قندهار" وفى "هرات" استقر الجنود أربعين يومًا وكشف "نادر" عن غنائم الحرب ومن جملتها "عرش الطاوس" للمبهورين من الناس هناك، وأبان عن خيمة فى العرض هكذا وصفوها : مقدمتها من الحرير البنفسى كانت قد ازدانت بنقوش الطير والحيوانات والأشجار بالزمرد والياقوت والماس وسائر الأحجار الثمينة، وكان الفاتح الكبير يجمع المعروضات ويعطيها للضيوف ذوى المكانة.

الزحف صوب بخارا عام ١١٥٣هـ/١٧٤٠م :

كانت الحرب ضد الأزبك فى بخارا وخيوه تستلزم الفتوحات الهندية فى الواقع. فكما هو مذكور من قبل كانت الحكومات فى هذه الولايات منفصلة عن بعضها البعض وفى النهاية كان الحكام يرتبطون بصلة القرابة، ومن ثم كانت جماعات تهجم على خراسان انبعاثًا من هذين البلدين طوال العام وتقوم بالنهب والسلب.

وكما قلنا فى السابق إن واحدة من هذه الجماعات هى التى أسرت "نادر" نفسه فى سن الشباب، وبغض النظر عن هذه الأسباب اتضح أنهم لا يستطيعون الوقوف فى وجه "نادر" الذى قرر أن يُدّخل هذه الأنحاء ضمن متصرفاته.

تجهز الجيش فى بلخ وكان أن جمع قدرًا كبيرًا من الغلال وحملوا هذه العلوفة فى قوارب وتقدم العسكر من الجانبين نحو نهر جيحون، وما إن وصلوا إلى أربعة روافد وجدوا جسرًا مركبًا من القوارب أما "أبو الفيض خان" أمير بخارا الذى كان يعلم أنه لا طاقة له بالإيرانيين فقد انقاد مولّيًا وجهه نحو معسكر "نادر"

(١) يروى أن هذا الشخص يدعى "عبد الكريم". (شفق)

فعامله الفاتح فى البداية بالتكبر والنفور، ثم أبقى على حكومته بشرط أن يمثل نهر جيحون حدًا لإيران كما كان عليه الوضع فى السابق. وقد تدعم هذا الاتفاق بمصاهرة الاثنين إذ تزوج "نادر" نفسه من أخت الأمير بينما تزوج ابن أخيه من ابنته. وفى النهاية وطبقًا لما هو معمول به التحق ثمانية آلاف فرد من الأزبك بصفوف الجيش النادرى.

تسخير خيوه ١١٥٣هـ/١٧٤٠م :

بعد أن أضاف "نادر شاه" بخارا إلى فتوحاته رسم "نادرًا" خطته لضم "خيوه"(*). ووفق التركمان في أن يسيطروا على جسر "غايق" ونهبوا ذخائر الجيش إلا أن منعهم كان بتوغل شديد، بل إنه حاربهم يائسًا إلى حد أنه فى البداية يبدو للنظر أن الإيرانيين الذين تعرضوا للعطش يُهزمون ولكن "نادر" ركز عتاده العسكرى فتيسر له الفتح، ثم وزع الجيش على أربع جهات بعد هذه الحرب وشكل جبهات فى الخلف واليمين واليسار، وكان يحافظ على جرارات الإمداد الكبيرة بالمدفعية والفرسان، فحاصر فى أول الأمر القلعة المعروفة بـ "هزار اسب" وعندما سمع بعد ذلك أن "ايلبرس" حاكم خيوه قد تمركز فى قلعة "جيوك" ترك حصار "هزار اسب" وحاصر الخان إلى أن أجبره على التسليم، وكان "نادر شاه" قد أرسل موفدًا إلى حاكم خيوه وطلب منه أن يحرر الأسرى الإيرانيين ولكنه قتلهم ومثّل بواحد منهم وأرسل أشلاءه. وعندئذ حان الوقت ليلقى "ايلبرس" الحاكم جزاءه عن هذا فقُتل مع عشرين من مشاوريه ولم يحلّ أذى بالناس من جانب الجيش فقد عُرف أنهم أبرياء، وكان من بين الأسرى الذين وصلوا إلى "نادر" فى هذا الوقت إنجليزيان أعضاء فى وفد "هانوى" باسم "تمپسن" و"هاج" فلاطفهما "نادر" وأعطاهما الإذن وقال لهما : إذا كانت خسائر قد حلت بهما فستعوض، ومذكورة فى كتاب

(*) خيوه هي إمارة خوارزم.

"هانوى" رحلتاهما وسيرة حياتهما التى تعطى بدون شك سهما فى شهرتهما. وقد كان قدوم هذين الشخصين من الناحية التجارية بلا فائدة لأن متاعهما لم يجد المشترى، ولم يجنيا ربحًا يدور بخاطرهما لما كان قد واجهاه.

وفى هذا الوقت تحرر عدد من الأسرى الإيرانيين حتى الروس، وقد صار الإيرانيون فى مكان فى وادى "گزاسكان" وقد بنى "نادر" هذا المحل ودعاه "مولودگاه" على أساس أنه مسقط الرأس، وبنى مسجدًا أيضًا هناك. وبناء على رواية أحد الأشخاص كان قد استقرت أعلاه ثلاث مزهريات ذهبية فوق بعضها البعض يعلوها سيف ذهبى كان علامة على صنع السيف.

وعندما زرت هذا المكان فى سنة١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م قالوا لى إن مؤسس سلالة القاجار أمر أن يهدموا المسجد وسائر الأبنية(*).

نادر شاه فى أوج قدرته :

عاد "نادر شاه" من "خيوه" إلى "كلات" العزيزة على نفسه وأمر أن يبنوا قصرا ويقيموا مستودعا حتى يضم غنائم دهلى هناك، ثم ذهب من هناك إلى مشهد وأقام الاحتفالات بمناسبة فتوحاته. فقد أنزل هذا الفاتح المغوار الهزيمة فى مدة خمس سنوات بـــ "أشرف وحسين" رؤساء الأفغان الغلزائيين، واسترد قندهار. وكان النصر الذى أحرزه "على محمد شاه" والاستيلاء على "دهلى" عملًا حربيًا عظيمًا بلاشك ، وقد اكتملت هذه الانتصارات بحروب بخارا وخيوه الموفقة ولم تكن هذه كلها، بل هزم الأتراك مرتين واسترد أقاليم إيران فتوسعت حدودها مرة أخرى فى شمال نهر جيحون وجنوب نهر السند وكانت هذه الديار أوسع مما كانت عليه أيام الصفويين. ولو امتلك "نادر" استعداد الإدارة لقام بالاستفادة من الذخائر الباهظة التى كانت تحت يده لقوى على أن يستعيد رفاهية إيران المفقودة، ولكن

(*) كان محمد حسن خان قاجار مؤسس هذه السلسلة رجلًا قاسياً.

الانتصارات أفسدت أخلاقه وسادت بقية حياته فترة من القسوة والحرص المتزايد بما جعل الشعب الذى كان قد حرره من عنف الأفغان الظلمة ينظر إليه على أنه مستبد وسفاح منبوذ.

٩

آخـــر ســـنوات "نـــادر شــــــاه"

الزحف ضد اللزكيين ١١٥٥هـ/١٧٤٢-٤١م :

في إيران مثل يقول : "الملك الذى يذهب فى إثر اللزگيين لا عقل له" وقد أثبت "نادر" صحة هذا المثل.

كانت هذه الطوائف التى تضرب مساكنها فى نواحى داغستان النائية تهاجم شروان وسائر النقاط العامرة وتجعلها طعمة للنهب والسلب. وكانوا قد قتلوا أخاه الوحيد "إبراهيم خان" بينما كان يقود جيشه صوب الهند.

اضطر "نادر شاه" أن ينتقم من أجل الحفاظ على ماء وجهه، وفى العمليات التى بدأ بها، لجأوا إلى النهب واستولى جزء من العسكر الأفغان المتقدمين على خندق محكم. هذا الانتصار على "نادر" المشهور صار سببًا فى أن تستسلم عشيرة تقطن فى ناحية تفتقد الدفاع نسبياً. ثم التحقوا بأسرهم فى خراسان. عندئذ ورد "نادر" جبال داغستان وعهد إلى ثمانية آلاف جندى بتأمين العبور، وشرع هو فى تعقب اللزگيين الفارين ونفذ إلى الجبال الغاصة بالغابات الكثيفة فانتهزت العشائر الفرصة وحملت على الجيش والقوات المتمركزة وأنزلوا خسائر كبيرة بها حتى إنهم وصلوا إلى الخيمة الملكية وأغاروا على النساء واستولوا على الجواهر

فغضب "نادر" على المباغتة وحارب بضراوة أشد ما تكون، ولمّا لم تصل الإمدادات اضطر أن ينسحب إلى "دربند" غير أن العلوفة لم تكن قد وصلت إلى هناك من "هشترخان" مما أدى إلى أن تبتلى قواته بالمجاعة. ويعتقد "هانوى" أن هذه التجربة المرَّة صارت سببًا فى أن يدرك "نادر" أهمية وجود القوة البحرية.

وقد تخوفت الحكومة الروسية من الهدف من عمليات "نادر" وأرسلت قوة حربية وحثت اللزگيين على أن يطلبوا حماية هذه الحكومة فأخذ الشاه فشله فى الاعتبار، وأدرك أن هزيمته ستثير أعداءه الكثيرين ضده وهم الذين كانوا قد سكتوا حتى ذلك الوقت تخوفًا من هزيمة حتمية منه، ومن هنا بقى فى حال من الغم والغضب.

سمل عين رضا قلى ميرزا :

فى الوقت الذى أنهى فيه "نادر" احتفالات خراسان وسلك طريقه متجهًا إلى ولاية "شيروان" عن طريق "استرآباد" ومازندران تعرض لمحاولة اغتيال من جانب اثنين من الأفغان فجرح أحد السهام ساعده الأيمن واصطدم برأس حصانه؛ فظن "نادر" – صوابًا أو خطأ – أن "رضا قلى ميرزا" هو المحرض على هذا الفعل فاستجوبوا الأمير الشاب ووعدوه إن اعترف سيكون محلا للعفو ولكنه أصر على براءته. والنتيجة أن "نادر" أمر بعد انتهاء أمر اللزگيين أن يسملوا عينيه، ولم تكن أخلاق هذا الأمير على شبه من أبيه فعندما راج فى أحد سفريات "نادر" أنه قد مات؛ نراه يقتل "الشاه طهماسب" حتى يجلس مكانه إذ كان يتصرف معه بفظاظة وعدم رضا بعد عودته. وعلى كل حال ليس صعبًا أن يكون هو المتهم. ومن ناحية أخرى كان "نادر" قد صار عصبيًا إلى حد كبير بسبب فشله أمام اللزگيين وكان مستعدًّا لأن يتهم من يشك فيه.

وعلى كل حال فقد اضطرب بشدة بكل تأكيد، وقد قالوا إنه قتل كل أولئك الذين كانوا يشاهدون سمل عين ابنه لأنهم لم يتوسطوا فى ذلك العمل ولم يفتدوه بآخر بدلًا من الأمير الذى كان مفخرة لإيران. والإيرانيون يتذكرون حتى الآن قولًا نسب إلى "رضا قلى" وهو "إنكم لم تسملوا عينى بل سملتم عينى إيران".

تمردات فى إيران ٤٣ـ١٧٤٤م :

نتيجة لانسحاب "نادر" من "داغستان" وقلقه الذى كان يشعر به تحت تأثير سوء ظنه المتزايد بين الناس، حدث تمرد فى ثلاثة أماكن من إيران أى "شيروان وفارس واسترآباد" فقد نهض فى شيروان مُدع باسم سام وعرَّف نفسه على أنه ابن "الشاه حسين" وغلب بمساعدة اللزگيين حكومة قوامها ألفا نسمة. وأنفذ "نادر" جيشًا قوامه خمسة وعشرين ألف جندى وبعد حرب ضارية قُتل المتمردون وأسر المدَّعى وسملوا عينيه وأرسلوه برسالة إلى استانبول مفادها أنه عارٌ على "نادر" أن يقتل هذا الجبان الخسيس رغم أن السلطان الكبير يتعاون معه.

وفى شيراز عاصمة فارس حدث أيضا تمرد نتيجة فشل الحاكم فى فارس "تقى خان" فى إرسال قوات إلى الخليج. وعندما سمع أنه من الممكن أن يحملوه إلى السجن شب عن الطوق إلا أن الأمر صدر إلى جيش من ثمانية عشر ألف جندى أخمد فتنة شيراز بعنف شديد ووقع "تقى خان" أسيرًا وسملوا إحدى عينيه وقتلوا أقاربه. وسأتحدث فى تمرد قبيلة قاجار بمناسبة ذكر رواية "هانوى". وعلى كل حال قتل رئيس قبيلة قاجار "محمد حسنخان" على يد قوة قوامها ألفا وخمسمائة جُندى وخربت "استرآباد" نتيجة القتل وصدمة القحط والغلاء. وقد وضَّح "هانوى" هذا الوضع فى شرحه.

الزحف الأخير ضد تركيا ١٧٤٣ – ١٧٤٥م :

كان مبعث الزحف الأخير لـــ "نادر شاه" ضد الدولة العثمانية هو امتناع السلطان عن الاعتراف بالمذهب الجعفرى؛ فقد أصدر شيوخ السنة مثل هذه الفتوى وهى "قتل وأسر شعب إيران جائز والمذهب الجديد مخالف للعقيدة الصحيحة" إذًا هُزم ملك إيران فى إقدامه من أجل توحيد الشعبين الإيرانى والتركى خصوصًا أن الشيعة الخُلَّص خالفوه أيضًا من جهة أخرى؛ ومن هنا لم يكن وضعه يدعو للغبطة.

وعلى كل حال عزم "نادر شاه" أن ينزل بالأتراك هزيمة ساحقة؛ ذلك أنهم طمعوا ثانية فى إيران بشدة بسبب ما حدث فيها من تمردات. وشرح ذلك أنه كانت قد مضت فترة دون أن تقع حادثة مهمة بين الجانبين، كان الأتراك قد تمركزوا فى "الموصل" و"قارص" ونقاط أخرى فى حالة دفاع وكانوا يخرجون من هذه المواقع سالمين بينما الإيرانيون يخسرون كثيرًا فى حملات غير مجدية.

وفى النهاية تقدم جيش تركى ضخم عام ١١٥٨هـ/١٧٤٥م تحت قيادة "باقان محمد باشا" مستعدًا للحرب وصمم "نادر" الذى لم تكن مهارته فى العمليات العسكرية قد نقصت، على أن يحارب هذا الجيش الضخم للعدو فى نفس الديار التى كان قد هزم فيها "عبد الله باشا"، وتوقف القائد العثمانى فى جيش قوامه مائة ألف فارس وأربعون ألف مشاة أمام الإيرانيين وشرع فى إقامة الاستحكامات، واشتبك الجيشان فى اليوم التالى وبعد سلسلة من المواجهات استمرت أربعة أيام ظفر الإيرانيون بفتوحات مهمة دفعت الأتراك إلى التقهقر إلى نقاطهم حيث قتلوا قائدهم وهربوا فى تشتت واضطراب يائس. واستولى "نادر" على ذخائرهم العسكرية ومدفعيتهم وقُتل أو أُسر منهم الآلاف. وبعد هذا الانتصار أرسل الفاتح الكبير اقتراحات جديدة للصلح بل استعد أن يوقف دعوته فى باب المذهب الجديد، ومن ثم عُقدت معاهدة صلح مع السلطان "مراد الرابع" .

آمال "نادر شاه" فى باب القوة البحرية :

لا يمكن أن يوجد مثال على زهد الإيرانيين فى البحر توضيحًا لأثر التضاريس الطبيعية فى أخلاق البشر أفضل من أن وطنهم منعزل عن البحر بواسطة سلاسل جبلية منذ زمان "حافظ الشيرازى"(*) الذى صرف النظر عن السفر إلى الهند خوفًا من البحر فكانوا لا يلقون إليه بالاً حتى الآن.

و"نادر شاه" هو أول ملك أدرك أهمية الأسطول فقد وصلت سياسته إلى حد موافقته على عزل قبطانه الذى لم تكن لديه معلومات فى محيط البحرية لدى تعيينه فى الخدمة.

وفى ١١٥٥هـ/ يناير ١٧٤٣م اختار "نادر" شخصًا إنجليزيًا يُدعى "التون" جاء إلى إيران بهدف التجارة وقَبِلَ خدمة "نادر" لصنع السفن وأسماه "جمال بيگ" .

لم يكتف "التون" بصناعة السفن بل فحص السواحل الشرقية لبحر الخزر حتى جزيرة "چلكى". وكان هدف "نادر" منع قطاع الطرق التركمان وتأسيس الاستحكامات الساحلية لحفظ حقوق إيران فى هذه الجهات، وكان من آماله أن يشتت أعداءه بواسطة قوة بحرية. وفى الحرب ضد اللزگيين أوصل قوة حربية. وبغض النظر عن كل ذلك يقول "هانوى" : قصد "نادر" المشاركة فى التجارة والسيطرة على بحر الخزر.

وكان "التون" نابغة، واستقرت قاعدته فى "لنجرود" التى تعرف بطقسها السيئ وقام بعمله رغم جميع المشكلات وقطع الألواح من الغابات وغزل الحبال من الكتان، ولمّا لم تظهر المراسى فى الداخل أعدها من الناحيتين فى عمق البحر وعارض العامة بشدة لأن العمل كان عملًا إجباريًا بلا مقابل، غير أن "التون" ساق

(*) هو شاعر إيرانى كبير يعتز به الإيرانيون ويأخذون الفأل من ديوانه.

فى النهاية سفينة إلى الماء بمعاونة شخص إنجليزى يعمل بحارًا وبعض من الروس والهنود كانت مجهزة بمدافع عيار ٢٣ رطلاً.

كانت الحكومة الروسية تنظر إلى نشاط "التون" الذى كان فى صالح "نادر" بنظرة عدوانية، ولكن "التون" واصل نشاطه حتى انه بقى فى عمله بعد قتل الملك إلى أن أصيب بسهم فى تمرد عام ١١٦٤هـ/ ١٧٥١م وبعد موته توقف جهاز صناعة السفن.

اهتم "نادر" بإيجاد قوة بحرية فى الخليج وشكل أسطولًا مكونًا من عشرين سفينة بإدارة ملاح برتغالى، وهذا الإقدام جعل إيران تمتلك قوة فتية فى المياه بل إنه خصص مكانًا لصناعة السفن فتهيأت الوسائل، وكان إحضار الألواح من نواحى إيران يستلزم نفقات باهظة بل وخسائر فى المال والأرواح. ونتيجة لقتل هذا النابغة توارى الأسطول الإيرانى أيضاً، فقد بقيت سفينة واحدة شبه معطلة فى "بوشير" فقط ذكرها السياح بعد ذلك، مما يدل على أنه كان هناك مصنع للسفن كنموذج.

قتل "نادر" فى عام ١١٦٩هـ/١٧٤٧م :

بموجب آخر صفحات تاريخ الفاتح النادرى فقد محت آخر سنوات سلطنته سيرة أقسى وأوحش المستبدين فى التاريخ، فعلى الرغم مما مضى فإنه كان يقيم المنارات من الجماجم، وكان الذى يفلت من السيف يلجأ إلى النار أو الصحراء. والواقع أن كل الوطن قد عصاه حتى أن ابن أخيه "عليقلى خان" الذى كان قد أُرسل إلى سجستان وارتبط بأهلها أعلن نفسه ملكًا وانفصل عنه.

وكان من جملة الفتن تمرد أكراد "قوجان" الذى حدث فاتجه "نادر" إليها، وفى معسكره الذى كان على بُعد فرسخين لقى حتفه على يد أفراد عشيرته. وما من شك أن مهاجميه قد فعلوا هذا الأمر بهدف المحافظة على أرواحهم لأنهم كانوا

يعلمون أنهم سوف يقبض عليهم ويُقتلون. فكانت خيمة الملك قد نُصبت أعلى تبة منخفضة - قمت بزيارتها -. وفى الليل دلف "محمد صلاح خان" و"محمد قليخان افشار" إلى داخل الخيمة الملكية حيث ينام وحملوا عليه فقُتل "نادر" بينما كان قد تنبه وصارعهم .

وعلى الرغم من أن "نادر" كان قد غط فى النوم وفى غفلة من أمره فإنه قاومهم وطرح أرضًا فى هذه المقاومة اثنين من قاتليه؛ غير أن "صالح خان" (١) الذى كان يترأس حراسه أرداه قتيلاً.

أخلاق نادر:

إن تحليل أخلاق "نادر" ليس مشكلة؛ فقد كان ذا بسطة فى الجسم بظاهر جميل وصوت أجش وعزم لا يلين، مؤهلاً لزعامة الخلق وقيادتهم. وقد وصل إلى أوج الشهرة عن طريق السيف، كانت ذاكرته قوية، وهو فى الرجولة لا نظير له؛ وفى احتراف فن الحرب ماهر، كان فى أول أمره كريم المحتد وسخيًا، وعلى حسب وصف "إبراهام كريتى" - مستعدًا للتسامح عن أخطاء الآخرين، ولكنه صار خسيسًا بعد الاستيلاء على غنائم دهلى.

وعلى خلاف الاعتدال الذى كان يظهره فى حروبه الأولى وتجنبه لسفك الدماء الهادر صار فى النهاية متعطشا له.

يقول "ميرزا مهدى" : إن التقهقر أمام اللزگيين(*) وسمل عين "رضا قلى" جرّه إلى الإفراط الزائد.

---

(١) ضبط اسمه فى النص صلاح خان على سبيل الخطأ. (شفق)

(*) هكذا أثبت الأفغان قوتهم فى الماضى وهاهم يثبتونها فى الحاضر. يقول قلب الدين حكمتيار أحد زعمائهم أن أفغانستان ستكون البالوعة لقوات التحالف بعد أن هزموا الاستعمار الإنجليزى ثم الروسى.

كان ذا ميل للتسنن وعارض المجتهدين الشيعة وراقب عائداتهم الباهظة. وكان اهتمامه يتمثل فى أن يعيد وحدة الإسلام عن طريق إلغاء المذهب الشيعى (*) ولكن لم يوفق مطلقاً. ثم عزم على تأسيس مذهب جديد وأمر تحت تأثير الفكر أن يترجموا له كتب اليهود والنصارى.

ولم يكن له جهد لائق فى إدارة أمور الدولة أبداً. وعلى الرغم من الظلم والتعسف كان يعاقب بشدة، ولم يأت بخاطره مطلقًا أن يعمل على إرضاء الشعب ورفاهيته. وذات مرة أمر فى إثر فتوحاته إسقاط الضرائب عن ثلاث سنوات ثم سحب هذا الفرمان بجنون لا يصدق وحكم بأن يأخذوها حتى آخر دينار.

ويقول "هانوى" : إن موظفيه كانوا منبوذين فى نظر الناس وكان الفلاحون يغلقون قراهم حتى يمنعوا مجيئهم. والحقيقة أن إيران كلها كانت قد تخربت كما لو كان قد هاجمها عدو. وكانت ملايين الذخائر فى "كلات" تزيد بمبالغ أخرى لأنهم كانوا يأخذون أموالًا من الناس بحجة أنها قد سُرقت من دهلى.

ولو أن "نادر" كان ذا عقل، لفتح أبواب خزائنه. وأشبع جنوده بالملايين التى كان قد أحضرها من الهند، ولعادت الرفاهية إلى إيران مرة أخرى ودامت سلالته.

ويعتقد السير "مورتمير دوراند"(١) أن شبهًا عجيبًا بين "نادر" فاتح آسيا و"نابليون" فاتح أوروبا من حيث اتساع الفتوحات وأيضًا من حيث انحطاط الأخلاق التى حلت بهما من فرط القدرة. ولمّا كان "نادر" قد مات بعد فتح الهند وبخارا وخيوه لاحتسب حتمًا على الدوام بطلاً قوميًا. ولكن من أسف أنه ظل حيًا حتى وصل الأمر إلى حد أن الشعب الذى أنقذه من الانقراض يعده منبوذاً.

(*) فى وجهة نظر "نادر" إنه لم يكن يريد إلغاء التشيع بل كان يريد أن يحجمه ويمنع سب الخلفاء مع القضاء على النفاق.

(١) حرر هذا المستشرق قصة "نادر" فى رواية ترجمت إلى الفارسية بواسطة سيد محمد على داعى الإسلام. وقد كتب مؤلف إيرانى تاريخ "نادر" أيضًا فى شكل قصة . راجع كتاب "نادر" فاتح دهلى بقلم صنعتى زاده كرمانى ، طهران ١٣٣٥، مطبعة آتشكده. (شفق)

الفصل الخامس

كتاب "تاريخ الهند" (١)

مع سقوط السلالة الصفوية الإيرانية فى وضع سيئ وانتصار "محمود خان" الغلزائى القندهارى على "طهماسب الثاني" واستيلائه على أصفهان فى عام ١١٣٥هـ/١٧٢٢م تخلصت إيران من هذا الوضع في عام١١٤١هـ/ ١٧٢٩م على يد "نادر قلى" الفارس الخراسانى فطرد "الغلزائيين".

جلس "نادر" على العرش فى ١١٤٩هـ/ ١٧٣٦م وصمم على أن يقضى على "الغلزائيين". ومن هذا المنطلق أرسل إلى "محمد شاه" بألا يسمح لهم بالهروب من حدود الهند، وبالطفرات الروحية التى تبدو من علائم الدولة المتداعية يدخل الإقدام مرحلة التنفيذ بل بدأ بمحاصرة "قندهار" ففر عدد كبير منهم إلى كابل وطلب "نادر" التوضيح من "دهلى"، ولكن لم يصله جواب على ذلك.فما إن سقطت قندهار عام ١١٤٣هـ/١٧٣١م إلا وتقدم "نادر شاه" إلى "غزنة" واستولى عليها واستسلمت كابل مباشرة بعد مواجهة ضعيفة ثم هُزم حاكم "جهرود" فى "خيبر" ودخلت "بيشاور" أيضاً فى الاستسلام، وتقدم نادر بعد ذلك إلى "لاهور" وهزم حاكمها وأرسل من هناك رسالة إلى "محمد شاه"، ولمَّا لم يعطه رداً شرع فى توبيخه فيما تلى من رسائل موضحاً أنه بصدد أن يصل إليه، فحذّر أهل الشورى ملكهم؛ إلا أن بلاطه لم يتجاوب فى الرأى بدعوى أن "نادر" لا تتوفر لديه الجرأة على الهجوم على الهند، وإذا ما غزاها فالتوفيق فى إقدامه محل شك. كان هذا غروراً منهم بقدرتهم أو جهلاً منهم بقوة "نادر".

---

(١) تاريخ الهند، تأليف باول برايس ١٩٥٥ A History of India, J.G. Powell - Price London, 1955, P.387-91.

استعرت الحرب بالقرب من "كرنال" فى ١١٥٢ هـ/ فبراير ١٧٣٩م وتسارعت بدخول "برهان الملك" فى أولها لأنه كان يرغب فى أن يسترد عتاده العسكرى الذى كان قد سقط فى يد الإيرانيين.

وبناء على ذلك بدأت الحرب غير المخططة مسبقاً من جانب برهان الملك الذى أقدم فارسا مع قواته لاسترداد عتاده، وكان أن عاقبه "خان دوران" و "محمد شاه" و "نظام الملك" على رأس الجيش الأصلى. هذا الجيش الإمبراطورى كان مكوناً من مائتى ألف من الفرسان والمشاة، وخمسة آلاف مدفع بينما الإيرانيون أقل كثيراً غير أنهم جميعاً مكونون من فرسان الحرب المتدربين.

سعى "برهان الملك" من أجل استرداد متاعه بلا نتيجة وربما وقع فى الأسر بتساهله. أما "خان دوران" فقد جرح جرحاً نافذاً وعندئذ ألحق "نادر" نفسه بالجيش الأصلى واضطرم القتال إلى حد أن "محمد شاه" تقهقر صوب الخنادق. بدأت المفاوضات وكان واسطتها "برهان الملك" نفسه الذى طلب أن يبقى محمد شاه على العرش ويعود "نادر شاه" من الهند شريطة أن يدفع عشرين مليون روبية إلى إيران كنفقة حرب. وفى هذه الأثناء خلع "محمد شاه" على "نظام الملك" لقب أمير الأمراء بينما لم يلق "برهان الملك" أى اهتمام فى الواقع وهو الذى كان يطمح فى مثل هذا اللقب، فغير رأيه وأوصى "نادر" تحت وطأة التنافس والحسد بألا يعود قبل أن يصل إلى عمق الهند. ومن ناحية أخرى لم يبد أعيان الهند ورجالاتها أى وفاء لملكهم وقال نادر نفسه عند لقائه به : «إن "خان دوران" وآخرين هم فقط الذين يكنون له الوفاء، وإن أحدا من حكام الهند أو "الراجبوت" لم يقدم له مساعدة ولم يدفعوا أموالاً لدعم الحرب.

وصل "نادر شاه" إلى الهند وتليت الخطبة باسمه فى جميع المساجد بدهلى غير أنه نتيجة لشجار وقع ذات يوم بين جنوده والتجار حول الأسعار أدى إلى ثورة محدودة مثل ما يحدث اليوم. ففى هذا اليوم راجت شائعات فى دهلى وأعلنوا أن "نادر" قد مات، وحيثما كان إيرانيون قد اجتمعوا بعدد قليل فإنهم يصيرون محلاً

للهجوم بل القتل، بل إنهم رموا "نادر شاه" بالحجارة والمقذوفات فلم يعد هذا قابلاً للتحمل، إذ كان نحو تسعمائة إيرانى قد قتلوا عندئذ وأدى هذا العصيان إلى غضب "نادر" فأمر قواته بأن تعيد النظام إلى المدينة وأن تنتقم مما حدث، ومن ناحية العسكر فقد أُعطوا صلاحية أكثر للانتقام. وعلى هذا النحو بدأ قتالٌ شمل "دهلى" كلها.

وقد قالوا فى هذه المذبحة التى استمرت من الصباح حتى المساء إن ثلاثين ألفاً قد قتلوا، ومما لاشك فيه أنه لا يمكن القول إن أحداً من العسكر كان له الاختيار لأن جيش "نادر" كان يسوده النظم الشديد. ولمّا طلب "محمد شاه" وقف القتال أصدر "نادر" فرمانه بإنهاء المذبحة وأصبح جزء كبير من المدينة طعمة للحريق.

والآن حان وقت التقويم، إذ صارت الخزائن الملكية بالإضافة إلى عرش الطاوس المعروف والجواهر والذهب والفضة الكثيرة تحت السيطرة، وكان الأعيان والأشراف ملزمين بأن يدفعوا أموالاً، وتوفى "برهان الملك" بعد أداء ثلاثة وثلاثين مليون روبية ، كما أعطى ابن أخيه "ميرزا محمد مقيم" الذى لُقب بـــ "صفدر جنگ" من طرف حكومة "داود"(*) عشرين مليون روبية من النقد والأصناف الأخرى، أما سائر الأعيان فقد دفعوا أموالاً مقابلها أيضاً كان من بينها أملاك "خان دوران" و"نظام الملك". وقد قالوا إن الجزء الأول كان يعادل خمسين مليون روبية وقيمة الجواهر وسائر الأشياء القيمة التى أعطاها "نظام الملك" و"قمر الدين" فقد كانت تصل إلى ثلاثين مليون روبية. كما التزم التجار الكبار بالجزية، وكل من كان يشيح بوجهه كان يقع تحت طائلة التعذيب، وكان محصّل هذه الأموال "سربلند خان". ولكن لم يكن هذا كل ما تم بل إن كل النواحى الغربية لنهر السند الملحقة بذلك النهر صارت تابعة للممالك الإيرانية.

(*) هى منطقة "داود پوترا" بعينها.

نُصِح "نادر" قبل السفر إلى إيران "محمد شاه" بأن يكون على حذر من حرص وأهداف "نظام الملك"، وأن يصلح جهاز دولته، وتحرك في أواسط شهر مايو من "دهلي" بعد أن أنزل ضربة بالهند وسرعان ما هوت الدولة التي كانت قد تزلزلت من قبل، غير أن "محمد شاه" أو الأعيان والحكام لم يتعلموا درساً من هذه الأحداث، وأن يتبينوا طريقاً لحفظ الديار التي كانت بصدد الانحلال اللهم إذا لم تنقسم إلى إمارات متفرقة.

فقد جلس في ولاية "اود" "صفدر جنگ" مكان عمه وحماه "برهان الملك" وصدر بذلك فرمان من طرف "محمد شاه". وبناء على هذا التوريث وصلت البنجاب أيضاً إلى "زكريا خان" ابن "خان دوران" الذي كان قد سقط أمام "نادر". وفي البنغال توفي "جعفر خان" الذي كان قائم مقام" وزراء المملكة وأقام في دهلي عام ١١٣٨ هـ/١٧٢٦م وتولى مكانه صهره "شجاع الدين محمد خان" الذي كان معروفاً بشجاع الدولة، وفي نفس الوقت نيابة "خان دوران"، وجلس مكانه آخر بعد الوفاة في عام ١١٥٢هـ/١٧٣٩م هو ابنه "سرفراز خان" الذي كان له لقب "علاء الدولة" لكنه لم يعد قادراً على حفظ البنجاب. أما "عليوردخان نهايت جنگ" وكان على عداء مع "قائم مقام بهار" فقد تقدم في عام ١١٥٣هـ/١٧٤٠م بمساندة من رجال البلاط الذين كانوا قد أخذوا وعداً بخزائن "شجاع الدولة" وهُزم وقُتل بقوة مختلطة وخادعة من علاء الدين واحتل عاصمته "مرشد آباد" التي كانت قد استحدثت على يد "مرشدقليخان جعفرخان" وبهذه الحادثة صار "عليوردخان" نائباً للسلطنة وأصبح هو و"بهار" حليفين.

استسلمت مدينة أصفهان لـ "محمود الأفغاني" بعد سبعة أشهر فجلس رئيس عشيرة الغلزائيين على العرش الصفوي، وقُتل محمود في عام ١١٣٧هـ/١٧٢٥م، وجلس مكانه ابن عمه "أشرف" الذي هزم بعد مدة "طهماسب" الابن الثالث للشاه "سلطان حسين" واحتل طهران ولكن رئيس الغلزائيين هذا كان في وضع غير لائق فكان يحكم بين الشعب بالعنف وأن عدداً من أتباعه كان أكثر

منه نفوراً بمراتب من الناحية المذهبية والوطنية. ومن ناحية أخرى كان أخو "محمود" أى "حسين" قد قبض على أزمة أمور "الغلچائيين" فى قندهار، ولم يكن سائغاً لأشرف أن ينتظر المساعدة منه أو حتى المواساة. وعندما أراد زعيم قبيلة أن يحكم مجتمعاً متمدناً فبالضرورة لم تكن هذه الحكومة ثابتة القواعد[1] ولن يدوم بها الحال اللهم إلا إذا كان هذا الزعيم قد تعلم شيئاً آخر غير الامتثال، وفى هذا الوضع كان سبب توفيق الغلچائيين فى إيران هو انحطاط السلسلة الحاكمة، ولو أن الزعامة كانت تتبين التقدير والعلاقة مع شعب إيران لما كان المهاجمون بقادرين على تبنى الأمل فى دوام حكومة الشاه. وبالمصادفة كانت مثل هذه الزعامة فى حالة الظهور. فـ "نادرقلى بك" الذى صار "نادر" بعد ذلك قد ولد فى خراسان عام ١٠٩٩ هـ/١٦٨٨م من شعبة قراقلو من عشيرة افشار إحدى الطوائف التركية الأصل والتحق بقوات الشاه "طهماسب" فى عام ١١٣٨هـ/١٧٢٦م وأظهر فى بداياته لياقة الزعامة والنبوغ العسكرى، وتبوأ فى خلال ثلاث سنوات مقاماً عالياً فى خدمة الشاه، وقام بأعمال من شأنها إعادة القدرة الصفوية فى إيران فكان أول واجباته إخضاع قبيلة "الابدال" الأفغانية فى هرات التى مثلت مقدمة الهجوم على أصفهان. ففى عام ١١٣٧ هـ/١٧٢٥م هُزم زعماء الابداليين واستسلموا حتى أن بعضاً منهم دخل فى خدمة الشاه ثم تحرك زحف "نادر" ضد الغلزائيين ودمر قوتهم تماماً خلال سلسلة معارك وأخلى أصفهان من وجود العدو وأجلس طهماسب هناك بعد عدة أسابيع على عرش أبيه.

وصل خبر تمرد آخر من الابداليين وتسبب هذا الأمر فى أن يستولى"نادر على هرات فى عام ١١٤٤ هـ/١٧٣٢م وكان أن أجلس نفسه على عرش المملكة بعد أن خلع الشاه "عباس الثالث" عام ١١٤٢ هـ/١٧٣٠م وهاجم قلعة الغلزائيين أى قندهار وطال هذا الزحف حتى عام ١١٥١هـ/١٧٣٨م ودخلت "كلات" الغلزائية وقسم كبير من "بلوچستان" ضمن تصرفات الإيرانيين، ولكن ليس من شك فى أن العلة الواقعية تمثل فى أنه كان يريد أن يكرر صنيعاً مضى تمثل فى

---

(١) عن كتاب أفغانستان تأليف فريزر تايلر، ص٤٠، ٤٣. (شفق)

فتوحات الإسكندر ومحمود الغزنوى. استسلمت قندهار بعد مقاومة شديدة، وعلى هذا النحو دخلت في متصرفاتهم قلعة الشمال الغربى التى كان المغول قد اهتموا بها، وهذه المرة وقعت في يد مهاجم كبير آخر؛ وبذلك انفتح الطريق أمامه صوب الهند.

وكانت حُجة "نادر" فى الهجوم على الحكومة المغولية بالهند أن يعاقب المتمردين الأفغان الذين كانوا قد فروا من الحدود إلى الهند وقت العمليات الحربية ضد الغلزائيين. ولكن ما من شك أن السبب الواقعى تمثل فى أنه كان يريد أن يكرر فتوحات السابقين كالإسكندر ومحمود الغزنوى وتيمور. وأن يستولى على الغنائم والخزائن والثروة التى تستحوذ عليها الدولة المغولية وأن ينفق كل ذلك فى تجهيز الجيوش ضد العثمانيين.

فى أواسط عام ١١٥١ هـ/١٧٣٨م تحرك "نادر" من "قندهار" عبر حدود الهند، وبعد يومين أو ثلاثة عبر من موقع "چشم مخمور" الذى هو "هماس موكور" الحالية فى رأى البعض، ولم يهزم عند رأس الطريق المحصن ودخل غزنة بدون عقبات حتى وصل إلى كابل. وهناك حضر علية القوم فى المدينة وأبدوا الخضوع، غير أن قلعة كابل ظلت تقاوم حتى شهر يونيو ، وفى شهر سبتمبر اتجه "نادر" إلى پيشاور واصطدم وهو فى رأس الطريق صوب الهضاب المحيطة بـ "جندمك" ببعض القبائل الأفغانية وهزمهم، وبعد عبور "جلال آباد" وهزيمة قوة مخالفة فى معبر "خيبر" وصل إلى مدينة "پيشاور" التى استسلمت بدون مقاومة.

عزم نادر فى البداية عام ١١٤٤ هـ/١٧٣٢م على السيطرة على رأس الطريق المؤدى إلى "كرنال" ولم يواجه مقاومة تذكر إلى أن وصل إليها فكانت معركة الهند التاريخية؛ إذ كان قد اجتمع فى هذه المنطقة جيش الملك المغولى "محمد شاه" فى حدود ثمانين ألف فرد ، ولكنه ترك النزال بعد يوم من الحرب التى اشترك فيها جزء من قوة الجانبين وغادر الميدان لصالح "نادر شاه" وقد حددت شروط الصلح بأن يتوزع عسكر الهند الذين كانوا فى حالة حصار لإيران بالتدريج واتجه الملكان صوب "دهلى".

بقى "نادر" حوالى شهرين فى "دهلى" وبعد وصوله بوقت شب نزاع بين عسكر "القزلباش" الإيرانيين وأهل المدينة، وكان هذا دافعاً على قتالهم الذى يقولون عنه إن عدد القتلى وصل إلى مائتى ألف فرد، وفرضت الضرائب على الناس مباشرة وتم التصرف فى الأموال التى كانت قد عَمُرت بها الخزائن المتراكمة للسلالة المغولية، وكان ضمن ما أخذه "نادر" من الملك "عرش الطاوس" والماسة "كوه نور".

وفى أواسط شهر مايو تزداد حرارة دهلى بما يجعلها غير مريحة فعزم "نادر" – الذى كان قد وصل إلى مقصده – على أن يعود إلى وطنه، فترك مملكة الهند فى عهدة "محمد شاه" مرة ثانية، وفى المقابل ألحق جميع الأراضى التابعة للدولة المغولية التى كانت تقع فى غرب وشمال نهر السند، وكان "نادر" قد استولى عليها لصالح إيران وغادر الديار، وفى عام ١١٥٣ هـ/١٧٤٠م وصل بعد غيبة سنتين إلى "قندهار" وشرع فى تسخير الأراضى الواقعة شمال "هندوكش" بما يتبعها من أراضى ما وراء نهر جيحون إلى حدود سمرقند وبخارا وخيوه حتى أن حدود فتوحاته فى الشرق وصلت إلى حدود مملكة داريوش القديمة. وعندئذ رجع إلى مشهد عاصمته فى عام١١٥٤هـ/١٧٤١م.

قضى "نادر" بقية عمره فى "مفرب" لمواجهة الدولة العثمانية وأنحاء الخليج الفارسى، إلا أن تكلفة هذه التجهيزات الحربية أنزلت ضغطاً شديداً بموارد إيران، وفى هذه المرة كانت حالته الأخلاقية المتصاعدة تزداد توحشاً. فمنذ عام١١٥٤هـ/١٧٤١م حتى ذلك الوقت بدت عليه اختلالات عقلية كانت تزيد أعماله القاسية بتقدم السنوات، وكان شعبه ييأس منه بالتدريج(*)، ويكفى أن عدة آلاف من الأفغانيين وجمع من سائر الشعوب كان بإمكانهم أن يثبتوا أمام جيش إيران. وفى النهاية تصادف كل هذا مع وقوع آخر فاجعة فى "خبوشان" أى

(*) سجل المترجم هذا التاريخ على أنه ١٤٧٤م وهذا خطأ وصحته ١٧٤١م.

"قوجان" التى كان الشاه قد أقام فيها معسكراً حتى يحرك عمليات حربية ضد الأكراد المتمردين، وكان أن حظى قائد الأفغان "زمان خان سدرزارى" بما له من نبوغ حربى برضى الشاه فأحس "نادر" هو الآخر بما له من حس سابق لزمنه أن فاجعة تقترب من قادته الأفغان فأوقف فى اليوم التالى جميع القادة الإيرانيين الذين لم يعودوا محلاً لثقته، ووصل هذا الأمر عن طريق جاسوس إلى أذانهم فنهضوا بدون تباطؤ ودلف ثلاثة من الحراس إلى مخدعه وقتلوه لكى لا ينهض من فراشه. وقد تيقن "أحمد شاه" وجنوده الأفغان الذين كانوا أقل عدداً من الإيرانيين من أن "نادر" المحارب قد لقى حتفه إذ بهم يقفلون راجعين إلى "قندهار".

الفصـــل الســـادس

تـــاريـــخ لـ "نـــادر شـــاه" (١)

مقـــدمة :

عاش العالم القدير السيد "ولاديمير مينورسكى" الذى أقام فى طهران سنوات وارتحل إلى أقاليمها لسنوات عدة فى باريس ولندن مشغولاً بتحقيقات علمية عن تاريخ إيران وجغرافيتها، ونشر مقالات مفيدة فى دائرة المعارف الإسلامية. وفى السنوات الأخيرة اختارته جامعة لندن أستاذاً للأدب الفارسى.

وأحد مؤلفاته "تاريخ نادر" – الذى أعدَّه قبل ذلك– قد أُدرج فى دائرة المعارف الإسلامية، وبسبب تفصيلاته الكثيرة فقد أوردنا ملخصاً له فى هذا الكتاب، وقد طبعوا النسخة الأصلية باللغة الفرنسية ضمن سلسلة منشورات معهد تحقيق الآثار والفنون الإيرانية فى باريس.

وإذا كانت أكثر معلومات هذا الكتاب مذكورة فى التواريخ الفارسية الموجودة فإن المؤلف القدير قد عانى كثيراً فى تنقيح المطالب وتصحيح الوقائع وصحح ما جاء فى الكتب الفارسية نفسها بالمقارنة مع كتب الرحلات، كما بذل مجهوداً كافياً خاصة فى مطابقة الأيام والشهور والسنين، ومن ثم رأى المصنف أن ترجمته لازمة للفائدة التى تعود على دارسى التاريخ.

---

(١) تأليف و. مينورسكى ترجمة رشيد ياسمى أستاذ التاريخ فى جامعة طهران، وهى من إصدارات لجنة المعارف شهر دى ١٣١٣هـ.ش مطبعة المجلس. ذلك إنه لمّا كان هذا الكتيب خلاصة مفيدة عن تاريخ نادر شاه وكان نسخة نادرة؛ فقد ضُم باسم المؤلف المحترم و"المترجم" العالم إلى هذا الكتاب. (شفق)

وعلاوة على الملاحظات المفيدة فى حواشى الصفحات فإن الفهرس الذى رتبه المؤلف من خلال الكتب المتعلقة بتاريخ نادر خاصة المصادر الروسية والجرجية والأرمنية جدير بالتقدير.

ولمّا كانت بعض التوضيحات لازمة لقراء الفارسية فقد زيدت أحياناً بعبارة أو كلمة للتوضيح. والأمل كبير فى أن تتعدد فوائد الكتاب.

ومن أجل ألا يشك ويشتبه أحد فى أسماء المؤلفين والكتب التى وردت فى الفهرست عند التبديل إلى خط فارسى ألحق قسم من هذا الفهرست كما هو.

طهران، ٢٠ ديماه

١٣١٣هـ.ش/١٩٣٤م

رشيد ياسمى

مقدمة المؤلف :

هذا الكتيب فى صورته الأولى ضمن دائرة المعارف الإسلامية، وأعترف أنه خارج عن المألوف؛ ذلك لأنه كان قد حُدد لترجمة أحوال "نادر شاه" الذى يحتاج لكتاب كبير له صفة دولية. من هذا المنطلق شرعت فى تلخيصه ونشرت ثلث مطالبه تقريباً في دائرة المعارف، وقد استدعى التلخيص المذكور حذف نقاط أساسية عدّة كان أن سببت مشقة كبيرة. إذن حق عليّ أن أشكر منتدى معهد متابعة آثار إيران وفنونها على تفضله بنشر كل المقال فى صورته الأصلية ضمن سلسلة إصداراته وبالنحو الذى خرج عليه من تحريرى، وعلى الرغم من أن تفصيلات قد وردت فى هذا الكتيب فإن بعضا من القراء سيرون فيها إجمالاً وايجازاً مبدئياً وسيجدونها جامدة إلى حد ما. وينبغى الاعتراف أن معلوماتنا عن تاريخه مازالت حتى الآن ناقصة جدًّا والمعلومات التى توفرت حتى الآن ليست بالضرورة تعتمد على أساس مصادر أكيدة موجودة، فإن لم ينقوا الحوادث جيداً فلن يستطيعوا استخراج غبار الخطأ من السنوات والأسماء. وفيما يتصل بتاريخ "نادر شاه" فإن أهم المصادر كان "تاريخ نادرى" حتى الآن الذى ترجم فى عام ١١٨٤هـ/١٧٧٠م وأهمل اليوم[١]. من هذا المنطلق رجع المؤلف إلى أصل المصادر على كل حال وأكد أساساً للتحقيقات الآتية :

جعلت بناء التحقيق على أساس "تاريخ نادرى" وأكملت المطالب من المصادر الفرعية الأخرى. ومن أسف أن تاريخ "محمد كاظم" ليس تحت يدى[٢]. وقد احتطت كثيراً بالنسبة لنتائج الحوادث فى ذلك الزمان وتأثيراتها العامة، ونحن نورد فى نهاية هذا المختصر ثبتاً للكتب المتعلقة بتاريخ نادر وهى إلى حد ما كاملة

---

(١) يرجع إلى فهرس الكتب. (شفق)

(٢) يرجع إلى ملاحظة أخر هذا الكتيب. (شفق)

وشاملة لتجربة المؤلف الشخصية، وقد تكون مفيدة للأشخاص البعيدين عن المكتبات الكبيرة. وهذا المختصر هو فقط بمنزلة أسباب العمل، والأمل فى أن تُوفق رسالة الدكتوراه التى تُعد الآن فى جامعة لندن، وأنا أتابعها بكل سرور لنطّلع أكثر على دقائق سيرة ذلك الفاتح الكبير.

ويجوز فى نظر بعض الأشخاص أن طريقة الكتابة التى توخيتها فى كتابة أسماء الأعلام الشرقيين بالحرف اللاتينى جديدة إلى حد ما. وقد رأيت فى كتابة هذه الأسماء أن تكون بشكل أسلس، ويجوز أن بعضاً منها تختلف إلى حد ما فى لفظها المحلى، وقد احتطت فى كتابة أعلام سائر الشعوب الإسلامية بقدر. مثلاً كتبت كلمة محمد فى الفارسية بصورتها وفى التركية بكسر الميم وسكون الحاء وكسر الميم الثانية، إضافة إلى أن مسألة طريقة الكتابة فيما يخص أعلام الشرق بالخط اللاتينى لن تكون مهمة لقراء هذا الكتيب كثيراً.

باريس فى ١٤ أبريل ١٩٣٤م

تاريخ لنادر شاه :

هو المؤسس للسلسلة الافشارية والمولود فى ٢٤ محرم ١١٠٠ هـ/١٧ نوفمبر ١٦٨٨ م والجالس على عرش المملكة فى ٢٤ شوال ١١٤٨هـ/ ٧ مارس ١٧٣٦ م والمقتول فى ليلة الحادى عشر من جمادى الثانى ١١٦٠هـ/ ١٨ يونية ١٧٤٧ م.

أسـرتـه :

كانت طائفة "افشار" واحدة من الأقوام التركية البدوية وجزءًا من ميمنة جيش "آغوزخان" على حسب قول "رشيد الدين"[١]، ويرى مؤلف كتاب "تاريخ نادر" أن قبيلة افشار من التركمان، والمعروف أن طائفة الافشار تركوا التركستان واستقروا فى أذربايجان، وأن "الشاه إسماعيل" هجّر شعبة من هؤلاء القوم إلى خراسان الشمالية ووطّنهم فى منطقة نبع "مياب كوبكان" من ملحقات "آبيورد"، وكانوا يقضون الشتاء حوالىّ "دستگرد وگز". والتحق "نادر" بشعبة "قرقلو" الافشارية وكانت لغة نادر الأم هى التركية بالطبع، وكان يتحدث بهذه اللغة مع ملك الهند و"چاثليق" أرمينيا.

ولد نادر فى "دستگرد" وبعد ذلك بفترة أقام هناك بناء باسم "مولود گاه" يعنى "مسقط الرأس"[٢] ، وكانت أسرة "نادر" فقيرة ومغمورة[٠] إذ يكتفى مؤرخه فى هذا الصدد بقوله هذه العبارة : "إن جوهره الملكى فى دلالة مخلوط بماء الذات ولونها

---

(١) طبع برزين.Trudi V.O.R.A.O ١٨٦١م، جزء ٧، ص٧. ويقصد بـ "رشيد" رشيد الدين فضل الله مؤرخ المغول الكمبير ووزيرهم.

(٢) تندرج صورة لـ "كوبكان" فى تاريخ سايكس، المجلد الثانى، ص ٢٤٨.

(٠) هذا الفقر يفسر حبه الكبير للمال بعد ذلك.

وليس بصلب المعدن".(*) أبوه يدعى "امامقلى"، وسمى نادر فى البداية باسم جده "نذرقلى" أى خادم النذر، وسمى فى زمان الشاه طهماسب بـــ "طهماسب قلى"(١) وتغير اسمه الأول بعد التتويج قليلاً فأصبح "نادر" بمعنى لا مثيل له.

وقد شارك نادر فى أيام الشباب(٢) فى المنازعات الكثيرة التى كانت تقع مع التركمان والأكراد الموجودين فى "خبوشان" والأزبك والتاتار فى "مرو" وأيضاً الافشار الذين هم قبيلته، فعُرف بالشجاعة والجسارة، وكان أصحابه من الافشار والأكراد فى "كز" و"أبيورد" الذين كانوا يرتبطون به قد أقامهم الصفويون فى هذه البقعة ليشكلوا مانعاً بشريًا (**).

وكان ثلاثمائة أو أربعمائة من أفراد طائفة "جلاير" بقيادة "طهماسب قلى وكيل" ترافق نادر. وقد امتد الموقع الحصين والمكان المنيع لقلعة "كلات" فصارت فى المستقبل حصن "نادر" الحصين (***).

الحرب ضد الملك محمود السجستانى :

دخلت مشهد فى حوزة "الملك محمود" لدى وقوع الهرج والمرج الذى أعقب فتنة الأفغان فى حدود عام ١١٣٥ هـــ/١٧٢٣م وكان يصل نسبه إلى الملوك الصفاريين بل إلى الملوك الكيانيين. وقد أوقع الملك محمود خلافات بين الترك والكرد، وكانت العداوة قد بدأت بين "محمود" و"نادر" منذ أن أمر الشاه طهماسب الأخير بدفع الملك محمود عن أذربايجان.

(*) يُرجع إلى حاتم رشاد، مرجع سابق، ص١٢.

(١) لا يختلط هذا الاسم باسم "طهماسب قلى جلاير".

(٢) عن فترة شباب نادر تنقل روايات لعب فيها الخيال زيادة أو نقصاناً مثل ماجاء فى كتب "اوتر، هانوى، جان تيل وغيرهم" ويمكن أن يوجد من الحكايات ماهو منقول من الجزء الأول من تاريخ محمد كاظم وهو مفقود الآن .

(**) أحمد الخولى : الدولة الصفوية، ص ٤١ ومابعدها.

(***) فيما يروى عن قدرات نادر المبكرة يرجع إلى حاتم رشاد ، المرجع السابق، ص١٤.

وابتداءً لم يساعد "نادر القزلباش" بالنحو المطلوب وذهب إلى آبيورد ولكن عندما استولى الملك محمود على نيشابور، نهض "نادر" إلى محاربة محمود من جديد وكان النصر فى هذه الحرب لصالح محمود السجستانى وشرع فى ضرب السكة ووضع تاج السلطنة على رأسه.

وما إن مرّ وقت حتى نهض "نادر" لسحق المتمردين الافشار ،"قاطنى قلعة غورخان يا قورغان"[1] والتاتار فى أطراف مرو، وكانت قوات "نادر" دائماً تزداد فقد كان يُدخل القبائل المغلوبة تحت لوائه بعد كل فتح ويلحق رجالاتها فى صفوف جيشه.

وفى هذا الوقت هرب الشاه "طهماسب" من أمام الأتراك والأفغان واتجه صوب مازندران وعزم "الملك محمود" الذى كان فى "جوين" على أن يخلعه من خلال الهجوم عليه. فأرسل "الشاه طهماسب" "معير الممالك" من أركان بلاطه إلى "نادر" والظاهر أن المحادثات التى أجروها قد أوصلت إلى قتل "فتحعلى خان قاجار" قائد الشاه الذى رغب "نادر" فى منصبه وسلموا فتحعلى خان لــ "نادر" وفى ١٤ صفر ١١٣٩هــ/٢ أكتوبر ١٧٢٦م قتل فى خيمته "نتيجة خطأ وخدعة".

ومن هذا التاريخ تعهد "نادر" بأمور ملك خراسان فى ٢١ محرم عام ١١٣٩هــ/١٨ سبتمبر ١٧٢٦م واستولى على مشهد وسخّرها فى ٦ ربيع الثانى ٢ ديسمبر من العام نفسه. واستخدم نادر الحيلة وعزل "الملك محمود". وجعل مقره فى مشهد، وأحضر أتباعه أيضاً إليها وذهّب القبة الرضوية المطهرة. (*)

ولمّا لم يكن "نادر" راغباً فى كسب رضى ومحبة الشاه على الإطلاق، ذهب الشاه إلى "خبوشان" وأرسل إلى القبائل والطوائف بأنه يتهم "نادر" بالخيانة[2]، فحاصر "نادر" "الشاه" الذى استسلم بعد عيد النيروز عام ١١٣٩هــ/مارس ١٧٢٧م

---

(١) يكتبون فى بعض النسخ قوزغان بالزاى. (شفق)

(*) المقصود ضريح الإمام على الرضا ثامن الأئمة الاثنى عشرية.

(٢) يعدون بداية النزاع بين "نادر" والشاه راجعًا إلى طلبهما ابنة "سام بيك خبوشانى". (شفق)

ولمّا لم يكن هناك شك في مقاصده رأى من اللازم أن يخمد تمرد الأكراد فى "گز وخبوشان" واستقل بحجة هدوء الفتن وصمم على أن يضع حداً لأعمال السجستانيين. ومن هنا قضى على "الملك محمود" وكثير من أتباعه.

الحرب ضد طوائف الابدالية :

احتدم القتال مع الأفغان الابداليين(*) فى ذى الحجة ١١٣٩هـ/ ١٧٢٧م. هذه الطوائف كانت تقيم فى جنوب مشهد حيث "سنگان به دادين خواف" فسخر "نادر" القلعة الموجودة فيها بلا مقدمات.

غير أن خلافاً ظهر بين الشاه و"نادر" من جديد؛ فقد أصر الشاه على أن يرسل "نادر" إلى أصفهان. ولكنه كان يريد القضاء على الأعداء القريبين أولاً خاصة الابداليين الذين كانوا فى هرات. فأعطى الشاه طهماسب قائد حرسه "محمد على خان" مقام النيابة فى سلطنة العراق وأذربيجان. ولمّا كان هذا الصنيع لم يوافق رغبة نادر فقد حث الشاه على أن يتجه إلى مشهد، وبقيت الحملة على الأفغان رهينة التعويق والدحر من جانب التركمان فى الصحراء الشمالية لخراسان بلا فائدة أيضاً، وإن كان فى وصول "نادر" حتى "تابلخان داغى" "بالقرب من كراسنودسك". قد أدى إلى توقف تقدم أخيه "إبراهيم خان" فى الداخل "غرب عشق آباد".

تسخير الولايات الواقعة على ساحل بحر الخزر :

على الرغم مما حدث؛ كان محيط الفتوحات لدى "نادر" يتوسع يوما بعد يوم. ففى استرآباد ومازندران حُلت حكومة "محمد على خان"، وواجهت مقدمة جيش "نادر" بعد تسخير تلك النواحى: الأفغان فى ولاية طهران والروس فى ولاية

(*) رحلت هذا الطائفة من مسكنها الأصلى فى كابل عام ١٠٠٠هـ، وأقامت فى هرات وهى من حيث العدد تزيد عن نظيرتها الغلچائية. قدوسى فى "نادرنامه"، مرجع سابق، ص١١.

جيلان. أرسل نادر رسالة إليهم[1] يطلب إخلاء الولايات الشمالية. ونظراً لأن الحكومة الروسية كانت قد عزمت على رعاية القوات فى ولايات إيران بسبب تلوث الماء والهواء وزيادة الإنفاق فى رعاية العسكر فى ولايات إيران ابتداء من ١٦ رجب ١١٣٧هـ/ ٣٠ مارس ١٧٢٥م وشرعت بالتدريج تخرج القوات من إيران شرط ألا يحتل العثمانيون الولايات المذكورة وأن يرسل الشاه جيشه إلى تلك الأنحاء[2].

تسلط "اللهيارخان" فى هرات :

قبل الشروع فى الإقدام إلى ناحية الغرب وجب الاطمئنان من ناحية الشرق. وكان قد حدث خلاف بين الأفغان فى هرات قضاءً وقدراً فصارت جماعة تؤيد "اللهيارخان" وأخرى تؤيد "ذوالفقار خان". وفى ٤ شوال ١١٤١هـ/١٧٢٩م وصل "نادر" إلى "تربت جام" وذهب "الشاه طهماسب" فى إثره إلى هناك أيضاً، ورغم أن الطوائف الأفغانية تصالحت مع بعضها وافق "نادر" على أن يحقق تقدمات من ناحية "هرات وفراة"، وبعد مفاوضات ناجحة أدخل الأفغان فى طاعته، ومن حسن تدبير "نادر" أنه أبقى على "اللهيارخان" فى حكومة هرات، وأسكن القبائل المتحدثة بالفارسية مثل "جمشيدى" وغيرها فى مشهد وجام، وبعد شهرين من القتال عاد إلى مشهد فى الخامس من ذى القعدة ١١٤١هـ/١ يونيو ١٧٢٩م[3].

---

(١) دخلت سواحل بحر الخزر من ناحية جنوب "دربند" إضافة إلى ولاية "جيلان" فى زمان بطرس الكبير ١٧٢٢م فى حوزة الروس. (شفق)

(٢) حسب يوتكوف "المجلد الأول" عدد الروس الذين ماتوا فى فترة مدتها اثنتا عشرة سنة فى حدود عشرين ألفاً إلى مائتى ألف فرد كان منهم أربعون إلى خمسين ألفا ضمن الأفواج العسكرية، ص١٤١. (شفق)

(٣) وردت وثائق هذا المطلب فى كتاب "سولويف" الفصل التاسع عشر ، ص١٢٧٦. (شفق)

عاقبة أمر القبائل الغلزائية :

عندما رأى أشرف الغلزائى "الغلجه اى" "نادر" مشغولاً فى أطراف الشرق حرك الجيش فى ١٣ محرم ١١٤٢هـ/٨ أغسطس ١٧٢٩م وحاصر "سمنان" وتحرك جيشه إلى بسطام بقيادة "سيدال" من أمام "قراول". فهزم "نادر" سيدال. وفى ٧ ربيع الأول١١٤٢هـ/ ٢٩سبتمبر١٧٢٩م وقعت معركة حاسمة على ساحل نهر "مهماندوست" وحصدت مدفعية "نادر" فيها أرواح العسكر الغلزائى[1]. وكان أن توارى أمر الأفغان بعد هذه الموقعة، وحينما ركز "نادر" على نظام جيشه توقف دون تعقب المهزومين ولكنه فكر فى تدبير، وهو أن يتهدد الأفغان من ناحية قزوين، وعلى الفور دعا العثمانيين إلى إخلاء أذربيجان وسلك "نادر" أسلوب الأمر الواقع وتصرف بعناد، وظهر بينه وبين الشاه طهماسب ما يؤذيه من جديد.

وحدثت الحرب الثانية ضد الجيش الأفغانى التى قادها حاكم طهران فى وادى "خوار" وخلص "بيلاى كاسپياى" أفاغنة طهران فلجأوا إلى أصفهان وقُتل ثلاثة آلاف فرد من مشاهير تلك المدينة سريعاً وتقفى "نادر" الأثر وغلب الأفغان فى ٢١ ربيع الثانى ١١٤٢هـ/ ١٢ نوفمبر ١٧٢٩م فى "مورچه خورت" وبعد ثلاثة أيام وصل إلى العاصمة أصفهان. ولما كانت خراسان قد تمردت هيأ "نادر" مقدمات عودة الأتباع من أجل "حفظ" وطنه من الغزاة " بينما كان رجال البلاط الملكى يرون أن الخرسانيين ينبغى التسامح معهم وأن يُعهد بالعمل إلى غيرهم. أما الشاه[2] صانعه فقد رعاه "نادر" بدوام الاتصال.

---

(١) يضبطها "ميرزا مهدى خان" جنود المدفعية الغربيين. (شفق)

(٢) وصل الشاه فى ٨ جمادى الأولى ٢٩ نوفمبر ١٧٢٩م إلى أصفهان. (شفق)

وفى جمادى الثانية١١٤٢هـ/ آخر ديسمبر ١٧٢٩م هزم "نادر" أشرف فى المرة الأخيرة فى حرب دارت رحاها فى "زرقان" على بعد خمسة فراسخ من شيراز حيث تفرق جيش أشرف وهُزم. وفى النهاية بينما كان بصدد الوصول إلى "بلوچستان" فصل المنافقون فى قندهار رأسه عن جسده، وأرسل "نادر" مبعوثه إلى الهند لكى يشرح فتوحاته للملك المغولى ويطلب منه ألا يسمح للفارّين الأفغان أن يحطوا بأرض الهند فى الوقت الذى يتحرك فيه جيشه صوب قندهار، وكان هذا أول مؤشر على توجه "نادر" لتسخير نواحى الجنوب الشرقى!

نادر فى النواحى الشمالية الغربية الإيرانية :

سلك "نادر" طريق "كهكيلوية" انطلاقاً من شيروان ووصل إلى "باشت" فى نوروز ١١٤٢هـ/١٧٣٠م ثم إلى "بروجرد" عن طريق "شوشتر" و"دزفول" و"خرم آبان". أرسل الشاه الذى سُر كثيراً إلى "نادر" تاجاً مرصعاً مع تعهد بولاية "گز" من توابع خراسان أى "قندهار حتى پول كوربى"(١) رأس الحد التى مع العراق بضم مازندران ويزد وكرمان وسجستان(٢) وزوَّج نادر واحدة من أخواته المدعوة رضية خانم(٣) والأخت الأخرى "فاطمة سلطان بيگم" إلى "رضا قلى ميرزا".

العثمانيون يخلون أرض إيران :

لمّا لم يُعط العثمانيون ردًّا إلى سفير إيران استولى "نادر" على "نهاوند" وغلب الأتراك فى "ملاير" فأخلى عبد الرحمن باشا همدان على وجه السرعة واتجه إلى سنندج ولم يمض طويل وقت إلا وسقطت "كرمانشاه" فى يد "نادر".

---

(١) يكتبونها فى بعض النسخ كوبى. (شفق)

(٢) على حزين (الشيخ محمد حزين)، ص ١٨٩. (شفق)

(٣) ربما يعد المسلمون هذه المصاهرات خاصة إذا كانت الأم لها أكثر من ابنة حقيقة جائزة بناء على قول (ب) المجلد الأول، ص١٠١٤، فابنة الشاه سلطان حسين التى زُوجت من "نادر" كانت زوجة لـ "داودام" الأمير الجرجى ولها منه ابن كان له من العمر اثنى عشر عاماً عندئذ ، ص١٠١٤. (شفق)

أسرع "نادر" بعد تنبيه البختياريين والتركمان من "كوكلان" إلى ناحية أذربيجان فى الأول من محرم ١١٤٣هـ/ ١٧ يونيو ١٧٣٠م ووصل فى جنوب مراغه إلى قبائل "بيورت" طائفته الأصلية وهجَّر ثلاثة آلاف من العوائل القراقلو الافشارية من هناك إلى خراسان.

كان العثمانيون يتراجعون من كل مكان. ووصل "نادر" فى ٢٧ محرم/١٢ أغسطس من نفس العام إلى تبريز، وعزم على أن يزحف إلى "نخجوان وايروان" لكن أخباراً غير سارة وصلته من مشهد فى الأول من صفر/ أغسطس وكانت هذه الأخبار تقول بهجوم الابداليين على مدينة مشهد فتغيرت خطة "نادر" كلية وتصادفت مع الحوادث التى وقعت فى استانبول وانتهت بعزل السلطان أحمد الثالث [١].

تمرد الابداليين :

كان "ذوالفقار خان" حاكم "فراه" قد طرد "اللهيارخان" الابدالى صديق "نادر" من هرات وساقه حتى حدود مشهد حيث هزم "إبراهيم خان" فى ١٣ محرم ١١٤٣هـ/ ٢٩ يونيو ١٧٣٠م فترك "نادر" شخصاً اسمه "بستون بيگ افشار" فى تبريز، وعاد سريعاً إلى مشهد، إلا أن المتمردين الأفغان كانوا قد عادوا إلى ولاياتهم فعزم "نادر" على التوجه ناحية الشمال لتنبيه طوائف التركمان "يموت"[*] غير أنهم عندما عرفوا بخبر تحركه هربوا إلى ناحية "خيوه". وفى أواخر ربيع الثانى ١١٤٣هـ/ نوفمبر ١٧٣٠م شرع "نادر" فى تفقد طوائف التركمانية التى كان قد هجّرها من ولايات إيران حديثاً، وكان عددها يصل إلى خمسة آلاف وستمائة فرد ، وهكذا كان مركز الثقل الإيرانى يميل بشكل واضح إلى جانب الشمال الشرقى.

---

(١) كان من إحدى أسباب التمرد غير المقبول للإنكشارية تغيير السياسة العثمانية لأن الإنكشارية كانوا قد اشتروا أملاكاً فى أذربيجان ينبغى تركها. يُرجع إلى كتاب ميرزا خان الذى أخطأ إلى حد فى تحديد السنوات. يُرجع إلى كتاب " هامر" Hammer ، ص٦٤.

(*) هى قبائل تركمانية الأصل.

أخضع "نادر" بإصرار بالغ الولايات المتمردة ودفع الجيش لحرب الابداليين، وكان "حسين" الغلچائى القندهارى يساعدهم. ووصل نادر فى ٤ شوال ١١٤٣هـ/ أبريل ١٧٣١م إلى مقربة من هرات بثلاثة فراسخ، ووقعت حرب مثيرة إذ رغبت بعض فرق "نادر" فى ناحية بلخ لإعمال النهب فى طوائف الأزبك بينما حارب البعض الآخر إلى جانب "هلمند" فى منطقة "كرشك بست" وحارب أهل "قندهار". وفى نهاية الأمر عزل الأفغانيون فى "هرات" "ذوالفقار خان" ودعوا "اللهيار" إلى حكمهم. خرج "اللهيارخان" فى يوم ١٨ صفر ١١٤٤هـ/ ٢٢ أغسطس ١٧٣١ من معسكر "نادر" وذهب إلى "هرات" ولكنه ما إن وصل إلى قومه حتى رفع راية التمرد أيضاً وصعّد الحرب فدخل جيش إيران فى حروب "كازران" و"كبر ترخان" فى ٢١ ربيع الثانى ١١٤٤هـ/ ٢٣ أكتوبر ١٧٣١م. ولكن الأفغان سخروا "هزاره" و"أربه" بمساعدة الطوائف المتوطنة، وفى النهاية سلمت هرات فى أول رمضان ١٧ فبراير من العام نفسه وأبعد "اللهيارخان" إلى المولتان فى الهند ووُزعت طوائف الابداليين بعد انتظام ورتق جديد على مسافة من سجستان وآبيورد. وبعد ذلك سيطر "إبراهيم خان" أخو "نادر" على "قراه" بتأثير من "حسين" القندهارى، ودلف نادر فى ١٩ رمضان ١١٤٤ هـ/ ١٧ مارس ١٧٣٢م لتسكين ولاياته الخاضعة.

فشل طهماسب الثانى :

بناء على قول "ميرزا مهدى خان" كان الشاه طهماسب يرغب فى أن يقول « إن "نادر" مملكة منفصلة، واسترداد أذربيجان ليس بحاجة إلى مساعدته!! وكان مشاوروه يسرّون إليه ويقولون له إنه فى أثناء انشغاله فى خراسان بدت منه علامات غرور ».

وفى جمادى الثانية ١١٤٣هـ/ آخر ديسمبر ١٧٣٠م اتجه الشاه من أصفهان عازما على مواجهة العثمانيين , وذهب إلى تبريز عن طريق همدان وعزل الحاكم[١] الذى كان قد نصّبه "نادر"[٢] فأسرع إلى تسخير إيروان على رأس جيش مقداره ثمانية عشر ألف جندى ولكن الحصار انتهى بعد ثمانية عشر يوماً لنفاد ذخيرة جيشه، وعبر نهر "ارس" وقاده إلى "سلطانيه"، وقد جعل وصول أفواج الشاه الفارسية مستعدة للهجوم، واصطدم حوالى قوريجان"[٣] على بعد خمسة فراسخ شمال شرقى همدان بالجيش العثمانى الذى كان يقوده أحمد باشا البغدادى[٤]، وقد تكبد جيش القزلباش خسائر ما بين أربعة إلى خمسة آلاف قتيل واستقرت مدفعيته وهرب الشاه إلى أصفهان، واستولى "أحمد باشا" على المنطقة الممتدة حتى أبهر شرق سلطانيه. وتزامناً مع هذه الأحوال تحرك قائد تركى آخر هو "علي باشا حكيم أوغلو" من ايروان وأخضع تبريز ومراغه، فقط بقيت قلعة "دم دم" جنوب أورميه التى كانت مسكناً لطائفة الافشارية إذ قاوم أهلها بشجاعة.

طرح الأتراك الذين كانوا يخشون عودة "نادر" مقدمات الصلح فى بغداد على وجه السرعة.

وبناء على هذه الاتفاقية عادت الأراضى الواقعة جنوب نهر "ارس" إلى إيران، أما الأراضى الواقعة فى الناحية الشمالية منه فكانت من نصيب الأتراك. وكان أن عُهد إلى "أحمد باشا" إضافة إلى ذلك بتسع مناطق من كرمانشاه فى شكل إقطاع.

---

(١) هو بيعوذخان الافشارى. (شفق).

(٢) هامر الفصل ٦٦ العاشر من يناير ١٧٣٢م. (شفق)

(٣) يكتبها ميرزا مهدى خان قرية كردخان. (شفق)

(٤) عن كتاب هامر ، منقول عن صبحى، بتاريخ ١٥ سبتمبر ١٧٣١م. (شفق)

وفى ٢٤ رجب ١١٤٤هـ/ ٢١ يناير إلى أول فبراير سنة ١٧٣٢م عقد ممثلو الشاه اتفاقية أخرى مع الروس فى "رشت". وبموجب هذه الاتفاقية وجب أن تخلى الأراضى الواقعة جنوب ساليان "ساحل نهر كور" سريعاً، ولكن بعد تسليم "باكو ودربند" المدرجة فيها، فللإيرانيون الحق فى أن يأخذوا ايروان وما وراء القفقاز من الأتراك، أما تشجيع الروس الأساسى فكان ناتجاً عن أنه ربما يتبين العثمانيون وجوداً فى ساحل بحر الخزر.

خلع الشاه طهماسب:

وتزامناً مع فتح هرات؛ وصلت إلى يد "نادر" نسخة من اتفاقية إيران والدولة العثمانية فأبدى نفوره من الاتفاقية التى عقدت بعد الهزيمة[1] وأرسل مبعوثين إلى استانبول وبغداد طالباً كل البلاد التى فقدها الصفويون، وأرسل موفداً من الافشار إلى أصفهان بأن فتحه وهزيمة الأفغان قد أعمت عين "الشاه طهماسب" عن عقد الاتفاقية المذكورة التى كانت قد تغاضت عن مصير الأسرى الإيرانيين فى الديار العثمانية بما يزعجهم ويسبب ملامتهم.

وبعد تنظيم الأمور فى الولايات الجديدة وصل "نادر" إلى مشهد فى ١٢ شوال١١٤٤هـ/ ٧ أبريل من عام ١٧٣٢م، ولما كانت هزيمة الشاه فى كل ولاية قد أوجدت خلافاً وفساداً اغتنم "نادر" الموقف ونصب حكاماً على أغلب الولايات حتى أذربيجان وجمع تجهيزات حربية جديدة بدقة تامة، وأجبر الأفغان من جديد على الطاعة والتراكمة المتمردين إلى تزويد الجيش، وعهد "نادر" إلى "إبراهيم

(١) ليس غريبا أن العثمانيين كانوا غير راضين أيضا عن هذه الاتفاقية التى أعادت تبريز إلى إيران وأعفوا الصدر الأعظم توبال عثمان من منصبه (١٧٣٢) كان اتفاق الشاه طهماسب مع العثمانيين خالياً من المكاسب، أما الاتفاق مع الروس فكان يحسب على أنه تقدم مفيد لكن نظر "نادر" كان أبعد من ذلك. (شفق)

خان" بحكومة خراسان وخرج من مشهد فى يوم ٧ محرم ١١٤٤هـ/٣٠ يونيو ١٧٣٢م وفى عرض الطريق حمل على تراكمة "يموت" وتقدم حتى "مشهد مصريان"[*] بالقرب من "اترك" و"تابلخان" أما التركمان فكانوا يتقهقرون إلى النواحى الشمالية بناء على عادتهم. وصل "نادر" إلى جرجان فى ٢٤ محرم ١١٤٥هـ/ ١٧٣٢مْ وسمع أن الروس أخلوا جيلان، وكان "نادر" قد طَالَب "الشاه طهماسب" أن يلتحق بجيشه فى قم أو طهران ولكنه تحجج وانشغل مع "أحمد باشا" والى بغداد فى اتفاقات جديدة ، وبناء على هذا الأمر أجبره "نادر" بأن يذهب إلى أصفهان.

جاء الشاه لرؤية "نادر"، وانشغل فى خيمته بالتسلى والتفريح، فطمأنه "نادر" أنه سيعود أدراجه إلى خراسان بعد انتهاء حرب الأتراك فى خراسان غير أن الشاه لم يثق فى هذا القول كثيراً ولكنه كان على حق لأن نادر تشاور فى مصالح الدولة صباحاً وأيده الأمراء فى الأخذ بأزمة الأمور فأجلس "نادر" على وجه السرعة ابن "طهماسب" الذى لم يكن له أكثر من ثمانية أشهر باسم "عباس" الثالث وأرسل "طهماسب" إلى "مشهد" فى ١٤ ربيع الأول ١١٤٥هـ/ ٤ سبتمبر ١٧٧٣م وأعلن سلطنة "عباس" الثالث بعد ثلاثة أيام رسميًا وأرسل ذلك الطفل إلى قزوين.

(*) هذا الاسم يعطى صورة إلى نزوح مصريين إلى هذه المنطقة وتوطنهم فيها بدليل أن كلمة مصريان تعتبر جمعاً لكلمة مصرى المفردة. وقد ثبت وجود مصريين نازحين فى ألبانيا، ويقال اليوم إن هناك مصريين فى اسكتلندا سكنوا هذه المناطق من زمن قديم. هؤلاء المهاجرون ينصهرون فى المجتمعات الجديدة ويصيرون جزءًا من أهلها كما هو الحال بالنسبة لغيرهم من القبائل العربية التى سكنت إيران وصارت جزءًا من أهلها.

الحرب ضد العثمانيين :

وصل "نادر" إلى "كرمانشاه" بعد تنبيه البختياريين من جنس "هفت لنك"(*) وتقريعهم ومعهم طائفة الزند(**) فى التاسع من جمادى الثانية ٢٧ نوفمبر. وفى ٢٢ جمادى الثانية ١١٤٥هـ/٩ ديسمبر١٧٣٢م حمل عليهم من طرق "ماهيدشت وكرند وجبل كاوروان كاروان" أى "گهواره"(١) وحمل على "أحمد باشا باجلان"(٢) وسخر قلعته الحصينة فى "زهاب" وتزامناً مع هذا الوضع نهض "لطفعلى بيك" نائب الحكومة فى أذربيجان لمساعدة "نادر" بجيش آخر من ناحية "قراچولان" فى شمال شرق السليمانية.

توجه "نادر" فى الثانى من رجب ١١٤٥هـ/ ١٨ ديسمبر ١٧٣٢م إلى كركوك على أمل أن أحمد باشا سيخرج من بغداد أيضاً ولكنه اضطر إلى أن يواصل تقدمه ويواجه طريق صحراء كوربى "تاش كوپرو" وتقدم من "قراتپه" حتى "ينگجه". وفى الثانى من شعبان١١٤٥هـ/ ١٧ يناير ١٧٣٣م سخر المرتفعات

(*) يرجع فى هذه الفصائل البختيارية إلى بحث عشائر البختياريين ودورها فى تاريخ إيران المعاصر للدكتورة ماجدة محمد العنانى، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة، مجلد ٨ عدد (٢) ابريل ١٩٩٨، وتشير فى ص ٣٤٧ إلى أن هانوى المعاصر للأحداث ذكر أن البختياريين من جنس (چهارلنگ وهفت لنگ) قد اشتركوا فى صد هجوم الأفغان على أصفهان فى عام ١١٣٤هـ، ص٣٤٥: ٣٤٧.

(**) الزند هم قاطنو المنطقة الواقعة قرب مدينة شيراز ومؤسس دولتهم "كريم خان زند" وهو أول إيرانى الأصل يحكم فى إيران بعد الإسلام. "تاريخ إيران"، كتبه مجموعة من المستشرقين الروس، ترجمه إلى الفارسية "كريم كيشاورز"

(١) كهواره ليست صحيحة لأن هذا المكان يقع على مسافة خمسة فراسخ شرق "گرند". بناء على قول ميرزا مهدى خان، فإن جبل "كاروان" يقع فى الناحية الجنوبية من گرند وفعلا فإن جبلا باسم كاره مخفف گاوراه موجود فى هذه الناحية (شفق)

(٢) يقال إن باجلان ينبغى أن تضبط على بابلان. (شفق)

المواجهة لــ "الكاظمين"[١] وأقام مهندس أجنبى جسراً من خشب النخل وعبر "نادر" من "دجلة" واستولى على جدران بغداد من أجل إدخالها فى الحصار، وفى هذا الوقت صدر الأمر للشيخ عبد الباقى وطائفة بنى لام ووالى عربستان[*] بفتح البصرة.

وعد "أحمد باشا" أن يسلم مدينة بغداد فى آخر صفر بسبب ضيق الوقت وفى هذا الموقف تقدم جيش "توپال عثمان" عن طريق كركوك فجهز "نادر" اثنى عشر ألف جندى لحرب بغداد. وفى ٦ صفر ١١٤٦هـ/ ١٩ يونية ١٧٣٣م حمل باقى جيشه فى مواجهة توبال عثمان من ناحية "سامراء" وهزم "نادر" بجوار دجله وتقهقر إلى ناحية بهريز "بلد روز" ومندلجين "مندلى".[٢]

وصل نادر فى ٢٢ صفر/ ٤ أغسطس من نفس العام إلى همدان وأظهر مهارة بالغة فى تنظيم وتدريب قواته، وأعطى عشرين ألف تومان إلى عسكره لكى يتداركوا تكاليف السفر، وطلب جيشاً جديداً من خراسان، وأمر الوالى أن يمنع الثورات المحلية، وتهيأ جيش "نادر" فى خلال شهرين للحرب وسلك طريق "كرمانشاه" و"زهاب" فى ٢٢ ربيع الثانى / ٢ أكتوبر وأخلت مقدمة الجيش العثمانى مكانها فى "جمشاه"[٣] على مقربة من ديالة. وفى هذا الوقت وصل خبر ثورة "محمد خان بلوچ" [٤] الموحش غير أن "نادر" لم يضطرب وأسرع إلى "ليلان" فى ٢ جمادى الأولى / ٢٠ أكتوبر التى تقع على مقربة من كركوك بثلاثة فراسخ وتهيأ للهجوم على معسكر العثمانيين المحكم فى علمداران، ولمّا كان للأتراك

---

(١) قصد ميرزا مهدى خان من لفظ رءوس الهضبة المحاذية لزاوية مقدمة كاظمين ليس ارتفاعاً بل اسم محل. (شفق)

(*) من أسرة آل مشعشع فى الحويزة.

(٢) بناء على رواية "دنيكرم" طبيب "توبال" عثمان حدثت هذه الحرب فى ١٩ يونية فى "سرسيك" على ما يبدو. يُرجع إلى القول المنقول فى كتاب هامر، الفصل السابع ١-٦٠٠. (شفق)

(٣) فى الظاهر أنها جمشاه : وهناك جم شير المعروفة. (شفق)

(٤) هو حاكم كهكيلويه. (شفق)

وجود راسخ فى كركوك فقد اكتفى "نادر" بتسخير "سورداش" القريبة من السليمانية التى كانت مقرًا لإمدادات الجيش العثمانى وأمر القوات المساعدة التى بقيت فى "طاق سلطان"[١] بالقرب من كرمانشاه أن تتجه إليها ويحملون عليها نهبا، لمحصولات مدينة "زور"[٢] حتى تكون جاهزة للزحف المقبل على بغداد، فعرف وهو فى "قرانية" أن "ممش باشا" استطاع أن يأخذ فى طريقه "دربند" على مقربة من "سورداش" بسبعة فراسخ بجيش قوامه تسعة عشر ألف رجل بدروعهم الحربية مفاجأة فى أول جمادى الثانية ٩١ نوفمبر عن طريق "بازبان" ولقد ورد "توپال عثمان باشا" بشخصه ميدان المعركة، وأظهر الابداليون شجاعة فائقة فى هذه الحرب ففصل إيرانى رأس "عثمان باشا"[٣] عن جسده[٤] فصار فتح "نادر" حاسما[٥]. وأرسل أفواجا لإمداد محاصرى بغداد، وتحرك هو لتحرير أذربيجان على وجه السرعة، وسمع فى "بانه" أن "تيمور باشا"[٦] قد أنقذ تبريز واتجه إلى "بوان" فتحرك "نادر" فى طريق "قراتپه ليلان خرماتو" وسامراء فى ٢٦ جمادى الثانية ٤ ديسمبر ليصل إلى بغداد مرة أخرى. وهنا أعلن "أحمد باشا" أنه مُخير من جانب دولته أن يرسم الحدود بين إيران والدولة العثمانية على النحو الذى كانت عليه فى القديم وأعمل التحايل والتلاعب؛ إلى حد أنه كتب عدة رسائل إلى حكام ما وراء القفقاز يأمرهم بإخلاء استحكاماتهم، ولكنه لم يخرج هو نفسه من بغداد وصرح قائلاً : «إن هذا العمل مناف لقانون الدولة العثمانية!». ووافق "نادر" فقط فى أن يتبادل الأسرى، ولم يُصر على شىء أكثر من ذلك علماً بأن خاطره كان مضطرباً من النواحى الجنوبية لإيران.

---

(١) الظاهر أنها "اطاق وسطام" التى يقولون لها اليوم طاق بستان. (شفق)

(٢) هى ناحية خصبة فى شمال إيران . (شفق)

(٣) راجع تاريخ هذا الرجل الفذ فى كتاب هامر، الفصل ٦٥. (شفق)

(٤) اسمه الله يار من قبيلة ايلى. (شفق)

(٥) أمر نادر أن يربطوا رأسه بجسده وأعطوه لـ "عبد الكريم افندى" قاضى العسكر العثمانى ليحمله إلى وطنه ليدفن. (شفق)

(٦) هو المعروف بـ "تيمور باشا ملى". (شفق)

طغيان محمود بلوج[1] :

كان هذا الشخص من البلوج في معسكر "محمود الغلزائي" ثم ظفر بقيادة جيش الشاه "طهماسب" الثاني[*]، ونُصِّب من جانب "نادر" في حكم كوهكيلويه جنوب أرض البختياريين. وفي هذه الأثناء حث جميع الأنحاء في جنوب إيران من فارس وخوزستان وعشائر ساحل الخليج على الثورة.

تحرك "نادر" من بغداد بعد زيارة العتبات المقدسة في ١٦ رجب١١٤٦هـ/ ٢٢ ديسمبر ١٧٣٣م واتجه عن طريق "بغساي" إلي بـ "بكسايه"[2] وبيات وبيان وشوشتر وبهبهان وخبر آباد ودوگنبدان، فكان "محمود" قد تمركز في ممر جبل "شولستان" لكنه هُزم سريعاً وذهب إلي مصايف فارس. وانتهى الأمر بأن أسره رئيس القبيلة العربية في جزيرة "قيس" وسُملت عيناه في عام ١١٤٧هـ/١٧٣٤م وعُوقب في أصفهان.

وصل "نادر" إلي شيراز في ٢٥ شعبان١١٤٤هـ / ١ فبراير سنة ١٧٣٢م وقضى النيروز في تلك المدينة، ولمَّا لم يكن خبر تصويب تعهدات "أحمد باشا" قد وصل من جانب الدولة العثمانية تحرك "نادر" في ١٥ ذي القعدة ١١٤٦هـ/ ١٨ أبريل ١٧٣٤م ناحية الشمال، وفي الطريق سمع بخبر ولادة حفيده شاهرخ "ابن رضا قلي ميرزا" من أخت "الشاه طهماسب"، وكانوا يعدُّون وجود هذا الطفل موجباً لانتقال "مشروع" للسلطنة من الأسرة الصفوية إلي السلالة الافشارية.

---

(١) الصحيح هو محمد خان. (شفق)

(*) معلومة لم ترد لدى المستشرقين الآخرين في أمر هذا الشخص.

(٢) ضبطت في روضة الصفا "باغباني" وفي جهانگشاه "باغباني". (شفق)

فتوحات نادر فى ما وراء النهر:

فى ٢٦ ذى القعدة١١٤٦هـ /٢٩ أبريل ١٧٣٤م وصل "نادر" إلى أصفهان وأورد "عبد الكريم أفندى" خبرًا مؤداه أن الدولة العثمانية قد أقرت "عبد الله باشا كوبر لوزاده" سفيراً مختاراً، فأرسل "نادر" رسالة إليه بأن الامتناع عن رد ولايات القفقاز ستكون شرطاً لأى مفاوضات وتزامنا مع هذه الأحوال جاء إلى أصفهان الأمير "د. گوليستين"(*) ممثل روسيا وكان "نادر" يصحبه فى موكبه.(١) وفى ١٣ صفر/ ١٥ يونيو وصل إلى أردبيل عن طريق "همدان" و "سنندج" و"صاين قلعه" و "مراغه". وفى ١٩ ربيع الأول/ ٢٩ أغسطس من نفس العام لم يجد معارضاً أو متمرداً على طول طريق إيلات، ووفر فرقاً وذخائر فى بعض النقاط تلحق به وقت الحاجة. وطلب "عبد الله باشا" أن يؤجل حل مشاكل ولايات القفقاز إلى عامين آخرين، ولكن عندما لم يشاهد "نادر" تغييراً فى أوضاع القفقاز حمل بدون ضياع وقت على "سرخاى" رئيس عشائر "داغستان" فى "غازى قموق" أولاً؛ إذ كان هذا الـ "سرخاى" قد وضع يده على "شروان" فى السابق، وصدّق السلطان العثمانى على حكومته؛ فعسكر "نادر" فى ٢٥ ربيع الأول/ ٣١ أغسطس من نفس العام على ساحل نهر "كور" وسخّر "شماخى" بدون حرب بعد أربعة أيام، فاتجه الداغستانيون إلى "قبله" طالبين المدد من اللزكيين" فى "جاروتله"(٢) والقادة العثمانيين، وقد بلغ مجموع جيشهم عشرين ألف رجل فأرسل "نادر" "طهماسب قلى خان جلاير" لمواجهتهم فالتقى بهم عند "داوباتان"(٣) وعاد "نادر" فى هذه الأثناء لقطع خط

(*) D.golitsin

(١) استقبله فى ٢٠ أو ٣١ مايو ١٧٣٤م. يرجع إلى تفصيل جولاته فى لرج شنيز (شفق).

(٢) تقع "قبله" بين شكى وشماخى أما جاروتله فهى فى شمال كاختى فى ماوراء آلازان "قانيق". (شفق)

(٣) يكتبها روضة الصفا يوه ماش وجهانگشا ديوه باش. (شفق)

الرجعة[*] وتقدم سرخاى إلى وسط ولاية "غازى قموق" وكان الزحف فى هذه الولاية صعباً جداً. وعلى الرغم من شجاعة الأفغان الابداليين، لم تحدث نتيجة إذ هرب الـ "سرخاى" إلى ناحية الشمال، وكان أهل "داغستان" قد خدعوا "نادر" فى سبيل عودته، فقط دخل "خاص پولاد" ابن "شمخال" صاحب "ترخو" فى خدمة "نادر" من ناحية ومن ناحية أخرى بشر أمراء جرجستان أنهم قد هزموا جيش الحاكم العثمانى فى تفليس. وَصل "نادر" فى ١٧ جمادى الأولى١١٤٧هـ/ ١٤ أكتوبر ١٩٣٤م إلى "كوت كشْ" على مقربة من "قبله" عن طريق "شاه داغى"[١]. وفى ٦ جمادى الثانية / ٣ نوفمبر من نفس العام وصل إلى قلعة "گنجه" التى اشتغل "على باشا" و"فتحگيراى سلطان" من أسرة "خوانين كريمه" بحراستها. وحدثت حرب دامية استوجبتها أعمال الاستحواذ على القلعة، ووضع الأمير "جوليستين" مدفعية فتح القلعة وفنييها "باكو" تحت تصرف "نادر"[٢] وأقر "صفى خان بغايرى" من جانب "نادر" الذى شرع بالاتفاق مع أعيان "جرجستان" فى محاصرة "تفليس"، ودلف جيش آخر أيضاً لسحق "اللزكَيين" فى "جاروتله" ولكن شدة برد الشتاء منع من هذا التقدم.

كانت الدولة العثمانية تثير "خان كريمه" من أجل إشغال أعدائها فى الشمال من عام ١١٣٦هـ/١٧٢٣م إلى ما بعد ذلك لكى تتدخل فى شئون داغستان، ولكن حكومة روسيا لم تكن تسمح بعبور الجيش من تلك الأراضى التى كانت تحسب على أنها ملك لها. وأخيراً فى عام ١١٤٩هـ/١٧٣٦م انتهت هذه الوقائع بحرب بين الدولتين الروسية والعثمانية[٣]. ولمّا كانت الحكومة الروسية تتوقع هذه الأخطار فقد رغبوا فى أن يخلوا "باكو" و "دربند" بأسرع ما يمكن، ومن أجل هذا القصد وقّعت اتفاقية جديدة فى ٢٧ من شوال ١١٤٧هـ الموافق ٢١ من مارس

(*) التكتيك العسكرى واحد عبر العصور ولكنه يتغير بتغير الإمكانيات.

(١) بالقرب من پطروسك وتسمى الآن مخج قلعه. (شفق)

(٢) يرجع إلى كتاب شنيز Schenese وبوتكوف Botkov. (شفق)

(٣) هامش الفصل ٦٦. (شفق)

١٧٣٥م فى "گنجه" فكانت أن التزمت روسيا وإيران بموجبها أن تشتركا معاً فى جميع الموارد ولا تمتنعا عن التساند وقت هجوم دولة ثالثة(١).

وعندما لم ير "نادر" أن موقع "شماخى" راسخ أمر أن ينقل أهلها إلى مدينة جديدة تقع فى محيط "آق سو".

حرب ايروان :

لما كان "عبد الله باشا كوبرولوزاده" قد وصل إلى مشارف قارص" فقد ترك نادر أفواجاً فى "گنجه" ربما يحمل عليها "الداغستانيون"، وعزم هو على الرحيل منها فى الرابع عشر من ذى الحجة ١١٤٧هـ/ ٦ مايو ١٧٣٥م.

وجد حاكم "وان" مجالاً فى أن يرسل إمداداً إلى مدينة "تفليس" لكن تساقط الثلج أوقف "نادر" لمدة فى "لورى" وارتحل فقط فى اليوم الأول من المحرم ١١٤٧هـ/ ٢٢ مايو ١٧٣٥م فى التوجه إلى "قارص"، ولم تخرج الحامية العثمانية من القلعة، وولى وجهه صوب "ايروان" وكانت هذه المدينة ومعها "گنجه و تفليس وقارص" حصناً حصيناً تحتمى به الدولة العثمانية، وتقفى "عبدالله باشا" بجيش قوامه سبعون ألفاً من الفرسان وخمسون ألفاً من المشاه أثر "نادر" فالتقى الجيشان فى صحراء "باغورد"(٢) فى غرب إيران. وفى يوم ٢٧ محرم ١١٤٨هـ/ ١٨ يونيو ١٧٣٥م. ظفر "نادر" بفتح كبير راح ضحيته(٣) خمسون ألف رجل من الجيش العثمانى كان من جملتهم "عبد الله باشا" نفسه و"سارو مصطفى باشا" ووالى "ديار بكر"(٤).

---

(١) كان ممثلو روسيا يشكون من أن "نادر" لم يكن يسرع فى تنفيذ مواد الاتفاقية. (شفق)

(٢) شاهد جاثليق أرمينيا الذى يدعى "إبراهام كوتى" هذه الحرب ويقول إنها حدثت فى السابع من شهر يونيو "بالحساب القديم". (شفق)

(٣) فى هذه الحرب أسر ما يقرب من ثلاثين ألف أسير عثمانى وحمل نعش عبد الله باشا الذى كان قد قتل على يد "رستم نام قراچور" إلى فارس ثم نقل بواسطة سارو مصطفى باشا صهر السلطان العثمانى إلى إيروان. (شفق)

(٤) اغوارد هكذا يكتبونها فى اللغة الأرمينية والمراد بهذا المكان فى اللغة الفارسية تپه.

وقد قدم الأرمن المدد للإيرانيين بالقرب من "اشترك" حتى يتفوقوا على الأكراد بصحبة حاكم "وان"، وبعد هذا الفتح سلمت "گنجينه" فى ١٧ صفر ١١٤٨هـ/٧ يولية ١٧٣٥م، وتفليس فى ١٢ ربيع الأول/ ٢ أغسطس من نفس العام. وعاد "نادر" إلى قارص" . ولمَّا كانت الحامية ما زالت تقاوم هناك فقد أمر بتخريب ضواحيها. وأمر البلاط العثمانى "أحمد باشا" والى بغداد بإبرام الصلح. ومن أجل أن يحافظوا على "قارص" ضحّى الأتراك بـ "ايروان" وسلمت هذه المدينة فى ١٥ جمادى الأولى/ ٣ أكتوبر من نفس العام.

تحرك نادر إلى داغستان :

كانت أوضاع داغستان مازالت مظلمة ، فقد أخذ الداغستانيون "قبه" وحمل "اوسمى"(١) رئيس ا"لقراقيتاتيين" على "ترَخو" التى كانت عاصمة "شمخال" حليف "نادر".

عزم "نادر" على التوجه صوب جرجستان قادما من أنحاء فارس وولّى "على ميرزا" الذى دخل الإسلام حديثاً بدلاً من "تيمورزا طهمورث" الملك المسيحى الذى أسرع إلى الجبال يائساً ورفع علم الطغيان. وفى يوم ٢٩ جمادى الأولى/ ١٧ أكتوبر من نفس العام وصل نادر إلى تفليس، وبناء على عادته رحل ستة آلاف حيوان إلى خراسان.

ولّى "نادر" وجهه من تفليس إلى محاربة خان كريمه "قبلان گراى" التى توقفت من عام ١١٤٦هـ/١٧٣٣م(٢) إلى ما بعد ذلك فى داغستان. وفى الطريق نبه "نادر" الطوائف اللزكية الجاروتلية أن يتواروا فى ضواحى "داغستان" المترامية.

---

(١) يكتب هذا اللفظ فى اللغة الداغستانية "اوتسمى". (شفق)

(٢) يرجع إلى كتاب "بوتكف" ، الجزء الأول، ص١٢١-١٢٣، وكتاب "اسميرنو" المعروف بخوانين كريمه، طبع أوديسا، عام ١٨٨٩م، ص٥٥. (شفق)

ورد ممثلو الدولة العثمانية معسكر إيران فى ذلك الوقت، وعاد "خان كريمه" على عجل وكان قد اختار حكاماً من جانبه لبلاد مختلفة قبل ذلك (سرخاى فى شيروان، اوسمى فى دربند، الدار فى ترخو). وعلى الرغم من اشتداد البرودة ساق "نادر" عتاداً حربيًّا إلى داغستان فقدّر "خاص پولاد" وعفا عن "اوسمى" بينما خرّب أملاك القاضى "آق قوچه" ولم يصادر أملاك الـ "سرخاى".

انتخاب "نادر" ملكًا على إيران فى "مُغان" :

فى ٩ رمضان ١١٤٨هـ/ ٢٢ يناير ١٧٣٦م وصل "نادر" إلى ملتقى نهر "كور" و "ارس" وضرب خيامه فى صحراء "مغان" بالقرب من "جواد" ودعا جميع الأمراء والولاة. وقيل للحضور إنهم أحرار فى أن ينتخبوا الشاه "طهماسب الثاني" أو الشاه "عباس الثالث" الموجودين أو أى شخص آخر، كما صرح نادر قائلاً إنه قد اختار بعد أن أنجز هدفه فى أن يعود إلى خراسان. وفى البداية لم يقبل تاج السلطنة، اللهم إلا بإصرار مشروط بأن يقلع الإيرانيون عن أدبيات المذهب الشيعى الذى تداولوه بواسطة الشاه إسماعيل. ويتركوا هذا المذهب المخالف لعقيدة آبائنا الكرام وأجدادنا العظام. وعلى هذا النحو سيتم اتحاد الممالك وسيصبح المذهب الشيعى خامس المذاهب الأربعة السنية فى فروع التقليد على طريقة جناب الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر.

قُبل هذا الشرط وكُتب مستند بخاتم جميع الحضور وحُفظ فى الخزينة. وعندئذ أعد "نادر" شروطاً خمسة وهى التى ينبغى أن تعرض على السلطان العثمانى بالنحو التالى :

١- لمّا كان الإيرانيون قد أشاحوا بوجههم عن اعتقاداتهم السابقة فيجب على الدولة العثمانية أن تعترف بالمذهب الشيعى مذهباً خامساً.

٢- ينبغى أن يكون للشيعة ركن خاص فى مكة المكرمة.

٣- أن يُعيَّن أمير للحج من إيران كل سنة ويذهب للحجاز عن طريق الشام[١].

٤- أن يتم تبادل جميع الأسرى.

٥- أن يُقبل تعيين سفراء للدولتين من كلا الجانبين ومقرهما العاصمة.

وكان "على باشا" ممثل السلطان العثمانى والمدافع السابق عن "گنجه" شاهداً على هذا الاتفاق فى صحراء "مغان"[٢].

وفى يوم الخميس ٤ شوال ١١٤٨هـ / ١٥ فبراير ١٧٣٦م[٣] تُوّج نادر وأُرسل السفراء إلى استانبول وسان بطرسبورج "وكان آمر استانبول "عبدالباقى خان زنگنه" وصار الأمير "رضا قلى ميرزا" والياً على "خراسان" ونُصب "طهماسب قلى خان جلاير" وزيراً، وأصبح "إبراهيم خان ظهير الدولة" أخو الملك والياً على أذربيجان "من حدود قبلان كوه حتى اروميه جاى".

الزحف صوب قندهار:

فى ذلك الوقت ظهرت نقطة سوداء فى أفق إيران فقد بقيت ناحية قندهار التي كانت منطلقاً لفتنة طائفة الغلزائيين ومحلاً لحكم "حسين خان" أخى "محمود" الذى يحسب على أنه محرك الابداليين فى هرات، فتحرك "نادر" فى ٣ ذى الحجة ١١٤٨هـ/١٤ أبريل ١٧٣٦م من "مغان" واتجه إلى "قزوين" عن طريق "جرمرود" و "هشترود".

---

(١) فى نص جهانگشا على نفس طريق أمير الحج فى مصر والشام يعنى أنه بطريقتهما (شفق).

(٢) هذا بناء على قول "ميرزا مهدى خان". وقد ذكر "جاثليق إبراهام" فيما يتصل بالمراسم الظاهرة فى هذا المجلس تفاصيل كثيرة ولم يقل كل من المؤرخين شيئاً عن اعتراض مرجع شيعى أنه رفع رأسه معارضاً فى هذا الصدد. يرجع إلى الجزء الأول من كتاب "اوتر"، ص٣٣٢. (شفق)

(٣) بناء على جداول "وستنفلد" فإن يوم الخميس الثامن من مارس ١٧٣٦م المطابق لـ السادس والعشرين فبراير هو الحساب القديم. وقد سجل "إبراهام كونى" نفس التاريخ الأخير. (شفق)

وحدث فى هذه الأيام تنبيه الأكراد المخادعين وتسخير جزر البحرين على يد حاكم فارس واستسلام "دلاور خان نايمن" الذى كان قد استقر فى هذه الديار بعد صراع ضارٍ، وكانت البحرين قبل تسلط حاكم فارس فى يد الشيخ "جبار هوله".

ذهب "نادر" من قزوين لتنبيه البختياريين، وفى ٩ جمادى الثانية ١١٤٦هـ/١ أكتوبر ١٧٣٦م وصل أصفهان. ومن هناك اتجه إلى النواحى الشرقية، وفى ١٨ شوال سخر "كرشك"، وفى ٢١ شوال عبر الجيش نهر "هلمند" ووصل إلى مشارف قندهار" قبل "نوروز" ١١٤٩هـ/١٧٣٧م.

أقام "نادر" الأبراج والقلاع المحكمة فى معسكره المعروف بـ "سرخه شير" وأحدث مدينتين جديدتين باسم "نادر آباد"، واستسلمت "بست" فى المحرم ١١٥٠هـ/ مايو ١٧٣٧م.

وأُسر "سيدال"[١] الذى كان رجلاً متشرداً فى قلعة "كلات" وسملوا عينيه ووجّه عدة أفواج لسحق "البلوچ" وعين والياً على "بلوچستان".

أمر رضا قلى ميرزا بتسخير "بلخ" فاستولى عليها فى ربيع الأول ١١٣٧هـ/ديسمبر ١٧٢٤م وأعلن أهل "قندوز" التابعة لـ "بدخشان" طاعتهم.

وقد تجاوز الأمير الافشارى أمر أبيه وعبر نهر "جيحون" واتجه عن طريق "قرشى" "نخشب" إلى "بخارا" وغلب خاناتها بالإضافة إلى "خوارزم" وأهلك عدداً من قادة عسكر الأمير. غير أن "نادر" غضب من سماع هذه الأخبار وأرسل إلى ابنه يأمره بالعودة من وراء النهر.

وأمر "نادر" فى ٢٢ ذى القعدة ١١٥٠هـ/٢٢ مارس ١٧٣٨م بحملة عامة على "قندهار" غير أن زحف أفواج البختياريين والأكراد والابداليين أعاقوا العمل فى بدايته. وفى اليوم الثانى من ذى الحجة استولى البختياريون على برج "ده ده" واستسلمت "قندهار" وأبعد "حسين خان الغليزائى" و"ذو الفقار خان الابدالى" وأقاربهم إلى "مازندران" وسويت قلعة "قندهار" بالتراب[٢].

---

(١) كان قائداً عند "أشرف" الأفغانى. وفى هذه الأيام كان فى خدمة "حسين خان". (شفق)
(٢) أقام سكان هذه الأنحاء فى "نادر آباد" وعهدوا بحكم هذه الأنحاء إلى "عبد الغنى خان الأبدالى" (شفق).

في ١٩ محرم ١١٥١هـ/ ٩ مايو ١٧٣٨م أجيز للسفير العثمانى أن يراقب فتوحات "نادر" [١] ولكن عندما وجد أن جواباً ينص على تخميس المذاهب لم يتحقق، أرسل "نادر شاه" "عليمراد خان" إلى اسلامبول لكى يتابع المفاوضات[٢].

الزحف صوب الهند :

يمكن اعتبار دفع الجيش إلى قندهار يرجع إلى أن "نادر" كان يريد أن يصل بحدود إيران إلى آخر حد كانت عليه فى العهد الصفوى ويحطم سدود الأعداء، وعن سبب تقدمه صوب الهند أنه كان يرى أن هذه الممالك بلا حراسة وأن خزائن حكومة إيران خاوية لا تقدر على تكلفة تجهيز جيوشها المتواصلة، ومن هذا التاريخ ساق المؤرخون الأجانب الكثير عن فقر الحكومة الإيرانية[٣]، وكانت الحجج المساقة عن الحروب لا أساس لها، ثم إن "نادر" كان متضرراً من "محمد شاه" لأنه لم يعط جواباً شافياً لسفرائه فى باب منع الهاربين إلى ديار الهند.

وفى أثناء التوقف فى "قندهار" عرف "نادر" بأوضاع مملكة الهند المضطربة التى كانت محلاً لهجوم "المهارتا" وابتلاء "محمد شاه" وموضعاً لتنافس الوزراء فى البلاط وكان البعض من أمراء بلاط "محمد شاه" من "خراسان". ومن هنا فمن المحتمل أن "نادر" كان على علاقة ببعض منهم فى الخفاء[٤].

---

(١) كان بصحبته موسيقى أرمنى اسمه "آرتن" وهو الذى كتب أحداث سفره (شفق).

(٢) كان قد قبلت جميع البنود إلا بند ركن المسجد الحرام (شفق).

(٣) يرجع إلى "اوتر Atter" الجزء الأول، ص٢٢٤، مندوب روسيا المقيم فى أصفهان، وإلى سولويف Solovief، وقد ذكر فى هذا المطلب مثلاً معبراً. واضطرت أم أحمد خان التى كانت لمدة سفيرة فى روسيا إلى أن تعمل فى خدمة مندوبية روسيا. (شفق)

(٤) يرجع إلى المطالب المسجلة فى كتاب "اوتر Atter" الجزء الأول، وكتاب اليوداوسن ، الفصل الثامن، ص٦٠. (شفق)

فُتحت "غزنين" فى ٢٢ من صفر ١١٥١هـ/٢ يونيو ١٧٣٨م، وسخرت كابل فى ١٢ ربيع الأول/ ٣٠ يونيو، وجلال آباد فى ٣ جمادى الثانية/ ١٨ سبتمبر من نفس العام. وفى هذه الأوقات كان نصر الله ميرزا قد أغار على "غوزبند" و "باميان"، ووصل "رضا قلى ميرزا" حيث معسكر "نادر" فى "بهار" السفلى على بعد خمسة فراسخ من "جلال آباد" إلى خدمة أبيه ووجدت نيابة السلطنة فى إيران تغييراً وتبديلاً فى الحكام، وخلع نادر تاجين على ابنيه "رضا قلى ميرزا" و"نصر الله ميرزا". وسد ناصر خان والى "پيشاور" ممر "خيبر" بواسطة الأفغان، إلا أن "نادر" قد عبر طريقاً صعباً هو "سرچوبه" وهزم "ناصرخان" وأسره.

ووصل خبر قتل "إبراهيم خان" أخى "نادر" على يد اللزكَيين الجاروتله فى "پيشاور" فأرسل "اصلان خان قرقلو" إلى حكومة أذربيجان مكانه. وفى ١٥ رمضان/٢٧ ديسمبر سلك طريق "دهلى"، وأبقى "نادر" بعد فتح لاهور على "زكريا خان" الخراسانى فى إمارتها. ومنح "ناصر خان" حكومة پيشاور وكابل.

ولما خرج "نادر" من لاهور فى يوم ٢٧ شوال١١٥١هـ/٦ فبراير ١٧٣٩م سمع أن محمد شاه قد وصل بجيش قوامه ثلاثمائة ألف جندى وألفان من المدافع[١] إلى "كرنال" [٢] وضرب المعسكر فى مكان يقع بين النهر والغابات[٣] . وفق "نادر" إلى أن يقطع اتصال "محمد شاه" بعاصمته، وعندما وصل "سعادت خان" [٤] واليه الذى كان من خراسان بجيش جرار أسرع "نادر" لمواجهته. وعلى هذا النحو بدأت الحرب فى ١٥ ذو القعدة ١١٥١هـ/٢٤ فبراير ١٧٣٩م وانتهت بانتصار "نادرشاه" على الرغم من أن ملك إيران لم يكن لديه أكثر من خمس وخمسين إلى

---

(١) ظن سركار فى القسم الثانى ص٣٣٧ أن عدد المحاربين كان خمسة وسبعين ألف فرد وأن خدمة المعسكر معقودة لفرد واحد (شفق).

(٢) على بعد مائة وخمسة وثلاثين كيلومتراً و"عشرين فرسخاً" من شمال "شاهجهان آباد" "دهلى" (شفق).

(٣) المقصود رافد نهر "فيض" الذى أجراه "على مرادخان زنگنه" إلى مدينة "شاهجهان آباد". (شفق)

(٤) هو برهان الملك. (شفق)

ثمانين ألف فارس[١] . وبعد ثلاث ساعات من الحرب أصيب "ازمائى خان دوران" قائد الجيش الهندى إصابة شديدة وأُسر "سعادت خان" كما حاصر رماة البنادق النادريون المتدربون ملك الهند المتداعى فى معسكره وحدّدوا مصيره. ولما كان "نادر" يعلم جيداً أن قواته ستستهلك وتستغرق فى الهند متسعة الأرجاء بالتدريج[٢]، فقد رضى أن يدخل فى معاهدة مع "نظام الملك" الذى كانت الوكالة منوطة به، وأن يقبل دفع مبلغ قليل نسبياً قدره خمسون "لك"[*] "خمسة ملايين" روبية، وما إن مضت عدة أيام إلا وجاء محمد شاه إلى خيمة "نادر" بدعوة منه وحظى برعاية ومحبة[٣]، غير أن خيام ومتاع شاه الهند بقى محاصراً من جيش إيران. كما كان قبل ذلك، وأن أفراد الجيش كانوا يتوزعون بالتدريج من شدة الجوع وقد استفاد "نادر" من تشدده وطلب من ملك الهند عشرين "كرور" "مائتى مليون" روبية[٤] ومائتى ألف جندى إمداداً.

وصل "سعادت خان" إلى دهلى فى ٩ ذى الحجة ١١٥١هـ/ ٢٠ مارس ١٧٣٩م ودخل "نادر" و"محمد شاه" إلى العاصمة وذكر اسم الأول فى الخطبة وضربت السكة باسمه. وفى ١٥ ذى الحجة / ٢٦ مارس من نفس العام توجه "نادر" لزيارة "محمد شاه" وراج بعد ظهر ذلك اليوم أن "نادر" قد قُتل فى القصر الملكى فحمل غوغاء دهلى على جنود إيران وأهلكوا عدة آلاف منهم[٥] فى الأحياء والأزقة والأسواق، وفى صبح اليوم التالى ذهب "نادر" إلى المسجد وأمر بإعمال القتل العام[٦] الذى بدأ فى الساعة التاسعة صباحاً وانتهى فى الثانية من بعد الظهر

---

(١) سجل "سركار" التاريخ على أنه ١٣ فبراير. (شفق)

(٢) يرجع إلى كتاب اوتر Otter الجزء الأول، ص ٤٠٤. (شفق)

(*) وحدة عدد هندية من ٣٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠ وتعنى فى العربية ١٠ مليون.

(٣) كانت المحادثات باللغة التركية. (شفق)

(٤) طبقاً للحساب ٢٠ كرور تصير ٢٠×٥٠٠٠٠٠٠=١٠,٠٠٠,٠٠٠ (شفق)

(٥) كتبوها من ٣ إلى ٧ آلاف. (شفق)

(٦) يذكر "مهديخان" أن عدد القتلى يصل إلى ثلاثين ألف قتيل. (شفق)

بأمر من "نادر" الذى كان قد استولى عليه غضب شديد[١] ، وقد ترتب على هذه الأحداث قحط وفقر يفوق الوصف. وتم التحكم فى دهلى وتوقف "نادر" فيها شهرين وزوّج ابنه الثانى "نصر الله ميرزا" بواحدة من الأميرات المغوليات فى الهند.

كان كل توجه الفاتح الكبير منصبًا على أخذ الأموال من المغلوبين، ولا يُعلم قدر المال الباهظ الذى أخذه بالتمام، ويقدرها "آنندرام" عاشق الهند بــ ستة ملايين روبية نقداً وخمسة ملايين[٢] جواهر من جملتها الماسة المعروفة بــ "كوه نور" وعرش الطاوس، كما أن جنود إيران وجدوا مكافآت سخية، حتى مسئولى ومستخدمي الخيام الملكية حصل كل منهم على ستين إلى مائة روبية وأعفيت مملكة إيران من الضرائب لثلاث سنوات، غير أن هذا السخاء المتصل لم يدم، وسرعان ما نقصت المكافآت المدفوعة ثم استردت.

أُعد فى يوم ٣ صفر ١١٥٢هـــ/ ١٢مايو ١٧٣٩م اجتماع فى "دهلى" وضع فيه "نادر" تاج السلطنة على رأس "محمد شاه" أمام الحضور الذى قدم بدوره دليلاً على العطاء الملكي وهى ولايات الغرب "الشمال الغربى" من السند ومن كشمير حتى ولاية حدود الهند إلى "نادر" ، وكانت الموانئ جزءًا من هذه الولايات، أما النواحى الشرقية من السند التى كان جيش "نادر" يشغلها فقد أُعفيت بالتدريج وبالتناسب من المبالغ واجبة الدفع. وبعد سبعة وخمسين يوماً من التوقف فى دهلى عوّق فيضان الأنهار عودة الجيش إلى ناحية الشمال وأطال مدتها ، وقد عاقب "نادر" أفغان "يوسف زائى" فى الطريق ، وفى أول رمضان ٢ ديسمبر وصل إلى كابل وأدخل هناك أربعين ألف أفغانى وهزارى[*] فى معسكره.

---

(١) حتى أن "نادر" لم يكن يرحم ضعيفا . يرجع إلى سركار ص ٩-٣٦٠. (شفق)

(٢) كل خمسة "لك" تصير "٥٠٠٠٠٠" روبيه (شفق).

(*) نسبة إلى عشيرة "هزاره" التى تسكن جبال هزار فى أفغانستان.

وأرسلوا العتاد إلى هرات ولكن لم يكن هناك من اطمئنان بالنسبة لسلوك "خدايار خان العباسى" حاكم السند[١].

وقد اضطر "نادر" أن يغير طريقه إلى ناحية صحروات الهند، وينبغى أن يعد هذا الزحف الأخير لـــ "نادر" من عجائب الأعمال حال حياته.

وعن طريق البنجاب وإقليم وزيرستان؛ وصل نادر منطقة إسماعيل خان فى ٦ شوال ١١٥٢هــ/ ٥ يناير ١٧٤٠م وتحرك من هناك فى ١٦ شوال/١٥ يناير من نفس العام إلى منطقة "غازى خان" وأحضروا الحاكمين فى هاتين الناحيتين من باب التوهين.

وصل نادر إلى "لاركانه" "فى جنوب غرب سوكور" فى ١٤ ذى القعدة/ ١٢ فبراير وكان "خدايار" قد هرب إلى ناحية "كجرات" و "سورت" ، وعبر "نادر" فى ٢١ ذى القعدة/ ١٩ فبراير من نفس العام نهر السند، وبعد سبعة أيام وصل إلى "شاه دابور" (فى شمال نواب شاه وشمال شرق حيدر آباد) وقطع الطريق من هناك عابراً ثلاثين فرسخاً فى الصحراء وظهر فجأة أمام "عمركوت" (شمال تارده پركر ولايت بمباى) وكان "خدايار" يظن أنه فى أمان من هجوم نادر فى هذه المدينة ولكن انتهى الأمر بتسخير قلعة "عمر كوت" وتقديم حمل من الجواهر إلى "نادر"، ثم تحرك نادر فى ٥ ذى الحجة/ ٤ مارس من "عمر كوت" ووصل إلى "لاركانه" بعد أحد عشر يوماً.

وبعد "نوروز" عام ١١٥٢هــ/١٧٤٠م عهد بالولايات الجديدة إلى خدايار الملقب "شاه قلى" و"محبت خان" والى بلوچستان وخانات "داود بوترا"[٢].

---

(١) فيما يتصل بهذا القائد الذى كان من أهالى "سپوى" وبستحوذ على مقام مذهبى. يرجع إلى تاريخ ملكلم، الجزء الثانى، ص٨٨، وكتاب روارتى Ravetty المعروف بمذكرات أفغانستان، ١٩٨٨، ص٦١٤ ومضمون هذه الحاشية فى تاريخ ملكلم أنها تتعلق بالسير "محمد عباسى كالورى" حاكم السند. (شفق)

(٢) كانت ولاية "شكار پور" فى السند العليا فى يد أسرة "داود بونرا" ، وفيما يتصل بأحوال هذه الأسرة ارجع إلى كتاب دوارتى "مذكرات أفغانستان" ١٨٨٨، ص٦١٤، ٦٢٤. (شفق)

في هذه الأوقات كان "تقى خان" حاكم فارس قد وصل إلى ناحية "كج مكران" بسفن كانت قد صُنعت حديثا، غير أن "نادر" أمره بالتوقف لعدم تقديمه المساعدة.

الزحف صوب بخارا :

سلك "نادر" بعد مغادرة "لاركانه" في ١٣ محرم ١١٥٣هـ/١٠ أبريل ١٧٤٠م طريق "سيوى ودادر وشال وفوشنج"، فوصل "نادرآباد" في ٧ صفر/ ٤ مايو من نفس العام التى كان قد توجه إليها منذ سنتين وسبعة أيام قاصداً فتح الهند[١]. ووصل إلى هرات في ١٠ ربيع الأول/ ٥ يونيو ونصبوا له عرش الطاوس خيمة مجللة كسعادة بالفتوحات التى صارت من نصيبه، حيث كانت الاحتفالات من القلة بمكان فى تاريخ حياة "نادر". تحرك نادر بعد خمسة عشر يوماً عن طريق "قرانيه"، "بادغيس"، "ماروچاق"، "چيچكتور" و"اندخود" فوصل إلى "بلخ" فى ٧ جمادى/ ٣١ يونيو وكان قد أرسل نجارين كثيرين من الهند لصناعة السفن، فكان أن صنعوا ألفاً ومائة وحدة حمولة كل منها ألف حمل تهيأت للرسو فى جيحون. وفى ١٧ جمادى الأولى / ١٠ أغسطس تقدم نادر صوب "كليف" وفى رفقته المدفعية والعلوفة عن طريق النهر، وأحسن الوفادة فى كركى لممثلى أهل بخارا وأرسل رضا "قلى ميرزا" كمقدمة إلى "چارجوى" وأدلف "على قلى خان" ابن "إبراهيم خان"[٢] من الساحل الأيمن لنهر جيحون. وفى ١٨جمادى الثانية/ ٣١ أغسطس وصل "نادرشاه" إلى "چهار جوى" وأقيم جسر على الشاطئ خلال ثلاثة أيام. وفي يوم ٤ جمادى الثانية /٦ سبتمبر وصل إلى الساحل الآخر واستدعى وزير بخارا "الحكيم بى اتاليق" وطمأنه على حسن نيته بالنسبة لـ "أبو الفيض

---

(١) كانت بداية الزحف فى أول صفر ١١٥١هـ/٢١ مايو ١٧٣٨م. (شفق)

(٢) هو الذى لقب بعد ذلك بـ "عادل شاه". (شفق)

خان"[١] حاكم بخارا ووصل "نادر" عن طريق "قراركول" إلى مشارف بخارا واستقبل الخان وجعلوا جيحون حداً فاصلاً. وعلى الرغم من أن سلطة "أبو الفيض خان" قد عرفت فى الجانب الشرقى لنهر جيحون فقد أجبروه على أن يوفر عشرين ألف فرد من التركمان فى ركاب "نادر" ومن هذه الناحية فإن ملك إيران كان يعمل النظر دائماً فى سياسة جيرانه، فمن النقاط التى تلفت النظر أن "نادرشاه" لإعلان تفوقه وضع التاج على رأس "أبو الفيض خان" وزوّج "على قلى ميرزا" بواحدة من بنات الخانات المغولية[٢] ودخلت أخرى فى حريم "نادر".

نُصّب "قلى خان جلاير" على ولاية جميع الأنحاء الواقعة فى شمال شاطئ السند حتى التبت، وأمر "نادر" أن يُتفق مع "زكريا خان" حاكم لاهور والملتان وأن يتعاون كل منهما مع الآخر.

فتح خوارزم :

كان "نادر" قد أعمل الغارة والنهب فى حدود "سرخس" و"ابيورد" لدى توقفه فى الهند نافضاً عنه غبار الزحف من خوارزم فى ١٦ رجب / ١٧ أكتوبر مما جعل التركمان فيها يستعدون للحرب فى "چهار جوى" يداً واحدة ، إلا أن نادر عبر نهر جيحون وهزمهم فى ٢١ رجب ١١٥٣هـ/١٢ أكتوبر ١٧٤٠م وأمر أن ترسو السفن التى تحمل العلوفة وترسانة الأسلحة على مقربة من خوارزم[٣] وتحرك هو فى ٢٦ رجب/ ١٧ أكتوبر من "چهار جوى" فوصل إلى "داوابوينى" "توباموبون"[٤]

---

(١) دفع بفوج يرأسه لطف على خان إلى ناحية سمرقند فنقلوا حجر مزار تيمور وباب مقبرته الحديدى إلى مشهد، ولكن نادر ندم فى النهاية فأعاده مرة أخرى إلى سمرقند. يرجع إلى زابيسكى Zapiski بارتولد، الفصل ٢٥، ص٨٣-٨٨، بناء على رواية محمد كاظم.

(٢) هى ابنة أبى الفيض خان. (شفق)

(٣) انظر تفصيلاً لافتاً للنظر لهذه الحادثة فى كتاب عبد الكريم ، ترجمة جلادوين، ص٥٦. (شفق)

(٤) جاء فى كتاب جهانگشا أن "ديوه بونى" هى بداية عمارة خوارزم. (شفق)

على حدود خوارزم فقاد "ايلبارس" جيشه فى "هزار اسب" ولمَّا لم يخرج من الحصار وجدنا "نادر" قد أنشأ قلعة "قورغان" فى "دروابوينى" واتجه نحو "خيوه" عاصمة خوارزم، واضطر "ايلبارس" أن يقتفى أثر "نادر" بطول نهر جيحون، وبدأ "تركمان يموت" و"تكه" الحرب غير أنهم دُفعوا، وذهب "ايلبارس" إلى الخانقاه التى كانت تُعد واحدة من القلاع الخمسة. وفى اليوم التالى تلقى هزيمة قاسية فى الحرب وصار محصوراً فى القلعة وسكتت نيران المدافع بعد ثلاثة أيام، واستسلم حراس القلعة فى ٢٤ شعبان ١١٥٣هـ/ ١٤ نوفمبر ١٧٤٠م وأحضروا "ايلبارس" إلى "نادر" الذى أهلكه مع عشرين من أعيان خوارزم. وعلة هذا القتل الذى كان مخالفاً لعرف "نادر" وعادته أن "ايلبارس" كان قد قتل سفراء ملك إيران قبل ذلك. وأعطوا حكم خوارزم لـ "طاهر خان" الذى كان يصل نسبه إلى "چنكيز خان" ويعيش فى خدمة "نادر"(١).

كان "أبو الخير خان" أمير القرقيزيين القزاق قد جاء لنصرة "ايلبارس". ولمَّا وجد أن الأمر قد ضاع من يده تلقى الهزيمة، وعندما أمر "نادر" أن يفتحوا الماء من خنادق "خيوه" أدرك الأزبك أن مقاومتهم بلا فائدة واستسلموا، وألحق "نادر" أربعة آلاف جندى أزبكى بمعسكره وأعطى اثنى عشر ألف من الإيرانيين سكناً حوالى "ابيورد" وأقام لهم مدينة مُحكمة باسم "خيوه" وأعاد الأسرى الروس الذين كانوا فى خوارزم إلى أوطانهم. . تحرك نادر شاه فى ١٧ رمضان / ٦ ديسمبر من "خيوه" عن طريق "چهار جوى" وذهب فى ٤ شوال/٢٣ ديسمبر إلى "كلات" التى كانت مسقط رأسه ومنشأه، و"مياب" و"كوبكان" واستحدث فيها أبنية جديدة ووصل إلى مشهد فى آخر شوال وقدم هدايا ثمينة إلى الحرم المطهر.

---

(١) محمد طاهر خان هو ابن "محمد وليخان" الأزبكى من نسل ابن چنكيز. (شفق)

وفى هذه الأوقات وصل موفد من الهند وأعلن من جانب "محمد شاه" ضم متصرفات "پركنه كابل وتته" الواقعة فى يسار شاطئ السند إلى "نادر"[١]، وكان خراج هذه الولاية مائة وعشرين ألف تومان[٢].

تنبيه قبائل "الجار":

لم يكن "نادر" يبعد عن خاطره الطغيان والتمرد، فعزم على التوجه قبل عيد النوروز إلى حد آخر لوطنه لكى يثأر لدم أخيه من اللزكَيين، ولكن لقلة العلوفة والقحط سلك طريق "خبوشان واستراباد ومازندران".

وفى الطريق عرف أن الأفغان الابداليين الذين هُجّروا قبل ذلك قد وصلوا إلى قانيق "الزان" وأنهم قد سحقوا تحت حوافر الدواب فى ١٥ من ذى الحجة/ ٣ مارس ١٧٤١م قبائل "الجار والجادوخ الواق زبير" فأمر "نادر" بأن يمنحوا مائتا ألف روبية لهؤلاء الجنود الشجعان [٣].

محاولة قتل نادر:

فى الوقت الذى كان "نادر" يعبر فيه مازندران وقعت حادثة نشأت عن تغير الأخلاق والسلوكيات، ففى يوم ٢٨ صفر ١١٥٤هـ/ ١٥مايو ١٧٤١م كان شخص مجهول قد أخفى نفسه بين الغابات حوالىّ قلعة "أولاد" وأطلق عليه سهماً جرحته

---

(١) المقصود هو المرتفعات فى جنوب وشرق نهر السند التى وإن كانت تتعلق بـ"محمد شاه" بناء على الاتفاق إلا أنه عهد بها إلى إيران اعترافاً بفضل "نادر"، وكانت تُحسب فى السابق من متصرفات ولايتى "كابل" و "تته" التى كانت قد اعتبرت جزءا من إيران.

(٢) اضطرار محمد شاه إلى تقديم هذه الهدية بديهى وواضح، إن "ميرزا مهدى خان" يشرح فى بيان مضطرب أن كيف يشكر "نادر" على إرسال عدة أحصنه وجملة من البطيخ من جانب ملك الهند ؟

(٣) سلك الجنود الطريق حتى نهر "سمور"، ولكنهم ابتلوا ببرد شديد عند العودة.

جرحاً بسيطاً [1]. واستدعى "رضا قلى ميرزا" الذى كان يقتفى أثر أبيه الحراس، غير أن الضارب كان قد وجد الفرصة وهرب[2]، وقد اعتبر "مهديخان" – فى الفصل الذى كتبه عن أحداث داغستان – الضارب بأنه "غلام آقاميرزا" ابن "دلاور نايمنى"، وقد اُتهم "رضا قليميرزا" الذى كان قد مارس أفعالاً غير لائقة [3]. فى غياب أبيه بأنه الذى أوعز بذلك، فترك "نادر" الابن فى طهران على الفور حتى يُوقف هناك، وسلك طريق قزوين ووصل إلى انجام فى ربيع الأول ١١٤٥هـ / آخر شهر مايو سنة ١٧٤١م.

الزحف صوب داغستان :

اتجه "نادر شاه" عن طريق "قراچه داغه" و"بردع" إلى "قبله" والمرور بـ "شاه داغه" إلى "داغستان". وفى أول جمادى الأولى / ١٥ يونيو مثل فى ناحية "غازى قموق". فى هذه المرة حضر أمام "نادر" "شمخال" الذى كان مسئولاً عن القراقيتيين و"سرخاى خان" أمير غازى قموق، وفى أثناء فتح الولاية أجبر الفارّين على أن يخلوها بعد خمسة عشر يوماً. أما فى ناحية القراقيتيين فإن ممثلى "نادر" قد لقوا حتفهم مما أغضبه، وأعلن أنه لن يعود إن لم تسلم داغستان بالطاعة، وكان ممثلو الروس يظنون أن "نادر" يفكر فى الهجوم على مملكتهم[4]، غير أن روسيا لم

---

(١) جرحت يد "نادر" اليمنى وحدث قطع فى الترقوة اليسرى وسقط من على صهوة جواده إلى أسفل حتى لا يتكرر السهم. (شفق)

(٢) يُدعى "نيك قدم". (شفق)

(٣) قتل أخو زوجة الشاه "طهماسب الثانى" نفسه فى "سبزوار" وبناء على رواية "برانتيس و اوتر" فى المجلد الأول، إنه أهلك زوجته التى كانت تعترض على قتل أخيها، ونرجع فى باب جرائمه وطمعه فى الأموال إلى كتاب "اوتر"، ص ٢٤١. (شفق)

(٤) ترى هذه العبارة فى الرسالة التى كتبها نائب السلطنة الروسى "آنالتو پولدونا" ١٥ أكتوبر ١٧٤١م إلى الكونت "دولى نار" وقد أحضر سفير إيران "محمد حسين" أفيلته، هكذا استقبل سفير الأتراك ويقولون=

تكن تمتلك ثروات أصلاً ولا يمكن أن تأتى منها غنائم[1]، فكان أن نظر "نادر" إلى الأنحاء الشمالية من القفقاز وكان يكتسب المعلومات أيضاً عن طريق معابر كريمة، كما أن الروس قد خشوا أن يغلق "نادر" المرور فى بحر الخزر بمساعدة سفن التون الذى كان قد لجأ إلى ملك إيران خروجاً على الروس. واحتياطاً من جانب الدولة الروسية اجتمع[2] فى شهر ربيع أول ١١٥٥هـ/ مايو ١٧٤٢م – أربعمائة وعشرون ألفاً من الجنود فى قزلر، وفى ربيع أول ١١٥٥هـ/ آخر شهر أكتوبر ١٧٤٢م[3] عندما كان "نادر" فى "پاشلو" عقد مجلساً للمحاكمة، وقد اختير أعضاؤها بعناية خاصة، وحكم هذا المجلس على "رضا قلى ميرزا" بدعوى تحريض المتهم الذى تعرض لـ "نادر" فحُكم بسمل عينى الابن، وقد أخبر المؤرخون الروس كم كان الزحف صوب داغستان دون جدوى ومضرًّا ؟ وكيف تضرر جيش إيران من نقص العلوفة واشتداد البرد؟ [4] وساق "نادر" الحديث عن التنحى وتسليم السلطنة إلى أحد أبنائه، وكان أن أرسل عدداً من البنّائين إلى "كلات" ليستحدثوا مقرًّا من أجل إقامته.

وفى هذا الوقت توجه "نادر" من جديد إلى العثمانيين؛ ففى شهر ذى القعدة ١١٥٤هـ/ يناير ١٧٤٢م عاد سفير نادر من استانبول وأخبره بأن السلطان قد امتنع عن قبول تخميس المذاهب. وبناء على هذا أطلع "نادر" السلطان أنه إن لم تُرد أملاك إيران فى كل مكان دون الأراضى العثمانية من جديد ففى اعتقاده أن

=إن أحد أهداف سفير إيران هو أنه طلب الأميرة إليزابيت "التى صارت ملكة روسيا بعد ذلك" وإذ كان الأمر قد ضاق بنا فستحدث الحرب. يرجع إلى "سولويف"، حاشية ١٤١. (شفق)

(١) تاريخ ملكلم، المجلد الثانى، ويرجع إلى كتب "هانوى ولرج وسولويف"، ص١٠٢. (شفق)

(٢) بوتكف المجلد الأول ، ص٢٢٠. (شفق)

(٣) يرجع إلى ستيل فى كتابه. (شفق)

(٤) يرجع إلى بيانات ممثل الروس برانيس جف الذى كان عندئذ فى "دربند" ارجع إلى جداول بوتكف المجلد الثالث، ص ١٣٠٧. (شفق)

إيجاد الصلح بين المسلمين أهم من التراب والماء[1]، وعلى حسب قوله بالحرف إنه مستعد لأن يذهب إلى حاضرة الدولة العثمانية.[*] ومن أجل ذلك أطلع "نادر" شعب إيران أن يُقلع عن العقائد الفرعية التى أدخلها الشاه إسماعيل فى المملكة ورأى أن يطلع الخليفة على مقررات منتدى صحراء "مغان" وأن يحترم أول هذه القرارات[2]، وبعد نوروز عام ١١٥٥هـ/ ١٧٤٢م قاد "نادر" الجيش إلى داغستان فى ٢٥ ربيع الأول/ ٣٠ من شهر مايو مرة أخرى واستباح طبرستان. وكان كل من شمخال وسرخاى فى خدمة "نادر"، ولكن اوسمى كان قد تحصن فى قلعة "قريش"، فما كان من "نادر" إلا أن حاصره، وفى النهاية هرب ولجأ إلى الفارين ثانية إلا أن قبيلته – الذين هم القراقتيون – أعطوه الأمان ثم هدموا القلعة.

التمردات :

إن توقف "نادر" الذى طال إلى عام ونصف فى داغستان كان منشأه انحطاط السلطنة. فقد صار هذا الملك سيئ الظن وقاسى القلب أكثر من ذى قبل فرفع علم الطغيان فى كل ناحية فنراه يقضى على ابن "أبو الخير قزاق طاهر خان" الذى ولاّه "نادر" من قبل حكومة خوارزم بعد استيلائه عليها، ذلك أنه ما إن توجه "نصر الله" ناحيتها إلا وجاء أهل خوارزم إلى مرو وأظهروا الطاعة. وبعد هذه الحادثة استدعى الأزبك الذين كانوا فى معسكر "نادر" ابن "ايلبارس" الذى كان محكومًا عليه بالقتل بأمر من "نادر" ليخلف أباه ويتولى حكومة خوارزم. كما ارتحل تراكمة "يموت وكتكه" الذين مازالوا يقيمون فى خوارزم صوب خراسان.

---

(١) المشكل فى أن يُعرّف السلطان مراد "نادر" بالأرض التى كانت تحت تصرف الشاه إسماعيل أو تلك التى وضع الأمير تيمور يده عليها من قبل. (شفق)

(*) هذا يشبه استعداد الرئيس السادات فى كسر حاجز العداء مع إسرائيل بذهابه إلى تل أبيب فى التاريخ المعاصر وإن كان قياسا مع الفارق، كما أن هذا الاستعداد يأتى من مركز قوة.

(٢) يرجع إلى النص الكامل لهذا المطلب فى ترجمة "جونز" ، جزء ٢، ص١٢٩-١٣٢ وقد استخلصت من النسخ الفارسية لمتن "تاريخ نادرى". (شفق)

وفى شهر شوال ١١٥٥ / ديسمبر ١٧٤٢م تمرد رجل متوصف في بلخ وأهلك جماعة من "الخراسانيين والقزلباش" ولكنه أسر وحبس فى آخر الأمر.

الزحف صوب عراق العجم :

اغتنم "نادر" فرصة استتباب الأمور فى داغستان[1] فخرج من هناك فى ١٦ شهر ذى الحجة ١١٥٥هـ/ ٢ فبراير ١٧٤٣م ووصل إلى "مغان" مساء النوروز وتحرك فى عام ١١٥٦هـ/ ١٧٤٤م عن طريق "قراچمن" و"تبريز" وسنندج" ومدينة "زور" ووصلت مدفعيته من ناحية "همدان – كرمانشاه" وعبر الأغوار إلى العراق، فأرسل "أحمد باشا" الذى كان من المتصلين القدامى بـ "نادر" هدايا عدة إليه واعتذر أنه لا يستطيع تسليم المدينة. فسخّر "نادر" أطراف بغداد وأمر "خواجه خان جمشكزكى" بفتح البصرة، كما أصدر أمراً بأن تستخدم السفن التى اجتمعت بالقرب من الحويزة [2].

وفى ١٤ جمادى الثانية / ٥ أغسطس وصل "نادر" إلى كركوك وبعد أسبوع استسلم حارس القلعة وخضعت اربيل فى يوم واحد وفى كركوك نما إلى سمع ملك إيران أن السلطان العثمانى بعد سماع الرسائل واقتراب "أحمد باشا" روّج فتوى شيخ الإسلام التى تقضى باختلاف مذهب التشيع مع الدين الإسلامى وأباح قتل الإيرانيين وأسرهم. فخرج فى ١٠ رجب ٣١ أغسطس من كركوك ووصل فى ٢٦ رجب إلى ضريح "يونس النبى"، فى مقابل الموصل، وأقاموا جسراً على دجله وحاصروا المدينة، وإن لم تستسلم إلا أن أهلها وجدوا من اللازم أن يرضوا "نادر" بنحو أو بآخر؛ بل إنهم وعدوا أن يبعثوا برسل إلى إسلامبول لكى يهيئوا مقدمات لإرضاء خاطر ملك إيران.

---

(١) بناء على قول المؤرخ الرسمى لـ "نادر": حث رؤساء "قومان" الذين يقولون لهم فى التركية قومين" والنوغاى والجركس كل هؤلاء أعلنوا عن الطاعة إلا أنها كانت فى الحقيقة تعهدات شخصية وفردية فيما بينهم. (شفق)

(٢) فى نهر كرخه. (شفق)

وفى هذا الوقت وصل سفير أحمد باشا وبيّن أن كلمات السلطان الحرفية تدور حول أنه يقول إن "تخميس المذاهب سيبعث على الفتنة العامة". وكان السلطان قد طلب من "نادر" أن يعود أدراجه إلى إيران وله أن يعقد اتفاقا مع أحمد باشا. واتجه "نادر" فى اليوم الثانى من شهر رمضان ١١٥٦هـ/ ٢٠ أكتوبر ١٧٤٣م إلى ناحية كركوك وخانقين(١).

المنتدى الدينى :

زار "نادر" العتبات الشيعية المقدسة فى العراق وطاف بضريح "أبو حنيفة" وقد اجتمع فى النجف مجمع كبير من علماء الدين – وتحت أيدينا مفاوضات هذا المجلس من خلال مذكرات الشيخ "السويدى" الذى كان من مشايخ أهل السنة –. والنتيجة القاطعة لهذا المجمع التى كتبت بقلم ميرزا "مهديخان" فى تاريخه ثابتة فى التاريخ، فبعد المقدمة التاريخية جدد المجمع مواد ميثاق "مُغان"، ومع هذا الاختلاف الذى ورد فى طلب الركن الخامس فى "مكة" فإن الشيعة يريدون فقط أن يصيروا شركاء مع المذهب الشافعى وقد سجل الأعضاء السابقون فى منتدى "مُغان" فى هذا المجلس برجوعهم عن العقائد الباطلة والآثار المبتدعة "للشاه إسماعيل"، كما صدّق علماء العراق بإمامة حضرة الإمام "جعفر الصادق" ومذهب الإيرانيين الذين كانوا قد آمنوا بأحقية الخلفاء الثلاثة الأول. وكفّر علماء ما وراء النهر(*) الأشخاص الذين قاموا ضد الإيرانيين وأعلنوا عن اعتدادهم بالمذهب الجعفرى(٢).

---

(١) فيما يتصل بفشل نادر فى محاصرة الموصل يرجع إلى القسم المنقول بالتركية من كتاب هامر، فصل ٤٨ وحديث واحد من المسيحيين المقيمين فى يونيون. (شفق)

(*) هذه أول محاولة حقيقية انطلقت فى العالم الإسلامى على يد نادر شاه افشار لتوحيد المذاهب الإسلامية لإبعاد الفرقة التى تنحر فى بنائه.

(٢) يرد فى هذا السند التاريخى إشارة خفية إلى أن شيخ الإسلام العثمانى قد صدّق على المذهب الجعفرى. (شفق)

انفق "نادر" ونساؤه مبالغ كثيرة على تزيين العتبات المقدسة ومقبرة أبى حنيفة وتذهيبها. وفتح "نادر" الحدود الإيرانية عن طريق المسيب وأطراف بغداد وجسر بنكجه وبالغ "أحمد باشا" الذى كان ذكياً ومحنكاً إلى حد كبير فى احترام "نادر شاه" وتكريمه إلى حد أن الفاتح الافشارى أمر لدى الخروج من العراق أن يردوا إليه كركوك واردبيل(*) وقورنه فى محيط البصرة مع عدة نقاط أخرى.

تمرد فى شروان :

كان من ضمن الأسباب فى تعجل "نادر" فى التحرك من العراق وصول أخبار سيئة فى آثارها من إيران، فقد سمع وهو فى الموصل أن شخصاً اسمه "سام" فى شروان كان يدّعى أنه ابن الشاه "سلطان حسين" قد رفع راية التمرد وأن ابن "السرخاى"[١] نهض مؤيداً لمساعدته، ففوض "نادر" "نصر الله ميرزا" بدفع هذا التمرد وهُزم المتمردون على مقربة من "باغشاه" فى ٤ ذى القعدة ١١٥٦هـ / ٣٠ ديسمبر ١٧٤٣م، وسقطت قلعة "آق سو" من جديد فى يد الإيرانيين ونجح "سام" فى الفرار.

تمرد فى فارس :

وكان التمرد الذى حدث فى فارس أهم من ذلك الذى حدث فى داغستان، ذلك أن الحاكم "تقى خان" والقائد "كلبعلى خان كوسه أحمد لو" كان فى عُمان جنوب الخليج فى ذلك الوقت فطلبهما "نادر" للحضور وعهد لقائد آخر بمنصبيهما، ولكن "تقى خان" قتل "كلبعلى خان" ولم يكتف بعزله[٢] وعارض خليفته، واستطاع

(*) يقصد اربيل.

(١) اسمه محمد. (شفق)

(٢) كان القائد "كلبعلى" هو جد أولاد "نادر" الثلاثة من ناحية الأم فابنته الكبرى هى "أم رضا قلى ميرزا" التى ولدت فى ٢٥ جمادى الأولى ١١٣١هـ /١٥ إبريل ١٧١٩م وولد من ابنته الأخرى "نصر الله ميرزا" و"إمام قلى ميرزا". (شفق)

هذا الشخص الذى كان سفيرا فى روسيا قبل ذلك الخلاص وأبحر بواسطة سفينة حتى وصل إلى سواحل إيران. وذهب إلى شيراز. ولما كان شخصاً محنكاً وسبق له أن وصل إلى مناصب عليا فى ظل مساندة "نادر" فقد تأثر منه بل غضب عليه كثيراً بسبب طغيانه. وكان أن أسر الأمير فى نهاية الأمر وخُصى بأمر من "نادر"[(١)].

تمرد القاجارية:

تحرك "نادر" فى ١٥ ذى الحجة ١١٥٦هـ/ ٣٠ يناير ١٧٤٤م من "شهربان" ولدى وصوله إلى "ماهيدشت" سمع أن طائفة القاجار قد ثاروا على ابن حاكم "استرآباد" وتعاونوا مع تراكمة يموت[(٢)] بما جعل حاكم استرآباد يعاقب القاجاريين بشدة ويسلك طريق الإفراط معهم [(٣)].

وحدث فى خوارزم عندئذ فساد كبير فأرسل "نادر" ابن أخيه "عليقلى خان" إلى هذه النواحى قائداً مختارًا من جانبه.

خروج صفى ميرزا المدّعى فى قارص:

قضى نادر شاه عيد النوروز فى عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م فى "كنكاور" حيث سمع خبراً عن دسائس العثمانيين مؤداه أن "أحمد باشا جمال اوغلو" حاكم قارص من جانب "صفى ميرزا" مدّعى سلطنة إيران ينشر أحكاماً فى أذربيجان، والاسم

---

(١) لم يفّصل "مهديخان" القول فى هذه الوقائع. وفيما يتصل بوجود السفن فى الخليج والزحف صوب عمان يُرجع إلى "اوتر"، المجلد الثانى فى ١٢٠، ١٦٦، ١٧٦ و"فارس نامه"، ص ١٧٥، ١٩٣. (شفق)

(٢) حدث هذا النزاع بين "محمد حسين خان القاجارى" و "محمد زمان بيك" الذى تولى نيابة الحكومة من جانب أبيه "محمد حسين خان قراموسانلو" فى استرآباد فقد جاء محمد حسين خان من معسكر "نادر" إلى "استرآباد" وأقام منارة من الجماجم وشنق جمعاً آخر (شفق).

(٣) فقد هانوى أمتعته فى هذا التمرد. يرجع إلى تاريخه المجلد الأول، ثم وصل إلى خدمة نادر حوالىّ همدان فى ١٧ مارس ، ص١٩٢. (شفق)

الأصلى لهذا الشخص كان "محمد على رفسنجانى". عرف "نادر" لدى الوصول إلى "ابهار" أن "أحمد باشا" المذكور قد عُزل وتولى مكانه "أحمد باشا" الوزير العثمانى السابق فى حكم قارص، ومن ثم كتب أحكاماً إلى ايروان، وأمر أن يشرعوا فى تحرير الأسرى العثمانيين؛ أما الباشا المذكور فقد أظهر تجاهلاً بشروط الصلح فاضطر "نادر" أن يغيّر مسار التحرك ويتجه إلى قارص. وفى الطريق أفضوا إليه بُشرى غلبة أهل "جرجيا" على العثمانيين، وفى ٢٤ ذى القعدة ١١٥٦هـ/ ٩ يناير ١٧٤٤م أسر الجرجيون "سام ميرزا" سابق الذكر فى "كلكى". فأخرج "نادر" إحدى عينيه من محجرها[١] وأرسله إلى قارص "حتى إذا حضر أمامه إخوته المدّعون فإنهم يشاهدون بعضهم البعض". وهُزم يوسف باشا حاكم "اخل تسيخه" الذى كان يذهب بهدايا إلى رؤساء داغستان أيضاً فى منطقة "گورى" على يد الجرجيين وكافأ "نادر" "طهمورث شاه" والى "كرتلى" وابنه "ايراكلى"[٢] والى "كاختى" مقابل هذه الخدمات. ووصل "نادر" فى ١٩ جمادى الثانية ١١٥٧هـ/٣٠ يونيو١٧٤٤م إلى ظاهر قارص، وطال الحصار وعندما بدأ فصل البرد أوقف الحصار فى ٢ رمضان / أكتوبر وتحرك عن طريق اخل كلكى وگنجه إلى بردع حيث أقاموا بيوتاً من القش للعسكر وحريم القصر.

الزحف الأخير إلى داغستان :

تحرك "نادر" فى ٢٢ ذى القعدة / ٢٧ ديسمبر على الرغم من شدة البرد قاصداً تأديب الداغستانيين، وفى ٦ ذى الحجة١١٥٧م / ١ يناير ١٧٤٥م وصل إلى دربند وعاد إلى بردع بعد غارات سريعة.

---

(١) كانوا قد قطعوا أنفه فى الفتنة الأولى ويذكرونه سام مقطوع الأنف. (شفق).

(٢) يسجل جهانگشا هذه الأسماء هكذا كارتيل ارايكلى. (شفق)

وقضى نوروز ١١٥٨هـ/ ١٧٤٥م فى "آرش" وتحرك من هناك إلى موقع "شكى" عن طريق خچن على ضفاف بحيرة "گوكچه" ١٢ جمادى الثانية/ ١٢ يونيو وكان "نادر" قد مرض مرضاً شديداً عندئذ وكانوا ينقلونه بواسطة الهودج. وشخّص طبيبه الخاص "پ. بازن" مرضه على أنه مقدمة للاستسقاء.

الحرب الأخيرة ضد العثمانيين :

كان جيش ضخم بقيادة "يكن محمد باشا" الصدر الأعظم السابق قد تحرك ناحية "ارزنة الروم وقارص" من جانب الباب العالى عندئذ، بينما كان جيش بقيادة "عبد الله باشا جبجى" والأمير "وردى خان اردلان" الذى كان من الهاربين الإيرانيين يتقدم عن طريق ديار بكر والموصل، وصدر الأمر لـ "نصر الله ميرزا" المتواجد فى غرب إيران بقيادة جيش لمقابلة "عبد الله باشا".

أقام "نادر" فى "گوكچه" حفل عرس لابنه "امامقلى ميرزا" وابن أخيه "إبراهيم خان" [١] وأعطى للأول ولاية خراسان والثانى حكومة العراق، واستعد فى ٥ رجب/٣ أغسطس لمواجهة الجيش العثمانى، وتحرك "يكن محمد باشا" على رأس مائة وخمسين ألفاً من الفرسان وأربعين ألفاً من الانكشارية صوب ميدان الحرب المعروف بـ ١٧٣٥ "أى تبة مراد بالقرب من ايروان". وبدأ الاقتتال فى ١ رجب/٩ أغسطس وانقطعت صلات الجيش العثمانى بـ "قارص" وبادر القائد العثمانى إلى حفر الخنادق للتمركز على طريقة حرب الفرنجة، ووصل إلى مقربة من الجيش النادرى. وفى ٢١ رجب وصل خبر من "نصر الله ميرزا" أن طليعة جيش "عبد الله باشا" قد انتصرت على غارات "سليم خان" شيخ المدينة القوى من رؤساء الأكراد وأن نفس الأمير قد هزم الجيش العثمانى حوالىّ الموصل ومات "يكن محمد" فجأة وسط ميدان عسكره المضطرب وبدأت هزيمة العثمانيين الذين قتل منهم حوالى اثنا عشر ألفاً وأسر خمسة آلاف فرد وغنم الجيش النادرى كل مدفعيتهم.

---

(١) قُتل "إبراهيم خان" ابن إبراهيم خان الذى أسماه نادر بعد موت أبيه بنفس الاسم. (شفق)

وبعد هذا الفتح الكبير تغيرت أحوال "نادر" كلية إذ اغتنم هذا الفتح لإرضاء ذاته، واقترح اتفاقيات جديدة فكتب بناء على قول مؤرخ البلاط النادرى إلى السلطان العثمانى أن يصرف النظر عن المادة الأولى والثانية من اتفاق "مُغان"! فتكتب على نحو أن "نادر شاه" طلب من السلطان العثمانى التخلى عن مناطق "وان وكردستان وبغداد والبصرة والنجف وكربلاء" وأن العثمانيين كانوا بصدد تسليم هذه الأنحاء أيضاً [1]. أما المصادر التركية فقد رأت خلاف هذا الاقتراح.

واتجه "نادر شاه" من "تبه مراد" إلى "چورس" بالقرب من "خو" وذهب من هناك إلى محمودى حيث استقبل سفير ملك "ختن" الچنكيزى[2] وكان هذا الملك الذى كان يدعو نفسه مالك رقاب التورانيين يطلب من "نادر" أن يرسل أفواجاً لسحق الولايات الحدودية. وفى السنة التالية ذهب سفير "نادر" إلى "ختن" عن طريق بخارا وهزم "عليقلى ميرزا" الذى كان قد تولى إدارة خوارزم تراكمة يموت وأعوانهم حوالى اورگنج فهرب التركمان إلى مشارف بلخان. وحتى يسيطر "نادر" على طريق الجنوب بعث "بنصر الله ميرزا" إلى استرآباد فأجبر التراكمة على أن يُدِّخلوا ألف فارس فى خدمته.

وصل "نادر شاه" إلى أصفهان عن طريق "فراهان" فى ٤ ذى الحجة/٢٨ ديسمبر، وتوقف هناك حتى العاشر من المحرم ١١٥٩هـ/ ٢فبراير ١٧٤٦م وكان أسلوبه يزداد غرابة بالتدريج. يقول "پربازن" "إنه فى أثناء إقامة الملك فى عاصمة إيران السابقة "فإن كل ما يدخل فى العقل من تصور للظلم والتوحش قد تم ارتكابه بأمر منه" وبعد ذلك دخل مشهد عن طريق الصحراء وطبس فى ٢٣ صفر/١٧ مارس.

---

(١) يُرجع إلى كتاب هامر الفصل ٤٨.

(٢) يجوز أنه كان واحداً من أعقاب "شاهرخ خان" فى فرغانه الذى كان قد ادّعى أنه من نسل چنكيز عام١١١٢هـ/١٧٠٠م. يرجع إلى كتاب طبقات سلاطين إسلام لمؤلفه "لين پول" عدد ١١٢، ص١٧٠٠ ويجوز أن يكون لفظ "ختن" مكان "خفن" وصحيحه خوقند.

الصلح مع العثمانيين :

أقام "نادر" عيد النوروز لعام ١١٥٩هـ/١٧٤٦م فى مشهد وذهب فى ٢٥ ربيع الأول ١٧ أبريل إلى "كلات" لرؤية أبنيته الجديدة، واتجه من هناك صوب العراق، وفى ١٠ محرم ١١٦٠هـ/ ٢٢ يناير ١٧٤٧م أرسل "مصطفى خان شاملو" مع المؤرخ المعروف ميرزا "مهديخان" إلى إسلامبول. وفى مقدمة اتفاق الصلح كان "نادر شاه" قد طلب صرف النظر عن المادتين المذهبيتين سابقتى الذكر من ذهن السلطان "خليفة أهل الإسلام وباعث الأسرة التركمانية" وطلب تغييرهما؛ فإحداهما من الولايات التى تعلقت بملوك التركمان "تيمور/ أوزن حسن" وكان "الشاه إسماعيل" قد فقدها بأن تعود من جديد إلى حوزة إيران، وعلى الرغم من وجود هذا فى النص الأصلى للاتفاق فقد صار هذا من المحددات فى عهد السلطان "مراد الرابع" وكانت سائر مواد الاتفاق متعلقة بالحجاج والزوار وتعيين الممثلين السياسيين وتبادل الأسرى[1]. وعلى أية حال بعد أن تخلى جيش "نادر شاه" المحارب عن أسس اتفاق "مغان"؛ خرج "نادر" فى اليوم العاشر من محرم أيضاً وأقام المنارات من الجماجم فى طريق مسيره.

وبعد نوروز ١١٦٠هـ/١٧٤٧م الذى احتفل به خارج مدينة كرمان تقدم "نادر" فى آخر أسفاره إلى ناحية خراسان، وعاد الأمراء الذين كانوا قد أسرعوا لاستقباله إلى "كلات"[2]. وبقى "نادر" نفسه فى مشهد عاجزًا سفاكاً للدماء على حسب قول ميرزا "مهديخان".

---

(١) بناء على قول هامر فى الفصل ٤٨ الاتفاقية التركمان فإن سفراء الترك كانوا قد وقعوا الاتفاقية فى ٤ سبتمبر سنة١٧٤٦م وظل الباب العالى مصرًا على احترامها حتى بعد موت نادر. "فصل ٤٩ من كتاب هامر" وكان خط الحدود فى جنوب "أرارات" ينطبق مع الحد الفعلى بالإضافة إلى القفقاز الذى كان يتبع إيران. (شفق)

(٢) يقول بازن : كلف نادر كل واحد من الأمراء أن يتولى ناحية من النواحى فكان يرغب فى أن يتنحى عن العرش ولكنهم لم يحيروا جواباً من الاضطراب والدهشة. (شفق)

تغير أخلاق نادر وأحواله :

يذكر ميرزا "مهديخان" فى آخر فصل من تاريخه الذى كُتب بالطبع بعد وفاة "نادر" أسباب انحطاط حكمه؛ فيرجعها بداية إلى تغير مزاجه منذ محاولة اغتياله، ويسوق الكلام لأول مرة عن سمل عينىّ الأمير وينسبها إلى "تسلط الوساوس والهواجس" ويكتب : "إن فتنة "تقى خان" فى فارس قد أفسدت خطة ذهاب "نادر" إلى استانبول وتمرد الشروانيين والقاجاريين والتجاوزات التى حدثت من الجانبين مما أدى إلى تغير فكره، وبعدها تغيرت أحوال "نادر" عن الانتظام العادى، ثم يذكر "مهديخان" عن رواج التهم والقتل الزائد ومصادرة أموال العاملين فى الخراج وخراب المملكة. وبناء على رأى المصادر الأوروبية فإن الخراب فى أحوال الإيرانيين على وجه العموم كان قد بدأ قبل الزحف إلى الهند. كما أوقف العطاء الذى كانوا قد أجلوه إلى ما بعد العودة من الهند[١]. واسترد الأشياء القيمة التى كان قد حملها قواد العسكر منهم قبل وصول الجيش إلى كابل [٢]. وأخذ ضرائب جديدة من الإيرانيين بدون النظر إلى وضع الخراج لثلاث سنوات وهو الذى كان قد وعد به. ويقول "اوتر": "إن ميرزا "مهديخان" يسكت تماماً فيما يتصل بأفكار الشيعة بالنسبة لميل سياسة "نادر شاه" الخراسانية نحو المذهب السنى، لكن هل كان من الممكن أن يخلع شجرة الصفويين ذات المائتى سنة[*] مع الأحكام التى كانت قد صدرت على أساس العسكرية؟ [**]

---

(١) مندوبو الروس . هانوى الجزء الأول، ص٢٣ ، اوتر الجزء الأول ٢٢٤، حيث إنه من الصعب أن يرى فقر البؤساء ولا يتأثر؛ فمدينة أصفهان كانت خالية من السكان. يراجع أيضاً الجزء الثانى، صفحات ٥ – ٣٢ – ١٦٤. (شفق)

(٢) اوتر الجزء الثانى، ص ١١٥٩. (شفق)

(*) صحة القول مائتا وخمسون عاماً.

(**) انظر نهاية كتاب "دره نادره" للاسترآبادى المطلب الخاص ببيان قتل نادر شاه، ترجمة حاتم محمود رشاد، ص ٣١٥.

تمرد فى سجستان :

تصاعدت فتنة سجستان إلى حد الهياج الشامل فكان السبب فى الطغيان تسلطات موظفي الخراج أن ما كان ينبغي أخذه من الأهالى نصف مليون تومان وتزعم "عليقلى ميرزا" ابن أخي "نادر" الذى كان حاكمًا عليها المتمردين. فصدر الأمر إلى "طهماسب قلي خان" قائد كابل الذى كان من الأوفياء للعرش النادرى بدفع الفتنة، ولكنهم طلبوا منه مبلغ ربع مليون تومان أيضاً. ولمّا كان "طهماسب قلي ميرز" قد يئس من "نادر" صمم على أن يعهد بالمُلك لواحد من أولاده والقيادة لــ "عليقلى" ولكن حاكم سجستان لم يملك أن يوافق على ادعاء هذا النفوذ الزائد ودس له السم فصار مطلق العنان. أيضاً قامت فتنة فى خراسان ونهب أكراد "خبوشان" حيوانات "نادر" فيها فخرج إليهم لسحقهم ونصب خيامه فى "فتح آباد" على مقربة من "خبوشان" فى ٢ جمادى الثانية ١١٦٠هــ/ ٢٠ يونية ١٧٤٧م.

قتل نادر :

وبإثارة من "على قلى ميرزا" وتعاون من "صالح خان" رئيس الحرس دخل عدة أشخاص من أمراء القاجار والافشار باتفاق جميع الحراس إلى المخدع النادرى فى خيمته وقتلوه، ولايمكن وصف الاضطراب والهرج والمرج الذى حدث فى معسكر "نادر"[1] إذ هزم الأفغان الابداليون والأزبك الذين كانوا أوفياء لــ "نادر" بقيادة "أحمد خان الابدالى"[2] الافشاريين واتجهوا صوب قندهار واستدعى الأفشار "على قلى ميرزا" من هرات باسم "عليشاه" وأجلسوه على العرش بلقب "عادلشاه" وهلك جميع أبناء نادر، فقط حبسوا حفيده "شاهرخ" الذى كان له من العمر أربعة عشر عاماً مؤقتاً فى مشهد.

---

(١) كان "بربازن" شاهدا بشخصه على أحداث ١٩، ١٧٤٧/٢٠م. (شفق)

(٢) يُعد مؤسس سلسلة الأبداليين فى أفغانستان. (شفق)

ونهبت الخزائن التى كان نادر قد احتفظ بها على وجه السرعة، ووقعت المملكة التى كانت قد صارت عاجزة فى براثن أزمة اقتصادية شديدة، وبقيت جهود نادر المذهبية بلا نتيجة. بينما تحررت حدود إيران من الأعداء؛ ومنذ ذلك الوقت فصاعداً نحت أرض إيران من النواحى الشمالية والشرقية الجنوبية نحو النقصان. لكن إيران لم تكن لتبقى على حدودها الحالية لو لم يكن نادر شاه (*).

(*) حاتم رشاد، المرجع السابق، ص٢٧.

الملحق الأول(*)
المسـائل المـذهبية

يرجع فى باب سعى "نادر" للتوفيق بين المذاهب الإسلامية إلى كتاب الحجج القطعية لاتفاق الفرق الإسلامية تأليف "عبد الله بن حسين السويدى" الذى هو من بغداد أصلاً ومن علماء السنة، ونُشر كتابه فى القاهرة عام ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م، وأورد فى هذا الكتاب بعضاً من مناظرات علماء السنة والشيعة فى معسكر "نادر" فى النجف فى ٢٤ شوال ١١٥٦هـ/ ١٢ ديسمبر ١٧٤٣م وقد حلل البروفسير "آ. أشميث" هذا الكتاب فى مقالة مهمة (1).

يرجع لـ "بارتولد" فى Festschrift فى عُقد الجمان طاشقند ١٩٢٧م ص٦٩- ١٠٧ إلى مقالة Ritter المندرجة فى (Dear Islam, XV. 1926, L,P.106) الخطاب الذى يبدو أنه لـ "عبد الباقى" إلى شيخ الإسلام فى استانبول فى باب اتفاق الشيعة والسنة طبع مجلة أرمغان طهران ١٣٠٨هـ أكتوبر ١٩٢٩م عدد ٧ ص ٤٤٩ – ٤٥٣. والنقطة الجديرة بالملاحظة أن "نادر شاه" كان يثبت نفور آبائه وأجداده الذى كان يظهره تجاه رفض "الشاه إسماعيل" وبدعه(**)، بل إن مؤرخه الرسمى كان يشير دائماً إلى الجيش الخراسانى تجاه القزلباش. وقد ابتكر قبعة لجنوده تختلف كلية مع قبعة الصفويين التى كانت قد تداولت منذ زمان الشيخ حيدر. يُرجع إلى اوتر Otter الجزء الأول ص٤٠ حيث يقول : "قبعة من أربعة

(*) هذه الملاحق هى الجزء الأخير من هذا الفصل.

(1) Iz istarii sumristsko, chirtskikh otnockenii.

(**) يعتبر هذا دليلاً على جدية نادر فى الدعوة إلى وحدة المذاهب إن لم يكن تخميس المذاهب على الأقل.

زوايا عقدوا حولها شالاً"(*)، كما يرجع إلى كتاب إبراهام روكرت (١). حيث يقول : أما "نادر" فقد كان متوافقاً من هذه الناحية مع الصفوية فقد كان يجتهد كثيراً فى تعظيم الإمام الرضا ﷺ وتجليله، وعندما ولّى الشاه "طهماسب" الثانى "نادر" إمارة خراسان ضرب السكة باسم جناب الرضا طبقا لرواية ميرزا "مهديخان" كذلك يُنظر إلى شرح هدايا "نادر" ونذوره فى عتبات العراق المقدسة.

ويُعد "اوتر"(٢) الكاتب الفرنسى و"عبد الكريم كشميرى" سبب إصرار "نادرشاه" على توحيد المذاهب الإسلامية وتوفيقها، أن هذا الملك كان يريد رفع مؤديات الخصومة المذهبية وفتح طريق الهجوم على العثمانيين.

كانت السورة ٤٨ الآية ٣٩(**) من القرآن الكريم قد وجهت نظر "نادر" إلى الكتب الدينية للنصارى واليهود "كتاب عبد الكريم، ترجمة "جلادوين" ص٨٩، ترجمة "لان زر" ص ٨٨" إن "نادر" أمر أن تترجم التوراة والإنجيل تحت نظر ميرزا "مهديخان". ارجع فى باب نسخ هذه الترجمة إلى الفهرست الذى كتبه "بلوشه" تحت عنوان النسخ الخطية للمكتبة الوطنية، المجلد الأول، ص٦، عدد ٧ يقول مندوب روسيا فى إيران "كالوچ كين"(٣) إنه فى يوم ١٣ ربيع أول ١١٥٤هـ/ ٢٨ من شهر مايو ١٧٤١م دعا "نادر" ممثلى المذاهب المختلفة وأخطرهم « إذا كان الله واحداً فالأديان ينبغى أن تكون واحدة » كتاب "سولويف Soloviev" الفصل الواحد والعشرين، ص١٠٢-١٠٥.

(*) الشيلان الأربعة دليل على الخلفاء الأربعة فى مقابل قبعة القزلباش التى تدل على الأئمة الاثنى عشرية.

(١) Abraham de Grète يُلاحظ أ، الصورة التى فى بداية هذه الرسالة أخذت من كتاب جون نيل المخطوط. (شفق)

(2) Otter II, 188, Hanway, 17, 216-9.

(**) صحة رقم هذه الآية ٢٩ وليس ٣٩ كما ورد فى متن الكتاب.

(3) Kalouch Kin.

ولم يكن "نادر" قاسيا بالنسبة للمسيحيين، فالجاثليق الأرمنى "إبراهام" كان يظهر الإخلاص والمحبة القلبية لـ "نادر" وإن لم يستطع أن يمنع هجرة عدد كبير من الأرامنة إلى خراسان. والنهاية أن هؤلاء المهاجرين دخلوا فى جيش "نادر".

وقول "بازين ززوئيت" (ص٣١٦-٣١٨) ليس خالياً من الغرابة ذلك أنه اعتبر "نادرشاه" شخصاً دون اعتقاد، فقط يؤمن بالقوة «ويعده نظيرا لـ محمد ﷺ وعلى ﷺ»(*) ملاحظة. الاستدلال الذى أبرزه "نادر" تجاه عقائد أبائه وانزعج منه لمسلك الشاه إسماعيل فى بدعه قد جعل ادعاءاته مفتعلة وبلا أساس؛ ذلك أن قبيلة الافشار كانت جزءا من الجيش الملكى ومن الأركان الأولى للسلطة الصفوية(**).

(*) لم يعترض المترجم على تشبيه هذا المستشرق فكأنه وافقه جهلاً وهذا خطأ منه.

(**) هذا رأى سديد ذلك أن قبيلة افشار كانت إحدى قبائل القزلباش جيش الدولة الصفوية.

الملحق الثانى

أبنيـــــة نـــادر

فى نص هذه الرسالة سبق الحديث عن مدن جديدة استحدثها نادر شاه على مقربة من "شماخى" و"قندهار" و"مرو"، وأشرنا إلى بناء خيوه آباد "بالقرب من أبيورد". وبناء على قول أوتر "Otter المجلد الأول ص ٤٠٣" كان قد أحضر عددا من الفنيين والصناع من الهند الذين بنوا مدينة شبيهة بدهلى بالقرب من همدان (قندهار!!)(*).

وقد بنى فى دستگرد بناء يذكّر بميلاده أسماه "مولودگاه" أى مسقط الرأس، كما استحدث فى "كلات" النادرية خزانة "يرجع إلى تصويرها فى تاريخ إيران لـــ "سايكس" الجزء الثانى ص ٢٦٤" كما أقام مقبرته فى مشهد "الشيخ على حزين، ص ٢٥٢" كما استخدم اللمسات الجمالية فى تزيين المزار الرضوى[1] كما قدم هو وحريمه نذوراً كثيرة وهدايا عديدة لتزيين العتبات المقدسة فى العراق ورمموا مبنى "شاه چراغ" فى شيراز بأمر من "نادر".

ويشاهد فى قزوين قاعة على شكل ديوان إحدى حدائقها منسوبة إلى "نادر" كما بنوا بأمر "نادر" بين كرمان وسجستان أعمدة فى صحراء الـــ "كوير" ترشد إلى طريق الصحراء "يرجع إلى رحلة "سايكس" المعروفة بالعشرة آلاف ميل ص ٤١٨" ويشاهد تصوير واحد من الأعمدة التى ترتفع خمسة وخمسين قدماً ومحيطه ٤٣ فى هذا الكتاب.

(*) مادام قد أحضر عدداً من الفنيين فهى فى الغالب "همدان".

(١) يسوق ميرزا "مهديخان" الحديث عن بناء منارة فى وقائع عام ١١٣٩هـ/ ١٧٢٦م ويقول الشيخ "على حزين" فى كتابه إن "نادر شاه" استحدث بعد جلوسه عدة أبنية من اللبن المذهب، ص ٢٥٢.

ويُنسب إلى "نادر" فى طريق وزيرستان[**] جنوب غزنه ثلاثة آبار حوالىَ "وان خواه" Woukhwah منسوبة إلى نادر "يرجع إلى كتاب مركز "سيا" تأليف ماك گرگور Mac Cregor عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧١م الجزء الثانى ص٧٣٨".

(**) كان إقليم وزيرستان محل النزاع بين باكستان وأفغانستان أحد معابر "نادر شاه".

الملحق الثالث
تاريخ محمد كاظم

فى مقالة بارتولد (Izv Ross Akael Nauk) التى أشرنا إليها فى نص الكتاب، والمطالب التالية مندرجة فى كتاب محمد كاظم، واسم هذا الكتاب الذى يُعد تأريخًا "لنادر" وسجلها كنسخة وحيدة فى المتحف الآسيوى، ويجوز ألا يكون اسمه الأصلى.

وتوافرت لمؤلف هذا التاريخ وأسرته فرص جيدة لمطالعة أوضاع عصر "نادر"، وقد أورد "محمد كاظم" فى الكتاب الحكايات التى كان أبوه يقولها عن سفره إلى "دربند وقندهار والتركستان وبغداد وتبريز". كان المؤلف نفسه ملازماً لـــ "إبراهيم خان" الذى قتل فى عام١١٥٠هــ/ ١٧٣٨ م لعدة أيام فى أذربيجان، وكان يدعو نفسه وزيرًا لدار الملك فى "مروشاه جهان".

وفى تاريخه، وردت مطالب مفيدة تتصل بـــ "مروشاه" مثلاً بناء صغير فى موقع قرية "ميرآباد" بأمر من "نادر" وقد صاحب "محمد كاظم" "نادر" فى زحفه على خوارزم وبخارا وهو يتحدث إضافة إلى شرح وقائع آسيا الوسطى عن حوادث الهند وآسيا الغربية. مثلا يورد شرحاً فى باب حملة جيش "نادر" على اليزيديين عبدة الشيطان "بالقرب من الموصل" بينما ميرزا "مهديخان" قد سكت عنها.

وكان "محمد كاظم" مسئولاً عن التفتيش على إنفاق الجيش وقد قدم أخبارا فى هذا الباب بشخصه إلى "نادر" فلفت نظره. وكان أن حوّل إليه بعض المكاتبات السياسية فكتب ثلاثين رسالة من سبعين وجهها "نادر" إلى ملوك التركستان وولاته.

ومن الدقائق العجيبة فى هذا الكتاب، إحداها ذكر مجىء سفير الفرنجة ويقصد به فى رأى "بارتولد فرانسوا" ملك النمسا. وقد جاء هذا السفير عن طريق "حاجى طرخان" وفى هذه الأثناء لحق به سفراء آق بانو ملكة روسيا ومراده إليزبيث إمبراطورة روسيا.

وقد أتم أخريات الكتاب "ابن محمد كاظم" الذى شهد انسحاب الإيرانيين من التركستان بعد موت "نادر" وحتى هذا التاريخ قد وضع اثنان من المتشرقين يدهما على كتاب "محمد كاظم" : أحدهما البروفسير "بارتولد" والآخر البروفسير "آ.اشميث".

الفصل السابع

كتاب "نادر شاه"(١)

١

مقدمة : انحطاط الصفويين وانقراضهم- الأفغان وهجوم الروس والعثمانيين.

من خصائص أرض المشرق ظهور فاتحين عظام مثل چنكيز وتيمور ونادر شاه، إلى حد كبير خاصة أن الشبه بين "نادر" و"تيمور" يصل إلى حد أنه لا يمكن أن يُعد من باب الصدفة، فمما لاشك فيه أن "نادر" سار على نهج "تيمور" على الرغم من أنه من الصعب غض الطرف عن قساوات "نادر"، ومع هذا الحال مما لاريب فيه أنه كان رجلًا عظيمًا ونقل حرفة الرعى إلى الملكية. وهذا عمل عجيب؛ والأعجب منه أن هذا الرجل لم يحرر إيران من قبضة الأعداء الأقوياء فحسب، بل نقلها من حضيض الذلة إلى أوج العزة وجعلها أعظم قوة فى قارة آسيا.

يجدر الآن أن نصف إرهاصات "نادر" باختصار؛ فالعلة الأساسية فى انحطاط الصفويين ينبغى أن تنحصر فى الضعف الأخلاقى لسلاطين هذه السلسلة؛ فقد بدأ فى أول الأمر من السياسة الضارة للشاه "عباس" بأن أوقف الأمراء مع الحريم، فابتعدوا عن أمور الدنيا ولم يدركوا معترك الحياة ولم يعلموا شيئًا عن فنون الحرب أو موارد السلام وتحملوا أعباء النفوذ الفاسد.

---

(١) تأليف لاكهارت ، طبع لندن، ١٩٣٨م وأحدث الكتب الجامعة عن نادر، ترجمة مع التلخيص.

كما أنه من العلل الأخرى لانحطاط الصفويين التغافل عن تدريب العسكر وتدعيمهم بما جعلهم يتراخون سنة بسنة، فأفل نجم السلالة الصفوية بجلوس السلطان "شاه حسين" عام ١١٠٦هـ/١٦٨٤م إذ كان هذا الشخص الهادئ الحنون أكثر مناسبة للخانقاه. ذلك أنه ما إن وصل إلى العرش أمضى العامين أو الثلاثة الأولى من سلطنته بلا عناء، ولكن لم يمض وقت طويل إلا ورفعت قبائل البلوچ رأسها بالتمرد وسرت فتنة فى قندهار، غير أن سياسة "گرگين خان"[1] الشديدة أسكتتها بما جعله يتولى أمر الحكومة. ولمّا كانت ألويته أكثر أفرادها من الجرجيين فقد استساغوا التعدى على العشائر الغلچائية مما كان سببًا فى عدم الرضا، فمنذ قرن مضى كانت العشائر الغلچائية والابدالية قد يمموا وجوههم شطر الأراضى المسطحة فى الغرب والجنوب الغربى قادمين من الجبال وسكنوا فى أراضى قندهار الخصبة ومراتع وادى "ارغنداب وترنك".

وقد أبعدهم "الشاه عباس الأول" إلى ولاية هرات نتيجة الفتنة التى أشعلها الابداليون، والنتيجة أن أقوى تجمع حوالىّ قندهار كان هؤلاء الغلچائيون حيث بقوا هناك إذ ازداد عددهم فى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى، وكان رئيسهم المخادع هو "ميرويس" من قبيلة "هوتيكى".

غير أن الغلچائيين الذين كانوا قد ضاقوا ذرعًا بالجرجيين سرعان ما تمردوا، إلا أن "كركين خان" هزمهم وأرسل "ميرويس" تحت الحراسة إلى أصفهان، فخدع "سلطانحسين" وكسب ثقته وعاد إلى قندهار، وحصّل فرصة فى قتل "كركين خان" وأخرج أعوانه الجماعات المعتدية بقتل الكثير منهم وأدلف جيشًا تحت قيادة "كيخسروخان" من أصفهان. وإذا كان قد توفر له التقدم فى بادئ الأمر فإنه غلب وانتصر وعادت بقية عسكره، ووقع هذا من "ميرويس" موقع التنبيه إلى سوء العاقبة إلى أن مات فى عام ١١١٧هـ/١٧٠٥م وجلس أخوه "عبد العزيز" مكانه، وما إن شرع فى إدارة الأمور إلا وقتله "محمود" ابن "ميرويس" الذى كان راشدًا وصاحب إرادة عام ١١٢٢هـ/١٧١٠م وأخذ مكانه. وكان الابداليون منذ

---

(١) Giargi من أسرة كرتلى Kartli.

عام مضى قد أعلنوا العصيان وهرب زعيم عشيرة "اليوبلزا" الابدالية "عبد الله خان سدوزاى" وابنه "أسد الله" من سجن حاكم هرات أيضًا وفشلت إجراءات الحكومة فى إخماد الفتنة. وقد أورد مؤرخ "نادر" المعاصر فى كتابه "زبدة التواريخ" حوادث الحكم وشرح حال وزرائه الفاسدين(١).

وقد حدث بين الغلچائيين والأبداليين أنفسهم عراك قُتل فيه "أسد الله"، ولم تستفد الحكومة الملكية من هذه الفرصة، وعلى الرغم من هذا فقد بدا محمود متمكنًا ونُصب فى حكم قندهار. ولم يمض وقت طويل حتى حمل على كرمان فى ١١٢٢هـ/١٧١٠م حيث هُزم هناك من جانب قائد إيران الشجاع "لطفعليخان"، وعاد أدراجه يتحرى ضعف الدولة الصفوية ويستعد لحملة جديدة. وفى هذه الأثناء حدثت فتن فى الغرب والشمال، وتوضيح ذلك أنه فى بداية القرن الثانى عشر الهجرى/ الثامن عشر الميلادى بدأ اللزگيين من أهل الجبال فى داغستان هجومهم من جديد تحالفًا مع عشائر "جار" و "تاله" فى ناحية "كانيك" أو "آلازن" الذين كانوا قد استقروا فى جرجستان وشيروان فى الجهات الجنوبية الغربية من جبال القفقاز. كان الشاه "عباس الثانى" منذ نصف قرن مضى قد وعد هؤلاء اللزكيين شرط السلام وظل هذا الشرط قائمًا حتى عصر "شاه سلطان حسين"، ولكن فى هذا الوقت أسيء استغلاله من جانب رجال البلاط، بينما أهل شيروان يتضررون من اللزكيين سواء بتعجل بعض علماء التشيع(*). والنتيجة أنهم فرّوا إلى الدولة العثمانية وطلبت البقية حماية هذه الدولة. ومن ناحية أخرى كان ظهور بطرس الكبير فى روسيا إبرازًا لخصم جديد إزاء إيران. ففى هذا الوقت أرسلت روسيا وفدًا اقتصاديًّا تحت إشراف "ولينسكى"(٢) الذى شرح بعد عودته ضعف حكم "سلطان حسين" وانحطاطه، ولكن لمّا لم يستطع "بطرس الكبير" أن يستفيد من الفرصة بسبب النزاع مع مملكة الشمال شرع فى تهيئة الميدان فى جرجستان وداغستان، وفى عام ١١٣١هـ/١٧١٩ أثار "عادل گراى" حاكم داغستان حفيظة "بطرس" ضد إيران(٣).

---

(١) تأليف محمد محسن، ونسخته الخطيّة فى كمبردج.

(*) اعتادت الدولة الصفوية على بسط نفوذ علماء التشيع فى مسارها السياسى والاجتماعى.

(2) Artemi Volynski.

(٣) يلقب هؤلاء الرؤساء لعشائر داغستان بـ "شمخال" وكان هذا الرئيس يُعرف بـ "غازى قموق". (شفق)

ولم تكن الدولة العثمانية بمنأى عن هذه الأحداث؛ ذلك أنها اتجهت ناحية الشرق لتعويض خسائرها فى الجبهة الغربية، ولم يكن قد ضاع من ذهنها أنها سخّرت أذربيجان وجرجستان وشيروان بين عامى ١٠١٦-١٠٤٥هـ/١٥٧٨-١٦٠٧م فعادت تطمع فيها من جديد. إذن فقد أوفدت لاستطلاع الوضع فى إيران سفيرًا يُدعى "رزاى أفندى" إلى طهران عام ١١٣٣هـ/١٧٢٠م فعاد بعد ثلاثة أشهر إلى استانبول مُقرًا بانحطاط إيران وانعدام أصحاب الخبرة على رأس الأعمال فيها. وفى هذا الوقت صارت الأوضاع من سيئ إلى أسوأ، ذلك أن "فتحعلى خان اعتماد الدولة" الداغستانى الوزير المسئول فى البلاط خدع أعداءه وشرع يُعمل الخلع والسجن وسمل العين، كما عزل ابن أخيه "لطفعلى خان" الذى كان زعيمًا قبليًا من منصبه أيضًا ومعه ثلاثين من النخبة القوية فى القوات العسكرية.

كما كانت الأوضاع فى الخليج الفارسى تسير من سيئ إلى أسوأ أيضاً، ففى عام ١١٢٩هـ/١٧١٧م حمل "إمام سلطان" ابن "سيف الثانى" شيخ مسقط الذى كان يمتلك أسطولًا بحريًا قويًّا على جزائر البحرين واحتلها، كما تعرضت عشائر البلوچ فى ولايتى كرمان ولرستان للسلب والنهب، وزحفت فى عام ١١٣٤هـ/١٧٢١م على بندر عباس ورغبت فى وضع اليد على المصانع الإنجليزية والهولندية ولكنهم انسحبوا وحدثت ثورات فى لرستان وكردستان أيضاً، وخرج الملك محمود السجستانى والى "تون" عن أمر الشاه، وكان رجلًا خسيسًا ينتسب إلى أسرة الكيانيين فى سجستان، كما ادَّعى أن أصله يصل إلى الصفّاريين.

وفى عام ١١٣٤هـ/١٧٢١م ثار أهل شيروان السنة ضد الحكومة، ونهضت عشائر داغستان إلى مساعدتهم، وكان من أسباب هذه الثورة "فتح عليخان" الداغستانى فهاجموا مدينة "شماخى" وقتلوا أربعة آلاف شيعى ونهبوا أموالهم. ومن الحظ العثر فى هذه السنة تصالح روسيا والسويد وسنوح الفرصة لـ "بطرس الكبير" فى الهجوم على إيران. ومن ناحية أخرى نهضت الدولة العثمانية لحماية

"شيروان" ونصبت زعيم المتمردين أى "الحاج داود خان" على تلك الولاية بصفة رسمية. وعلى هذا النحو صارت كل أنحاء إيران أسيرة للتمرد والهرج والمرج. وفى نفس العام حمل "محمود الأفغانى" الذى كان يحكم فى قندهار على إيران من جديد، وبعد أن سيطر على كرمان كلَّف قسمًا من قواته بالزحف صوب شيراز واتجه هو لتسخير "يزد" ولكنه لم يوفق. وحتى لا يضيع الوقت صرف النظر عن حصار هذه المدينة وحمل على أصفهان بجرأة، وحصّل توفيقًا فى "جناباد"، وقد حدد هذا النصر الذى حققه الأفغان مستقبل الدولة الصفوية وبلغ موضع مصيف السلطان "شاه حسين" فى فرح آباد ثم استولى على "جلفا"(*) وأصفهان، وعندئذ اهتم بالهجوم على المدينة ، ولكنه تقهقر بخسائر جسيمة، ثم فكر ثانية بالحصار الذى أنزل أضرارًا بالغة بأهلها، واستقر قرار السلطان "شاه حسين" بمشورة الوزراء على أن يعين وليًا للعهد ويبعث به خفية من بين صفوف المحاصرين إلى أذربيجان، وجمع قوة وأسرع به بتأييد من العاصمة. إذن فقد أصبح "سلطان محمود ميرزا" الابن الأكبر فى هذا المقام وأقيمت المراسم والتشريفات لدى الحريم.

ولكن هذا الأمير الذى كان قد تربى تحت إشرافهن جفل هذه المراسم وهرب إلى الداخل فاضطروا إلى تنصيب أخيه الثانى "صفى ميرزا" الذى أظهر عجزه فى يومين أو ثلاثة أيضاً؛ فاختاروا الابن الثالث "طهماسب ميرزا" الذى كان له من العمر ثمانية عشر عامًا وكان قد تربى تربية شبيهة بأخيه الأكبر فبقى فى هذا المقام، وفى ٢٧ شعبان ١١٣٤هـ/٢ يونيو ١٧٢٢م عبر من بين الأفغان خفية برفقة مائتى رجل من أهل تبريز ووصل إلى قزوين ولكنه بدل أن يُجَيِّش القوات فى هذه المدينة شرع فى ممارسة التسلى والتفريح، والنتيجة أن أهل أصفهان ضاقوا ذرعاً، وذهب السلطان "حسين" ووزراؤه إلى "محمود" وخلع الشاه قلادته وعلَّقها فى رقبة الفاتح، وبعد يومين أو ثلاثة وصل "محمود" إلى أصفهان ووضع التاج على رأسه. ولمّا وصل هذا الخبر إلى "طهماسب" أعلن هو أيضًا نفسه فى

(*) "جلفا" هو الحى الذى أقامه الشاه عباس الكبير للأرمن فى أصفهان ومازال قائمًا حتى اليوم.

قزوين ملكًا على إيران فأرسل "محمود" فى ٤ جماد أول ١١٤٢هـ/ ٢٤ نوفمبر ١٧٢٩م قوة إلى أصفهان واحتل قزوين وهرب "طهماسب" إلى تبريز، غير أن تصرفات الأفغان الجائرة تسببت فى أن يثور أهل تلك المدينة ويعتدوا على المهاجمين ويفر الباقى إلى أصفهان ، فتوحش "محمود" لدى سماعه هذا الخبر وقتل عددًا من الأمراء الصفويين وثلاثمائة من الأعيان والحاشية فى بلاط "شاه سلطان حسين" للترهيب.

٢

العلاقات الإيرانية الروسية

كانت روسيا تريد أن تبقى فى مكانها هادئة ففى وقت حصار أصفهان كان بطرس الكبير بصدد التحرك وأخذ فى اعتباره أن يتحرك فى السنة التالية أى عام ١١٣٥هـ/ ١٧٢٣م. غير أن أحداث إيران وحوادث القفقاز خاصة أدخلت الدولة العثمانية فى شيروان ودفعته إلى التعجل. وكان من أهدافه ترسيم منطقة بحر الخزر لصالح روسيا وقطع الطريق على نفوذ الدولة العثمانية عن سواحله، فتحرك على رأس قوة من الراكبة والراجلة مع دعم بحرى فى رمضان ١١٣٤هـ/ يونيو ١٧٢٢م من "هشترخان" ونزل فى خليج "گره خان" الواقع شمال "ترخو" وتحرك صوب "طبرستان" حيث واجه الروس مقاومة من عشائر داغستان ومنها "قره قيطاق" وهزموهم. كانت هذه العشائر قد طلبت المساعدة من السلطان العثمانى، وفى هذه الأثناء أخذ بطرس الكبير "دربند" وترك حامية هناك وعاد أدراجه صوب "هشترخان" حيث وصلته رسالة من أهالى "جيلان" طلبوا فيها المساعدة من أجل دفع الأفغان اللزگيين فأرسل لهم قوات بقيادة الجنرال "لواشو" نزلت فى "انزلى". واتفق "بطرس الكبير" فى جرجستان أيضًا مع "ختانج السادس كرتلى" أخى

"كيخسروخان" على اتفاقية اتحاد فى ٢٣ سبتمبر قبلت روسيا بمقتضاه أن تساعد "طهماسب" فى إقرار السلام فى إيران فى مقابل التخلى عن "دربند وباكو وجيلان ومازندران واسترآباد" لروسيا وتعهد الطرفان بتحالفهما مع الصديق وضد العدو.

اقترن إرسال سفير من جانب الشاه "طهماسب" إلى بلاط بطرس بإرسال آخر إلى استانبول وعندئذ قالوا : إن روسيا احتلت "دربند وباكو" وأن الأفغان قد أخذوا أصفهان أيضاً"، إذاً تهيأت الدولة العثمانية لأن ترسل قوة إلى تبريز وإيروان حتى لا تسقط بيد أعداء إيران وأعلنوا أنه إذا عهد "الشاه طهماسب" بأذربيجان وجرجستان إلى الدولة العثمانية فإنهم على استعداد أن يعترفوا بسلطنته وأن يقدموا إليه المساعدة العسكرية، غير أنه لمّا لم يجد رسول إيران جوابًا فقد صرف النظر عن هذا الاقتراح وعاد إلى إيران.

وبدا قريبًا عندئذ أن خبر احتلال "باكو" من جانب قوة روسية يمهد إلى إيقاع حرب بين العثمانيين والروس، ولكن بتوسط سفير خراسان فى البلاط العثمانى لمنع حدوث الحرب إلا أن الأتراك الذين كانوا قد احتلوا جرجستان تحركوا من الجنوب إلى إيران، وتقدم "حسين باشا" والى بغداد حتى كرمانشاه وواصل ابنه "أحمد باشا" مسيرة أبيه من بعده. ومرة ثانية عُقد صلح بواسطة نفس السفير الفرنسى ويُدعى "ماركس دنباك"[١] فى ٣ شوال ١١٣٦هـ/ ٢٤ يونيو ١٧٢٤م بين الروس والعثمانيين تنقسم بمقتضاه جميع أنحاء الشمال وقسم مهم من غرب إيران بين الجانبين، وقد ذُكر فى أول الاتفاقية موضوع التخلى عن الولايات الساحلية لروسيا بموجب اتفاق روسيا وإيران فى العام السابق والذى كان "طهماسب" قد امتنع عن إمضائه، ورسم فى نص الاتفاقية الخط الحدودى بين روسيا والممالك العثمانية من جنوب داغستان وشيروان والموازى للساحل بفاصل ٢٢ ساعة مسافة راكبة، ومن ذلك الموضع حتى اردبيل وهمدان وكرمانشاه. كما ضمنت السلطنة

---

(١) Marqscis de Bonndc .

السكن والاستقرار فى إيران بشرط أن يقبل "طهماسب" هذا الحلف. وكان العثمانيون قبل هذه الاتفاقية قد أخذوا قصبة "خوى"، ولمّا كانوا قد امتنعوا عن إمضاء الاتفاقية فقد تقدموا أكثر في داخل الوطن، وحمل "أحمد باشا" على همدان وأظهرت تلك المدينة مقاومة شديدة أكثر من شهرين، وتمكنت قوة عثمانية من تسخير "نخجوان وايروان" وإن كانت حملتهم على تبريز قد فشلت. وبعد ذلك أخذوا "گنجه" فى عام١١٣٦هـ/ ١٧٢٥م، وهجموا على تبريز هجومًا ثانويًّا، وتوجه "طهماسب" إلى أردبيل حيث أجبره تقدم العدو هناك على التحرك صوب قزوين وطهران، ولكن لم يجد فيهما أمانًا لأن عدوًّا جديدًا كان قد ولّى وجهه شطرهما.

توقفت الحملات الروسية على إيران بواسطة بطرس الكبير لوفاته فى ٣ شوال ١١٣٦هـ/ ٨ فبراير ١٧٢٥م فقط جعلوها صوب أعينهم من أجل الحفاظ على ما كانوا قد أخذوه، وفى هذه المعركة نهض شخص من عشيرة "كرانى" فى منطقة بختيارى يطالب بانقسام إيران، وادعى أنه "صفى ميرزا" ابن "طهماسب" الذى قضى ثلاثة أعوام حتى خُمدت فتنته، ولكن ادعاء هذا الشخص أحدث ضررًا آخر إذ ادّعى ثان هو "محمد باتو" أنه هو صفى ميرزا الحقيقى والهارب مما أدى إلى فاجعة جديدة بقتل الأمراء الصفويين الذين كانوا قد بقوا فى أصفهان باستثناء "سلطانحسين" نفسه وأميرين آخرين.

فى هذه الأثناء اختلّت قوى "محمود" العقلية وساءت ظنونه بمن حوله، فسجن ابن عمه "أشرف بن عبد العزيز" الذى كان ذا نبوغ حربى وأوجد له بين الأفغان موقعًا بل مرض وابتلى بالشلل والجذام.

وقد أعطى هذا الحال المهول لمعارضيه الفرصة فى أن يتحولوا إلى "أشرف" الذى قتل "محمود" فى ٢٩ رجب ١١٣٧هـ/ ١٢ أبريل ١٧٢٥م. "ويقولون إنه طلب من "سلطانحسين" أن يجلس ثانية على العرش"، ثم دعا الشاه طهماسب من باب الخدعة إلى لقاء، وحذر مشاوريه من تلبية هذه الدعوة. وعندئذ توجه "أشرف" إلى طهران وهرب "طهماسب" إلى مازندران، وبعد أن فقد طريقه

لفترة فى غاباتها وصل إلى "سارى" حيث أحسنت العامة وفادته على غير المتوقع وانضم إليه "فتحعلى خان قاجار" الاسترآبادى بألفين من الجنود.

وفيما يتصل بهذا الانضمام يوجد اختلاف بين مؤرخى العصر القاجارى ومعاصرى عهد الشاه "طهماسب"، فالظاهر أن مكان إقامة "طهماسب" كانت فى طهران أوائل عام ١١٣٨هـ / أواخر عام ١٧٢٥م حيث طلب المدد من "فتحعلى خان" وأنه أسرع لمساعدته وتحارب ضد العدو فى "وارمين"، غير أنه تباطأ فى التحرك ولم يبذل مجهودًا فى الاتصال بالشاه ودفع الغلچائيين. وبناء على هذا التحق بـ "طهماسب" فى سارى حسب رواية "محمد محسن" فى كتاب "زبدة التواريخ" الذى يبدو للنظر أنه محايد وأنه نهض فى شهر شوال ١١٣٧هـ/ يونيو ١٧٢٥م ضد "طهماسب" وأغار على "دامغان" ثم توجه إلى مازندران، وحارب قوة حربية حكومية. وعندئذ انضوى مع عدد آخر من رؤساء القاجار تحت لواء الشاه "طهماسب".

وعلى كل حال فمن المحقق أن "فتحعلى خان" كان يحكم فى البداية بعناد واستقلال عن الشاه "طهماسب". وكانت قدرة الشاه طهماسب محدودة، ولكن لمَّا كان يُعدّ الوارث الوحيد للعرش الصفوى فقد التف حوله جميع الأوفياء لهذه السلسلة، وكان "فتحعلى خان" يرى أنه من الصلاح والذكاء الذى يمتلكه أن ينفذ إلى الشاه بما يجعله الحاكم الفعلى المقبل لإيران. كما أدرك بفراسته علائم الضعف فى أعداء إيران. ففى رجب ١١٣٨هـ/مارس ١٧٢٦م ظهرت بوادر الحرب بين "أشرف" الأفغانى والعثمانيين؛ ولذلك تقاعس الطرفان عن الثقة فى الشاه "طهماسب". ولمّا كان "أشرف" محلًا للنفور من العامة هو وقواته إضافة إلى أنه قتل "محمود" الأفغانى فقد تعرض لحقد من "حسين" أخى "محمود" الذى كان قد تسلط على الأوضاع فى قندهار وجمع حوله نفرًا كثيرًا. أما روسيا فكما ادَّعى أشرف كانت قد فقدت قدرتها برحيل "بطرس" الكبير أيضًا. وكان الابداليون على الرغم من أنهم كانوا العصاة حتى ذلك الوقت لم تكن لديهم طاقة الهجوم. أما الملك

"محمود" السجستانى الذى كان قد سخّر مشهد فلم يكن قد تعرض للأسر بسبب تعلق الناس بالصفويين.

توجه الشاه "طهماسب" برفقة "فتحعلى خان" إلى "استرآباد" لشحذ همة العسكر، وخلع عليه لقب وكيل الدولة ومنح بعضًا آخر من القجاريين وظائف حكومية وأخبر "فتحعلى خان" الشاه بمعلومات من شأنها أن تُكدِّر صفوه ضد الملك "محمود". فتقدم إلى "خبوشان" قاصدًا مشهد وجمع قواته فى أثناء الطريق. ولم تكن من حيلة أمام "فتحعليخان" سوى الاستفادة من النفاق بين أعداء إيران واغتنام الفرصة لصالح بلده، ولكنه لم يصل إلى هذا القصد لأن الأعداء أخذوا منه هذه الفرصة وسبقوه.

٣
أصل نادر ونسبه وبداياته البدوية

ليس معلومًا نسب الطائفة الافشارية ولكن الظن الغالب هو أنها من الجنس التركى، فقد رحل الافشاريون مضطرين فى مقابل الضغط المغولى فى "القرن الثالث عشر الميلادى" صوب الغرب، وتوطنوا أول الأمر فى أذربيجان ثم تفرقوا فى جميع أنحاء إيران. وكما نعلم أفاد الشاه إسماعيل الصفوى منهم فى جيشه، وكان "خليل بيك افشار" واليًا على "كوه كيلويه" فى عصر الشاه "طهماسب الأول". وبحسب رواية "ميرزا مهدى خان" فى التاريخ النادرى هاجرت قبيلة "نادر" أى قبيلة "قراقلو" فى زمان الشاه إسماعيل ١٥٠٢-١٥٢٤م إلى خراسان وكانت تتمركز فى "مياب كوبكان" جنوب جبال "الله أكبر" صيفًا وفى الشتاء بجوار "دره كز" أى "وادى كز". وفى عام ١١٠٠هـ/١٦٧٧م عندما كانت القبيلة تتحرك لقضاء

موسم الشتاء كان واحد من أفرادها المغمورين، هو "إمام قلى بيك" يعبر مع زوجته جبال "الله أكبر" نحو المشتى ، فوضعت ابنًا منه سُمى باسم جده "نادر قلى" وصار هذا الطفل "نادر شاه" بعد ذلك. وقد وقع هذا الميلاد فى ٥ محرم ١١٠٠هـ/٢٢ نوفمبر ١٦٧٧م.

ويبدو للنظر أن هذا القول هو الأصح بين سائر الأقوال. أما ميلاد "نادر" فى قلعة "دستگرد" ليس صحيحًا بل إنه وُلد فى خيمة نصبت إلى جوارها، ومن ثم استحدث "نادر" مكانها بعد ذلك ما يعرف بـــ "مولودگاه" أى مسقط الرأس.

لا يُعرف شيء عن بدايات عهد "نادر" سوى أنه كان يصاحب أباه وأمه فى هجراتهم السنوية. يقول "هانوى"[١] إن "نادر" قد اختُطف مع أمه فى عام ١١١٦هـ/١٧٠٤م بيد الأزبك لدى هجومهم على خراسان وتوفيت أمه فى الأسر وهرب "نادر"، غير أن هذه الحادثة لم ترد فى الروايات الإيرانية. وفى شرخ الشباب وضع "نادر" قدمه على سلم الارتقاء، إذ دخل فى خدمة "بابا على بيگ كوسه احمدلو" الذى كان رئيسًا لقبيلة الأفشار فى مدينة "ابيورد" وكان حاكمًا على هذا المكان، ولم يمض وقت طويل حتى ارتفعت منزلته وزوج ابنته لـــ "نادر" فولدت له "رضا قلى" فى ٢٥ جماى الأول ١١٣١هـ/ ١٥ أبريل ١٧١٩م، وبعد مدة ماتت زوجته فتزوج ابنة أخرى لـــ "بابا على بيگ " باسم "جوهر شاد" أنجبت له طفلين هما "نصر الله" و "إمام قلى". وهذه الأسماء مثل "رضا قلى" و "إمام قلى" كانت تظهر أن أسرته شيعية بينما اعتبره الكثير سنيًا. وعن السنوات التالية ليس معلومًا ما يقال عن موت أبيه عام ١١٣٥هـ/ ١٧٢٣م ووصول أمواله إلى "نادر"[*].

(١) Hanay.

(*) كان أبوه بدويًا مرتحلاً، فكيف تكون لديه أموال يرثها "نادر".

أما عن قول "مالكولم" إن "نادر" قتل أباه فلا يصح لأنه فى هذه الحال كانت الخصومة العائلية ستطل برأسها. وبينما بقى أولاد "بابا على بيگ " في خدمة "نادر" بصدق فإنه اتجه إلى مشهد بعد أن أنجز أعمالًا شخصية، ودخل فى خدمة الملك محمود، حيث كسب ودّ اثنين من رؤساء الأفشار حتى يرتكبا بعض الحماقات ضد الملك محمود، ولكنه لم يستطع، وعاد إلى "ابيورد" وشكل هناك قوة بمساعدة شخص يسمى "ناصر آقا"، وشرع يمارس السلب والنهب فى خراسان مستفيدًا من النزاع الذى نشب بين الملك "محمود" وقبائل الأكراد فى "خبوشان" "قوجان" وساعد الأكراد وأوقف الملك "محمود" عند حده، ثم شرع فى تسخير القلاع المنتشرة فى "گز" . وفى هذه الأثناء أرسل الشاه "طهماسب" قائده "رضا قليخان" لحرب الملك "محمود" فلم يوفق فنصب مكانه "محمد خان تركمان" الذى كان ينتمى إلى الصفويين، ومن ناحية أخرى تقدم الملك "محمود" إلى نيشابور فى إثر الانتصار الذى حققه على "رضاقليخان" واستولى عليها، ولم يغلبه "نادر" وأخوه "إبراهيم" اللذان اهتما بتحجيمه، وجاء "محمد خان تركمان" إلى خراسان وهزم الملك "محمود" بمساعدة "نادر" خارج مشهد، ولكن الأخير توجه إلى محل "باغواده" شمال شرق "ابيورد"[١]، فحدث تمرد هناك ثم واصل طريقه إلى "مرو" و "سرخس" بعد تأديب المتمردين حيث هزم أعوان الملك "محمود" هناك ، غير أنه وقع بعد ذلك فى صراع مع واحد من الافشاريين يدعى "آشوربيك" كان من أعوان أكراد "چمشگزك" وأرسل إليه "شيرغازى" حاكم خيوه عددًا مكونًا من خمسمائة جندى أغلبهم من الأزبك، فأدلف إليه الشاه "طهماسب" الذى كان يسمع بشجاعته بـــ "حسن على بيگ" معير الملك وأسعده أن يجعل "نادر" نائبًا للحكم فى "ابيورد" باسم الشاه. وبناء على رواية ميرزا "مهديخان" طلب نادر منه أن يحث الشاه "طهماسب" على القدوم إلى خراسان. عاد "نادر" بعد تحركه إلى مرو لإخماد فتنة حدثت هناك وشرع مرة أخرى يفكر فى حملة أخرى على الملك "محمود" فأحضر "حسنعلى بيگ " فى هذه الأثناء رسالة مفادها أن الشاه "طهماسب" سيأتى بهدف الزيارة إلى خراسان ، فتوجه "نادر" من مشهد إلى خبوشان وبعد يومين أو ثلاثة وصل الشاه "طهماسب" برفقة "فتحعليخان" وبمعية ألفين من الجنود الأكراد إليها.

(١) فى نص كتاب لاكهارت كُتبت بغداد خطأ وضبطت بـــ غداوه فى تاريخ نادر.(شفق)

٤

علاقات نادر بالشاه طهماسب – فتح مشهد وحروب أخرى

صار ارتباط "نادر" بالشاه "طهماسب" سببًا فى أن يضيف على شهرته شهرة أوسع، وقضى على مخالفيه بالتدريج وأصبح القائد العام للشاه. ولم يكن هذا بالأمر السهل لأن أول مخالفيه كان "فتحعليخان قاجار" نفسه، وفضلاً عن ذلك لابد أن يصير معلوما أن "طهماسب" مثل أبيه كان ضعيف النفس وصنيعة فى يد وزرائه أيضًا ويفتقد الثقة بالنفس، وما إن يصل أحد إلى مدارج الترقى فإنه كان يقع فريسة لحقد هؤلاء الوزراء وخصومتهم. ومع هذا الوضع أدرك "نادر" أنه من اللازم أن يزداد قوة.

عزم "الشاه طهماسب" بعد عدة أيام من الإقامة فى "خبوشان" برفقة هذين القائدين الكبيرين فى ٢٢ محرم ١١٣٩هـ/ ١٦ سبتمبر ١٧٢٦م على التوجه إلى مشهد ونزل بعد عشرة أيام فى "خواجه ربيع" على بعد ثلاثة فراسخ منها، وقد ظهرت المنافسة بين "نادر" و"فتحعليخان" فى هذا السفر؛ إذ حث فيه نادر "الشاه طهماسب" على أن يوليه قيادة الهجوم على المدينة. ولمَّا كان هذا العمل صعبًا لوجود بعض المعوقات لم يكن لديه من حيلة سوى حصار المدينة الذى تصاعدت فيه المنافسة بين "نادر" وفتحعليخان" إلى عداء بدا فيه الأخير دون تأييد من "طهماسب". وقد استفاد "نادر" من هذه الفرصة؛ ذلك أن الشاه قد بدأ يسيء الظن بشخص "فتحعليخان" وقتله فى ١٤ صفر ١١٣٩هـ/ ١٧ أكتوبر ١٧٢٦م، وإن كان الاختلاف قد وقع بين مؤرخى "نادر" و"القاجار" فى هذا الصدد.

وما إن رحل المنافس حتى صعد "نادر" سلم الترقى فصار رئيسًا للترسانة الحربية ونال لقب "طهماسبقلى" فتجرأ الملك "محمود" من إثر سماعه لخبر قتل "فتحعليخان" وحدوث الفرقة فخرج من المدينة وحمل علي معسكر "نادر" فى خواجه ربيع ولكنه هزم، وشرع فى الدفاع عن المدينة فخانه واحد من قادته يُدعى "پير محمد" وتعاون مع "نادر" الذى سخّر المدينة فى ١٦ ربيع الثانى ١١٣٩هـ/١٠ ديسمبر ١٧٢٦م فاعتزل الملك "محمود" العمل معتكفًا فى إحدى حجرات الضريح(*)، وأمر "نادر" بوضع النذور التى كان قد خصصها وأن يجددوا الضريح المطهَّر ويعمّروه وأضافوا مأذنة إلى المآذن الأخرى، ويجوز أن يُعد هذا الإقدام دليلًا على تشيعه الذى سبق أن أشير إليه أيضاً، ومن الممكن أيضًا أن يكون هذا العمل من باب السياسة.

لم يكن يدور فى ذهن "نادر" عندئذ – فكر – التآلف مع وزرائه وحساده ولم يكن تسلطه علي كل من "ايلات، ابيورد، دركز، كلات وخبوشان" ذا أساس فقط، فنراه يضع ثقته فى الافشاريين والجلايريين. حتى إن الشاه "طهماسب" عندما ذهب إلى "خبوشان" تاركًا "نادر" فى مشهد كدر الوزراء خاطره فيما يتصل به كثيرًا حتى إنه استعدى أمراء "مازندران واستر آباد وگرايلى" ضد "نادر" حتى أنهم قد قالوا إنه دعا الملك "محمود" إلى معاونته . ولدى سماع "نادر" هذه الأخبار تحرك على وجه السرعة، وحاصر "خبوشان" وغلب "طهماسب". وبتدبير من "نادر" استعد للذهاب إلى مشهد خفية، حيث أقام له استقبالًا لائقًا واحتفالًا ضخمًا وقد حدث هذا فى نوروز ١١٣٩هـ/١٧٢٦م.

ولم يطل الوقت حتى قام الأكراد من ناحية وتتار "مرو" وتراكمة "يمريلى" من ناحية أخرى ضد "نادر" وحاصروا أخاه "إبراهيم خان"، فاسترد "نادر" بمعية الشاه "خبوشان" وعاقب الثوار وخلص "إبراهيم خان" وأخمد فتنة الأكراد وسائر العصاة. وقتل الملك "محمود" وابن أخيه الملك "إسحاق" اللذان كان لهما يد فى هذه الفتن ثم تحرك برفقة "طهماسب" إلى "قاين" وهزم "الدهماء" هناك.

(*) هو ضريح الإمام على الرضا ثامن الأئمة الاثنى عشرية.

تحرك "نادر" فى طريق صعب العبور بلا ماء صالح للشرب وتحت الجبال ولا هجر فيه لمحاربة أفاغنة "بهدادين" واحتل المنطقة وحاصر "سنجان". وهناك كان وشيكًا أن يحدث انفجار مدفعى يودى بروحه. وفى النهاية سخَّر "سنجان" وهزم الأفاغنة الذين كانوا قد جاءوا من هرات لمناصرة "سنجان".

وفى خلال هذه الأحوال كان الوزراء مشغولين فى استثارة الشاه فى حق "نادر". وقد قالوا : إن "طهماسب" قد أصر على أن يحمل "نادر" على أصفهان غير أنه عاد فى رأيه قائلًا : "إن الوقت المناسب لم يحن بعد والأولى فتح هرات". وفى النهاية تقرر أن يتحرك "نادر" من مشهد و"طهماسب" من نيشابور نحو هرات؛ غير أن رجال البلاط وجدوا من الصلاح أن يمتنع تنفيذ هذا القرار، فأبلغ "نادر" أن يتوجه إلى مازندران وعليه أن يحمل على هرات منفردًا وأنه قد استعد لذلك. ولكن "نادر" لم يلب النداء فشرع أعداؤه بممارسة الوقيعة بينه وبين جنده فعاد إلى مشهد؛ حيث وصله خبر مؤداه أن الأفغان قد حملوا على ناحية "بيارجمند" فاتجه إلى هناك لتجنب هذا الحدث، وما إن حط أقدامه حتى عرف أن الشاه "طهماسب" قد حمل على أتراك "بغايرى" الذين كانوا أعوانًا لــ "نادر" فطلب منه أن يتوقف عن هذا الأمر وأن يتعاون معه ضد الأفغان فأجاب "نادر" أن يحضر إلى "سبزوار"، فقد صار معلومًا فى هذه الأثناء أن أمرًا صدر إلى أنحاء خراسان المختلفة بألا يُنفذوا أحكام "نادر"، فوجد عند دخول "سبزوار" أن بواباتها قد أُغلقت فى وجهه فاضطر إلى استخدام المدفعية؛ ولم يجد "طهماسب" بدا من الارتباط بـــ "نادر" واتحد معه فى حلف صداقة وذهب نفر من أعوان "نادر" إلى مازندران لإحداث الفتنة ثم أرسل "نادر" الشاه طهماسب إلى مشهد تحت المراقبة وتبعه فى الوصول، وعندئذ وصل خبر بأن التركمان بين "درون واسترآباد" يتمردون وأنه طلب المساعدة من أكراد "چمشگزك" و"قره چورلو" فتحرك صوبهم غير أن الأكراد لم يوافقوا وأنزلوا الهزيمة بـــ "إبراهيم خان".

وفى هذه الأثناء وصل "نادر" إلى جبل "بلخان داغ" وواجه التركمان وغلبهم وسمع وهو فى طريق العودة بخبر هزيمة أخيه من الأكراد، فزحف نحوهم وأهلك عددًا منهم. وخلال هذه الحوادث ولَّى أحد أعوان الشاه "طهماسب" ويُدعى "محمد عليخان" بن "أرسلان" ووجهه شطر "بسطام واسترآباد" من توابع "مازندران" وتعهد بأعوان "طهماسب" هناك، فظهر هرج ومرج فى هذه الأنحاء. أسرع "نادر" لدى سماعه بهذا الخبر صوب استرآباد واتجه نحو الشمال حيث منطقة "تفشكرى" وعبر نهر "أترك" وهزم جزءًا من تراكمة "يموت" ثم توجه بعد ذلك إلى استرآباد، وتبعه الشاه طهماسب أيضًا وذهب "نادر" بصحبته إلى مازندران وأقر الأمن. وفى هذا الوقت قُتل "ذوالفقار" زعيم المخالفين وبعد أن رتب نادر" الحراس فى المعابر بين "طهران وخوار" التى كانت قد سقطت فى أيدى الأفغان الغلچائيين، أرسل سفيرًا من طرف الشاه "طهماسب" إلى بلاط روسيا بطلب استرداد "جيلان" وترك "طهماسب" فى "سارى" واتجه هو إلى مشهد للتجهيز من أجل حملة ضد الأبداليين، وأوشك على أن يسترد هرات قبل الحملة على أصفهان. وهذا يدل على حسن بصيرته لأنه لو كان الأبداليون قادرين على تحرير خراسان من الجيش الحكومى لكانوا سيتجرأون فى الطمع والتسلط، ويجوز أن تتعاون معهم سائر الطوائف مثل الأكراد. ففى السنوات العشر الأخيرة أحدث الأبداليون الفتن وهزموا الجيش الحكومى عدة مرات إلى حد أنهم كانوا قد حفظوا استقلالهم فى مقابل الغلزائيين. وبالإضافة إلى ذلك كانوا قد اعتادوا إشاعة النفاق فى الداخل، ففى عام ١١٣٠هـ/١٧١٨م قُتل "عبد الله خان سووزى" ومات عدد من رؤساء الطائفة، ولكن عندما عرفوا بقصد حملة "نادر" اتحدوا وأقروا "اللهيارخان" واليًا على "هرات" و"ذا الفقار نامى" حاكمًا على "فواة" (*).

وفى حروب ضارية حُمل "ذو الفقار" الذى كان يحمى بنى جلدته خفية على "نادر" فى مناطق "كافرقلعه" و "كوسويه" و"رباط بريان" على مسافة عدة فراسخ من هرات فجأة، وفى النهاية هُزم الأبداليون وطلبوا العفو بعد عدة مرات، وما إن

(*) أظنها "فراة" وليست "فواة".

تحقق لهم هذا فى الواقع وعدوا أن يحاربوا فى الجيش النادرى مع الغلچائيين كما نصب الشاه " طهماسب" "اللهيارخان" أيضًا على حكومة هرات رسميًا واتجه برفقة "نادر" فى ٤ ذى الحجة ١١٤١هـ/ ٣٠ يونية ١٧٢٩م إلى مشهد، فوصلا إلى تلك المدينة بعد سنتين من الغياب. ومع أن الأبداليين لم يكونوا قد توطنوا عندئذ إلا أن هذه الحروب الضارية دللت على أن طوائف الأفغان يصعب دحرهم من ناحية وأثبتت أن الإيرانيين قد تفوقوا بما لهم من قادة شجعان من ناحية أخرى.

٥

طـرد الغلجائيين

بدفع حملة الأبداليين شرع "نادر" فى الإجهاز على الغلچائيين، وفى السابق كان قد أشير إلى أن "أشرف" الأفغانى بما له من تعال وكبرياء وقّع مع العثمانيين والروس اتفاقًا، وإن كانت الحرب مع الروس لم تكن ضارية، كما ذُكر أنه عندما اختصم "أشرف": وابن عمه لم تصله مساعدة من قندهار أو فى النزاع مع العثمانيين، فقد أرسل أحمد باشا عام١١٣٨هـ/١٧٢٦م رسالة بهذا المضمون إلى "أشرف": أنه لمّا كان الأفغان البدائيون يفتقدون لياقة الحكم فى بلد متحضر مثل إيران فقد عزم على أن يأتى "سلطانحسين" ويُجلس على العرش مرة أخرى، فأمر "أشرف" على وجه السرعة أن تُقْطع رأس "سلطانحسين" عاثر الحظ وأرسلها إلى بغداد فى الرد على "أحمد باشا". وقد أشيع فى عام ١١٤١هـ/ ١٧٢٩م أن " سلطان حسين" قادم من قندهار بصدد الهجوم ضد "أشرف" كما انتشر خبر انتصار الشاه "طهماسب" و "نادر"، فحض "أشرف" المتعالى على دعم قزوين الأفغانية واتجه بمدفعيته وتجهيزاته العسكرية صوب طهران فتهيأ "نادر" للمواجهة١١٤١هـ/ ١٧٢٩م وتحرك برفقة الملك "طهماسب" من مشهد وتقدم عن طريق "نيشابور"

و"سبزوار" حتى يُخلص "سمنان" التى كانت فى خطر من حصار "أشرف"، ومن ناحية أخرى كان القائد الأفغانى قد أبقى جزءًا من قواته فى جوار "سنجان" وأسرع هو صوب "أشرف" لمواجهة "نادر".

وقعت الحرب الكبيرة بين الجانبين على ساحل نهر مهماندوست بجوار قرية مهماندوست فى ٦ ربيع الأول ١١٤٢هـ / ٢٨ سبتمبر ١٧٢٩م، حيث هزم الأفغان فأخذوا فى الفرار، ولكن "نادر" لم يتعقبهم أخذًا بالتحوط، وقد قدروا عدد الأفغان فى هذه الحرب بخمسين ألفًا والإيرانيين بخمسة وعشرين ألف جندى. وهذا هو أول نصر على الأفغان الذين كانوا قد روّعوا أهل إيران ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام جنود مدربين شجعان بقيادة "نادر" وخبرته؛ إذ كان يعتمد على نفسه وجهز قواته جيدًا وأعد الجندى الإيرانى إعدادًا قويًا. وبعد مدة قليلة تقدم "نادر" بمعية "الشاه طهماسب" إلى "دامغان" وأرسل من هناك رسولًا إلى البلاط العثمانى يطالب برد الأراضى التى كانوا قد أخذوها من إيران. وفى هذه الحقبة جمع أشرف قواته فى منطقة "خوار" مرة أخرى وزرعها كمينًا فى طريق "نادر" الذى وصله الخبر فطوقه من جهات أربع وهزمهم وعادت بقيتهم إلى أصفهان.

بعد هذه الحادثة طلب "نادر" من "الشاه طهماسب" أن يذهب إلى طهران التى كانت قد أُخليت من الأفغان، ويشرع فى ممارسة شئون الدولة. أما أشرف فقد ذهب إلى أصفهان بعد هذه الهزائم وقتل ما يقرب من ثلاثة آلاف عالم(*)، ونهب السوق والزرع، واعتدى على النساء. ولمّا كان قد طلب مساعدة من "أحمد باشا" حاكم بغداد وحصّلها، نجده يتحرك من أصفهان لحرب أخرى مع "نادر" ويعسكر فى "مورچه خور" ويبدأ القتال، وفى هذه الحرب الدامية بالمدفعية ونزالًا الشخص بالشخص أنزل جنود إيران هزيمة ساحقة بالعدو واستولوا على مدفعيتهم مع أسرى كثيرين، كان من بينهم أتراك يُقال إن "نادر" سلك معهم طريق السلم.

(*) هذا الرقم مبالغ فيه؛ إذ لا يتوفر فى مدينة واحدة مهما كانت ضخامتها.

ما إن وصل "أشرف" إلى أصفهان حتى فكر فى الفرار وطوى متاعه وتوجه إلى شيراز، أسرع "نادر" الخطى صوب أصفهان وأرسل رسالة إلى "طهماسب"، كى يتحرك إليها هو الآخر وعاد في ٨ جمادى الأولى ١١٤٢هـ/٢٦ نوفمبر ١٧٢٩م أى بعد سبع سنوات ونصف من الهجر فوجد فقط فى حريم السلطنة أمه العجوز، التى كانت تعيش متخفية؛ إذ كانت قد نجت من أسر الأفغان وبعد وصول الملك طلب "نادر" إجازة للعودة إلى مشهد، ولكن "طهماسب" رغم أنه كان يتوجس خيفة منه لم يوافقه خشية مواجهة خطر العلچائيين وعداوة الروس والعثمانيين، حتى أنهم قالوا : إن "نادر" لم يكن يقصد فى داخله الرحيل فقط كان يرغب فى أن يعلن السلطان مناصرته له.

كان من الأهمية بمكان هزيمة الأفغان وجلوس "طهماسب" على عرش أبيه. كما كان فى استرداد العاصمة اتصال لـ "نادر" بالأوربيين لأول مرة والتقاء بالممثلين السياسيين والاقتصاديين والسياح والدعاة.

وعلى الرغم من أن الشاه طهماسب قد جلس على عرش أسلافه، فإنه كان يعلم أن القدرة الفعلية ليست فى يده فقد منعه "نادر" من تعيين الوزراء بل إنه قال إن حقوقهم المالية ينبغى أن تعطى للعسكريين، كما أن "نادر" تزوج من "رضية بيگم" أخت الشاه بدون أخذ موافقته، وقبل ذلك كان قد كسب رضاء الشاه على تزويجه ابنة أخرى للشاه "سلطانحسين" وتدعى "فاطمة سلطان بيگم" لابنه "رضا قلى" وإن كان سرور أهل أصفهان الزائد من رحيل الأفغان قد تبدل إلى مسلسل ضجر بسبب اعتداء جنود "نادر" وتسلطهم بما جعله يتأخر عن تعقب "أشرف" لتثبيت موقعه من ناحية وإراحة الجند من ناحية أخرى.

فى هذا الموقف يجدر بنا أن نورد العبارة التى ذكرها قنصل فرنسا "شواليه دى كاردان" الذى شاهد "نادر" فى هذا الوقت شخصيًّا وأثنى عليه قائلاً: "هو رجل فى الأربعين من عمره تقريباً، تربى من الطفولة على امتشاق الحسام، وهو شخص فاهم وأصيل وذو إرادة يكافئ الأشخاص الذين يتصرفون معه برجولة ويعاقبهم فى

الوقت الذى يخلون أنفسهم من المسئولية، وأثبت فى أوائل خدمته استعداده وشجاعته ووفاءه (*). فى مجالات متعددة كلما كان يجد نفسه محلًا لرعاية الشاه كان يذكّره أن يحجم المتملقين والخونة ويحضه على أن يعاقبهم ويبعدهم عنه.

وقبل تحرك "نادر" من أصفهان أجبر الشاه على الإشارة إليه فى الرسالة التى وجهها مع الموفد "رضا قلى خان شاملو" قائد "سلطانحسين" السابق إلى البلاط العثمانى بضرورة إخلاء أراضى إيران.

وفى هذه الأثناء عرف أفغان كرمان بمستقبل "أشرف"؛ إذ كانوا قد تفرقوا بعد تخريب قلعتهم. واضطر "نادر" مع الشتاء الشديد فى هذه السنة إلى أن يتجه عن طريق "أبرقو ومشهد أم سليمان" إلى شيراز فواجه "أشرف" فى "زرقان" على بعد إحدى وعشرين فرسخًا شمال شرقى شيراز الذى كان ينتظره بعشرين ألفا من الجنود فهزمهم على الرغم من ثبات الأفغان الشديد بعد حرب قاسية، وفروا إلى شيراز متفرقين بما جعل "أشرف" يرسل إلى "نادر" شخصًا يُدعى "محمد سيد خان" مع اثنين آخرين من الأفغان طالبًا الصفح. وافق "نادر" شريطة أن يسترد أسرى أسرة شاه "سلطانحسين" الذى يقال إن أغلبهم كانوا من النساء فوافق "أشرف" على هذا الشرط ولكنه اتجه من شيراز إلى قندهار بمشورة من "سيدالى" بهدف الفرار. أدرك "نادر" الخدعة وأرسل نفرًا لتعقب الأفغان، وحدثت معركة ضارية على جسر قُتل فيها عدد كبير من الأفغان وغرق البعض منهم فى النهر، وهرب "أشرف" إلى "لار" وذهب أخو "أشرف" إلى الجنوب لجلب أفراد من العرب غير أنه لم يوفق وقتل بيد عرب عُمان فى النهاية وتفرق أتباعه. أما "أشرف" نفسه فقد واصل فراره صوب المشرق مع ألفين من جنده. وكل هذا جعل الروايات فى انتهاء أمره تختلف والمشهور فيها أنه قتل على حدود بلوچستان وسجستان بيد واحد من أبناء "عبد الله خان" الذى كان أحد زعماء قبيلة "راهوى" ولكن يقال إن الحقيقة هى أنه قُتل بجوار موضع "زردكوه" على يد عمال "سلطانحسين" حاكم قندهار.

(*) هذ الوصف من شاهد عيان فرنسى يعمل قنصلًا لبلده فى أصفهان لوقت طويل نسبيًا يثبت جدارة نادر بما هو أهله من صفات ذكرها إذا تحققت لإنسان ما يحق له ما حققه.

٦

صدام نادر الأول مع العثمانيين فى شيراز

بقى "نادر" حتى بدايات النوروز وأمر بترميم خرابات المدينة وتعمير بقعة "شاه چراغ" واعتمد مساعدة مالية لذلك، وأرسل فى هذا الوقت "عليمردان خان شاملو" إلى بلاط الهند لإبلاغ خبر فتوحاته، وطلب من إمبراطور الهند المغولى ألا يسمح للفارين من حروب "نادر" بملجأ. وعلى حد قول ميرزا "مهديخان" كان "نادر يرغب فى العودة إلى خراسان. ولكن هذا القول لا يصح معه حرص الحكم وحس الشهرة اللذان كانا فى رأس "نادر".

والآن جدير بنا أن يُذكر مختصر عن السياسة العثمانية بالنسبة لإيران فقد رأينا فى السابق أن العثمانيين مثلهم مثل الروس أيضاً؛ ذلك أنهم كانوا قد استفادوا من كل فرصة أُتيحت لهم لاقتطاع جزء من الأراضى الإيرانية، ففى عام ١١٤٢هـ/ أوائل عام ١٧٣٠م كانت جرجستان وارمنستان وقسم من داغستان وشيروان والجزء الأغلب من العراق وأنحاء كردستان وهمدان وكرمانشاه تحت الاحتلال العثمانى.

نحن نعلم أن "الشاه طهماسب" استعان بالروس والعثمانيين لإخراج الأفاغنة، ففى عام ١١٤١هـ/ أوائل عام ١٧٢٩م وصل إيرانى يسمى "محمد على رفسنجانى" استانبول ادّعى أنه "صفى ميرزا" الابن الثانى للشاه "سلطانحسين" واستقبله البلاط العثمانى باحترام، وإن كان سفير إيران لم يقبل صحة هذا الادعاء. وفجأة وصلت أخبار هزيمة الأفغان ورسالة "نادر" وانتهى الأمر باتفاق بين الدولتين، وافق العثمانيون بمقتضاه على أن يتركوا أراضى إيران غير أن "نادر" تحرك من شيراز بتاريخ ١٨ شعبان ١١٤٢هـ/ ٧ مارس١٧٣٠م عن طريق

"دزفول ورشت وبهبهان ورام هرمز وشوشير" دون انتظار للرد. وفى دزفول وجد " محمد خان بلوچ"، الذى كان مأمورًا للبلاط العثمانى من طرف "أشرف" عائدًا لتوه بالمراسلات والأسناد إلى بلاطه ولكنه عندما سمع خبر هزيمته وفراره أسرع إلى مجلس "نادر" ووضع المراسلات والإسناد تحت تصرفه؛ فأعطاه "نادر" حكومة "كوكيلويه" وبعد ذلك ذهب "نادر" إلى بروجرد ومنها إلى نهاوند، وهزم الفيلق العثمانى مباغتة هناك وهزم قوة أخرى للعثمانيين فى "ملاير" واحتل همدان، وفرت القوات العثمانية هناك إلى بغداد عن طريق "سنندج".

توقف "نادر" لشهر فى همدان وسخَّر جنوده "أردلان وكرمانشاه" واتجه هو فى غرة المحرم ١١٤٣هـ/ ١٤ أغسطس١٧٣٠م لتخليص أذربيجان، وفى المقابل أعلنت الدولة العثمانية الحرب على إيران ولكن صدرها الأعظم "إبراهيم باشا" الذى كان محبًا للصلح أرسل ممثلًا إلى إيران بهدف التفاهم وقبول اتفاق جديد، وأمر "أحمد باشا" قائد بغداد أن يجتهد فى الصلح غير أن "نادر" لم يوقف عملياته وحمل على قوات الأتراك التى كانت قد تمركزت فى "مياندوآب" الواقعة بين "ديم ديم" و"مراغه" وأجبر المنافس على الفرار، واسترد نتيجة لذلك نواحى "ديم ديم" و"ساوچبلاغ" و"مكرى" و"مراغه" ثم طرد "نادر" القوات العثمانية من "دهخوار قان" فتوجهوا إلى تبريز. حيث تمرد عدد من الجنود العثمانيين وأخرجوا البقية التى كانت تحت إمرة "مصطفى باشا" من تبريز. وفى هذا الوقت وصل "نادر" ليجمع بين الفرقتين، فهرب المتمردون إلى "أرضروم" وهزم معه "مصطفى باشا" بقواته فى منطقة "سهيلان" بين تبريز وصوفيان. وصل "نادر" إلى تبريز وفى اليوم التالى كان جيش آخر من الدولة العثمانية تحت إمرة "رستم باشا" لا يعرف عن هزيمة "مصطفى باشا" يصل عن طريق "هشترود" إلى تبريز قد هزم على يد "نادر"، بل إن "رستم باشا" وقع فى الأسر. إلا أن "نادر" قد عامل المهزومين معاملة حسنة وأعادهم إلى موطنهم باقتراح الصلح.

فى هذه الأثناء اضطربت علاقات روسيا والدولة العثمانية، كان من أسبابها سوء ظن العثمانيين فيما يتصل بمساعدة روسيا لإيران. والواقع أن الجنرال "لواشو" كان قد أرسل بموافقة دولته عدة مدافع ونفرًا من الفنيين المدنيين بزيهم لمساعدة إيران. وكان حدث فتوحات "نادر" قد تجسد فى سورية وبين النهرين كما يقول "شواليه" و"جاردان" اللذان عبرا هذه النواحى فى ٩ ذى القعدة ١١٤٢هـ/ أواخر شهر مايو سنة ١٧٣٠م.

كان الجميع من البصرة حتى بغداد ومن بغداد حتى موانئ حلب يرتعد بمجرد سماع اسم "نادر"، فتوقف الصدر الأعظم "إبراهيم باشا" الذى كان قد أعطى أمر الهجوم على "نادر" فى "اسكدار"، منتظرًا الرد على اقتراحه حيث عرف بخبر فتوحات "نادر" لدى حدوثها، ففى هذا الوقت حدثت ثورة فى "آناودستان" "البانيا" غير أن ضعف السلطان والوزراء منع اتخاذ القرار حتى أن الثورة قد اشتدت، ومات "إبراهيم باشا" وخُلع السلطان "أحمد الثالث" وجلس ابن أخيه السلطان "محمود" ابن السلطان "مصطفى" مكانه، ونتيجة هذا الاضطراب فى الدولة العثمانية، أن سحبت يدها من مواصلة الحرب مع إيران.

ومن ناحية أخرى فإن "نادر" الذى كان يواصل الحرب عرف من ابنه "رضا قلى" خبرًا يتصل بحدوث فتنة على يد الأبداليين فى خراسان، ومن ثم أوقف عملياته واتجه إليها.

كان مُحرك ثورة الأبداليين هو "حسين" سلطان هرات الذى كان يعرف أن "نادر" سيجيء على الفور لمساعدة "ذى الفقار" والثائرين وحمل على "إبراهيم خان" الذى كان فى مشهد، غير أن "اللهيارخان" حاكم هرات بقى وفيًا لـــ "نادر" وأسرع لمساندة "إبراهيم خان" الذى كان "نادر" قد أمره بألا يتسرع بالاعتداء فى مثل هذه المواقع ولكن "إبراهيم خان" فعل عكس ذلك وعاد إلى مشهد يجر أذيال الخيبة والهزيمة.

أمر "نادر" قبل التحرك من أذربيجان أن تنتقل ما بين خمسين إلى ستين ألف أسرة من هناك وعراق العجم وفارس إلى خراسان، وكان منها اثنا عشر ألف أسرة من قبيلة "قرقلوى" الأفشارية التى استوطنت فى أنحاء "كبكان وكلات". وفى الطريق وصل خبر إلى "نادر" أن الأبداليين قد عادوا إلى هرات بما دعاه إلى أن يعبر نهر "أترك" لتأديب قبيلة "يموت" وعاد من هناك إلى مشهد عن طريق "استرآباد وجرجان وسيلقان".

وفى السنة التالية تزوج "رضا قلى" من "فاطمة سلطان بيگم" وبهذه المناسبة أقيم حفل كبير فى مشهد، وفى هذه الأثناء طلب "ذوالفقار الأبدالى" الذى عرف بتجهيزات "نادر" ضدهم المساعدة من "حسين" سلطان هرات، ولكنه امتنع فى البداية، ثم أرسل قوة قوامها ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف جندى تحت إمرة "محمد سيد خان غلچه" أى دفع هذا الصنيع "نادر" إلى أن يأمر "عبد الله خان براقرى" حاكم بلوچستان أن يحمل على هرات انطلاقًا من الجنوب ولكنه لم يستطع أن يطيع أمر "نادر" بسبب حربه ضد "ميانمحمد خدايار خان" زعيم عشائر "كلهرى" فى السند الذى قتل فى أصفهان.

وبعد نوروز ١١٤٣هـ/١٧٣١م تقدم "نادر" عن طريق "تربت شيخ جام" إلى "نقره" التى تبعد عدة فراسخ عن هرات وحوصر هو شخصيًا وثمانية من أعوانه فى برج القلعة وأوشك الخطر أن يقع، ولكن طالع النصر فى الحرب تحول لصالح الإيرانيين وتحرر "نادر" الذى وفق بعد عدة جولات أخرى إلى أن يحاصر هرات وأن يخرج "سيدال خان" و"ذا الفقار" بمعارك متقدمة وخدع وخيانات أبدالية. وفى النهاية أحتلت هرات فى غرة رمضان ١١٤٤هـ/٢٦ فبراير١٧٣٢م ، وأبعد "اللهيار خان" قائد هرات إلى الملتان وانتقل خمسة وستون ألفا من الأبداليين إلى مشهد ونيشابور ودامغان. وطال حصار هرات لعشرة أشهر أسرع بعدها "نادر" حيث موضع هزيمة "طهماسب" من العثمانيين فى "قوريجان".

والشيء اللافت للنظر فى حرب هرات هو رحمة "نادر" بالأبداليين وصفحه عنهم رغم أنهم استخدموا الحيلة والكذب عدة مرات ونكثوا بالعهد كثيرا، ويجوز أن هذه المساعدة ناشئة من القرابة بين جنس "نادر" والأتراك وفقدان الثقة الكامل بأهل إيران الشيعة. ولهذا السبب كان "نادر" يُلحق بجيوشه كثرة من الأبداليين والتراكمة وسائر الأقوام، وأنه كان يفكر كل يوم فى أن يقع جدال بينه وبين "طهماسب".

٧

حرب طهماسب الفاشلة ضد العثمانيين وخلعه من الملك

بقى الشاه "طهماسب" فى أصفهان فى الوقت الذى كان "نادر" يحارب فيه العثمانيين، وفى أثناء عودته لسحق الأبداليين كان "الشاه طهماسب" ووزراؤه ينغمسون فى التسلى والشراب كعادتهم، حسب قول "محمد محسن" "مؤلف كتاب زبدة التواريخ". تحرك "الشاه طهماسب" بدافع من وزرائه لاسترداد أراضى الشمال الغربى على رأس قوة بقيادته إلى هذه الأنحاء لمواجهة العثمانيين فى عام ١١٤٤هـ/ ١٧٣١م وتوجه من همدان إلى تبريز. ومن هناك عزم على تسخير نخجوان وايروان بجيش قوامه ثمانية عشر ألف جندى، وأخذ نخجوان بهزيمته للعثمانيين، وتقدم نحو "جميازين" وهزم قوة أخرى منهم وبعد ذلك حمل على ايروان ولكنه لم يوفق، واضطر فى النهاية إلى أن يحاصر المدينة، لكن بواسطة قطع طريق الإمداد بين العدو فقد أجبر على العودة إلى تبريز. وبمجرد أن سمع بخبر تقدم العثمانيين من جهتين صوب تبريز نجده يُخلى هذه المدينة ويذهب بعد ذلك إلى "أبهر" ، ومن هنا تقدم "أحمد باشا" القائد العثمانى بلا معوقات وأخذ همدان ودخل مع الشاه من باب المصالحة. و فى هذه الأثناء كان هناك فى الطريق موفد

آخر من جانب استانبول لعقد اتفاق صلح، غير أن الشاه تصور أن الأتراك يبحثون ثانية عن الحرب فصف الجيش فجأة فى موضع "كوربجان" جنوب همدان، وكان الاتجاه وشيكًا على أن يغلب ولكنه هُزم فى النهاية واحتلت قوة عثمانية همدان وعاد الشاه إلى أصفهان وشرع مرة أخرى يمارس التسلى والشراب. يقول "محمد محسن": "وفى هذه الأثناء تقدم قائد عثمانى آخر هو "على باشا" واحتل "خوى وسلماس ومراغه وتبريز" وهجمت قوة ثالثة على خوزستان وأخذت الأهواز". بدأت بعد هذه الأحداث فى ١٣ رجب ١١٤٤هـ/ ١٠ يناير ١٧٣٢م محادثات من أجل الصلح وانتهت بالمعاهدة التى احتفظ العثمانيون بموجبها بـ "گنجه وتفليس وجرجستان وشيروان وداغستان". وفى مذكرات هذا الصلح كان دور الصدر الأعظم العثمانى المعروف "توپال عثمان باشا" مؤثرًا؛ لأنه كان يؤيد سياسة المجاراة والمصالحة مع إيران وإن كان السلطان نفسه وبعض وزرائه يعارضون هذا الاتجاه إلى حد أنه نتيجة لهذا الاختلاف والنوايا السيئة عينه فى حكم "أرضروم وايروان" عزلًا من الصدارة، وتقلد "على باشا حكيم أوغلو" من منافسيه منصب الصدارة.

واقترانًا باتفاق إيران والدولة العثمانية الذى سبق ذكره عُقد اتفاق (رشت) بين إيران وروسيا فى عهد الملكة "آنًا إيوانوفا"(١) فى ٥ شعبان ١١٤٤هـ/ أول فبراير ١٧٣٢م استعدت روسيا بموجبه أن تخلى حتى خمسة أشهر قادمة جيلان وسائر الأراضى المتفرقة من إيران باستثناء الأراضى الواقعة شمال نهر "كورا" وأن تردها إلى إيران. وفى هذا الوقت فإن شخصًا باسم "إسماعيل ميرزا" كان قد ادَّعى أنه أخو "طهماسب" وظهر بعد أن تخلص من قبضة الأفغان وعرَّفه "طهماسب" على أنه أخوه إلا أنه بعد رواج الشائعات فى باب التوافق وقع محلًا لسوء الظن وتم إعدامه.

Anna Iwanovaa. (١)

أما "نادر" الذى كان مشغولا بالتقدم من خراسان صوب "قراه" فقد ساءه سماع هذه الأخبار ونبأ المعاهدة بين إيران والدولة العثمانية، ومن ثم أرسل موفدًا إلى السلطان العثمانى يطالبه برد الأراضى الإيرانية كاملة أو الاستعداد للحرب كما أفد ممثلاً إلى "أحمد باشا" أيضًا يبلغه أنه سيصل ناحية بغداد سريعاً. كما وضّح وجهة نظره لمواطنيه ورجال البلاط. وفى البيان الذى صدر أعلن "للحكام والأهالى والأعيان فى الممالك المحروسة أن الصلح الذى تم هو فى نظرنا له حكم النقش على الماء أو موجات السراب. لأن قصده الأصلى كان تحرير أسرى إيران الذين لم يوضحوه فى الصلح على إطلاقه، بل لم يضمّنوا هذا الأمر المهم ويدرجوه ضمن الصلح وكأننا عبيد. ومن أجل هذا فقد ظهرت مناصرة الضعفاء لدى المخالفين لرفعها عن رأس المسلمين ودفع خمير الفساد عن روح الممالك، وتحمل هذا الوضع يجعل الصلح بعيدًا عن الحمية ومنافيًا للجبلة الغيورة؛ ذلك أن السطور المذكورة كانت مغايرة لرضاء جلال قدره ومخالفة لدولة الخاقان الباقية ولذلك لم نصوّبه [1]. وصرح أنه سيبادر إلى الحرب بعد عيد الفطر وأخطر أن كل من معه فى هذا القصر سيكون عاريًا من لباس الحمية ولا نصيب له من سعادة الدين وجدير بالبعد عن صفات جناب البارى وهو خارج عن حوزة الإسلام وسيُعد فى زمرة الخوارج [2].

والظاهر أنه فى هذا الموقف أرسل "نادر" رسالة إلى "محمد على خان" حاكم فارس واعتبر الاتفاق مع تركيا فيها لاغيًا. وفى مقام الحديث عن فتوحاته أشار "إلى يمين الولاء للأسرة الحيدرية والأئمة الاثنى عشرية" حتى يأتى يوم على الأعداء الظلمة ويتبدى فيه إقبال الشيعة أعوان هذه الدولة الخالدة الشجاعة[3].

---

(١) تاريخ نادرى : فى بيان مصالحة الشاه عالى الجناب مع الأناضول وفسخها من طرف حضرة الحاكم ظل الإله. (شفق)

(٢) تاريخ نادر وقائع سنة ١١٤٣، ١١٤٤هـ. (شفق)

(٣) النص الذى لخصه المؤلف المحترم، باختصار نقلته من كتاب مخزن الإنشاء ترجمة "محمد رضا بن محمد رحيم كلهر". (شفق)

وهذه المعاهدة لم تكن على هذا السوء الذى أبداه "نادر" بل إنها كانت فى مصلحة إيران من جهة ظروف هذا الزمان، وكما ذُكر قبل ذلك أنهم كانوا يعدونها توهينًا لهم فى الدولة العثمانية.

وإن كان تردى "طهماسب" وجنونه يحبط فتوحات "نادر" إلا أنه من جهة أخرى لم تكن تمنعه من المضى قدمًا فى هذا المجال، إذن كان قصد "نادر" أن يحقّر "طهماسب" فى نظر الناس، وليس بعيدًا من أن تكون عباراته تقديسًا للأئمة أكثر من كونها مبنية على سياسة كسب قلوب الشيعة نحوه وتكريس الاعتقاد السائد فى خلع "طهماسب.

أمضى "نادر" النوروز فى هرات وأرسل "حسنعلى بيگ" من أجل إيضاح موقفه للشاه "طهماسب" وطلب منه أن يلحق به فى "قم" حتى يتحركا سويًا ضد العثمانيين.

وقد جعل "نادر" الأبداليين فى مشهد تحت رعايته وأمر أن يتجهوا معه صوب الدولة العثمانية، وتحرك بعد الطواف بمرقد حضرة الإمام الرضا واتجه من طهران بعد تجهيز القوات وتدعيمها بسبب تأخر مجىء "طهماسب" إلى أصفهان حيث أعد حفلًا مجللًا للشاه أفرط فيه فى التسلى والشراب، فوضح "نادر" بهذا الحفل نزوات "طهماسب" وعدم اكتراثه بالأمر أمام أعين أهل أصفهان، فرد الجميع بخلعه وتنصيب ابنه عباس ميرزا. وعلى حسب رواية "محمد محسن" أن خلع الشاه "طهماسب" تم بعد ستة أيام من وصول "نادر" إلى أصفهان فى ٩ ربيع الأول ١١٤٥هـ/ ٣١ أغسطس ١٧٣٢م. وفى التاريخ المحدد لهذه الحادثة توجد رواية أو اثنتان أخرتان أن "نادر" أرسل "طهماسب" برفقة أسرته تحت الرقابة إلى مشهد فى ١٤ ربيع الأول. وبعد هذا التاريخ كان "نادر" هو الحاكم الفعلى فى الوطن وتخلى عن لقب "طهماسب" وأعطى لنفسه لقب وكيل الدولة ونائب السلطنة.

وقد تم تتويج "عباس ميرزا" ابن الشاه المخلوع ذى الثمانية أشهر فى ١٧ ربيع الأول فى احتفالات مهيبة، وأرسل "نادر" السفراء إلى الممالك باسم الشاه الجديد ومنهم "محمد عليخان" حاكم فارس إلى بلاط "محمد شاه" ملك الهند وأكد عليه للمرة الثانية غلق حدود الهند فى وجه الفارّين الأفغان. ومما لاشك فيه أن البلاط العثماني لم يكن مستريحًا لخلع "طهماسب" وازدياد قدرة "نادر".

٨

عودة الحرب ضد العثمانيين وحرب بين النهرين

لم يستطع "نادر" فى أول الأمر أن يحمل على الدولة العثمانية بسبب الثورة في مناطق البختياريين مما جعله يوجه هجومه إليها وأسكت الفتنة بعد حرب دامية وتهجير ثلاثة آلاف أسرة بختيارية من قبائل "هفت لنگ" إلى خراسان، ومن هناك اتجه نحو حدود العثمانيين وأخلى "كرمانشاه" بعد مقاومة مختصرة. وتقدم عندئذ إلى الأمام وهزم القوة العثمانية فى خط الحدود عن طريق "مهار" شرق "زهاب" وأسر قائدها "أحمد باشا يلان" ثم عاد أدراجه واتصل فى موضع "قره تپه" مع صهره "لطفعلى بيگ أحمد لو" وعسكره وتقدم معه وهزم القوة العثمانية بموضع "شهربان" وولّى وجهه نحو بغداد؛ ولكن العدو كان قد أقام استحكامات فى الساحل المقابل من دجلة فوجد "نادر" أن العبور من مكان آخر أكثر مناسبة، وأصدر أوامره بهذا العزم واستحدثوا جسرًا عائمًا عبر منه، وفى معيته خمسة وعشرون ألف جندى وحمل على بغداد دون تباطؤ وأنزل هزيمة كبيرة بالعدو وعادت قوات العدو إلى المدينة لتتحصن فأدخل "نادر" الذى لم يكن يملك عندئذ الترسانة القوية لكسر الاستحكامات بغداد تحت الحصار، وبذل الإيرانيون همة بالغة فى إقامة التحصينات تحت خطر الحصار وبنوا عدة أبراج لإسقاط طلقات الرصاص التى وصلت إلى ألفين وسبعمائة طلقة. وفى هذا الحين اضطر إلى أن يسكت العصاة فى البصرة ولار ومسقط.

وصل أمر الحصار حول بغداد إلى حد ضاق معه سكانها ذرعًا فأرسل "أحمد باشا" فى المحرم من ١١٤٦هـ/ يوليو١٧٣٣م موفدًا إلى "نادر" بهدف الاستسلام. فى الوقت الذى كانت قوة ضخمة تقترب فيه كمساندة عثمانية تحت قيادة "توپال عثمان باشا" أرسلت من طرف السلطان، كما أن "أحمد باشا" كان يعوّق تاريخ التسليم، ولدى سماع "نادر" بهذا الخبر أسرع مع استمرار الحصار على رأس قوة من المحاصرِين وغيرهم لمواجهة "عثمان باشا" خفية، واستعرت حرب دامية فى منطقة "جديدة" على ساحل دجلة وكان مسار الرياح المتربة والشمس المحرقة ضد الإيرانيين، كما ألم بهم عطش شديد فى الوقت الذى تسلط فيه الأتراك على النهر، والنتيجة أن هُزم الإيرانيون وخرج "نادر" نفسه الذى كان فى مقدمة الحرب من الخطر بمشقة، ولكن هذا النصر العثمانى لم يحدث بسهولة؛ ذلك أنهم تكبدوا من الضحايا عشرين ألف جندى. ومن ناحية أخرى حمل "أحمد باشا" الذى كان قد عرف فى بغداد فى ٦ صفر ١١٤١هـ/ ٣٠ أغسطس١٧٢٩م باقتراب القوات المساعدة لمحاربة "نادر" على بقية القوات المحاصرة وهزمها.

عندئذ عاد "نادر" وعقد اجتماعًا مع قادته فى مندلى ولم يشك من سوء الطالع وأعطى عسكره إجازة للراحة وشرع فى جبر الأضرار وتعويض الخسائر ثم توجه إلى همدان وأمر أن يقدموا على جمع القوات والعتاد فى أنحاء الوطن، ولم يمض وقت طويل حتى كان استعداده قد اكتمل وتحرك فى ٢٢ ربيع الثانى بقواته الجديدة من همدان صوب الحدود العثمانية. وفى كرمانشاه سمع أن "فولاد باشا" قد استقر على ساحل نهر "دياله" مع قوات لحفظ كركوك، فهجم لتوه على هذه الأنحاء وأجبر العدو على التقهقر. وهناك أفادوا أن "محمد خان بلوچ" كان قد أعلن العصيان وأن جمعًا من العصاة كانوا قد ارتبطوا به، ولم يعدّ "نادر" هذا العصيان مهمًّا إلى حد كبير فى وقف مواجهته ضد العثمانيين، وولى وجهه صوب كركوك لسحقهم، ولم يكن "عثمان باشا" قد قنع بانتصاره السابق، وكان يدرى بحاجته إلى التدعيم والتدريب ويطلب على الدوام قوات إمدادية من استانبول، ولم يوفق فى أن ينتهى أول صدام فى منطقة "ليلان" على بعد عدة أميال من كركوك بدون نتيجة،

غير أن "توبال عثمان" استبقى قواته الأساسية فى حالة دفاع، وحمل "نادر" على قلعة "سورداس" واحتلها على أمل استثارة "عثمان باشا" وخروجه من كركوك، ووقع جزء من القوات العثمانية فى يده. فى هذه الأثناء وصلت أخبار مفادها أن قوة تحت إمرة "ممش باشا" قد استقرت بجانب مغارة "آق دربند"، فتحرك "نادر" من طريق غير ممهد وحط برأس الأتراك وشرع فى الهجوم. وفى هذا الوقت توحدت قوة "عثمان باشا" مع قوة "ممش باشا" فحمل الإيرانيون حملة ضارية شجاعة، وبعد حرب دامية قُتل "عثمان باشا" وفُصلت رأسه عن جسده ونكبت القوة العثمانية بفقد عشرين ألف فرد وتفرقت مهزومة. غير أن "نادر" تأثر بنهاية "عثمان باشا" وأمر أن يرسلوا الرأس والجسد تحت نظر القاضى "عبد الكريم أفندى" الذى كان قد أُسر لدفنه فى بغداد، وبعد تسخير الحلّه والنجف وكربلاء أبقى جزءًا من قواته لحصار بغداد، وواصل سيره نحو تبريز ولكنه عرف فى "بانه" أن "تيمور باشا" قد أخلى تبريز لدى سماعه أخبار هزيمة العثمانيين فسهل لقوات إيران أن تسترد هذه المدينة مرة أخرى. ومن ثم لم ير "نادر" لزومًا فى التقدم نحو أذربيجان وعزم على إنهاء الحصار حول بغداد وتسخير تلك المدينة، غير أن خبر عصيان "محمد خان بلوج" عكر صفوه.

على الرغم من كل ذلك فإنه لم يبادر إلى إخماد هذا العصيان، وإنما أمر "طهماسب خان جلاير" و "إسماعيلخان خزيمه" والى "كهكيلويه" بالتوجه صوب هذه الناحية، وتحرك هو من مكانه أى "طوز خرماتلى" إلى سامراء ومنها إلى خط حصار بغداد. وعندئذ اقترح "أحمد باشا" الصلح الذى صُوِّب بعد المباحثات اللازمة فى ١٣ رجب ١١٤٦هـ /١٩ ديسمبر ١٧٣٣م كمعاهدة صلح كانت شروطها على النحو التالى :

١- توافق الدولة العثمانية على أن ترد جميع الأراضى الإيرانية التى كانت قد أخضعتها فى السنوات العشر الأخيرة، وأن تحترم بنود معاهدة ١٠٤٩هـ/ ١٦٣٩م.

٢- أن يعود الأسرى وتُسترد المدفعية المغتصبة لكل من الطرفين(*).

٣- أن يحظى الزوار الإيرانيون الذين يذهبون إلى العتبات المقدسة الواقعة فى جوار الحدود العثمانية بالتسهيلات المطلوبة.

امتنعت الدولة العثمانية عن إمضاء الاتفاق وأرسلت قوات كثيرة وادَّعت أنها تدرس نص الاتفاق.

كانت روسيا قد ساءها سماع انتصار "توپال عثمان" لأنها كانت مشغولة بالنزاع حول بولندا وكانت تود أن يبقى العثمانيون والإيرانيون دائمًا فى نزاع. ولكن خبر غلبة "نادر" وقتل "توپال عثمان" صار داعيًا لهدوء روسيا بعد ذلك.

دفع "نادر" بمدفعيته عن طريق "خرم آباد" إلى أصفهان بعد إمضاء الاتفاق وزيارة العتبات المقدسة وتوجه هو إلى "ششتر" عن طريق "هويزه"(**). وفى هذه الأثناء قَتل والى هذه المنطقة وسجن البعض الآخر بسبب التعاون مع "محمد خان بلوچ"، وعندئذ توجه إلى "رامهرمز" وترك هناك عتادًا وواصل مسيره إلى "بهبهان" حتى صار معلومًا هناك أن طهماسب خان جلاير وحاكم "كهكيلويه" مشغولان بالقتال "ضد محمد خان"، فانضم إليهما وهزم الأخير، ولجأ فى أول الأمر إلى شيراز ومنها إلى "جهرم ولار وگرمسير" ثم إلى جزيرة "قيس" بعد مطاردة سهلة، وفى هذا الوقت حدث أن لطيف خان نامى وصل إلى الخليج حيث "گمبرون"(***) وأظهر رسائل من جانب "نادر" فيما يتعلق بقيادته للبحرية وذهابه إلى الإنجليز والهولنديين لشراء السفن. وهذا الأمر كم كان لافتًا للنظر كثيرًا إذ كيف يتأتى لرجل أمى قروى من جهة نائية عن البحر مثل "نادر" أن يدرك أهمية القوات البحرية !! والأكثر لفتًا للنظر أنه كان مصممًا فى هذا السبيل أن يشكل أسطولاً.

(*) دمج شروط عسكرية بشروط مذهبية.

(**) يقصد الـ "حويزه".

(***) گمبرون هذه هى هرمز الحالية وكأن خليج گمبرون هو مضيق هرمز.

وفى النهاية فقد دلل فرار الغلچائيين و"محمد خان بلوچ" وأمثالهم على ضرورة أن تكون السواحل تحت المراقبة فى كل وقت. فالإنجليز والهولنديون يتحججون، والعرب يساعدون الفارّين، كما هى العادة. ولم تكن همته تنحصر فى مراقبة الموانئ بل تتضمن خطة أوسع كما سيتبين فى المباحث القادمة.

٩

حروب نادر فى ١١٤٧ـ ١١٤٩هـ/١٧٣٤ـ ١٧٣٦م وبداية القوة البحرية

كان "طهماسب جلاير" مشغولًا بإخضاع سكان سواحل الجنوب؛ ذلك أن "نادر" ذهب إلى شيراز وبقى هناك شهرين ونصف وعيَّن "ميرزا محمد تقيخان الشيرازى" واليًا هناك. وفى هذا الوقت وصل خبر مؤداه أن "رضا قليخان" قد رُزق بولد من "سلطان بيگم" أسموه "شاهرخ" وربما أن "نادر" كان يقلد "تيمور" ذلك الفاتح المعروف بتسمية حفيده باسم ابنه. ذهب "نادر" إلى أصفهان واحتفل الناس بقدومه بحفاوة بالغة وبينما هم كذلك وصل القاضى "عبد الكريم أفندى" من جانب البلاط العثمانى وأبلغ "نادر" بموافقة هذه الدولة على الصلح، ولكن "نادر" لم يصدق بل تلقاها على أنها تصيد لفرصة، غير أنه أحسن وفادة "عبدالكريم" جيدًا وأوصى السلطان عن طريقه أنه لحسنٌ أن يرد الأراضى التى استولى عليها من إيران وإلا سيكون الاستعداد للحرب.

جاء إلى أصفهان مباشرة وفد ممثل للروس برئاسة "جليتزين"(١)، وكان هدفه هو الاطلاع على أوضاع إيران عن كثب، وحض "نادر" على إنهاء الشد والجذب مع الدولة العثمانية، ولكنه أعلن فى تقريره الذى أرسله إلى بطرسبورج أن "نادر"

---

(١) Prinse Sergei Dimitrievch

لا يسعده الأسلوب الذى يفرضه الآخرون، وبالضمن أشار "نادر" إلى أنه لن تكون له حاجة إلى مساعدة روسية فى حرب إيران مع العثمانيين، وأعرب عن ضجره من أنه يكون من الأفضل أن ترد روسيا "دربند وباكو" إلى إيران.

تحرك "نادر" من خشية ورود رد إيجابى من العثمانيين عن طريق "جلبايجان وهمدان" صوب الحدود فى ١٢ محرم ١١٤٧هـ/١٣ يوليو ١٧٣٤م وكان فى معيته الوفد الروسى، ومع أن مقصده كان بغداد إلا أنه غيَّر خطته فى "همدان" وتوجه ناحية "سنندج ومراغه". ويقال إن علة ذلك كان خبرًا مفاده أن الروس استخدموا الـ "وختنگ"(١) حاكم جرجستان السابق وأخاه وأمرهما بتسخير "شماخى وكرتلى" لصالح روسيا.

وفى أردبيل أحضروا إلى "نادر" رسالة من "عبد الله باشا" مفادها أن تُعطى مهلة سنتين من أجل إخلاء الأراضى الإيرانية، فاستنتج من هذه الرسالة أن العثمانيين لاينوون الإخلاء. إذًا عليه أن يستعد للحرب وصمم فى البداية على أن يهاجم صنيعتهم "سرخاى" حاكم شيروان، وكان قصده من هذا العمل أن يأخذ موقعًا لنفسه فى هذا المكان قبل أن تسبقه روسيا. من هنا عبر "نادر" نهر "كورا" ففر "سرخاى" بسماعه هذا الخبر ودخلت "شماخى" فى حوزة "نادر". وفى هذا الوقت أخطر "نادر" بواسطة "جليتزين" بأنه إن لم تخل روسيا "باكو ودربند" فإن الأمر سينتهى بالحرب، فأبدى الروس استعدادهم للرحيل، وطلبوا من "نادر" ألا يكون العثمانيون مع الروس فى حلف مقابل، وبعد هذا الإجراء تدفق جيش "نادر" صوب النقاط المختلفة وأخضع أعيانها واستسلم الرؤساء لسياسته، وحاصر هذا المكان بهدف استرداد "گنجه" من العثمانيين واشتبك مع مدافعيها الأشداء ونجا ثلاث مرات من الخطر. وفى هذا الحين أمد الروس "نادر" بالفنيين والمدفعية، وبالضمن استفادت ملكة روسيا من الفرصة وأرسلت رسالة إلى "نادر" مؤداها أن روسيا

---

(١) Vakhtang, Bakar.

مستعدة لأن تخلى جميع الأراضى الإيرانية بشرط ألا يسمح "نادر" بأن تسقط هذه الأنحاء فى يد الأتراك، ويتعهد أيضًا بألا يتسبب فى نزاع بين الروس والعثمانيين. ونتيجة لهذه الاتصالات عقد الصلح بين إيران وروسيا فى ١٦-١٧ شوال ١١٤٧هـ/ ١٠-٢١ مارس ١٧٣٥م، وقبلت روسيا بمقتضاه أن تُخلى باكو ودربند بالشرط السابق، وألا يعقد أى من الطرفين صلحًا منفصلاً مع العثمانيين، وأن تكون "صعولاق" هى الخط الفاصل بين روسيا وإيران، وهذا الاتفاق رد لإيران الأراضى الخاضعة لروسيا والتى كانت قد وقعت فى قبضتها منذ عهد بطرس الكبير، وكانت الفائدة التى عادت على روسيا من هذه الصفقة هى إغلاق طريق العثمانيين إلى سواحل بحر الخزر .

وخلال هذه الأثناء أرسل نادر قوة لدفع "عبد الله باشا" الذى كان فى "قارص" ويماطل فى إخلاء "گنجه" وأيضًا لسحق اللزكيين، واتبع أسلوبًا شديدًا إزاء أهل "شماخى" لحمايتهم كما قيل، ثم تقدم صوب "قارص" وضرب معسكره على بعد ثلاثة أميال منها. ومن هناك اتجه صوب "اباران" واستقبل الأسقف الكبير للأرامنة استقبالاً طيبًا ووضع "ايروان" فى حالة حصار واستعد لمواجهة "عبد الله باشا" بعد سماعه خبر تحرك قواته، واستقر فى موضع "اخى كندى" بجوار "زنگ چاى" أعلى "آق تپه" بينما تمركز الأتراك على بُعد فرسخين فى موضع "بغاورد"، وكان عدد أفراد الأتراك ثمانين ألفًا وعدد الإيرانيين يزيد بحوالى خمسين ألفاً. وفى اليوم التالى بدأ العثمانيون فى الهجوم ثقة فى عدتهم، واستعرت حرب دامية انتهت بهزيمة ساحقة حتى أن "سارى مصطفى باشا" صهر السلطان كان ضمن المقتولين أيضًا وسقط أسرى كثيرون بيد الإيرانيين. سُر "نادر" كثيرًا من هذا التوفيق وكتب فى رسالة إلى "جليتزين" أنه منذ أن شرع فى الحرب لم يصبه مثل هذا التوفيق. وما إن راج خبر هذا النصر إلا واستسلم "على باشا" قائد "گنجه" العنيد على الفور كما أخلى "إبراهيم باشا" "تفليس" أيضًا.

فى هذه الأثناء اصطدم الروس والعثمانيون مرة أخرى واستعد الطرفان للحرب، وفى نفس الوقت تقدم "نادر" إلى الأناضول فى آسيا الصغرى، بما دفع الدولة العثمانية إلى أن تقترح الصلح مع إيران بواسطة "أحمد باشا" الذى كان فى "أرضروم" فأقر "نادر" الذى كان مشغولاً بحصار "قارص" شروط الصلح فى جوابه على ضرورة تسليم قلعة "قارص" وأداء خسائر الحرب منذ احتلالها الأول لأراضى إيران وضم روسيا إلى المعاهدة، ولكنه صرف النظر بعد ذلك عن "قارص" وأخلى "أحمد باشا" ايروان أيضًا وسلمها. توجه "أحمد باشا" صوب "تفليس" وأبقى الأمراء الجرجيين فى أماكنهم، وما إن وصل إليها حتى استقبل استقبالاً طيبًا، وفى المقابل جعل الناس محل رعايته فقد أبعد ستة آلاف أسرة من معارضيه إلى خراسان. وفى هذه الأثناء التى كان فيها "على باشا" الممثل العثمانى فى الطريق، اتجه "نادر" إلى داغستان لإخماد عصيان "قبيلان گراى" الذى اختار الفرار.

ويجدر بنا الآن أن نلقى نظرة على قضايا الجنوب قبل مواصلة الحديث عن الشمال. ففى عام ١١٤٧هـ/١٧٣٤م اختار "لطيفخان" مدينة "بوشهر" بأمر "نادر" لرسو الأسطول واستعد "نادر". وبعد فترة دعوا المكان "نادريه" وذهب "طهماسبخان جلاير" حاملًا رسالة إلى أصفهان لكى يطلب سفنًا من الشركات الإنجليزية والهولندية، ومن هذه الناحية أعد "لطيفخان" أسطولاً ووصل إلى شط العرب فى ذى القعدة ١١٤٧هـ/أبريل ١٧٣٥م بقصد تسخير البصرة، ورافقت قوة حربية مشكلة من ثمانية آلاف فرد هذا الأسطول بما جعل باشا البصرة يضطرب من هذا الخبر وشغل سفينتين إنجليزيتين بزعم كونهما تابعتين لشركات خارجية فى البداية، وحض على الحرب ضد الإيرانيين. هاجم "لطيفخان" دون انتظار لوصول القوات البرية واشتعلت الحرب البحرية التى انتهت بهزيمة الإيرانيين، وغضب "نادر" من هذه الحادثة المحزنة وعزل "لطيفخان" واستمر فى تدعيم القوة البحرية واسترد فى هذه الأثناء البحرين من عرب "هوله". وتحرك مباشرة لسحق

المتمردين فى داغستان إلى هذه الأنحاء، وهزم رؤساء القبائل المتمردة واحدة بعد أخرى وجعل شئون داغستان مستقرة إلى حين، وكان ذلك فى شهر شعبان ١١٤٨هـ/ يونيه ١٧٣٦م.

١٠
تتويج نادر

تصور "نادر" بعد هزيمته للأفغان والعثمانيين وإخماد المتمردين مثل اللزگيين وغيرهم واسترداد كل الأراضى الإيرانية السليبة ماعدا قندهار، أن الوقت قد حان لأن يُمارس تولى العرش، وهى الفكرة التى كانت تدور فى ذهنه. إضافة إلى أنه كان يُرسل منذ عدة شهور مضت رسائل إلى أنحاء الدولة بضرورة وجود حكومة مستقرة وقادرة على الحكم، ثم أصدر أمرًا إلى قادة العسكر وحكام الولايات والقضاة والعلماء تتصل باجتماع يُعقد فى صحراء "مغان" وتشكيل مجلس مشورة[١] يُعطى تاج السلطنة إلى شخص تتوفر لديه الصلاحية. كان مكان المجلس ناحية فى "مغان" تُحد من شمالها بنهر "كركورا" ومن شرقها بنهر "ارس"، وأمر "نادر" بأن تقام اثنتا عشرة ألف استراحة من الخشب والبوص علاوة على المساجد والنزل والميادين والأسواق والحمامات وأن يجهزوا القصر والمبانى الخاصة بالبلاط.

وصل "نادر" فى ٩ من شهر رمضان ١١٤٨هـ/٢٢ يونيو ١٧٣٦م إلى صحراء "مغان" وقد بدا ترتيب هذا المعسكر ونظامه لافتًا لنظر "إبراهام" الأسقف الأعظم الذى كان ضمن المدعوين. التزم "نادر" الديوان كل يوم أثناء مجئ المدعوين وهو يبحث عرائض الناس، وما إن حلّ العشرون من رمضان إلا وكان

---

(١) هذا المجلس يُعرف بـــ "قورو التاى". (شفق)

كل المدعوين قد وصلوا، حيث اجتمع عشرون ألفًا فى "مغان". ولمّا كان العدد كثيرًا، فقد كان "نادر" يستقبلهم فى مقر الديوان. وعلى حسب قول الأسقف الأعظم الذى التقى مع "على باشا" فى اليوم الأول أن ألف فرد حضروا فى قاعة الاستقبال، وكانوا يمررون العطر للحضور وماء الورد والشراب(*)، وشرع المنشدون فى أهازيجهم وأغانيهم وعددهم يزيد على العشرين. وفى اليوم التالى عُقد اجتماع يماثل السابق وفيه أعلن فى المنتدى إشعار من "طهماسبخان جلاير" وستة أفراد من جانب "نادر" أنه بعد إخضاع أعداء إيران وبسط الرفاء والأمان أصبح واردًا الآن أن يتنحى "نادر" عن الحروب والنزاعات ويعتكف فى "كلات" وينشغل بالعبادة ويختار "طهماسب" للسلطنة بعزم الرجال الأمناء على الوطن، وإن لم يكن للحضور رغبة فيه فعليهم أن يُنصِّبوا أحدًا آخر من السلسلة الصفوية على سلطنتهم. كان الجميع يعلم الإجابة مسبقًا أن هذا الاقتراح من "نادر" وليس نابعًا من القلب فصاحوا جميعًا إننا نختار "نادر" فقط للسلطنة. وتكرر هذا الوضع عدة مرات حتى أنه أمر أن يقيموا خيمة كبيرة من اثنى عشر عمودًا ويفرشوها ويزينوها حيث استدعى "نادر" فيها أعيان الدولة وعرض على بساط البحث موضوع تعيين الملك فاختاره جميع الحضور مرة ثانية، وتواصل هذا العمل أربعة أيام إلى حد أنه شكل مجلسًا آخر أعلن فيه أنه يقبل السلطنة بالشروط التالية :

١- ألا يتخلى أحد عن "نادر" وألا يرتبط بواحد من أبناء الشاه المخلوع.

٢- أن يترك أهل إيران التشيع وشتم الخلفاء، وأن يعتقدوا فى المذهب السنى، ولهم فى نفس الوقت أن يتبعوا طريقة مذهب حضرة الإمام جعفر الصادق فى الفروع.

٣- ألا يخون أحد "نادر" وولده.

(*) ليس هذا غريبًا على كرم الضيافة فى هذه المناطق إذ قوبلنا بها لدى زيارة وفدنا إلى ضواحى بلاد التتارستان عام ١٩٩٨م، رغم أنهم كانوا مايزالون عندئذ تحت إمرة الاتحاد السوفيتى

قبل جميع الحضور هذه الشروط ووقعوا محضرًا بذلك. وفى هذا الوقت كان ميرزا "عبد الحسن ملا باشى" هو الذى اعترض فى المجلس فقُتل بأمر من "نادر". وعلى كل حال فإن موضوع علاقة "نادر" بمذهب هو محل بحث بين المؤرخين. لقد أعرب فى بادئ أمره عن ميله وإخلاصه للتشيع وكان يبدى النظر فى ذلك الحين عن مناصرته للتسنن بإعجاب، وليس بعيدًا أن تكون هذه الأحوال من حس التدين نتيجة لسياسة من شأنها منع التخاصم مع العثمانيين، أو أنه يحلم بتوحيد الممالك الإسلامية تحت لوائه، والعامل الآخر هو أنه لمّا كان التشيع فى إيران مرتبطًا بحكم الصفويين وأن "نادر" يسعى لإضعافه فقد كان يرى فيه أمرًا ضروريًا. وعلى كل حال صورت فتوى "نادر" الملكية على أنها تظاهر بالتمنع مرة ثانية للقبول فى النهاية تحت إصرار أعيان الدولة وإبرامهم.

ولمّا كانت المحادثات قد تواصلت بين إيران والدولة العثمانية فى الفترة مابين ذهابه من "قارص" فى شهر جمادى الثانية ١١٤٨هـ/ أكتوبر ١٧٣٥م ومراسم تتويجه، فإن العثمانيين كانوا يسعون فى هذا الوقت للحصول على نتيجة ما. ومن هنا فقد اشترك على باشا ممثل هذه الدولة فى منتدى "مغان" بشخصه حيث كسب "نادر شاه" موافقة الموفدين وانعقد الصلح بين الدولتين على ضوء المواد التالية :

١- لمّا كان الإيرانيون قد غضوا الطرف عن معتقداتهم السابقة وقبلوا مذهب السنة فعلى العثمانيين أن يعترفوا بالمذهب الجعفرى فى مقابل ذلك.

٢- لمّا كان فى مكة ركن يخص كل واحد من الأئمة الأربعة فينبغى أن يؤسس ركن خامس باسم الإمام جعفر الصادق.

٣- أن يُعين أمير للحج الإيرانى يماثل أمراء الحج السوريين والمصريين لحفظ حقوق الحجاج الإيرانيين.

٤- أن يتحرر أسرى الجانبين ولا يقعوا محلاً للشراء والبيع مطلقاً.

٥- أن يكون لكل من الدولتين سفير في بلاط الآخر.

وعلى الرغم أن الموافقة على سلطنة "نادر" قد تمت بالإيجاب فإن التتويج الرسمى قد تأخر قليلًا لعدم إعداد خاتم السلطنة وقوالب لضرب السكة وأيضًا اختيار الساعة المناسبة من جانب المنجمين إلى أن تمت هذه المراسم فى ٢٤ شوال ١١٤٨هـ/٨ مارس ١٧٣٦م.

ومن أجل إشهار التتويج أرسل نادر مباشرة إلى البلاطين الروسى والعثمانى، وأمر سفيره "عبدالباقيخان" بطلب قبول شروط الصلح من البلاط العثمانى.

حضر الأمراء والأعيان مراسم التتويج بألبسة فاخرة، أما عن تاج الملك فقد كان مطعمًا بالجواهر واللؤلؤ على حسب رواية رجل دين أرمنى فى المجلس اسمه "ترنومه" ووُضع على مفرق "نادر" بواسطة من يدعى ميرزا "زكى" وفى هذا الوقت عظَّم الحضور الأمر ماعدا الملالى الذين كانوا يدَّعون بغير ذلك، وبعد ذلك رفعوا الأيدى بمحاذاة رءوسهم وقرئت الفاتحة وأخفض الجميع جباههم تجاه الأرض كأنهم فى حالة ركوع حتى تنتهى القراءة(١).

وقد نظم الشاعر "قوام الدين" مادة تاريخية بهذه المناسبة التى كانت بحساب الجمل عبارة عن "الخير فيما وقع". وقد قال بعض المتفكهين فى زمانه هذه الجملة "لا خير فيما وقع" فكتابة حروفها بنفس الوضع تقريبًا كما أنشد شاعر عراقى مؤيد للصفويين هذا البيت متندرًا(*) :

- قطعنا الأمل من المال والروح

وطمعنا بتاريخ الخير فيما وقع !

---

(١) يجوز أن رفع الأيدى إلى أعلى الرأس كان كما رآها الراوى لترديد الدعاء وقول "آمين". (شفق)

(*) هذا البيت يدلل على أن حكم الصفويين كان قد انتشر حتى أن شاعرًا عراقيًا يؤيدهم.

وفى نفس يوم المراسم لتتويج "نادر شاه" رُفع ميرزا "مهديخان" من ديوان الإنشاء وعهد إليه بمنصب "المنشى" الخاص وعُين ميرزا "مؤمن" مكانه.

وبعد المراسم التى استغرقت ثلاثة أيام أرسل "نادر" "عباس" الثالث إلى أبيه "طهماسب" المخلوع فى خراسان حيث كانوا هناك إلى أن قتله "رضاقلى ميرزا" وأباه "طهماسب" وأخاه الصغير "إسماعيل ميرزا" فى عام ١١٥٠هـ/١٧٤٠م، وعهد "نادر" بحكومة أذربيجان التى تمتد من "قاپلانكوه" حتى جرجستان إلى أخيه "إبراهيم"، وأخمد العصيان المتداعى الذى كان قد قام فى جرجستان لرغبة فى حكم شبه استقلالى ونعرة تسلطية.

١١

المشاركة بين إيران والدولة العثمانية – علاقات نادر وروسيا تسخير البحرين – معارك ضد البختياريين

كما سبق ذكره تحرك "عبدالباقيخان" سفير إيران برفقة "گنجعلى باشا" من "مغان" إلى استانبول لتصويب الاتفاق وتنفيذه؛ إذ وافقت الدولة العثمانية بعد محادثات حول موضوع التصالح فيما بين الجانبين من تنصيب السفراء وتحرير الأسرى وتبادلهم وتعيين أمير للحج الإيرانى، ولكنها رفضت موضوع المذهب، وبناء على ذلك أرسلت سفيرًا إلى بلاط إيران لإعداد معاهدة جديدة وعينت "مصطفى بيگ" من أجل هذه المهمة، وفى المقدمة كانت الاقتراحات العثمانية الجديدة قد صدّقت على سلطنة "نادر". ونتيجة لهذا الإبلاغ من جانب الدولة العثمانية فكما هو مسجل أنه نتيجة للنزاع بين الدولتين يؤجل النظر فى الاختلاف المذهبى ويترك.

مرة ثانية توترت العلاقات العثمانية والروسية، وكان إرسال "قبلانگراى" إلى داغستان من ناحية وحملة "لئونتوو" على حاكم روسيا فى شبه جزيرة كريمه من ناحية أخرى دافعًا على أن وقوع الحرب فيما بين الطرفين أصبح غير قابل للتجنب. ولم تنتظر الدولة الروسية فرصة إعلان الحرب على العثمانيين فقط أو أن تدخل فى صلح من جانب منفرد مع العثمانيين؛ بل كانت تُصعّد الرغبة في قطع تعاونها مع العثمانيين أيضاً. وكما نعلم أن "نادر" قد اهتم عدة مرات فى تشكيل حلف يشمل إيران والدولة العثمانية وروسيا غير أن العثمانيين رفضوا. وفى النهاية أعلنت روسيا الحرب ضد الدولة العثمانية فى عام ١١٤٩هـ/ مايو ١٧٣٦م.

وفى نفس الوقت أرسلت ملكة روسيا رسالة إلى "نادر" تبلغه بأنها ستستفيد من هذا الموقف المتأزم مع العثمانيين عندئذ، فرفض "نادر" في رده فكرة الهجوم عليهم إلا أنه وعد بأنه إذا عقد اتفاقًا للصلح فسيشمل روسيا حتى إذا لم توقّعه الملكة. وفى هذه الأثناء وصل سفير "نادر" لإبلاغ رأى سلطنته إلى بلاط ملكة روسيا، فكان قد أوصل رسالة مؤداها: لن يكون هناك صلح منفرد مع العثمانيين، وأجابت الملكة فى ردها أن دولة روسيا لم تعقد فى المقابل صلحًا مع تركيا بدون إشراك إيران. ومن هنا كان لابد أن يسبب وصول الأخبار بالتصالح بين إيران والدولة العثمانية حيرة للبلاط الروسى، ولكنه كان فى الحقيقة اتفاقًا لإخلاء مناطق وليس اتفاقًا للصلح بصفة رسمية.

أقام "نادر" ثلاثة أشهر فى قزوين وشرع فى هذه الأيام فى إنفاذ الأوامر فيما يتعلق بتعديل المذهب الشيعى، وأصدر أمرًا بألا يقولوا فى البداية كلمة "علىٌ ولى الله" فى الأذان التى هى على خلاف السنة، ولا يحتاج إليها فى نفس الوقت مقام حضرة الإمام على ﷺ سواء بسواء، كما أنه من الواجب على الحكام والأمراء فى مجالسهم ألا يشرعوا فى الدعاء للسلطان بعد التكبير والحمد الذى يُقرأ؛ لأن اسم المخلوق فانٍ لا يجوز أن يُخلد(١).

---

(١) عبارة النص على هذا النحو "كأنهم كانوا يصلون ويدعون للسلطان "شاه حسين" فى تكبيرهم وحمدهم بينما التكبير والحمد يكون بعد المراسم والوعظ" (شفق). وقد فاته عند التكبير والحمد سواء قبل المراسم والوعظ أو بعدها هو لله عز وجل.

كان "نادر" مقيمًا فى قزوين عندما وصل خبر مؤداه أن "لطيف خان" الذى كان قد صار قائدًا لأسطول الخليج من طرف "نادر" مرة أخرى قد سيطر على البحرين فى ذى القعدة ١١٤٩هـ/ مارس ١٧٣٧م، ومن ثم أرسل إلى "نادر" مفتاح قلعتها بواسطة "محمد تقى خان" الذى أحسن نادر وفادته وضم البحرين إلى ولاية فارس.

كان "عليمراد چهار لنگی" البختيارى قد رفع علم التمرد قبل سنة من هذه الحوادث ولكنه هُزم؛ فجمع قوة كبيرة من قبيلة بختيارى على وجه السرعة وجهّز لثورة كبيرة باسم الشاه "طهماسب" غير أن "نادر" وصل إليه على وجه السرعة وأنزل به هزيمة قاسية وأخرجه من مخبئه وقتله.

وبعد إخضاع البختياريين واستسلامهم توجه "نادر" إلى أصفهان فوصل إليها فى ٩ جمادى الثانية ١١٤٩هـ/ ١٥ أكتوبر ١٧٣٦م، حيث وجد استقبالًا طيباً، وأقام فى قصر "هزار جريب" واستقبل ممثلى البلاط العثمانى وودّعهم، وبدأ على الفور فى تنفيذ خطته القديمة فى إعداد الحملة على "حسين سلطان" حاكم قندهار.

١٢

اســـترداد قندهـــار

كان "نادر" قد فكر فى استرداد قندهار منذ أن طرد الغلچائيين فى عام ١١٤٢هـ/٢٩-١٧٣٠م، ولكن الحرب ضد الأتراك فى عام ١١٤٢هـ/١٧٣٠م والمعارك التى خاضها ضد الأبداليين كانت تمنعه من ذلك ويجوز أنه لو لم تقع هزيمة الشاه طهماسب من العثمانيين فى عام١١٤٤هـ/ ١٧٣٢م لكان "نادر" قد تحرك ضد "حسين سلطان" حاكم قندهار، ومن ثم فقد ركز همه حتى عام

١١٤٩هـ/١٧٣٦م فى مواجهة الأتراك وإخضاع المتمردين مثل خان البلوچ واللزكيين والبختياريين، ولكنه على إثر التراخى مع الدولة العثمانية واختلاف تلك الدولة مع روسيا تصاعد خطر الهجوم على إيران من ناحية الغرب فنبَّه اللزگيين وعاقب البختياريين، كما بدأ أعمالًا رآها لازمة لمعاقبة حكام "بلخ واندخود وبلوچ". ومن هنا بدأ "نادر" يعطى الأوامر إلى جميع أنحاء المملكة للتجهز ضد قندهار بجمع العدة والعتاد، وتحرك على رأس هذه القوات وعددها ثمانون ألفًا عن طريق كرمان وسجستان فى ١٧ رجب ١١٤٩هـ/ نوفمبر ١٧٣٦م، فوصل إلى "كرشك" فى ١٨ شوال من العام نفسه مما جعل الحراس الغلچائيين يستسلمون هناك ودلف صهره "كلبعليخان" من هناك إلى ناحية "زمينداور وبست" وتوجه هو بعد ثلاثة أيام من الإقامة فى "كرشك" إلى نهر "ارغناب" فى طريق "شاه مقصود". وبمجرد أن سمع "حسين سلطان" خبر اقتراب الإيرانيين جهز قواته لمباغتتهم ليلاً، ولمّا عرف الإيرانيون بخطتهم أوقع "نادر" بهم الهزيمة وعبر النهر فى الأيام التالية من ناحية قرية "كوكران" على نهر "ارغناب" فى اتجاه مرتفعات "فيستول" حيث توجد فيها القلاع من شمال غرب قندهار؛ ونفذ تحركه هذا على الرغم من وجود نيران كثيفة لمدفعية العدو من قمم المرتفعات ووصل إلى أراضى قندهار المسطحة وحلّ بموضع "سرخ شير" على مسافة ميلين جنوب شرق قندهار وأمر أن يبنوا فيه مدينة يكون فيها الحصن والقلاع والمساجد والسوق وموضع للقوافل، وأن يقام لكل واحد من أتباعه مكان ونزل هناك باسمه وأطلقوا على هذه المدينة "نادرآباد".

وضع الإيرانيون قندهار التى كانت محصنة جدًا فى خط الحصار وبنوا الخنادق والأبراج حول المدينة؛ فقد كانت مساحاتها مع ازدياد أفراد جيش "نادر" لا تتناسب مع مراتع نواحى قندهار، فكانوا يضطرون إلى جلب القمح من كرمان وسجستان . وفى هذه الأثناء كانت أعداد من الغلچائيين المهزومين فى الأطراف المختلفة يفرون إلى الهند، بينما يتابع "نادر" فتوحاته السابقة من خلال الرسائل إلى بلاط "محمد شاه"، بأن يمتنع عن إعطائه طريقًا للفارّين، وكانت نقاط الأطراف مثل

"زميندار" و "صفا" و "كلات" الغلجائية تسلم نفسها من خلف بعضها للمعسكر النادرى، فكان الجيش الأصلى يقوى بالتدريج، ولذلك لم يجد "حسين سلطان" بدًا من التسليم، وخضعت قندهار بذلك وعاد كل من الجانبين من حيث أتى، وساس "نادر" غنائمه ورحّل بعضًا من أهل قندهار إلى "نادر آباد"، حيث جعلها مركزًا لناحية قندهار وعين حكامًا عليها ومعها گرشگ وبست وزميندار. وقد حدثت واقعة فتح قندهار فى الثانى من ذى الحجة عام ١١٥٠هـ/١٧٣٧م وبإنجازها استُردت جميع أراضى إيران السليبة، وتوقف "نادر" بعد هذا الفتح شهرين فى "نادر آباد" حيث كان يستعد خلالها فى الهجوم على الهند. وفى هذه الأثناء وصل "مصطفى باشا" مبعوث السلطان العثمانى إلى "نادر آباد" وعرض معتذرًا أن السلطان لا يوافقه قبول الركن الخامس بإقرار المذهب الجعفرى والاعتراف به، وصرح أن ذهاب الحجاج الإيرانيين إلى مكة عن طريق سوريا ليس من الصلاح، ومن الأفضل أن يذهبوا عن طريق النجف. قال "نادر" فى رده : إن هذه المسألة ليست قابلة للحل بهذه الطريقة، ويلزم أن تُبحث مرة أُخرى مع السلطان. ومن أجل هذا الهدف عين "عليمرادخان شاملو" الذى كان مسئولًا فى بلاط المغول كسفير فى البلاط العثمانى حتى ينجز المباحثات اللازمة فى استانبول.

١٣
الهجــوم على الهــند

وصل "نادر" فى ربيع ١١٤٨هـ/١٧٣٥م إلى عرش إيران. وفى هذا الوقت كان محمد شاه يبلغ من العمر سبع عشرة سنة ويحكم فى الهند، وكانت السلطنة فى سلالة الملوك المغول تنحو نحو الضعف الذى كان قد بدا واضحًا منذ سلطنة "اورنگ زيب" (١٠٦٨-١١١٩هـ/ ١٦٥٨-١٧٠٧م) مما أدى إلى حروب داخلية وشيوع الفتن والمفاسد والنفاق.

وكما سبق ذكره كان البلاط الإيرانى قد طلب من نظيره المغولى فى الهند ألا يعطى طريقًا للفارّين الأفغان إلى داخل الهند ولكن لم يترتب على ذلك أثر؛ فغضب "نادر" من هذا الأمر وأرسل "محمد خان تركمان" إلى البلاط المغولى فى الهند لهذا الغرض، ولكن بالإضافة إلى أنهم لم يعطوه جوابًا، احتفظوا بموفده عامًا وأكثر فى دهلى أيضاً. عبر "نادر" فى ٢ صفر ١١٥١هـ/ ٢١ مايو ١٧٣٨م "موكور" على الحدود وأعلن فى البداية أن هدفه هو تأديب الأفغان وأظهر الصداقة لـ "محمد شاه"، ولكن ليس بعيدًا أن يكون فكره الأساسى فى هذه المظاهرة السياسية هو تسخير الهند وتعويض الفقر والفاقة اللذان حلا بإيران واغتنام التجهيزات وإعداد الجيش، وكذلك يجوز أنه كان يرغب فى أن ينتشر اسمه ويخلّد بين صفوف الفاتحين المعروفين أمثال الإسكندر ومحمود الغزنوى وتيمور وأيضًا أن بعضا من أمراء الهند مثل "نظام الملك نواب الدكن" و"سعادتخان" حاكم "اود" أو صوبها (*) كانوا قد دعوا "نادر" إلى الهند(**).

أخضع "نادر" على التوالى "قراباغ" و "غزنه" بدون مقاومة و"كابل" بعد قليل منها، وتحرك بعد توقف استمر يومين فى ناحية "چريكر" شمال "كابل" صوب "كندوك"، وعاقب العصاة فى الطريق، وفى محل "بهارپائين" استدعى ابنه "رضاقلى ميرزا" بعد تأديب المدّعين فى "بلخ" و "بخارا" وشاوره فى موضوع فتنة خراسان واختاره فى هذا التاريخ نائبًا له ورخّص له بذلك.

وفى هذه الأثناء كان "ناصر خان" والى كابل قد جمع عشرين ألف أفغانى من بيشاور وخيبر وتمركز لمنع تقدم جيش "نادر شاه" فى ممر خيبر(***)، ولكن "نادر" طبقًا لأسلوبه الدائم اتجه إلى هذا الممر من خلال طرق صحراوية صعبة

(*) عنوان على حاكم ناحية مثل الوالى أو المحافظ، وأيضًا تدل على رتبة عسكرية فى الهند.

(**) هذا الرأى من الصواب بمكان.

(***) ممر خيبر هذا عقبة كبرى فى طريق قوات الحلفاء فى أفغانستان فى الوقت الحالى، وقد تمكن نادر من عبوره بوسائل بدائية بما لا يستطيعون عبوره بوسائلهم المتقدمة.

المرور وأطبق على قوات "ناصر" وفرّقها وأسره وسخّر بيشاور مباشرة وبقى فيها أربعة أسابيع. وهناك وصله خبر محزن وهو قتل أخيه "إبراهيم خان" فى "شيروان" على يد اللزگيين، فدفع "نادر" قبل تحركه بفرقة استطلاع واستحدثوا فى ناحية "اتوك" جسرًا على نهر السند، وما إن وصل خبر إتمامه حتى تحرك فى ٢٥ رمضان ١١٥١هـ/ ٥ يناير ١٧٣٩م وعبر السند ووضع قوته فى "وزيرآباد"، وعبر نهر "جهلوم" بدون أضرار، وفرق على رأس الطريق "قلندرخان" وقواته. وكان أهل البنجاب إضافة إلى تعرضهم للمهاجمين من جيش "نادر" يعانون من قطاع الطرق والغوغاء فى الداخل أيضاً. وفى أثناء تقدم "نادر" عرف أن "زكريا خان" حاكم "لاهور" الذى سجلوا عدد قواته إلى خمسة عشر ألفًا يتهيأ للمقاومة ويتجهز للحرب التى استعرت بين الطرفين. وقد طلب خلالها "زكريا خان" الأمان فقبل "نادر" واستقبله وقدم الهدايا إليه. وبذلك حُفظت لاهور من الهجوم، وتحرك "نادر" منها ووصل إلى الهند حيث أخبروه بأن "محمد شاه" قد وصل إلى موضع يقال له "كرنال" على رأس جيش قوامه ثلاثمائة ألف جندى وألفان من الفيلة.

شرع "محمد شاه" حال سماعه خبر تقدم "نادر" إلى استخدام الحيلة، وفى غرة رمضان من العام نفسه كان "خان دوران" و "نظام الملك" و "قمر الدين خان" قد تحركوا من دهلى على رأس قوة لكنهم لم يكونوا قد ذهبوا أبعد من غابات "شاليمار" حتى أرسل "محمد شاه" أمرًا إلى "سعادتخان برهان الملك" حاكم ناحية "اود" يطلب منه المساعدة فلحق به. وفى النهاية تحرك عسكر المغول ولكنهم كانوا يتحركون ببطء، فعلى سبيل المثال ينقضى الشهر من غابات "شاليمار" حتى "كرنال". وأخيرًا اضطر الملك المغولى نفسه إلى أن يتحرك هو والأمراء من "دهلى" فوصل إلى "كرنال" فى أوائل ذى القعدة من العام نفسه وأحاطوا مركز القيادة بماء وفير وقد سجلوا عسكر "محمد شاه" من ثمانين ألفًا إلى مليون ومائتى ألف، ولكن ربما يكون الأوفق مليون جندى. فرأى "نادر" فى النهاية أن يُرسل إلى الجبهة فريق طلائع لجمع المعلومات، وبذلك يطلع على وضع العدو كاملاً، وعندئذ

في ١٢ ذى القعدة اتجه صوب قصر "عظيم آباد" الذى يقع على بعد اثنى عشر ميلًا شمال "كرنال" فوصلها صبح اليوم التالى، ومن هناك ذهب إلى "كنجبور" على بعد خمسة أميال من "كرنال" وفى هذا الوقت عُرف أن "سعادتخان" صوبة "اود" أى حاكمها قد أنفذ قوة قوامها ثلاثون ألف جندى لمساعدة الملك المغولى ولسد الطريق فى وجه أعوان "نادر" على وجه السرعة.

١٤
الزحف صوب الهند

وزع "نادر" قواته على ثلاثة أقسام صباح اليوم التالى أى فى الخامس عشر من ذى القعدة عام ١١٤٨ هـ/٢٧ مارس ١٧٣٦م، فعهد إلى ميرزا "نصرالله" أن يهاجم "كرنال" عن طريق "جُمنه" وتحرك هو إلى الجنوب على رأس ألف جندى حتى يدير جميع العمليات، بينما كان ذلك الخط الذى يربط بين "جُمنه وكرنال" خاصًا بـ عليمروان. وفى هذا الوقت وصل خبر مؤداه أن قوات "سعادتخان" التعقبية قد أسرت عددًا من أفراده، كما التحق بالملك المغولى من خلال طريق صحراوى. وتوقف "نادر" وانضم إلى "نصر الله ميرزا" مرة ثانية، أما "سعادتخان" الذى كان قد لجأ إلى الملك الهندى فقد عرف فجأة أن قوات القزلباش قد نهبت عتاده وأنه أصبح خاوى الوفاض، وعلى الرغم من إصرار "محمد شاه" والآخرين فقد شرع فى تعقب المهاجمين حتى يسترد أمواله، ولكن عسكره كان قد حل بهم التعب من ناحية وفقدوا الطاعة، ومن ناحية أخرى أنفذ "نادر" قوة لتكمن له وتأسره، بينما أرسل "محمد شاه" هو الآخر "خان دوران" على رأس ثمان فرق من ألف جندى لنجدة "سعادتخان". وفى هذه الأثناء حدثت حرب ضارية بين الطرفين وهُزمت قوات "سعادتخان" و "خان دوران" نتيجة تدبير وحسن توجيه من "نادر"،

وأسر "سعادتخان" أما "خان دوران" فقد جُرح جُرحًا شديدًا وسقط مغشيًا عليه، وتمكن خادمه من حمل جسده إلى معسكر الهند، وقُتل أخوه أيضًا مع أمراء آخرين ولم يمض من الوقت طويلًا إلا وهُزمت القوة الأساسية. وقد توقف نادر بعد هذا النصر عن الهجوم على قوة "محمد شاه".

ويجدر فى هذا الصدد أن تُذكر بعض الدقائق فيما يتعلق بهذا القتال؛ منها: التناقض الذى ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار بين قيادة "نادر" وهؤلاء الهنود، فـ "نادر" تفوق لا شك فى فن التوقع وعمليات الحرب على القادة الهنود، إضافة إلى ذلك لم يستطع أمراء الهند أن يقضوا على الخلاف والحسد فيما بينهم، ثم إنه فى هذه الحرب لم ترد كل قوات الطرفين فى الميدان، فمن جانب الهنود لم تتقدم العديد من الفيالق من قوات "سعادتخان" و "خان دوران" أصلاً، كما أن "نظام الملك" وقواته لم تُختبر فى مدة الحرب، فقط كانت تراقب من بُعد، وقد خمَّن "ميرزا مهديخان" قتلى الهنود بـ ثلاثين ألفًا ولكن يمكن أن تكون عشرة آلاف. وبناء على روايات المؤرخين المعاصرين فإن خسائر الإيرانيين كانت ألفين وخمسمائة قتيل وضعفهم من الجرحى. ويقولون إن "نادر" سجد بعد هذا الانتصار وسلم ثم كافأ قادته ورؤساءه، وبحسب قول المؤرخ "محمد كاظم" أنه نتيجة لهذه الحرب أطلق على ابنه الثانى "نصر الله"، وهذه إشارة إلى النصر الذى تحقق إنما قد تم بالعناية الإلهية(*).

رأى "نادر شاه" أنه من الصلاح دعوة "سعادتخان" و"نظام الملك" من أجل محادثات صلح، فجاءا إلى بلاط "نادر" بصلاحيات من الملك الهندى وأجريا المفاوضات مع "عبدالباقيخان"، وعليه لم يرد "نادر" أن ينزل صدمة أخرى بالهند وعاد إلى إيران، ودفعت الحكومة الهندية خسائر الحرب. ولأن "نظام الملك" طلب أن يُجاز له بدعوة الملك على الغداء من طرف "نادر". فى اليوم التالى جاء "محمد

(*) هذا دليل على اعتقاد "نادر" فى دينه على العكس من القول بأن عقيدته الدينية كان ضعيفة.

شاه" ونزل منه منزل الاستقبال والإعزاز. وتناولا الغداء ومعهما الوفد المرافق وأعيد ملك الهند ثانية إلى معسكره بتقدير. وينبغى العلم أنه قد انزوى بعيدًا عن السلطنة بعد الهزيمة إذ كان قد سلم تاجه إلى "نادر". وفى هذه الأثناء أعطى "محمد شاه" منصب إدارة المَنْح "دفع رواتب العسكر" إلى نظام الملك لوفاة "خان دوران" بما أغضب "سعادتخان" الذى كان يرغب فى هذا المنصب فلجأ إلى "نادر" بدافع الانتقام وحرضه على التوجه إلى "دهلى" فقبل "نادر" رؤيته ووجهة نظره وطلب من "نظام الملك" أن يدعو "محمد شاه" لمقابلته مرة ثانية فتوجه برفقة ألفين من حراسه فى ٢٤ ذى القعدة إلى "نادر" الذى ذهب معه فى غرة ذى الحجة إلى دهلى.

١٥

المجىء إلى دهلى

عندما وصل صدى حرب "كرنال" إلى دهلى اتخذ قائد قلعتها المحنك "حاج فولادخان" إجراءات وقائية وأمَّن نظام المدينة واستقرارها حتى تقوى على الدفاع، ولكن عندما نفَّذ أمر "محمد شاه" وكتاب "نادر"شاه" استسلم الحراس وجلسوا فى انتظار وصول "نادر" إلى أن حل الملكان فى السابع من ذى الحجة ١١٥١ هـ / ١٦ مارس ١٧٣٩م بغابات "شليمار". وذهب "محمد شاه" من قبل إلى المدينة من أجل الإعداد للاستقبال، وجاء "نادر" فى التاسع من ذى الحجة بأبهة لا نظير لها وأحسن "محمد شاه" وقادته فى استقبال لائق وحصَّل هدايا قيمة من ذلك الملك، وامتن له هذا التعظيم والاحترام وأطلعه أنه سيبقى فى سلطنته، فقدم له إزاء هذه الرعاية النادرية كل الخزائن والجواهر الملكية، وتظاهر "نادر" بالتمنع عن قبولها

فى البداية(*) حتى قبلها تحت ضغط "محمد شاه". وفى نهاية الاستقبال والضيافة أسكن الملك الهندى "نادر" فى قصر "شاهجهان"(**) بجوار الديوان الخاص بينما سكن هو فى مبنى قريب فى "برج أسد"، وقرأوا الخطبة باسم "نادر" فى جميع المساجد فى عيد النوروز، الذى تصادف تزامنه مع عيد الأضحى، كما ضبط السكة أيضا باسمه. وفى عصر ذلك اليوم ذهب "نادر" لزيارة الملك الهندى وعند الغروب شاع أن "نادر" قد مات فجأة، وفى رواية أخرى أنه قد أوقف وسُجن بأمر الملك، وانتشر هذا الخبر فى أرجاء المدينة فى أقل زمن. وتوضيح ذلك أن "طهماسب جلاير" أرسل عددًا من عسكر القزلباش إلى مخازن القمح فى "مهرگنج" الواقعة فى جنوب غرب المدينة حتى يفتحوها ويحددوا السعر. ولمَّا كان هذا العمل قد أضر ببائعى القمح، من ثم قاموا بإثارة العامة فى ترويج الإشاعات وحفَّزوا عامة الناس ضد عسكر القزلباش النادرى، ووصل الأمر إلى حد أنه فى كل نقطة من المدينة قلما يُرى واحد أو اثنان إلا وتعرضا لهجوم الدهماء، وعلى الرغم من أن الملك الهندى ورجاله لم يكن لهم يد فى هذا العمل، فإنهم لم يتخذوا إجراء من أجل إسكات الفتنة، وقد سجلوا أن عدد الخسائر الإيرانية نتيجة هذه الفوضى قد وصل إلى سبعة آلاف فرد، ويمكن تقديره على ثلاثة آلاف، حتى أن بعضًا من أعيان الهند قتلوا حراسهم الإيرانيين الذين كان "نادر" قد عهد إليهم بحمايتهم. وفى خلال هذا الاضطراب هاجم بعض من أعيان الهند كـــ "سيدنيازخان" و"شاهنوازخان" على رأس جماعة مكونة من خمسمائة شخص اصطبلات الفيلة الملكية لــ ""نادر"" وقتلوا حراس المكان وخلَّصوا الفيلة وسيطروا على قلعة "ايرا" فى خارج المدينة نفسها وتحصنوا بها.

(*) الأصل فى هذا التمنع كان ظاهريًا؛ ذلك أن من أهداف "نادر" فى فتح الهند تمثل أصلًا فى الاستحواذ على غنائمها الوفيرة، والهدايا الثمينة بما فيها من الجواهر والعروش كانت تدخل فى هذه الغنائم.

(**) هو من ملوك الدولة المغولية المشهورين.

وفى بدايات الانتشار لخبر الاضطراب لم يصدق "نادر شاه" ما حدث وتصور أن بعضًا من عسكره قد زوروا ذلك الخبر من أجل نهب المدينة وكلف واحدًا من حراسه لتقصى الأمر، ولكنه ما إن خرج من القلعة حتى قتلوه فأرسل "نادر" شخصًا آخر ولكنه لقى نفس المصير. وعندئذ أدرك "نادر" أن الوضع جادّ فأرسل ألفًا من المشاة حتى يخمدوا الفتنة، ولكن لأن الليل كان قد حل فلم يستطيعوا أن يبدأوا مهمتهم فأمر "نادر" جنده أن يمضوا ليلتهم فى حالة استعداد ولا يقدموا على عمل آخر إلا بإذنه. وركب جواده فى الصباح برفقة حراس أشداء وولّى وجهه صوب مسجد "روشن الدولة" فى مركز محله "جند نى چوك"، وقد قالوا إنهم صوبوا إليه سهمًا من أعلى سطح منزل بجوار المسجد ولكنه أخطأ هدفه وقضى على واحد من قادته فصعد "نادر" سطح المسجد ومنه حدد الأهداف التى أوقف عليها عسكره، وأمر بألا يتركوا شخصًا حيًا فى مكان قُتل فيه فرد من القزلباش، وأقدم على القتل والنهب فى الحارات والأسواق من الساعة التاسعة صباحا حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، بينما بقى فى المسجد. وفى هذه الأثناء أرسل الإمبراطور "نظام الملك" و "قمر الدين خان" إليه طالبًا العفو والسماح وكلف "نادر" "حاج فولادخان" قائد القلعة مع عدد من معاونيه حتى يبلغوا الجنود بأن يتوقفوا عن مهامهم وأن يطاع الأمر فورًا ويثبتوا على درجة طاعة محاربيه، وأمر "نادر" أيضا أن يعيدوا الأسرى إلى عائلاتهم، وقد سجلوا عدد القتلى الهنود ما بين ثمانية آلاف حتى عشرين ألفا من المشاة[1]. كما أن "سيدنيازخان" و"شاهنوازخان" أيضا هُزما بأمر من "نادر" بواسطة "عظيم الله خان" و"فولاذخان" ووقعا فى الأسر ولقى سائر المتمردين جزاء عملهم. وبعد استتباب الأمر استمر "حاج فولاذخان" فى منصب حراسة القلعة. وبعد ذلك حرقوا أجساد قتلى المسلمين والهنود حفاظًا على صحة العامة فى المدينة[2].

---

(١) عنوان على المشاة المسلحين بأسلحة يدوية ثقيلة بدلًا عن البندقية المعتادة فى عصرنا وقد وردت هذه العبارة فى تاريخ جهانگشاى نادرى.

(٢) بموجب روايات أخرى كان صبر واقتناع وحجج نادر فى سبيل تجنب سفك الدماء فى المدينة أكثر من ذلك الذى ذكره "لاكهارت" فى هذا النص (يرجع إلى كتاب نادر نامه تأليف السيد قدوسى).

وبعد هذه الحوادث أوقف "دارائى خان دوران" و"مظفر خان" وأرسل عددًا من القزلباش إلى "اود" لضبط ومصادرة أموال "سعادتخان" وعُين وفد تحت إشراف "طهماسبخان جلاير" لجباية الضرائب وشغلوا بجبايتها. ومنذ ذلك الحين أصدر "نادر" أمرًا بتاريخ السادس عشر من ذى الحجة إلى إيران أن تُعفى كل الولايات من أداء الضرائب. وفى هذا الوقت زوّج ابنه "نصر الله" من "يزدانبخش" حفيدة "اورنگزيب"، وفي ٢٧ من ذى الحجة تمت مراسم الزواج.

وقيمة المال الذى أخذ فى هذا السفر إلى الهند بالإضافة إلى الجواهر وسائر الأشياء القيمة لا يقل عن سبعين حملاً من الروبيات وكان من بين الأشياء القيمة تخت طاوس "عرش الطاووس" ومن بعده ماسة كوه نور "جبل النور"(١).

شكل "نادر" مجلسًا في البلاط بتاريخ ٣ صفر ١١٥٢ هـ/ ١ يونيه ١٧٣٩م ودعا إليه الإمبراطور أيضاً، وفيه وضع تاج الهند على رأسه وسيفًا مرصعًا فى وسطه فمُنح أمراء الهند وأعيانها خلعًا قيمة، فعهد "محمد شاه" فى مقابل هذا العمل إلى إيران بجميع الولايات الغربية لنهر السند، ومن هذا الوقت فصاعدًا ذُكر اسم "محمد شاه" بدلًا من اسم "نادر" في الخطبة.

اتخذ "نادر شاه" قرارًا بالعودة من الهند بعد صلاح الأفكار فيما يتعلق بإدارة الوطن لصالح "محمد شاه"، ونصح أمراء الهند فيما يتصل بطاعة مليكهم، وأرسل

---

(١) يقول المؤلف إن هذه الماسة قد أهديت من واحدة من الأسر المعروفة فى عام ١٥٢٦م إلى همايون الابن الأكبر لبابر وبعد موت نادر فى ١١٦٠هـ / ١٧٤٧م وقعت فى يد "أحمد خان درانى" ووصلت بالميراث إلى حفيده "شاه شجاع" وأخذها "رنجيت سنگ" حاكم لاهور السيخى من شاه شجاع، وبعد أن ألحق الإنجليز البنجاب فى عام ١٨٤٩ م إلى متصرفاتها الإمبراطورية وقعت هذه الماسة فى تصرف شركة الهند الشرقية التى أهدتها إلى الملكة فيكتوريا. أما فيما يتعلق بعرش الطاووس فهناك روايات مختلفة، فيصل اللورد كرزن بعد نقل روايات مختلفة إلى هذه النتيجة وهى أنه إذا كان "نادرشاه" قد حمله إلى إيران فقد اختفى بعد قتله، أما العرش الذى يوجد الآن فى المتحف الملكى بطهران فهو تقليدى وهو شبيه بأحد من العروش الهندية الأخرى التى أحضرها نادر من الهند (يرجع إلى كتاب كرزن المعروف بـ (إيران) النص الإنجليزى لندن ١٨٩٢ م ص٣١٧-٣٢٢. (شفق)

عددًا من صناع السفن والنجَّارين بهدف بناء السفن لنقل قواته إلى التركستان فى اتجاه نهر جيحون، كما استخدم جمعًا آخر من النجَّارين والبنَّائين والمذهِّبين والحجَّارين وسائر الحرفيين بهدف بناء مدينة فى إيران على طراز المبانى فى "دهلى"، واختار عدة أفراد كبار من الهند في خدمته يمكن أن يسمى أشهرهم بـــ "علوى خان حكيم باشى"، الذى التحق بالبلاط خصيصًا لعلاج كسل استسقائى كان نادر قد ابتلى به فى الهند، وكان منهم أيضا "عبد الكريم بن عاقبت محمود كشميرى" الذى ألف بعد ذلك كتاب بيان الواقع أو "نادر نامه" أو "تاريخ نادرى".

أخذ "نادرشاه" طريقه فى "دهلى" صوب بوابة كابل، وبينما كان يمتطى صهوة جواد عراقى وقع اضطراب مع أحد المتفرجين لوصف "نادر" بأنه كان يضع قبعة حمراء على رأسه مطعمة بقبضة من الجواهر ولف القبعة بشال كشميرى أبيض، وبدا قويًا مبسوطًا فى قامته وكان قد خضب ذقنه وشاربه بلون يميل إلى السواد. وفى شارع المدينة الذى كان يسير فيه كان يرفع رأسه إلى أعلى وينظر إلى الأمام، وفى الأوقات التى كانت الناس تهلل له وتحييه كان يلقى لكل منهم بصرتين من مسكوكات الروبية(*).

وعندما وصل "نادر" إلى غابات "شليمار" بقى هناك حتى غد ذلك اليوم وعندئذ بدأ سفره الطويل.

(*) هذا الوصف يدلل على الزهو والفخار، ولعله لا يختلف عما نراه اليوم فقط قياسًا مع الفارق.

١٦

من دهلى إلى نادر آباد

ذهب "نادر" من غابات "شليمار" حتى حدود الهند وكانت قافلة عدة ومتاع "نادر"، التى تحمل الخزائن والغنائم تخلب لب الفلاحين الأشداء فكانوا يمارسون النهب خلسة إلى حد أنه ما إن وصلوا إلى موضع "تنيسر" حتى فُقدت ألف دابة حاملة للمتاع، وصار هذا الأمر مرة أخرى داعيًا لغضب "نادر" فأعطى أمرًا بالقتال.

غيَّر "نادر" خط سيره وتوجه إلى شمال حدود الهند بهدف تجنب الحرارة الشديدة وسار عن طريق "سيالكوت" و"آخنور" الواقعة على ساحل نهر "چناب"، والتحق "زكريا خان" الذى كان "نادر" قد أمره بواسطة ابنه الأكبر "حياة الله خان" أن يجمع خمسمائة ألف تومان(*) بالركب فى الطريق لأداء هذا التكليف، وانتقل "نادر من نهر "چناب" إلى نهر "جهلوم" وحطم جسرًا هناك لم تكن له طاقة فحمل العسكر الذين ضاع منهم ألفان من الأفراد فى أمواج النهر الذى كان قد فاض، فاضطر "نادر" إلى أن يعطى أوامره بأن يعبر العسكر من محل "كواؤول" على مسافة ثلاثين ميلًا أسفل "اختور" بالقوارب، واستمر هذا العمل حتى السابع من ربيع الثانى، كما أمر "نادر" أيضا أن يطلقوا سراح الأسرى وأن يعيدوهم إلى أوطانهم ورخَّص مرة ثانية لـــ "زكريا خان" أن يعود إلى لاهور. ويقال إنه حدث فى هذا الوقت أن "نادر" أرسل أمرًا إلى "محمد تقى" حاكم فارس بأن يرسل قوة عن طريق البحر إلى ناحية السند، كما سيأتى ذكره.

(*) التومان وحدة مالية إيرانية قيمتها فى السابق عشرة آلاف دينار. انظر فرهنگ عميد، مؤسسة أمير كبير، طهران، ٢٥٣١شاهنشاهى، ص٤٣١.

تقدم العسكر تحت سقوط أمطار شديدة ووصلوا عن طريق "راولبندى"(١) إلى "حسن الأبدالى" وأرسل "نادر" من هناك سفراء على مستوى مهم إلى استانبول وبطرسبورج، وفى أواخر شهر رجب وصل خبر مفاده أن "ايلبارس" يتقدم مع الأزبك إلى خراسان، فصمم "نادر" هذه المرة على أن يهاجم التركستان، وعلى رأس الطريق بجوار السند تعرض الجنود لمباغتة قبائل "اليوسفزا"(*) شديدة البأس فحاربهم "نادر" ثم توقف بعد ذلك استفادة من الوقت واستخدم بعضًا منهم، ثم عبر نهر السند ومر بـ "بيشاور" ومعبر "خيبر" وجلال آباد" ووصل إلى "كابل" وحضر جميع أمراء الأفغان لتقديم واجب الترحيب وسجل ما يزيد على أربعين ألف أفغانى من "بيشاور" و"كابل" و"هزارجت" فى صفوف عسكره كانوا قد أرسلوا إلى "هرات" حتى يكونوا هناك انتظارًا لمجيئه.

كان "نادر" قد استدعى والى السند المدعو "ميان نور محمد خدايارخان" إلى كابل فاعترض على هذا الأمر فغيّر "نادر" مساره من كابل إلى ناحية الجنوب لتأديبه، إذ كان يلتزم بشدة فى إنفاذ أوامره، وطوى طريقًا ممتدًا وتعتوره الشدائد بطول نهر السند صوب الجنوب حتى أنه وصل إلى مدينة "شهدادپور" فى الناحية الشمالية من كراتشى، ومن هناك ذهب إلى موضع يقال له "عمركت" واحتفظ بـ "خدايارخان فرارى" فى قلعتها بشرط أن يبقى هو وأبناؤه فى أمان، ورضى "نادر" على تصرفه وأعاد إليه حكومة "تته" وجزءًا من السند ومنحه لقب "شاهقلى" وقسم بقية حدود خدايار على سائر الأمراء.

ولدى إقامة "نادر" فى مدينة "لركنه" وصل رسول من طرف "محمد شاه" برسالة وهدايا، فوجد ردًا فى المقابل مقرونًا بالامتنان، كما شفع ذلك بجياد أصيلة

---

(١) هى من المدن العسكرية والزراعية والتجارية المهمة فى البنجاب والتى اختيرت أخيرًا من جانب دولة باكستان لتكون مقرًا للحكومة بدلا من كراتشى. (شفق)

(*) هى قبائل أفغانية.

مع مائتى حمل من بطيخ بلخ(*) هدية الإمبراطور. وعندئذ أرسل فرمانًا لــ "رضا قلى ميرزا" الذى كان يقيم فى ذلك الحين بطهران لكى يلتحق به فى "هرات"، واتجه هو من "لرنكه" التى تقع فى الناحية الشمالية من "شهدادپور" قريبًا من ساحل السند إلى الشمال الغربى، وعبر للمرة الثانية من طرق غير ممهدة إلى أن وصل فى السابع من صفر عام ١١٥٣هـ/ ٣ مايو ١٧٤٠م إلى "نادرآباد" فى نواحى "قندهار".

وعلى هذا النحو قضى "نادر" عامين هجريين وما يزيد فى سفره من إيران إلى الهند فاتحًا ثم عاد إلى إيران.

١٧

زحف "رضاقليخان" إلى التركستان وآخر حروب إبراهيم خان

كما ذُكر آنفًا أن "نادر" كان قد نصَّب ابنه "رضاقليخان" بعد فترة وجيزة من تتويجه حاكمًا على خراسان، كما أُمر أن ينهض وهو فى الطريق لتأديب "عليمرادخان" حاكم "اندخود" العنيد. ويقال إن "رضاقليخان" تأخر بعلة عدم استعداد قواته حتى وصل فرمان آخر يأمر بتأديب "أبو الحسن خان" حاكم "بلخ" الذى كان قد رفع علم العصيان، فتحرك "رضاقليخان" برفقة "طهماسبخان جلاير" و"باباخان جاوشلو" اللذين كانا قائدين، فأجبرا "عليمردان" على التسليم بعد ستة أسابيع من المقاومة وعُين مكانه حاكم آخر، وبعد إخضاعه ولّى وجهه شطر "بلخ". وفى الثالث من ربيع الأول عام ١١٥٣هـ/ ٢٨ مايو ١٧٤٠م وصل إلى خارجها وهزم قوة من طائفة الأزبك، ومن ناحية أخرى تعقب "شاهقلى بيك قاجار" قائد "مرو"

(*) هذا البطيخ له شهرة كبيرة فى التاريخ الإسلامى إذ كان يجفف ويُرسل هدايا إلى الخلفاء العباسيين.

جماعة أخرى من الأزبك بأمر من "رضاقليخان" وهزمهم، وتحرك "رضاقليخان" برفقة "طهماسبخان" صوب نهر جيحون وهزم رئيس عشيرة الـــ "كنگرت"(*) المعروف بـــ "دانيال بيگ" الذى كان قد رفع علم العصيان.

ورغم أن "رضاقليخان" لم يُرخِّص له من الأب فقد تقدم إلى ما وراء النهر ودلف إلى ناحية مدينة "قرشى"، حيث استعرت حرب ضارية بين الإيرانيين والأزبك انتهت بهزيمتهم، وبلا توان طلب "أبو الفيض" أمير "بخارا" المساعدة من عشائر "الهند" و"سمرقند" و"خجند" و"طشقند" وسائر النواحى ومن "ايلبارس" خان خوارزم فأقلق جمع هذه القوة "رضاقليخان" فقصد التقهقر جنوب "بلخ" ولكن "طهماسبخان" قال إنه فى هذه الحالة سيتعقبوننا ويُنزلون بنا الخسائر؛ فلم يجد الإيرانيون بدًا من الهجوم على هذه القوة العظيمة، وفى النهاية حققوا نصراً، وتحرك "رضاقليخان" من هذه المدينة بهدف تسخير "قرشى"، وفى هذه الأثناء وصلت رسالة من "نادر" كانت تقول بتأنيب "طهماسب" على زحفه إلى أنحاء ما وراء النهر وأمر أن ينسحبوا، وعلى حسب قول "ميرزامهديخان" إنه فى نفس الوقت الذى أرسل "نادر" فيه رسالة إلى "أبو الفيض" مؤداها إبقاؤه فى حكم بخارا، وصل الموفدون الحاملون لهذه الرسالة إلى "قرشى" عندما كان واليها المعروف بـــ "حكيم آقاليق" بصدد التسليم، وعندما سمع برسالة "نادر" هذه حملها على هزيمة "نادر" وضعفه وهاجم المعسكر الإيرانى إلا أن "طهماسبخان" طرد المهاجمين، ووصل العسكر إلى "بلخ" سالمين. ولمّا كان والى "قندز" قد تمرد باستثارة "سيدخان" الأزبكى تحرك "رضاقلى" و"طهماسب خان" إلى هناك وقُتل الوالى مع "سيدخان"، وفى إثر ذلك ذهب "رضا قلى" إلى "بدخشان" وعندما وصل إلى "كلات" عرف بفرمان من "نادر" مفاده أن يعود فمكث فى "بلخ" ينتظر الأمر.

(*) كانوا فرعًا من قبائل القزاق.

عندما عزم "رضاقلى" على التحرك من "مشهد" إلى "اندخود" و "بلخ" نصَّب ابن عمه "عليقلى خان" ابن "إبراهيم خان" الأكبر الذى كان فى نفس سنه حاكمًا على مشهد، وكان حياتيًّا منغمسًا فى لذاته، ولمَّا كان أكثر الأفراد قد ذهبوا فى خدمة "نادر" وابنه فلم يكن قد بقى العدد الوفير للدفاع عن خراسان. وفى هذه الأثناء زار "محمد أمين مهتر" من أمراء "ايلبارس" مشهد وعرف بأخلاق "عليقليخان" وضعف حامية خراسان، ولدى عودته إلى "خيوة" اطلع "ايلبارس" كثيرًا على الأحوال بما جعلته يعطى أوامره إلى عشائر التركمان من "القزاق" و"الآرال" و"التكه" واليموت" و"الساريق" و"الآرسريه" بأن يجمعوا العسكر. إذن اجتمعت قوة هائلة بهدف الحرب ضد "نادر" ووصل هذا الخبر إلى "عليقليخان" الذى أرسل بدوره رسالة إلى "نادر"، فاستدعى على الفور "رضاقلى خان" و"طهماسب" للتشاور، والتحق الاثنان كما سبق ذكره، بـــ "نادر" فى "بهار" السفلى وأحسن وفادة ابنه ونصَّبه بالمراسم المناسبة فى نيابة السلطنة الإيرانية، بينما وبَّخ "طهماسبخان" ثم عفا عنه. شرع "رضاقليخان" بعد الترخيص له بالمهمة التى أوكلت له فى تأديب وإنهاء فتنة "ايلبارس خان"، غير أنه عندما علم بذلك شرع فى الثورة خفية ضده، وفجأة اضطر للعودة إلى خوارزم , ومن هنا زال الخطر عن خراسان.

والآن فالوضع هو أن نوجه نظركم إلى غرب إيران وعاقبة أمر "إبراهيم خان" الذى كان طوال مدة الدولة العثمانية وروسيا وقت صراعهما قد آل على نفسه ألا يلحق خطرًا بإيران من ناحية "الجرجيين"، وتعهد بمعاقبتهم شرط ألا يتجدد القلق، فقط أوشك "اللزگيون" على أن يرثوا التوتر فى هذه الانحاء. وكما نعلم كان "عليقليخان" قد نصَّب ابن "إبراهيم" الأكبر فى ولاية مشهد وبعد فترة جاءت "كتوان" ابنة تيمور من الزعماء الجرجيين إلى مشهد وتزوجت من "عليقليخان". ويمكن القول إن عام ١١٤٩هـــ / ١٧٣٧م كان الشمال الغربى لإيران فيه مستقر من الوجهة السياسية؛ فقط سرى مرض الطاعون الذى ظهر بجوار "گنجه" إلى نقاط مهمة من "أذربيجان" ووصل إلى "تبريز" وحصد آلاف النفوس. وفى عام

١١٥٠هـ / ١٧٣٨م أصيب "إبراهيم خان" بهوس الفتوحات لدى سماعه عن انتصارات "رضاقليخان" فيما وراء النهر، وانشغل بالتجهيز من أجل التحرك إلى داغستان.

وبعد الاستعداد اللازم اتجه "إبراهيم خان" صوب "داغستان" وعبر نهر "أرس" واستدعى فى البداية رؤساء العشائر فى هذه الناحية؛ غير أن أكثرهم لم يستجيبوا لأمره؛ مما جعل "إبراهيم" يتقدم وشرع يتشاور مع قادته فى محل "كاخ". وبناء على ذلك أرسل قوة جنوب "آق برج" الذى كان الشاه "عباس" قد أقام مسكنًا فيها. وفى هذه الأثناء وصل فرمان من "نادرشاه" مؤداه أن يُمنح قادة العسكر "المروزيين"(*) إجازة ونُفذ هذا الأمر، وعلى الرغم من ذلك لم ينصرف "إبراهيم خان" عن خطته وواصل تقدمه، وحدث أول نزاعاته فى "كوهستان" مما جعل الغلبة من نصيب الإيرانيين بهمة أهل خراسان، ثم اتجه "إبراهيم" الذى انصرف بإصرار قادته عن الهجوم المباشر على جبهة العدو عن طريق "گردنه كوه" حتى يفاجئ "اللزگيين"، ولكنهم كانوا قد عرفوا بذلك وكمنوا له فى مساره وجعلوه هدفًا لتصويبهم وقتلوه، وصارت هذه الحادثة سببًا لتفسخ أمر الإيرانيين، وبعد حرب ضارية ومنازلة فرد بفرد تحت قيادة "محمد خان أفشار" الذى كان من قادة "نادر" انسحبوا إلى حدود نهر "ارس".

وقد وقعت حادثة قتل "إبراهيم خان" بقول أحد المؤرخين فى شهر شعبان ١١٥١هـ/ نوفمبر ١٧٣٨م ولكنها بحكم القرائن يجب أن تكون قبل هذا الشهر. كان "إبراهيم خان" محاربًا كبيرًا، ولكن لم يكن بطبعه ظالماً، إذ كان يتصرف مع أعوانه باللين وإن كان من باب المعلوم أنه لم يكن يسعد بقبول الهدايا والرشوة.

(*) نسبة إلى مدينة مرو فى شرق إيران.

١٨

نيابة رضا قلى ميرزا فى السلطنة

عزم "رضاقلى ميرزا" على العودة إلى مشهد بعد انصراف "ايلبارس" عن الحملة على خراسان وأطلع أباه على ما حدث.

كان هذه الأمير يبدى إشارات على عدم الطاعة بالنسبة لأوامر أبيه بعد أن تصدى لمقام نيابة السلطنة أحياناً، وفى أحيان أخرى ينبغى العلم أنه لمَّا كان يبعد عنه لفراسخ أو شهور كان الخبر يغيب خاصة أن مقتل عمه "إبراهيم خان" الذى كان مكلفًا بمراقبته بناء على أوامر من "نادر" قد زاد الطين بلة. ومن هنا نجد أن "رضاقلى" قد جمع جيشًا مجهزًا بالعدة والعتاد ومكونًا من مائة وعشرين ألف جندى فى الشهور الثلاثة الأولى من عودته إلى مشهد.

ولم يمض وقت طويل حتى التف حوله أشخاص نفعيون ومتآمرون، ووضعوه تحت نفوذهم فأغلظ فى تصرفاته رويدًا رويداً، وجعل المصلحة حجة؛ مما جلب عليه نفور الناس، ومن جهة أخرى كان يتعسف فى مصالح العامة؛ مثلًا كان يفرض ضرائب باهظة بمقتضى شهادة بعض الأجانب فى ذلك العصر.

كانت أهم حادثة فى عهد نيابة السلطنة هى قتل الشاه "طهماسب" وأسرته الذى تقع مسئوليته على عاتق "رضاقلى" مباشرة، وتوضيح ذلك أنه عندما شاع خبر فى إيران وارد من الجبهة الهندية فى عام ١١٥١هـ / ١٧٣٩م مفاده أن "نادر" قد قُتل، فإن أشخاصًا مثل "محمد حسين خان" من القاجاريين اليوخاريباشيين فى "استرآباد" قد شرعوا فى إثارة "رضاقليخان" بلا أدنى شك وحرضوه على قتل "طهماسب" الذى ربما مات لمجرد سماعه الخبر. وظهرت لـ "نادر" بوادر الفتنة وبدت إيحاءات السوء تجاه الأمير فاقد التجربة، وقُتل الشاه "طهماسب" عاثر الحظ

الذى أقام فى "سبزوار" مع ابنيه الصغيرين "عباس" و"إسماعيل" على يد "محمد حسين خان" الذى لا يعرف الرحمة بل فاقت قسوته كل حدٍّ، وقد وقعت هذه الحادثة فى عام ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م، وعندما وصل هذا الخبر المحزن إلى سمع أخت "طهماسب" أى "فاطمة سلطان بيگم" زوجة "رضاقلى" انتحرت من كثرة ما حلَّ بها من حزن. وفى هذا الخضم وصل خبر سلامة "نادر" وفتوحاته مما أتعب خاطر "رضاقلى"، الذى ربما كان يُجسِّم فى ذهنه خيال السلطنة وجعله يندم على عمله، فعزم على الرحيل إلى طهران حتى يحتفل مع العامة بمناسبة عيد النوروز، ولكنه أعلن بمقتضى أمر أبيه قبل انعقاد ذلك المجلس أن جميع الناس لهم أن يُحضروا المسكوكات الفضية الرائجة مثل "عباسى ومحمودى ونادرى"(*) ويسلموها، وفى المقابل يحصلون على الروبيات النادرية التى ضربت فى الهند.

وبرزت شائعات فى باب الاجتماع النوروزى ولكن يقال إنها كانت تتعلق برأى "رضاقلى" فى بحث تقرير المحاسبات السنوية.

استدعى "نادر" "رضاقلى" مرات لكى يصل إلى خدمة أبيه فى "هرات" عام ١١٥٣هـ/١٧٤٠م، فكان يتأخر بحجة أن حفظ النظام فى طهران يستلزم وجوده؛ حتى إنه لدى تحرك "نادر" من هرات كان "رضاقلى ميرزا" يتحرك بنفس فرسانه المؤيدين فوصل إليه فى موضع قرية "قره تيه بادغيس" فى غرة ربيع الآخر ١١٥٣هـ/١٧٤٠م. وإن كان "نادر" قد استقبل "رضاقلى" بحب ظاهرى إلا أنه تغير لما كان قد وصله عن خيالات "رضاقلى" ولما رآه من تعاظم وتباه فى جنوده فأصدر أوامره على الفور بالتخلص منهم، وأبدى عدم رضاه عن قتل الشاه "طهماسب" واسترد نيابة السلطنة من "رضاقلى" وأعطاها لابنه الثانى "نصر الله" وأرسله برفقة الحريم ومعية "امامقلى" إلى مشهد واحتفظ بـ "رضاقلى"، كما سيأتى ذكره.

(*) هذه مسميات لمسكوكات ضُربت فى فترات مختلفة فى تاريخ إيران منها العملة المعروفة باسم "نادرى" نسبة إلى نادر.

وفى خلال هذه السنوات ساءت أوضاع الناس المعيشية بمقتضى أخبار الأجانب الذين كانوا فى إيران، وكانت أسباب سعادتهم فقط فى الأمر برفع الضرائب من طرف الملك التى سرعان ما استردها بكل أسف.

١٩

الحرب الأولى فى عمان والخليج الفارسى ١١٥٠-١١٥٣هـ/١٧٣٧-١٧٤٠م

كما سبقت الإشارة إلى أن الأسطول النادرى لم يستطع أن يأخذ البصرة إلا أنه استرد البحرين، أما "لطفيخان" قائد الأسطول فقد اكتسب إقدامًا وشهرة. وفى تلك الأثناء طلب الإمام "سيف" ابن سلطان عُمان المساعدة من "نادر" بعد أن تعرض لثورة من أتباعه نتيجة التجاوزات؛ فالتمس "لطفيخان" منه الأمر بأن يقدم على تنفيذ المهمة التى قبلها بهدف تأمين التوسع فى القوة البحرية. وفى عام ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م واصل أسطول إيران المكوّن من أربع سفن كبيرة وسفينتين صغيرتين وعدة قوارب صغيرة تحت قيادة "لطفيخان"، وفى مقدمته علم بمساحة بيضاء رُسم فيها سيف إيرانى بلون قرمزى فى الوسط من "بوشهر" إلى "كامرون"، ومن هناك رسا فى "خورفكان" التى تقع على بُعد أربعة وسبعين ميلًا من رأس "مسندم" وأنزل قائد الأسطول بقية القوة فى "رأس الخيمة" حيث تلاقت مع قوات إمام عمان وتقدمت وهزمت المتمردين. وبرفقة الإمام سُخرت مدن الجوف وغيرها، ومن هناك عاد إلى "رأس الخيمة" بسبب الخلاف بينه وبين الإمام، وفى عام ١١٥١هـ/١٧٣٨م انضم "تقى خان" حاكم فارس بصدور الأمر إليه مع "لطفيخان" وسخّرا قصبات "بهلا" و"نزوه" برفقة الإمام الذى كان قد تعرض مرة أخرى لمداهمة أتباعه، واتجهوا إلى "مسقط" واستولوا عليها حيث ظهر الخلاف مرة أخرى بين الإيرانيين والإمام الذى عاد وهبَّ للعمل ضدهم، وفى هذه الأثناء

شب النزاع أيضا بين "تقى خان" و"لطفيخان" ودس الأول السم للثانى بالتحايل، وبهذا النحو قُتل قبطان "نادرشاه" الخبير بينما يواصل "تقى خان" الصراع مع العرب، ولمّا عجز عن أخذ مدينة "صحار" انسحب إلى "رأس الخيمة" واضطر فى النهاية إلى التوجه نحو "كوه كيلويه" لظهور الفتنة فيها. وهنا كان عليه أن يسارع بالذهاب صوب "السند" لملاقاة "نادر" الذى أصدر الأمر إليه بذلك.

توجه "تقى خان" برّا والأسطول بجنوده بحرّا والتقيا فى ميناء اجوادر"، وتعرض "تقى خان" الذى كان قد ذهب إلى مدينة "كش" فى طريقه إلى السند إلى نهب طوائف البلوچ وسلبهم، وفوجئ بقلة الإمداد لقواته أيضًا فاضطر فى النهاية إلى أن يعود إلى "كامرون". ومرة ثانية وصل الأمر من "نادر" إليه بأن يتجه إلى "نادر آباد" فكان عليه أن يسلك الطريق، وما إن وصل حتى واجه تأنيب "نادر شاه" وعُزل لمدة عن العمل.

٢٠

الزحف صوب التركستان

كما ذُكر كان "نادرشاه" يقول لدى التحرك من "كابل" صوب "دهلى" إنه سيحمل على التركستان فى طريق عودته، ويمكن وجود علتين فى هذا الاتجاه: إحداهما تتمثل فى منع تمرد "إيلبارس خان"؛ وثانيتهما هوس الفتوحات، إلا أنه لم يكن يملك خطة كبيرة للتوسع وكان يريد بالفعل وقبل أى شيء أن ينتقم لأخيه من اللزگيين أولاً، وأن يوقف العثمانيين عند حدودهم ثانياً.

أما فيما يتصل بـ "ايلبارس" فنحن نعلم أنه قد اغتنم الفرصة عندما أقدم "نادر" على إخراج العثمانيين من "أذربيجان فى عام ١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م، وحمل على خراسان ثم جعلها عرضة لهجومه مرة أخرى لتغيب "نادر" وذهابه إلى الهند، وإن كان يلقى الهزيمة فى كل مرة إلا أن "نادر" لم يتوقف عن فكر الانتقام، وينبغى

أن يقال فى هذه الأثناء إن "أبو الفيض خان" أمير "بخارا" نفسه لم يكن بينه وبين "نادر" نزاع ودائمًا ما كان يميل إلى مسايرته ومداراته.

وكما ذكرنا وصل "نادر" فى ٥ محرم ١١٥٠هـ / الرابع من شهر مايو١٧٣٧م إلى "نادر آباد" وأصدر أوامره فى الأيام الثمانية التى أقامها هناك إلى "عبد الغنى خان" حاكم هذه الولاية بأن يهاجم "شيروان" بهدف الاقتصاص لـ "إبراهيم خان" من اللزگيين، كما أصدر فرمانًا بأن يحضر جميع حكام الولايات لملاقاته فى "هرات" وأخذ طريقه إلى التركستان، وكما سبقت الإشارة إليه آنفًا التحق "رضاقلى" أيضا بأبيه فى منطقة يقال لها "قره تپه" ووصل إلى نهر "جيحون". وفى ٢٧ جمادى الأولى من عام ١١٥٣هـ/ ١٩ أغسطس ١٧٤٠م حل جنوده بموقع "كركى" ثم إلى "چارجوى"، وعبر خمسة عشر ألفًا من أهل الجزائر نهر جيحون بواسطة القوارب وأقاموا جسورًا عائمة لعبور الباقى.

وقع "أبو الفيض" حاكم "بخارا" فى وحشة لدى سماعه خبر عبور الإيرانيين وبعث "محمد رحيم بى حكيم آتاليق" إلى "نادر" يعرض الاستسلام وقبول الطاعة، فترتب على ذلك أن بادل "نادر" "أبو الفيض" بما سبق إليه وتحرك من بخارا على هذا النحو؛ غير أن رؤساء العشائر التفوا حوله وشجعوه على حرب "نادر" فرضخ لهم وواجه "نادر" بعد أن جمع القوات ولكنه هُزم بعد معارك دامية وطلب الأمان مرة أخرى، وصفح عنه "نادر" وذهب إلى بخارا وتليت الخطبة باسمه ووقعت كل أراضى ما وراء النهر شرقا وغربًا فى قبضته، كما نكب عشيرة "يوز" التى كانت ومازالت تتمرد فى "سمرقند" عندئذ وقالوا إن "لطفيعليخان" المكلف بتأديب قبائل الـ "يوز" قد حمل شاهد مزار الأمير "تيمور" وأبواب المدرسة المغفرية فى سمرقند" إلى "مشهد" بأمر من "نادر" . وعندما كان "نادر" فى بخارا أرسل رسالة إلى "إيلبارس" فى "خوارزم" مؤداها : إذا استسلم واعتذر عن فعلته فسيصفح عنه، فغضب منها وقتل الموفد، فأمر "نادر" "طهماسب جلاير" بعد تنصيبه فى حكومة ورئاسة الولايات الهندية بأن يُخمد فتنة كانت قد نشبت فى منطقة "شكارپور" واتجه

هو صوب خوارزم بوعد المساعدة إلى "أبو الفيض" عند اللزوم، وعندما عرف أن "إيلبارس" قد أرسل قوة إلى چارجوى لتخريب القلاع والتحصينات والجسور أسرع وتقدم وعبر نهر جيحون واستعد للحرب، وحمل على الخوارزميين بمجرد وصولهم إليها واضطرهم إلى الفرار، ورخص لــ "رضاقلى ميرزا" فى نفس المكان بأن يذهب إلى "مشهد" وصفح عن "تقى خان" الشيرازى الذى كان قد أغضب "نادر" فحصل التقرب بالتدريج مرة أخرى، ولمًا لم يكن من مسلك مع "رضاقلى ميرزا" فليس بعيدًا أن يكون قد أوحى إلى "نادر" فى سبيل إزاحة هذا الأمير.

ذهب "نادر" من "جارجوى" متوجهًا إلى "دوه بويون" وحاصرها بالإضافة إلى "هزارالب".

أخبروا "نادر" أن خزائن وأسرة "إيلبارس" فى منطقة "خنكه" فاتجه إلى هذا المكان لإجباره على المجيء إلى الميدان فأضحى "إيلبارس" فى خطر عندما رأى أسرته وثروته فشرع يحارب، ولكنه هُزم واستسلم وصار محلًا لصفح ومحبة "نادر" ولكنهم عندما سفكوا دم أسر الموفدين أمر "نادر" بقتل "إيلبارس" مضطراً، ثم تحرك "نادر" من "خنكه" إلى "خيوه" التى تقع على مسافة عشرين ميلًا منها حيث حارب "أبو الخير خان" رئيس قوات "القزاق" وهزمه فأبدى أهل "خيوه" تحت قيادة "عبد الرحمن بيك" شجاعة فى المقاومة ولكنهم استسلموا فى النهاية وخضعوا، وعرف "نادر" بأن عشرة آلاف أسير إيرانى فى خراسان فى هذه الأنحاء فحررهم جميعًا من الأسر وأقام مخيمات لإقامتهم على مسافة خمسة عشر ميلًا جنوب "ابيورد" باسم "جشمه خلنجان" التى عرفت بعد ذلك بــ "خيوك آباد"، وأصدر أوامره فى هذه المدينة أن يحضر جميع الوافدين المقيمين وشملهم جميعًا – من روس وإنجليز – بعطفه وقدم التسهيلات المختلفة فى شأنهم.

بقى "نادر" خمسة عشر يومًا فى "خيوه" ونصب "طاهر بيك نامى" الذى كان يتصل فى النسب بــ "چنگيز" على حكومة "خوارزم" فأثار معارضة بعض من

رؤساء "الأزبك" بسبب هذا الأمر، وتحرك بعد تعيين قوة مختصرة لخدمة "طاهر بيك" ووصل إلى "چارجوى" فى الرابع من شوال ١١٥٣ هـ/ ٢٢ ديسمبر ١٧٤٠ واتجه إلى مرو عن طريق الصحراء حيث استحدث بعض المشروعات هناك لتأمين الماء لسد حاجة المدينة، وعزل واليها "محمد رضاخان" ونصب مكانه "شاهقليخان قاجار" وقتل بعض الذين كان يعدُّهم مجرمين، وكان من ضمنهم "رحيم سلطان" الذى يقال عنه إنه كان يشجع "رضاقلى ميرزا" على تولى السلطنة.

وفى ١٦ شوال من عام ١١٥٣/ ٤ يناير ١٧٤١م تحرك من مرو ووصل إلى مسقط رأسه "دستكرد" حيث أقام هناك "مولود خانه" وذهب إلى "كلات" واحتفظ فيها بالخزائن والغنائم وبنى لنفسه مقبرة من المرمر الأسود وأقدم على إحكام تعمير "كلات" نفسها وتأمين حاجتها من الماء، ثم ذهب إلى "خبوك آباد" ومنها إلى "ابيورد" ومنها إلى "مشهد" وكان ذلك فى شهر شوال ١١٥٣هـ/ ديسمبر ١٧٤٠م.

٢١
حـــرب داغستـــان

بقى "نادر" مدة شهرين فى مشهد التى كان قد اتخذها عاصمة له إلى حد أنهم ظنوا أنه كان بها عندئذ ستون ألف أسرة، وما بين مائتى ألف إلى ثلاثمائة ألف نسمة. يصف "جورج تومسون" الذى شاهد مشهد عام ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م هذا المكان بما يلى: «فى وقت السلام هى مركز تجارى كبير تنتقل إليها ذهابًا وإيابًا قوافل بلخ وبخارا وبدخشان وقندهار والهند وسائر الجهات. وقد ساهمت فى توسيع الأسواق وتحسينها وملئها بالبضائع، ولكونها مقرًّا لتردد الشعوب والأقوام المختلفة؛ فقد اشتملت على تسعين وكالة. كل ذلك جعلها تموج بالعمران. فكان أن انتقل عدد

كبير إلى حكم "نادر شاه" من أنحاء إيران والممالك المفتوحة إلى هذه المدينة واتخذت جميع الوسائل فى عمرانها».

أقدم "نادر شاه" فى هذه الأثناء على تزيين ضريح الإمام الرضا ﷺ وكان من جملة الهدايا التى قدمها عدد من السجاجيد الحريرية وأربعة عشر قنديلًا ذهبيًا تامة العيار، ونحت فى وسط الصحن حوضًا من حجر مرمرى ارتفاعه ثلاثة أقدام ومحيطه ثمانية عشر قدماً، وعلى الرغم من أنه كان قد بنى لنفسه ضريحًا فى "كلات" فإنه أمر بأن يقيموا له واحدًا فى عرض الشارع المقابل(*). وفى هذه الأثناء وصل إلى مشهد شاهد قبر "تيمور" مع أبواب المدرسة إلا أن "نادر" أعادهما إلى سمرقند بعد إعمال فكر.

راجع "نادر" فى هذه المدة حسابات خراسان كما هو معتاد، وعاقب عددًا من المسئولين، وعندئذ انبعث فيه حس الانتقام لدم أخيه "إبراهيم" فترك حكم "مشهد" فى عهدة "نصر الله ميرزا" وتحرك فى ذى الحجة ١١٥٤هـ/ فبراير ١٧٤٢م برفقة "رضاقلى ميرزا" وابنه الثالث "امامقلى ميرزا" من مشهد، وأقام عيدًا للنوروز فى "خبوشان" ووصل إلى وادى "جرجان" عن طريق "سملقان" و"كرايلى" بينما المطر ينهمر فى وادى جرجان. وفى هذا الوقت فاض نهرها فجأة وأغرق الخيام والأموال وعدة آلاف من الجنود، ولم يُلق "نادر" بالًا إلى ما نصح به ملازموه بحمل الخيمة الملكية إلى المرتفعات، ونظر بهدوء فى الفضاء المحيط بالعرش إلى النهر الذى كان فيضانه يطغى لحظة بعد لحظة وناجى ربه أن يتوقف الفيضان الذى يتزايد. ووصل "استرآباد" وواصل مسيره من "أشرف" و"سارى" و"على آباد" و"زيرآب" إلى مرتفعات "جدوك". وبينما كان يعبر فى ٢٨ صفر ١١٥٤هـ / ١٣ مايو ١٧٤١م غابات "سوادكوه" الكثيفة بصحبة حريمه وأمراء سلاحه ومن خلفهم جنوده رماه شخص بسهم فجأة كان قد كمن خلف شجرة، جرح منه إصبع الإبهام

(*) يقصد الشارع المقابل لضريح الإمام.

ونفذ إلى رقبة جواده كما طرح "نادر" وجواده أرضًا. وقد ذكروا أنه تدحرج على الأرض بلا مبالاة حتى يظن قاتله أنه قد قُتل وأنه لم ينج من إصابته بالسهم، وفتش معاونو "نادر" و"رضاقلى ميرزا" بعد الاطمئنان على سلامته حولهم ولكنهم لم يجدوا الفاعل.

ولو أصاب هذا السهم هدفه ربما كان ذلك فى صالح "نادر" وفى صلاح إيران، لأنه كان قد وصل فى ذلك الزمان إلى أوج الشهرة؛ إذ حرر وطنه من رعب الأفغان وأوقف العثمانيين عند حدودهم، ودفع الروس إلى أن يردوا الأراضى الإيرانية، وأخضع البختياريين والأبداليين والغلچائيين وفتح الهند وسخّر التركستان، وأخذ جزءًا من الجزيرة العربية، وأوجد أسطولاً فى الخليج الفارسى الذى كان يبدو بالتدريج أكبر قوة بحرية هناك مع تصاعد الأحداث.

غير أن طالع "نادر" بدأ ينحو نحو الأفول شيئًا فشيئاً؛ بل صار وجوده فى بقية سنوات حكمه باعثًا على حوادث قلقة. عاد "نادر" من "جدوك" إلى طهران واستقبل "كالوشكين" ممثل روسيا الذى كان قد جاء لتحكيم مبانى الصداقة، وقد شكا الأخير فى تقريره إلى "بطرزبورج" من تعالى "نادر" وعدم اكتراثه فكتب يذكر: «تبين لهذا المحظوظ الناشئ الجنون نتيجة للفتوحات فـ "نادر" يقول: "لم أستشعر إشكالًا لفتح الهند، فإذا خطوت خطوة سخرت الهند وباثنتين سخرت الكرة الأرضية"». كذلك استنتج "كالوشكين" أن "نادر" كان يسىء الظن بالدولة العثمانية كما لم يتيقن أيضًا من صداقته فى حق روسيا.

وبعد إقامة مؤقتة ذهب إلى قزوين ولكنه لم يأخذ فى رفقته "رضاقلى ميرزا" أو كما يقول تاريخ "نادر" «ربما تركه لهدف جمع الضرائب فى ولاية طهران» وليس بعيدًا أن سوء ظن "نادر" فى ترصد ابنه لمحاولة اغتياله كان قد أدخل "رضاقلى" فى دائرة المغضوب عليهم.

في قزوين وصل "جيواسيلاخور" من رؤساء جرجستان برفقة آخر وشكا من لجاجة اللزگيين، فأرسل "نادر" قوة لإخضاعهم. وفى هذه الأثناء حصَّل طبيبه الخاص علويخان" بموجب الوعد الذى كان قد أخذه فى الهند على إجازة ليذهب إلى مكة وأخذ "عبد الكريم كشميرى" مؤلف كتاب "بيان الواقع" أو "كتاب نادر" والذى كان من مواطنى "علويخان" أيضًا إجازة وذهبا معاً. وزاد سفر "طبيبيّ" الذى كان مؤثرًا فى اعتدال حال "نادر" وسلامته من اضطرابه إلى حد أنه كان يصير فى بعض الأوقات متوترًا أو غاضبًا على نحو شديد. اتجه "نادر" بعد إقامة استمرت أسبوعين فى قزوين إلى داغستان وشرع فى إخضاع اللزگيين ووصل فى غرة جمادى الأولى إلى "غازى قموق" عاصمتها وانصرف عن تسخير الأنحاء جميعًا لحلول فصل الشتاء ووعورة الصحروات ومقاومة العشائر، وولّى وجهه شطر خط بحر الخزر الساحلى وبمشاهدته لتمرد واقتتال عشائر الـ "قرة قيطاق" شرع فى تأديبهم وعاد فى الخامس من شعبان إلى "دربند" وبدأ فى العودة فى العاشر من رمضان ويقال إنه كثيرًا ما كان يرغب فى ألا يترك اللزگيين على حالهم. وبقى طوال الشتاء فى "دربند" ولكن مشكلة توفير الإمدادات للجيش فى هذه النواحى المكتظة بالغابات والصحروات وانحصار طريق الحمل والنقل فى طريق البحر دفع "نادر" إلى فكرة استحداث أسطول إيرانى فى بحر الخزر حتى أنهم قالوا إنه أوصى بصنع سفن فى الهند وطلب عن طريق "كالوشكين" من ملكة روسيا الجديدة "إليزابيث يتروفا" ابنة بطرس الكبير عدة سفن فمنعت ممثلها لشيء خفى عندها.

أقام "نادر" حفل عيد النوروز عام ١١٥٤هـ /١٧٤١م فى نفس المعسكر وعلى حسب قول "ميرزامهديخان" كان على وشك أن يعتزل عن السلطنة لصالح واحد من أولاده ويقضى بقية عمره فى "كلات" فقط.

كان "نادر" يريد أن يُقر الأمر مع العثمانيين أولًا فى عام ١١٥٥ هـ /١٧٤٢م، فأجرى عمليات ضد عشائر داغستان خصوصًا فى طبرستان وإن لم تنته بتوفيق. ولكنه نجح بعد عدة حروب فى أن يلحق الخسائر والمشاكل بهم وأوشك على أن ينفذ خطته السابقة المبنية على فتح كل داغستان وأن يهاجم الناحية الشمالية، أى أوربا.

كانت الحروب والمعارك العديدة والمزعجة مع العشائر المتوحشة والصعوبات والخسائر الكثيرة مع قلة الإمدادات وغير ذلك، قد أقلقت "نادر" إلى حد ما، فقد عرفوا معسكره في مناطق العشائر المحيطة بـــ "قرة قيطاق" و"إيران الخراب". عاد "نادر" في عام ١١٥٥هـــ / ١٧٤٢م عن طريق الحدود مع "أوربا" إلى مكان معسكر "إيران الخراب" حيث حدثت هناك واحدة من الفجائع، وهى سمل عينى ابنه "رضاقلى" بتهمة السعى فى قتل أبيه.

وفيما يتصل باتهام "رضاقلى ميرزا" من عدمه فإن روايات المؤرخين مختلفة ولكن ما يؤخذ من أخبار الثقات هو أنه بعد إجراء البحث الزائد لمعرفة الفاعل الحقيقى لحادثة الاغتيال فقد أسروا شخصًا في مكان يقال له "أوبه" فى النهاية على مقربة من هرات باسم "نيكقدم" وأرسلوه إلى المعسكر النادرى فى داغستان. وكان يعمل فى خدمة "دلاورخان نايمنى". ولدى حضوره أمام "نادر" شرع فى التحقيق بشخصه، وحسب رواية "محمد كاظم" فى كتاب "نادرنامه" عرَّف في هذا الاستجواب "رضاقلى ميرزا" على أنه المحرك الأصلى. ومما لا شك فيه أن أعداء هذا الأمير كانوا قد عكروا ذهن "نادر" بسوء نية ابنه.

ولكن عندما لا تنطبق تفاصيل رواية "محمد كاظم" ولا يكون حاضرًا بنفسه عند الاستجواب لأنه كان قد سافر إلى التركستان، فإنه على فرض قوله إنه نطق يقينًا، فإن "ميرزا مهديخان" مؤلف "تاريخ نادرى" قد أورد فى سرد وقائع السنوات بين عامى ١١٥٢ إلى ١١٥٥هـــ/ ١٧٣٩-١٧٤٢م كلامًا عن هذه الفاجعة المذكورة. وفقط يقول فى ملحق الكتاب إن ذهن الشاه كان قد تكدر لوساوس وأوهام المفسدين. وفى موضع آخر فى هذا الكتاب دعا المحرك على الاغتيال بأنه "سيد ميرزا" ابن "دلاورخان نايمنى"، ولكن بمقتضى شهادة أجنبيين معاصرين لـــ "نادر" أى "بازن" و"لرش"، فإن الأمير لم يرتكب ذنباً. وفى النهاية شخَّص "نادر" "رضاقلى" على أنه المذنب وأحضره من طهران إلى داغستان، ولم يفلح دفاعه فى شئ وأمر فسملوا عينيه ؛غير أنه صار مهمومًا إلى حد بعيد من هذا العمل، فقضى أيامًا ثلاثة لم يخرج من خيمته.

ويقول "مالكلم" فى تاريخه إنه بعد وقوع الفاجعة قال لابنه أن هذا العقاب نتيجة لذنبه، فأجاب: "أنت لم تسمل عينى بل سملت عين إيران" . انتقل "رضاقلى" بعد التعافى إلى مشهد بناء على طلبه وولّى "نادر" وجهه صوب الشمال حتى يسترد موقع "قزيلبار" الذى كان يعدّه جزءًا من أرض إيران ويقال إنه فكر فى أن يتقدم إلى شبه جزيرة "كريمه"، وقد جعل هذا الإقدام منه وقوع الحرب بينه وبين روسيا أمرًا محتملاً، غير أن وصول أخبار تتصل بتمركز القوات العثمانية فى حدود إيران ومجيء السفير العثمانى عام ١١٥٥هـ /١٧٤٢م وإبلاغه رد الدولة العثمانية المبنى على عدم قبول الاقتراح باستحداث ركن فى مكة باسم ركن "المذهب الجعفرى"، صرف "نادر" عن الهجوم على روسيا وسلك فى الخامس عشر من ذى الحجة عام ١١٥٥هـ/١٧٤٢م طريق الجنوب وعهد بحكومة "دربند" إلى "عبد الغنى الأبدالى"(*). وكانت الغنيمة التى اغتنمها من تحركه هو فتح الجزء الأدنى من داغستان الذى تم مقابل أموال كثيرة وتضحيات بالغة، بينما لم يستطع أن يخضع الجزء الشمالى منها نتيجة للمقاومة الشجاعة من جانب العشائر الجبلية. وفى أثناء العودة من دربند حتى نهر "كورا"(١) التى طالت أربعين يومًا حلت خسائر كبيرة بجنود "نادر". وفى هذه الأثناء حدثت وقائع فى التركستان أيضًا، فقد حاصر "نورعليخان نامى طاهر بيك" واليها فى "خيوه" الذى استسلم بعد مواجهة ضارية ومعونة ناقصة من "نصر الملك ميرزا" الذى كان مقيمًا فى مشهد وقتلوه انتقامًا من دم "ايلبارس" وأعلن "نورعليخان" نفسه حاكمًا على خوارزم.

وبهذه الحادثة واجه "نادرشاه" فشلاً فى أقصى الشمال الغربى والشمال الشرقى.

(*) لم تمنع حرب نادر ضد الأفغان على مختلف قبائلهم من الاستعانة ببعضهم فى بعض المناصب الرئيسية.

(١) هذا النهر يكتب هكذا Kura.

٢٢

عمليات فى الخليج الفارسى والزحف الثانى إلى عمان

١١٥٣ـ ١١٦٠هـ/ ١٧٤٠ـ١٧٤٧م

سبقت الإشارة إلى أن عمليات الأسطول الإيرانى فى الخليج الفارسى قد توقفت فى عام ١١٥٣هـ /١٧٤٠م وبعد زحف "مكران" الفاشل كان قد رسا على مسافة من گامرون، ولكن لم تمض عدة أشهر حتى تمرد الملاحون العرب بسبب عدم الرضا عن المؤنة والرواتب فى "تفت"، وقتلوا قائد الأسطول أمير عليخان ونقلوا الأسطول إلى ناحية "خورفكان"، وبعد أيام وصل قائد جديد له يُدعى "محمود تقى خان" إلى "گامرون" وهاجم العرب مستفيدًا من سفينتين هولنديتين وحاربهم ولكنه لم يحصل على نتيجة، وشرع العرب فى القرب من الخليج الفارسى واهتموا بتسخير قلاع البحرين. وعندما سمع "نادر" هذه الأخبار أمر بتدعيم القوة الإيرانية وأوصى بصناعة سفن فى الهند. وفى صيف ١١٥٤ هـ/١٧٤١م قرر أن تصنع إيران نفسها السفن فى "بوشير"(*) وكان هدف "نادر" – مضطرًا – هو الاستغناء عن السفن الأجنبية وتأمين استقلاليته، غير أنه واجه بعض المشاكل، كان من ضمنها تجهيز الألواح الخشبية والصعوبة غير المتوقعة فى نقلها على أكتاف القرويين مدة تقارب ستين يومًا من مازندران حتى الجنوب. وفى النهاية بدأ العمل فى عمارة سفينة بأمر من "نادر" فى بوشير وبنى مصنعًا لصهر الحديد من أجل تصنيع المدافع وبهدف تجهيز ثلاثمائة عرادة. وفى هذه الأثناء أى عام ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م استولى القائد "اماموردیخان" بعد توقيف قائد البحر "تقيخان" نتيجة الاختلاف على عدد من السفن الهولندية، وحمل على العرب المتمردين وأغرق

(*) القصد هو بوشهر الحالية. وهى محط التعاون بين إيران وروسيا فى المجال النووى.

سفينة تابعة لهم بمن فيها غير أن الإيرانيين حلت بهم الخسائر أيضاً، ولمّا لم يكن لديه الخبرة فى الأمور الفنية انفجر مدفع بسبب حشو دانة بالبارود أكثر من المعدل المطلوب، وقُتل جمع من الأشخاص وجُرح "امامورِدى" نفسه جرحًا شديدًا وبينما كان يحتضر أمر أعوانه ألا يعلنوا عن موته حتى لا يتجرأ العدو.

وفى شتاء ١١٥٥هـ/١٧٤٢م وصلت سفينتان مجهزتان بأربعة عشر مدفعًا إلى "گامرون" قادمتان من الهند كما اُشتريت سفينة أخرى من شخص. وفى ذلك الحين حدث أن بلغ الأسطول الإيرانى خمس عشرة قطعة بوصول "تقى خان" شيرازى إلى "گامرون" بعد توليه النيابة للحاكم.

انبعثت حوادث عمان التى ذُكرت آنفًا من جديد وأطلت الفتنة برأسها مصحوبة بالنفاق بين العرب مرة أخرى، فوجد الإيرانيون فرصة فى التقدم بعد وصول "كلبعلى خان" الذى كان قد وصل كحاكم للمناطق الدافئة مكان "اماموردیخان" والتحق به " تقیخان" بمساعدة "سيف بن سلطان" الذى كان قد التجأ إلى إيران مرة أخرى بهدف طلب مساعدتها، وأخذوا "مسقط" و"صحار" وسائر النواحى، وقُتل سيف بن مرشد من أمراء العرب المحاربين، ومات "سيف بن سلطان"، وبذلك انقرضت سلالة "يعربه" فى عمان، وعُين "أحمد بن سعيد" واليًا على صحار لتوائمه مع "تقيخان" والى صحار.

وفى هذه الأثناء بدأت الحرب بين إيران والدولة العثمانية إذ كانت إرهاصاتها قد تهيأت منذ مدة، وعلى الرغم من ذلك لم يستدع "نادر شاه" قوته من عُمان، فقط دفع بالأسطول الموجود فى "صحار" قبالة البصرة، ولمّا كان الخلاف قد دب بين "تقيخان" و"كلبعليخان" فإن "نادر" قد أقبل على عزلهما، وأرسل "محمد حسينخان قرقلو" مكانه، وقُتل "تقيخان" بتدبير مزعوم من "كلبعلى خان" الذى تمرد ضد "نادر" كما سيأتى لاحقاً. وهذا التمرد هو الذى منع "نادر" من ناحية وبداية الحرب الإيرانية العثمانية من ناحية أخرى، من التوجه إلى عمان فاستفاد أحمد بن

سعيد من هذه الفرصة وسخَّر الخط الساحلى لمسقط وصحار وأسس سلالة حكام بوسعيد التى تحكم مسقط حتى الآن.

هذه العمليات جعلت من عُمان ثقلًا على إيران ذلك أن عشرين ألف روح راحت ضحيتها وأنزلت ضغطًا شديدًا على الموارد الإيرانية، ومع كل هذا لو أن "نادر" قد عَهِد بالقيادة لرجل لائق مثل "طهماسبخان جلاير" بدلاً من رجل فاسد لكان قد وفق حتمًا فى عملياته الضارية.

شرع نادر شاه بكل إصرار على توسعة أسطوله ولكنه عجز عن تنفيذ هدفه وصار مضطرًا ثانية إلى أن يجتاز طريقًا ذا طبيعة ثقيلة يصل من خلاله إلى "سورات" بالهند. وفى النهاية استطاع نادر شاه أن يوجد أسطولاً قويًا مكونًا من ثلاثين سفينة وعدد من القوارب فى الخليج وكان يُوسع هذا العمل. وكان مرسى هذه السفن "گامرون" و"بوشير".

لكن من الأسف أن اشتعال دائرة الحرب ضد العثمانيين ورواج النفاق وتزايد التمرد الداخلى، منع "نادر" من إتمام هذا التوسع النهائى لأسطوله. وفى النهاية قضى عليه الفيضان والتساهل والتغافل من جانب المسئولين بالتدريج حتى أن الأسطول فقد قدرته كلية فى مدى سنة أو سنتين بعد قتل هذا الملك.

إذن واجهت القوة البحرية لـــ "نادر" وسياسة تسخيرعُمان الفشل من حيث الأهمية والإقدام، وأعادت إلى الأذهان خاطر السيادة البحرية الإيرانية القديمة، وأبرزت بُعد النظر وقوة الطاقة في الإرادة عند الملك، ويجوز أن أهم علة فى ضعف السياسة البحرية كان يتمثل فى أن ملاحيها كانوا فى الأغلب من الهنود والعرب وبعض من البلوچ الذين لا يتوفر عندهم الوفاء العميق لإيران. وليس بعيدًا أن "نادر" لو كان قد أرسل إلى الخليج شخصًا لائقًا مثل "التون" الذى أشرنا إليه آنفًا والذى خدم في تأسيس أسطول بحر الخزر لكان قد وفق على نحو أفضل.

٢٣

الحرب ضد العثمانيين والزحف إلى ما بين النهرين

كانت العلاقات بين إيران والدولة العثمانية قد بدأت تستقر بدءًا من عام ١١٤٩هـ / ١٧٣٦م ، ولم تكن هناك مصالحة بين البلدين فى الحقيقة، بل توجد هدنة، ومما لا شك فيه أن السلطان العثمانى كان فى تخوف من فتوحات "نادر" وقدرته المتزايدة، وعندما وصل خبر عودته المظفرة سلك السلطان سياسة الوفاق مع روسيا والنمسا.

وفى شتاء ١١٥٤هـ / ١٧٤١م حل سفير إيران "حاجيخان چميشگزك" باستانبول واُستقبل بحفاوة بالغة وأحسن الصدر الأعظم وفادته، ولكنه لم يكن مستعدًا أن يتباحث مع شخص آخر غير السلطان نفسه، وعندما تم اللقاء طرح أفكار "نادر" المذهبية وأعطى السلطان جوابًا متوازنًا يتطابق مع أحكام الشرع، وأرسل البلاط العثمانى "منيف أفندى ونظيف مصطفى أفندى" كرسل إلى مجلس "نادر" حاملين رسالة من السلطان مفادها إبداء الأسف عن عدم قبول المطالب المذهبية الإيرانية، فأكد "نادر" على موضوع الاعتراف بالمذهب الجعفرى مرة أخرى أو صرح ضمن حديثه قائلاً: لمَّا كان الشاه هو خليفة الإسلام فسيذهب بشخصه إلى تركيا لإنهاء هذا الأمر، وأنه سيتوجه بـ "موكب الفاتح"(*)، وضمنًا لإظهار أن مطلبه مندرج تحت مطالب الناس. وشكل مجلسًا تحت رئاسة "على أكبر ملاباشى" فأشاروا إلى فتوى عام ١١٤٩هـ / ١٧٣٦م بضرورة إحداث الركن الخامس فى مكة وترك الطعن واللعن المعتاد بين الشيعة. ولكن "نادر" لم

(*) مثل هذا الاستعراض هو الذى يفقد المقاصد غايتها، ولكن يبدو أن هذا الأمر هو حال المسلمين عبر العصور.

يكن يُقدم لانشغاله بإسكات فتنة اللزگيين وحلفائهم الداغستانيين، ورغم عدم توفيقه فى داغستان فإن الدولة العثمانية انزعجت من تقرير "منيف ونظيف" حول رد "نادر" المشوب بالتهديد تزامنًا مع الأخبار التى كانت تصل من قادة الحاميات العثمانية فى الحدود تؤيد صحة التقرير المذكور، وتقول بأن الاستعداد للحرب قد بدأ. ولمّا كان العثمانيون قد وضعوا أساسًا لمعاقبة بل التشدد إزاء أتباع إيران وموظفيها بوصول الأخبار حول ضعف جنود "نادر" أمام الداغستانيين، كل ذلك دفع "نادر" إلى الحرب بعزم لا يلين. وفى ١١٥٦هـ/١٧٤٣م جاء سفير آخر من طرف السلطان إلى "نادر" وتحدث مرة أخرى فى أن المذهب الجعفرى يتعذر الاعتراف به؛ فأجاب "نادر" بقوله: إنى سأتوجه عن قريب بـ "موكب الفاتح" صوب الدولة العثمانية. وعندئذ بدأ بزحف كبير صوب صحراء "مغان" وهناك منح الجنود والدواب راحة لعشرين يومًا ثم تحرك الجيش ناحية الجنوب فوصل فى ٢٤ ربيع الثانى ١١٥٦ هـ/ ١٦ يونية ١٧٤٣م إلى "مريوان"، حيث التحق به الأمراء "نصر الله" و"شاهرخ" و"إمامقلى" كما وصلته فى هذا المكان هدايا.

ومن ثم دلف "نادر" إلى "سنندج" حيث وصله رد "أحمد" باشا والى بغداد على ما كان "نادر" قد طلبه منه حول تسليم بغداد وقت العودة من داغستان بأنه يطلب التمهل من أجل هذا العمل فأرسل "نادر" قواته من أجل تسخير "سامراء" والنجف وكربلاء وسائر بلاد مابين النهرين، وأصدر أوامره بمحاصرة البصرة من هذه الأنحاء، وأرسل فى أواخر الربيع "نصر الله ميرزا" وسائر الأمراء إلى همدان وبادل "محمد شاه" بهدايا وأمر أن يُهيئوا المؤنة ذخيرة للشتاء إذ قصد الإقامة قريبًا من بغداد على أن يُخزّنوها فى مدينة "زور"، فهرب "خالد باشا" حاكمها لدى سماعه خبر "نادر" كما تقدمت قوات "نادر" فى نفس الوقت حتى وصل فى ١٤ جمادى الثانية إلى "كركوك" وخرب قلعتها التى كان يدافع عنها المتحصنون، وانتظر فى هذا المكان عسى أن يجيب السلطان جوابًا مساعدًا، إلا أن شيخ الإسلام العثمانى عرّف الإيرانيين على أنهم يخالفون الدين، وأباح دمهم، وأمر السلطان "حاج حسين

باشا" والى الموصل بالدفاع عنها، فما كان من "نادر" إزاء هذا الخبر إلا أن أمر بالتحرك صوب الموصل حيث قامت قواته بالهجوم والتخريب، وكان من جملة ما خرّب مكان يقال له "كرمليس" أو يعرف باسم آخر "كوگمبلا"[1] وفيه هزم "داريوش الثالث" عام ٣٣١ ق م من الإسكندر وازداد الأخير زهوا، وواصلت القوات النادرية تقدمها. وفى هذا المكان عرض العامة موضع "التون كوبرو" على "نادر" بعد إخضاعه ذلك أن طائفة توجد فى هذه الناحية من عبدة الشيطان قصدهم "اليزيديون"؛ فأمر "نادر" حفيده "عليقليخان ميرزا" بتشتيت تلك الطائفة بعد مقاومة شديدة، فقط استطاع والى الموصل أن يرفع البناء بالمقاومة ودفع بفيلق لقتال مقدمة جيش إيران ولكنه هُزم.

وفى ٢٥ رجب ١١٥٦هـ/١٥ أغسطس ١٧٤٣م توقفت جنود "نادر" فى موضع "باريمجه" بجوار ضريح نبى الله يونس، وأقاموا بأمر من "نادر" جسورًا أعلى وأسفل الموصل على نهر دجلة وبذلك دخلت فى الحصار. فأوجدت هذه الأخبار انزعاجًا زائدًا فى استانبول، ونفذ الإيرانيون بمدفعيتهم القوية إلى عدة أماكن من المدينة التى كانت تدافع عن نفسها بقوة، وكان لمشاركة المسيحيين تأثير فى هذا العمل أيضًا ولكنهم لم يتمكنوا من الاستحواذ عليها.

وفى هذا الموقف وصل إلى سمع "نادر" أخبار مؤداها تمرد جديد من عشائر اللزگيين من ناحية، وثورة مدّع يدعى "صفى ميرزا" كان قد تحرك من فارس إلى حدود إيران، كما راج أن "منگوقا آن" بصدد الحرب ضد "نادر". فتسبب هذا الوضع فى أن يدخل "نادر" مع "حسن باشا" فى صلح وقبل السلطان الصلح بشرط انسحاب "نادر" من الديار العثمانية. وعاد "نادر" فى رمضان إلى "كركوك" وقره تپه" واستقر الجزء الأكبر من القوة هناك، وأسرع مع عدد قليل لزيارة العتبات المقدسة، وفى زيارته لكربلاء أهدى زوجته "رضيه بيگم" عشرين ألف وحدة نقد

---

(١) گمبلا باللغة الآرامية هو نفس الاسم الذى يقال للجمل فى العربية، ومعنى جوجمبلا رقبة الجمل. ولذلك يقولون له فى التركية "دوه بويونى".

نادرية لتعمير المسجد الجامع الذى يقع خلف الضريح المبارك[1]. ومن هناك رحل عن طريق الحله إلى النجف الأشرف حيث جمَّع مجلسًا مكونًا من علماء إيران وأفغانستان وبلخ وبخارا وبين النهرين وشرع فى التشاور عن المسائل المذهبية كسبًا لوجهات نظرهم وأمر بالمناسبة أن يُذهِّبوا القبة الشريفة.

وقد جاء تفصيل المفاوضات الدينية فى النجف بهدف رفع الشبهة والنزاع بين الأمة فى أثناء العصر النادرى. والخلاصة أن يحصل الاتحاد بين العلماء فيما يتعلق بقبول المذهب الجعفرى وضرورة الإقلاع[2] عن لعن وسب الخلفاء، وفى هذه الأثناء تبرعت "جوهرشاد بيگم" والدة "نصر الله ميرزا" و"إمامقلى ميرز" بمائة ألف وحدة نقد نادرية لكى ينفقوها على ترميم جدار الصحن المقدس وتزيينه.

وخلال هذه الأحوال انتهت محادثات الصلح بين "نادر شاه" و"أحمد باشا"، ويقال إن اقتراح "نادر" بالاعتراف بالمذهب الجعفرى قد قُبل، وعلى حسب رواية تاريخ نادرى استعدت إيران أيضًا لأن تخلى مدنًا مثل كركوك واردبيل وقورنه كما سيأتى ذكر القصة فى إعداد هذه الاتفاقية لاحقاً.

أمر "نادر" بعد الاتفاقية المذكورة برفع الحصار عن البصرة وصمم أن يتوقف فى موضع يقال له "شهربان" حتى يصل جواب استانبول بالقبول، غير أن أخبارًا تتعلق بظهور فتن وتمردات فى نقاط إيران المختلفة أقلقته فاضطر إلى ترك "شهربان" إلى "ماهيدشت" ومنها إلى "كرمانشاه".

---

(١) إشارة إلى ضريح الإمام الثامن المبارك . (شفق)

(٢) مرجع آخر يرجع إليه المؤلف (كتاب الحجج القاطعة لاتفاق الفرق الإسلامية)، تأليف عبد الله بن حسين السويدى الذى طبع فى القاهرة عام ١٣٢٤ هـ. (شفق)

٢٤

الثورة فى إيران ١١٥٦ – ١١٥٧هـ / ١٧٤٣ – ١٧٤٤م

كان من أخطاء "نادر" الكبيرة هو أنه بدلًا من أن يستفيد من خزائن "كلات" بهدف تجهيز الزحف ضد اللزگيين والعثمانيين، نراه وقد استرد عفوه الضريبى لثلاث سنوات وأوجد أعباء جديدة على كاهل الناس وأموالهم. وكان الناس ينجزون هذه التضحيات إلى وقت كان يُخلص فيه الوطن من الأجانب بكل ترحيب، ولكنهم ضاقوا ذرعًا عندما عرفوا أن حروبه باتت تزداد رغبة فى طلب الجاه والتوسع. إذن لا غرابة فى أن يقوى الضجر فى النفوس. وفى النهاية انتهى الأمر إلى نهضات وثورات فى عام ١١٥٦ هـ/١٧٤٣م فى أنحاء الوطن؛ اشتعل أولها فى "طبرستان" و"دربند". ولم يمض طويل وقت عنها إلا وكان قد رفع من يدعى "سام ميرزا" علم التمرد فى أذربيجان، غير أنه هُزم وفر إلى داغستان، بينما كان عدم الرضا ينتشر فى الشمال الغربى ضد جباة الضرائب ومحصليها.

أثار "سام ميرزا" فى "تيرساران" و"دربند" استفادة من هذه الفرصة وقتل بالتعاون مع جمع من الرؤساء المحليين "حيدرخان" حاكم "شيروان" واستولوا على "آق سو" مقر الحكومة هناك فاتسع التمرد مع هذه الحوادث وأمر "نادر" "آشورخان أفشار" قائد القوات فى أذربيجان وحكام "اروميه وكنجه" وابنه "نصر الله ميرزا" أن ينهضوا ضد المتمردين فأنزلت هذه القوة الهائلة فى ١٤ ذى القعدة١١٥٦هـ/ ٣٠ ديسمبر ١٧٤٣م هزيمة قاسية بالمتمردين فى منطقة ياغشاه على مقربة من "شماخى" فى القفقاز، فهرب "محمد خان" الجريح إلى داغستان و"سام ميرزا" إلى جرجستان. ومن ناحية أخرى فرّق "محمد عليخان" والى "دربند" طائفة مماثلة، وذهب "نصر الله ميرزا" بعد هذا النصر وتعرضه لمحاولة اغتيال فى ناحية قراباغ

إلى أبيه. وفى خلال هذه الأوضاع ثار "جيواميلاخور" فى جرجستان أيضًا وجمع حوله المعترضين فى هذه الأنحاء وهدد "تفليس"، إلا أن "تايمورس" أحد قادة الجرجيين وابنه "ايزكلى" بقيا على وفائهما لـ "نادر" ونهضا لصد المتمردين. وفى هذه الأثناء كان "سام ميرزا" قد انضم إلى "جيواميلاخور" لتحقيق فائدة، وفى النهاية هُزم "جيواميلاخور" وأُسر "سام ميرزا" وهو بصدد الهروب إلى الأراضى العثمانية.

وصل "نادر" إلى بداية الطريق من "شهربان" إلى قصر شيرين وهناك وصلته أخبار تمرد فى خوارزم؛ إذ كانت عشائر الـ "يموت"(*) فى هذه الأنحاء قد ثارت ضد "أبو الغازى" ابن "إيلبارس" ووزيره "ايرتاق ايناق" اللذين كانا من متعهدى "نادرشاه"، ولكن لمَّا لم توفق عشائر "يموت" فى الحرب شرعت تمارس الفتنة وأثارت "أبو الغازى" ضد وزيره فأمر بقتله، والنتيجة أن توسعت دائرة التمرد، وبدأت عشائر الـ "يموت" تقتل وتغير وهاجمت مدن "خيوه" و"خنكه" و"هزار آسب" و"بنكى أوركنج" بما جعل "أبو الغازى" يطلب المساعدة من "نادر شاه" فأمر ابن أخيه "عليقليخان" بسحق المتمردين وعادت خوارزم ١١٥٨هـ/ ١٧٤٥م إلى وضعها العادى بعد مرور عام على هذه الحوادث.

كان الأسوأ من ثورة داغستان وشيروان وخوارزم فتنة "تقى خان" فى فارس، ذلك أنه عندما استدعاه "نادر" من الجنوب ووقع عليه غضبه، تصور بالغرور الذى أصابه بعد أن كان قد سيطر على مسقط أن يقيم حكمًا بمواصلة التمرد، وكان أمله أن يجد المؤيدين فى فارس.

وقد ذكرنا فى السابق مجىء "تقيخان" من مسقط إلى گامرون فى عام ١١٥٦ هـ/ ١٧٤٥م وقتله "كلبعليخان" الذى لم يرد اشتراكًا معه فى التمرد، ثم أراد بعد ذلك أن يشترك معه "رستمخان" قائد الأسطول فى قاعدة "گامرون" ولكنه

(*) هى فرع من القبائل التركمانية.

امتنع هو الآخر أيضًا، بما جعل "تقيخان" يتوجه إلى ناحية شيراز على رأس ألفين وخمسمائة جندى، فما كان من عشائر فارس إلا أن أعملوا القتل فى جباة "نادر" قدر ما استطاعوا لدى سماعهم هذا الخبر وتهيأوا للالتحاق بــ "تقيخان".

أمر "نادر" "محمد حسينخان قرقلو" بإخماد الفتنة فتحرك بقواته وتوقف فى "كازرون"، وفى هذا الوقت كان "تقيخان" قد وصل إلى شيراز وأعلن الاستقلال وتدافعت قوات أخرى إلى معسكر سردار "محمد حسينخان" من خوزستان وكرمان وخراسان بأمر "نادر"، واجتمع أربعون ألف جندى بعتادهم وأسقطوا شيراز بعد أربعة أشهر ونصف من المقاومة فى العشرين من جمادى الأولى عام ١١٥٧هـ/ ٣٠ يونية ١٧٤٤م، بما عرَّض المدينة وساكنيها إلى القتل والنهب، وأسروا "تقيخان" وعياله ونقلوهم إلى أصفهان فعُوقب عقابًا شديدًا وسملوا إحدى عينيه حتى يشاهد بعينه الأخرى ما يحل بذويه من عذاب شديد. ولما كان "نادر" قد أقسم بألا يهدروا دمه فمن عجائب ذلك الزمان أن عفو "نادر" قد وقع على هذا الشخص مرة ثانية وخلع عليه لقب "مستوفى الممالك" وحاكم كابل؛ وبذلك خلّصوا أهله وعياله من الأسر.

ولمَّا لم يكن أتباع "محمد حسينخان" قد أخذوا المؤنة الكافية فقد أرسل موظفين من شيراز إلى گامرون" لكى يجمعوا مبلغ أربعة آلاف تومان من أجل هذا الهدف، وكان أن تم القيام بهذا العمل فى شيراز وما حولها، وكان يُواجه بمقاومة من الناس، كما كان يُطلب ويُؤخذ مبالغ من الشركات الأجنبية إنجليزية كانت أو هولندية.

وفى نفس الوقت الذى ثار فيه "تقيخان" تمرد "محمد حسينخان" من القاجاريين "الأشاغاباشيين" مع عدد من القاجاريين الآخرين والتركمان فى استرآباد، فأمر "نادر" "بهبودخان" الذى كان قائدا على "اتك" بين "كلات وعشق آباد"، بإخضاع المتمردين الذين هُزموا وتفرقوا، ولكن "محمد حسينخان قاجار" الذى هرب من هذه الأحداث رفع علم التمرد ثانية من خوارزم ولكنه هُزم مرة

أخرى وسلك طريق الفرار. ومن ناحية أخرى نفذ "عليقلى خان" ابن أخى "نادر" عمليات مواجهة ضد طوائف "القراقالياق" والأزبك وهزمهم وعاد فى أواخر عام ١١٥٨ هـ/١٧٤٥م إلى مشهد.

إذن فشلت جميع العمليات ضد "نادر شاه" ويحكى القول إنه كان من أسباب هذا الفشل عدم وجود اتحاد بين المتمردين ونفور الناس من زعماء الثوار، هذا فضلاً عن الاعتماد الرئيسى من "نادر" على جنوده الأفغانيين والتراكمة الذين لا يتوافقون مع الإيرانيين. إذن فالأثر الذى كانت تحدثه هذه الثورات كان من شأنها أن تجعل "نادر" عصبى المزاج وشديد الغضب ضد شعبه(*).

٢٥

تجدد الحرب مع العثمانيين وانتهاؤها عام

١١٥٧ – ١١٥٩ هـ / ١٧٤٤ – ١٧٤٦م

كما سبقت الإشارة إليه توجه "نادر شاه" بمجرد انتشار أخبار التمردات فى نقاط البلاد المختلفة عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م من "شهربان" فى الجبهة العثمانية إلى العاصمة فى الوسط ، ومن "ماهيدشت" و"كرمانشاه" و"كنكاور" إلى "همدان". وعندئذ رفضت الدولة العثمانية للمرة الثانية اقتراح "نادر" فيما يتعلق بمذهب الشيعة، ولو لم تجعله مدعاة لبدء الحرب إلا أنها شرعت فى الاستعداد، وعُين "أحمد باشا" قائدًا للعسكر وأمر والى "قارص" خفية بأن يساند من يسمى "صفى ميرزا" مدّعى الملكية، كما أرسل أيضًا الرسائل إلى رؤساء العشائر فى هذا الصدد.

(*) هذا رأى موفق من "لاكهارت" الذى يُعد من أفضل من كتبوا عن "نادرشاه".

احتفل "نادر شاه" بعيد النوروز فى ذلك العام فى معسكر بجوار "همدان". وفى هذا الوقت حضر إلى مجلسه "جوناس هانوى" ليطلب تعويضًا عن الخسائر التى كانت قد حلت به فى تمردات "استرآباد". وها هو يكتب عن قوات ذلك الملك فيقول:

« لديه ثلاثون ألف رجل عامل وإذا حسبنا الخدمة والحراسة يكون العدد ثلاثة أضعاف، وكان قد استقرت له قوة كبيرة فى ايروان وما هو فى حدود ثلاثين ألف شخص فى "شيروان" وخمسة وعشرين ألفًا فى شيراز وقوات أخرى فى خراسان وغيرها فى سواحل نهر السند، وفى هذا الوقت قست التمردات المتعددة عليه فقام بإقدامات عدة من شأنها أن تقضى عليها جميعًا فى وقت واحد ».

توجه "نادر" من هذا المعسكر إلى "أبهر" حيث اطّلع على إجراءات باشا قارص" لصالح "صفى ميرزا" فرأى أن البلاط العثمانى لا ينتظر منه صلحًا ويعتزم الزحف، ووصله خبر فى هذه الأثناء أن "تايمورس" و"ايركلى" قد أسرا "سام ميرزا" ثم عاودته الأخبار بعد فترة أن هؤلاء بمساعدة "عليخان" والى "تفليس" قد هزموا قوة عثمانية يقودها "يوسف باشا" فى "جرجستان"، وكان هذا سببًا فى شعورنا بالامتنان إزاء حلفائه الجرجيين، ثم تحرك صوب "قارص" حيث أقام التحصينات على مقربة منها، وحاصر المدينة وأخبر باستعداده للصلح مع السلطان. وفى هذه الأثناء أرسل "محمد شاه" اقتراحًا من الهند إلى البلاط العثمانى بالتعاون ضد "نادر"، إذ لم يكن عندها ما يلفت نظر السلطان كثيراً. ذهب "نادر" بحلول الشتاء صوب "بردع" فى "القفقاز" ومن هناك قاد الجيش إلى "داغستان" لتأديب اللزگيين، وفى النهاية تمكن من هزيمتهم، وفى يوم عيد الأضحى أى العاشر من ذى الحجة ١١٥٧هـ/ ١٢ يناير ١٧٤٥م ذهب إلى "دربند" وعاد من هناك إلى بردع وعندما صار معلومًا أن فى شمال نهر "كورا" نعمًا وفيرة، تحرك صوب مدينة "شكى" ومن هناك واصل السير صوب "كوكچه" فى مصايف "ايروان" ثم قصد محاصرة "قارص" مرة ثانية.

وخلال هذا الوقت شرع "يكن باشا" القائد العثمانى الجديد الذى يُقال إنه مأمور بأن يبقى فى حالة دفاع فى الزحف؛ ذلك أنه فيما يقال كان مضطرًا لذلك من خلال قيادته لمائة ألف من الفرسان والمشاة الإنكشارية. فتحرك "نادر" بمجرد سماعه هذا الخبر وضرب معسكره فى موضع "مراد تپه" "كان يسمى سابقًا بغاورد"، ووقعت حرب ضارية بين الطرفين هُزم على إثرها العثمانيون، وفجأة حدث تمرد بين عسكرهم وتفرق عدد منهم وقتل آخر، فأبدى "نادر" الاعتدال بعد هذا الفتح المبين، وأجاز نقل الأسرى والجرحى العثمانيين إلى "قارص"، واقترح على القائد الميدانى "حاج أحمد باشا" أن يدخل فى محادثات صلح ولم يُصر فى هذا الصدد على الاعتراف بالمذهب الجعفرى ولكنه أصر على تسليم "وان" و"كردستان" العثمانية و "بغداد و "النجف" و"كربلاء" إلى إيران فقبلت الدولة العثمانية هذا الاقتراح، وعينت "على باشا حكيم أوغلو" مكان "أحمد باشا" وشرعت فى التجهيز والاستعداد. وخلال هذا الوقت وصل سفير إيران "فتحعليخان" الذى كان قد سافر قبل ذلك إلى البلاط العثمانى فى "استانبول" واستقبله السلطان، وأعرب عن امتنانه لتخلى إيران عن إصرارها فيما يتعلق بالمذهب الجعفرى، وعين "نظيف أفندى" كسفير لدى "نادر" ليقر الصلح بين البلدين على أساس اتفاق "زهاب" ١٠٤٩هـ/ ١٦٣٩م. وفى هذه الأثناء عاد "نادر" إلى "أصفهان" وانشغل بجمع الضرائب، ثم توجه فى العاشر من المحرم عام ١١٥٩هـ/١٧٤٦م إلى "خراسان" فوصل فى الشهر التالى إلى محل "حسن آباد" ناحية "مشهد" وبدأ فى فحص الحسابات ومعاقبة المتخلفين. ثم قفل عائدًا إلى "مشهد" وأقدم على تأديب بعض الأشخاص وإعدام البعض الآخر الذين كان يظن أنهم أساءوا، واحتفل بعيد النوروز فى "مشهد" وقالوا إنه منح اثنتى عشرة خلعة.

حدث فى هذا الوقت أن بدأت معالم فتنة فى "سجستان" على يد "عليخان السجستانى" كان لها نتائج وخيمة؛ إذ كان لـــ "فتحعليخان" المذكور سابق خدمات وكان محلًا لعناية "نادر"؛ ولكن لمّا عجز عن تحصيل ضرائب زائدة طلبها "نادر"

كان يعلم أنه سيكون موضعًا لغضبه وظنه السيئ. فى هذه الحالة اضطر إلى القيام بتمرده واتسعت دائرة هذا التمرد فى تلك الأنحاء، كما ظهر عصيان فى "كرمان" أيضًا ولكنه سرعان ما أُخمد لمحدوديته. ذهب "نادر شاه" إلى "ابيورد" و"درگز" وتفقد "مولود خانه" أى مسقط الرأس الذى كان قد أعطى الأمر بإحداثه فى "دستگرد" وأعرب عن رضائه لما شاهده، ثم عاد ثانية إلى مشهد غير أنه اتجه دون تباطؤ ناحية العراق للقاء السفير العثمانى. وفى مقر "كردان ساوجبلاغ" حضر "نظيف أفندى" إلى مجلس "نادر" حيث وقّع اتفاق بين الطرفين فى ١٧ شعبان ١١٥٩هـ/ ٢ سبتمبر ١٧٤٦م، أنهى حقبة من الخصام المتصل. هذا الاتفاق حسب قول "تاريخ نادرى" تضمن أساسًا وشرطًا وثلاث مواد على هذا النحو: الأساس: يراعى على شاكلة الاتفاق الذى وقع بين الجانبين فى زمان الخاقان "خالد الذكر مرادخان"، ويستقر بقانونية فيما يتعلق بالحدود والثغور وألا يحدث فيها تغيير أو خلل. الشرط: هو أن ما يبدو لائقًا فى شأن الطرفين ومقرونًا بصلاح الدولتين يُعمل به على الدوام ويكون من الأمور التى يمنع أى كدر فى العلاقات.. وبإذن الله تعالى تستقر هذه الصداقة وتكون غير قابلة للتباعد.

المادة الأولى من المواد الثلاث هى: أن الحجاج الإيرانيين الذين يقصدون بيت الله ويجيئون عن طريق العراق أو الشام، على الولاة والحكام عبر الطريق أن يصلوا بهم منزلًا بمنزل ومن واحد لآخر سالمين آمنين ... ويُعدّوا مراعاتهم أمرًا واجبًا. أما المادة الثانية: فهى من أجل تأكيد المودة؛ ففى كل ثلاث سنوات يوجد شخص من تلك الدولة فى إيران ومن إيران فى تلك الدولة، أى بالعكس وتُعطى نفقاتهما من الجانبين. وعن المادة الثالثة فتقول: إن أسرى الجانبين معروفون لا ينصرف عليهم البيع والشراء فكل من يريد أن يذهب إلى وطنه له الحق. وفى الملحق يجب على حكام الحدود أن يتجنبوا التصرفات التى تنافى الصداقة وغير ذلك، فعلى أهل إيران أن يتخلوا عن الأمور غير اللائقة التى وجدت فى زمان الصفوية وأن يراعوا أصول العقيدة فى مذهب أهل السنة، وأن يذكروا الخلفاء

الراشدين بالخير والرضا .. وفى آخر مسودة هذا القرار طبقًا لرواية "تاريخ نادرى" فإن التاريخ هو شهر المحرم ١١٦٠ هـ/ يناير ١٧٤٧م.

وبوصول أخبار الصلح إلى "استانبول" أرسلت الدولة العثمانية سفيرًا يدعى "أحمد باشا كسريه لى" بهدايا نفيسة إلى بلاط "نادر" وفى المقابل بعثت دولة إيران "مصطفى خان شاملو" برفقة "ميرزا مهديخان" مؤلف "تاريخ نادرى" إلى البلاط العثمانى.

٢٦
الفاجعة الأخيرة

على الرغم من أن "نادر شاه" لم يصل إلى هدفه الذى كان يتمثل فى فتح "بغداد" والزحف حتى سواحل "البسفور" فإن خاطره قد استراح من القلق وشرع لفترة فى التسلى والشراب، ولكن لم يمض طويل وقت إلا وكدرته أخبار التمرد فى "سجستان" و"خراسان" مرة أخرى. ومع تواتر هذه الأخبار قصد "مشهد". وفى شتاء ١١٦٠هـ/ ديسمبر ١٧٤٧م وصل إلى "أصفهان" وقضى فيها عدة أسابيع. وفى هذا الوقت كانت تبدو عليه العصبية إلى درجة غير عادية، وكان يفرض عقوبات ظالمة ويمارس سفكًا دمويًا على حسب رواية المعاصرين الأجانب مثل "هانوى" وطبيبه الخاص "بربازن". ويقال إنه منذ ذلك الوقت أرسل ابن أخيه "عليقليخان" لإخماد الفتنة فى "سجستان" ومع أن متمردًا مشهورًا أى "فتحعليخان السجستانى" كان قد هُزم وأسر على يد قوة جديدة وصلت من خراسان بعد مقاومة لعدة شهور، حدث أن متمردين سجستانيين وبلوجًا كانوا قد سلكوا طريق الفتنة، فكان أن دفع "نادر" إليهم "عليقليخان" وأصدر أوامره للجباة فى أثناء ذلك لتحصيل ضرائب جزافية فصار هذا الضغط المالى المتزايد موجبًا للتمرد فى كل أنحاء البلاد.

تحرك "نادر" فى العاشر من محرم ١١٦٠هـ/ ٢١ يناير١٧٤٧ من "أصفهان" صوب "يزد" و"كرمان" مقيمًا المنارات من الجماجم فى كل مكان يحل به. بعد ذلك أقام فى نفس الوقت مراسم عيد النوروز خارج مدينة "كرمان" والتقى فى "طبس" مع أولاده وأحفاده وكانوا جميعًا ستة عشر شخصاً، إذ استدعاهم ونظر إليهم ووضع تاجه على مفرق كل من أبنائه من باب الترحيب فامتنع الجميع لكونهم شباباً. وقد مارس صنوفًا من الظلم بإفراط حال وصوله إلى "مشهد". وفى هذا الوقت خبت طاقة "عليقليخان" الذى كان ابنًا لأخى "نادرشاه". واستحوذ "نادر" على مال أبيه وكان يطالبه بمبالغ باهظة(*)، فاضطر للثورة فى وجه "نادر"، وجمع حوله عددًا من السجستانيين والبلوچ وولى وجهه صوب "هرات" بهوس كسب تاج إيران وعرشها، وهناك انضم إليه جمع من زعماء العشائر واعتقد فيه أكراد "خبوشان" أيضا بسريان خبر تمرده فبعث "نادر" بأولاده وعياله إلى "كلات" وذهب هو إلى "خبوشان" وضرب خيامه فى موقع "فتح آباد" على بعد فرسخين منها. يقول طبيب بلاطه "بازن" شارحًا لحاله فى هذا الوقت : «كأننا به بالآفة التى كانت تكمن فى جبلته يتقصاها بالحاسة السادسة. كان فى بعض الأحيان يسرج حصانه وينظر متأهبًا فى حريمه وهدفه الفرار إلى "كلات"، وإذ بحراسه يمنعونه فجأة ويوضّحون له الأخطار التى يمكن أن تترتب على ذلك مبدين له الوفاء ويقولون إنهم سيواجهون أعداءه وأن أحدًا منهم لن يتخلى عنه فيقتنع "نادر" بكلامهم ويعود، غير أنه كان يستشعر منذ مدة أن أمورًا تُحاك ضده فيما يبدو إذ كان من أعيان بلاطه اثنان وهما "محمد قليخان" و"صالح خان"، وكان أولهما يعمل قائدًا للحرس، والثانى مسئولًا عن البلاط السلطانى، ولم يكن يخشى من الثانى بقدر ما يخشى من الأول لأنه كان رجلًا فى عمله وشجاعًا وله مع القواد علاقات حسنة، ومن هنا نظر إليه "نادر" بسوء ظن وفكر فى إبعاده، وكان فى المعسكر أربعة آلاف جندى أفغانى

(*) هذا الرأى يجانب الصواب؛ إذ إن الأخبار تذكر أن أفراد الأسرة كانوا يحترفون مهنة الرعى إلا إذا استغلوا تولى "نادر" للعرش بعد ذلك فى تحصيل الثروة.

كلهم على وفاء لـــ "نادر" لكنهم يستشعرون العداء فى حق الإيرانيين فاستدعى "نادر" أكثرهم فى ليلة الحادى عشر من جمادى الآخرة / التاسع عشر من شهر يونيو، وقال لهم: «لست راضيًا عن حراسى، وأنا أعلم مدى وفائكم وشجاعتكم ولذلك أصدر أوامرى بأن تعتقلوهم جميعًا وتضعوا السلاسل فى أيديهم وإذا قاوم أحدهم لا تبقوا عليه. إن حياتى فى خطر وللحفاظ على روحى فإنى أثق فيكم فقط».

كان قائد الأفغان "أحمد خان" الأبدالى الابن الثانى لـــ "محمد زمانخان السدوزاى" شابًا فى الثالثة والعشرين أو الخامسة والعشرين، وكان قد لفت نظر "نادر" لما له من استعداد عسكرى فقبل هو وأعوانه أمر "نادر" وذهبوا حتى يستعدوا، إلا أن جاسوسًا أخبر "محمد قليخان" و"صالح خان" بهذا الموضوع فعزم هذان الاثنان على أن يقضيا على العدو المشترك حتى لا يتأخر الوقت وجمع من هم محل ثقتهما، وتقرر من جانب "محمد قليخان"، "صالح خان"، "محمد خان قاجار ايروانى"، "موسى بيك ايرلوى أفشار"، "قوصه بيك كوندوزلوى أفشار"، افشار اروميه وسبعون شخصًا آخرون أن يقتلوا "نادر" قبل أن يقتلهم. وعندما انقضى جزء من الليل ولج المتآمرون خيمة "جوكى" ابنة "محمد حسين خان قاجار" التى كان "نادر" فى تلك الليلة مقيمًا بها، وغلبهم منه تخوف كبير على الرغم من أن أكثرهم لم يجرؤ على الدخول إلى الخيمة بمفرده. فدخل "محمد خان قاجار" و"صالح خان" وشخص آخر جرىء، وما إن انتبهت إليهم "جوكى" أيقظت "نادر" فنهض من مكانه غضبًا واستل سيفه واتجه إلى قاتله غير أن قدمه تعثرت فى حبل الخيمة وسقط، وما إن أراد النهوض إذ بـــ "صالح خان" يعاجله بضربه فقطع يده واستولى عليه الخوف، وتجمد فى مكانه، أما "محمد خان قاجار" فقد احتفظ بجرأته وفصل رأسه عن جسده. وكان هذا فى يوم الأحد ١٢ جمادى الآخرة ١١٦٠هـــ/١٧ يونية ١٧٤٧م.

وقد توقف القتلة وأعوانهم للحظات ثم أغاروا على أثاث الحريم قدر ما استطاعوا وقتلوا اثنين من الوزراء محل ثقة "نادر" وحدثت غوغاء غريبة فى المعسكر، أما "أحمد خان" الذى لم يصدق أن "نادر" قد قُتل فاتجه إلى مخدعه بقواته غير أن طريقه سُدَّ بـــ ستة آلاف قزلباشى، ورغم ذلك وصل إلى خيمة "جوكى" ولمَّا شاهد جسد "نادر" يغط فى الدماء أصابه هول كبير وعاد من حيث أتى، واتجه إلى "قندهار" وأغار على طريق الخزائن التى كانت قد حُملت من معسكر "نادر".

وفى هذا الوقت اتجه "عليقليخان" من "هرات" إلى مشهد وفكر فى أن وجود أعقاب لـــ "نادرشاه" سيكون مانعًا أمام اتساع قدرته. فيرسل قوته لتسخير "كلات"، وبعد حصار دام ستة عشر يومًا من محاصرة البختياريين نجده يدخل القلعة من سلم كان المدافعون قد غفلوا عنه فى الخارج. أما "نصر الله ميرزا" و"إمام قلى ميرزا" و"شاهرخ ميرزا" فقد امتطى كل منهم جواده وهرب، غير أن الأعداء تعقبوهم ووصلوا إليهم. وإذا كان "نصر الله ميرزا" قد أبدى مقاومة شجاعة إلا أن الثلاثة وقعوا فى الأسر فى النهاية وأُعيدوا إلى "كلات". وعندئذ أمر "عليقلى خان" أن يقتلوا "رضاقلى ميرزا" مع خمسة عشر فردًا من أعوانه وأن يحملوا "نصر الله ميرزا" و"امامقلى ميرزا" إلى "مشهد" ويقتلوهما، وأن يضعوا السم لسائر إخوتهم "جنكيز خان ثلاث سنوات ومحمد الله خان صبياً". وقد وصل "عليقليخان" إلى حد أن حقده دفعه إلى قطع نسل "نادر" فقتل نساء نادر اللائي كن حوامل واحتفظ فقط بـــ "شاهرخ" لأنه كان من نسل الصفويين من ناحية الأم، وقد قالوا إن هدفه من الاحتفاظ به كان لغرض فى نفسه إذ ربما يطالب أهل إيران يومًا ما بأن تكون الملكية فى نسب صفوى.

وبعد فاجعة قتل "نادر" نقلوا جثمانه إلى "مشهد" ودفنوه فى المقبرة التى كان قد أمر ببنائها منذ سنوات خلت فى الشارع المقابل لضريح الإمام، وبعد ذلك دُفن جثمان "رضاقلى ميرزا" أيضا بجوار أبيه. وقد أمر "محمد شاه قاجار"[*] أن ينبشوا

(*) هو الأب الروحى للدولة القاجارية التى تولت الحكم بعد "نادر" بسنوات.

رفات "نادر" و"كريم خان زند" وينقلوها إلى "طهران" ويدفونها فى حياط قصره حتى يطأها بقدمه كل يوم حسب قوله. كان هذا هو الأسلوب الذى تم به التعامل مع أحد أهم شخصيات التاريخ الإيرانى بكل الامتهان، فقد هدمت فى السنوات الأخيرة - بهمة أمير ضابط - من عشرين عامًا سبقت على إعداد هذا الكتاب، وكان رئيسًا لثقافة خراسان - المنازل والمحال التى كانت قد أحدثت فى هذا المكان، ومع أن البناء الأصلى لم يعد فى الإمكان تعميره فلا أقل من أن يُبنى ضريح بسيط هناك (*).

يجدر بنا قبل أن ننهى الكلام أن يقال حديث عن "عادلشاه" "عليقليخان" وأعقابه. كان "عادلشاه" زعيمًا فى صف المخالفين لـــ "نادر"، ولكنه كان صورة منه لأنه بعد الجلوس على العرش لم يفعل عملًا وحكم عامًا عن طريق أخيه "إبراهيم" الكفيف وعُزل، بل قُتل بواسطة أتباع حفيد "نادر" "شاهرخ". ولدى قتل "عادلشاه" لم يمض وقت طويل إلا وخُلع "شاهرخ" أيضا على يد "محمد ميرزا" الذى كان يدّعى الانتساب إلى أصل الشاه "سليمان الصفوى" وسملت عيناه. وما إن مضى شهران حتى هُزم هذا الشخص المغتصب، وجلس "شاهرخ" على العرش مرة ثانية. وفى هذا الوقت حمل "أحمد خان الأبدالى" على "خراسان" وخلع "شاهرخ" ثم إنه هو الذى عهد إليه بحكومة "خراسان" مرة أخرى. وفى أثناء هذه الأوضاع كان "كريمخان زند" يُجهز قواته فى سائر أنحاء إيران كيما يوجد فى إيران بعد كل هذه الاضطرابات والدمويات حكومة عادلة كانت هى أمل الجميع.

(*) يُقصد بهذا "محمد حسن قدوسي" مؤلف كتاب "نادر نامه" والذى يُشار إليه فى الحاشية.

٢٧

أعمال "نادر" وأخلاقه

كان "نادر" فى المرحلة الأولى من حياته رجل حرب. إذًا من الجدير أن تُذكر كلمات عدة فى هذا الباب، فمن الأخبار المتفرقة التى وصلت إلينا يتضح أن "نادر" كان بلا شك نابغة فى الحرب وأنه شب فى أسرة متواضعة(*) ولم يتعلم درساً. فقط شاهد معارك قبلية صغيرة ومع ذلك كان استعداده الحربى والفن العسكرى شيئًا فطريًّا فيه، فما إن دخل فى حروب كبيرة إذ به ينال توفيقات عظيمة حتى أوجد تحولًا عجيبًا فى مستقبل وطنه شبيهًا بالمعجزات، وليس من المبالغة أن أطلقوا عليه نابليون الشرق وشبهوه بالإسكندر وتيمور. كذلك يمكن أن يقارن بمعاصره الألمانى "جوانتر فردريك" الذى كان نظيرًا له فى الفتوحات والبذل وفن تحديث الحروب. أما فى تحقيق خطط الحرب فقد كان له التفوق على جميع الخصوم فى زمانه. وقد قالوا إنه فى كل حرب كان يتوقع أقل أخطائها. وعلى الرغم من ذلك فقد كان يُعرف فى بعض المطالب أنه لم يحسن التوقع مثلما كانت الحرب مع "طوبال عثمان باشا" التى انتهت نهاية وخيمة فلم تكن قد أعدت إعدادًا جيداً، وأيضا أنه لم يوفق فى الحروب ضد اللزگيين، كذلك مما لا شك فيه أن هذا المعنى إذا تم استقصاؤه سنجد أنه إذا كان القرار هو تسخير "داغستان" لكان يجب أن تفتح "آواريا"، إلا أن عملياته الحربية بدأت فى موسم غير مساعد ومتأخرة قليلاً، كما ظهرت - عن غير المألوف - عوائق جبلية هائلة. إن أهم أسلوب حربى تفوق فيه "نادر" هو حملته بالفرسان إذ كان يهاجم عادة من جهة غير مراقبة، وعادة ما كان يهزم خصمه؛ فالهزيمة التى أنزلها بالقوات الهندية فى

(*) هذا الوصف يتعارض مع من قالوا أن أصله كان عريقًا وأن أباه كان من الأغنياء.

مضيق "خيبر" و"وادى بازار" و"مضيق تساتسوبى" لا شك أنها كانت رائعة. ومع هذا الحال كان "نادر" يستفيد من مزايا نظام المشاة إذ كان هذا النظام بما يضم من مشاة مجهزين ومنظمين على أكمل وجه، ويقابلون ويقارنون بالإنكشارية العثمانية فى الواقع.

وكانت سرعة انتقال "نادر" فى الميدان لدى الاستعداد للحرب باعثة على الحيرة. هكذا يقول "وليام كوكيل"(١) كشاهد معاصر فى هذا الصدد: «لا يمكن التصديق بأية سرعة كان "نادر" يدرك نقائص الجانبين فإذا أخلى أحد قواده الميدان دون إدراك قدرة العدو، فإنه يحمل عليه بالمعول الذى يمسك به دائمًا فى يده ويقتله ويعين الآخر الذى يليه فى مكانه ».

وهو فى الحروب الكبيرة يهيئ قواته الاحتياطية بكل مهارة ويستفيد منها فى الموقع صحيحًا كما أنه يحمل على أضعف جزء لدى الخصم.

ولم يكن "نادر" موفقًا أيضًا شأنه شأن "هينيل ويلنكتن"(٢) فى أغلب عمليات الحصار التى قام بها مثل حصاره لـــ "بغداد"، "الموصل"، "قارص"، "البصرة"، "كركوك" و"قندهار". ويبدو أن تسخير "قندهار" قد تحقق نتيجة خيانة داخلية. وسبب هذا الفشل يرجع أولًا إلى نقص المدفعية التى كانت تتعطل من طول المسافة وعدم وجود الطريق لحمل المدفعية الثقيلة. وثانيًا أن المهندسين الإيرانيين لم تكن لديهم الخبرة بدرجة المهندسين العثمانيين. وثالثًا أن "نادر" فى عمليات الحصار كان يمكن بحكم الطبيعة التى جُبل عليها أن يستفيد من نبوغه العسكرى مثل هجومه المفاجئ والمباغت، ولا ينبغى أن يُنسى أن قلاع ذلك الزمان كانت محكمة بما لها من وسائل حربية.

---

(1) William Cockell.

(2) Hannibal, Wellington.

ومن ناحية أخرى لم تكن المدفعية النادرية نتيجة اهتمامه ومساندة الهندسة الفرنسية مؤثرة وفاعلة، إلا أن الواقع يقول إنه كان السبب فى أن جعل إيران تمتلك المدفعية المجهزة.

ولم يكن "نادر" قائدًا فحسب بل كان ذا حس إدارى يسبق زمانه، وبالتكوين الشخصى الذى فطر عليه كان يستطيع أن يحقق الفائدة من الأفراد المحيطين به إلى أقصى حد، والواقع أنه أعطى لعسكر إيران أملًا جديدًا ونفث روحًا جديدة وأوجد بالتحاق عدد كبير من الأفغان والأزبك بجيش إيران والانتظام المتشدد الذى كان معتادًا عليه واحدًا من أقوى الجيوش، ويكفى أن نفوذه بين العسكر وصل إلى حد أن نذكر أنه أوقف هجوم "دهلى" بفرمان دفعة واحدة، واستحوذ على غنائم وفيرة. كما كانت ذاكرة "نادر" العجيبة تدعو إلى الدهشة، ويشهد "كوكول" على أنه كان يتذكر جميع قواته حتى أغلب الأفراد بالاسم والرتبة.

وقد روى عدد من معاصرى "نادر" فيما يتعلق بعقيدته القوية روايات مختلفة وأنه عندما يصدر أمرًا كان يُحدث طنينًا فى أنحاء ميدان الحرب ويلقى الرعب فى قلوب الأعداء.

وإذا أردنا أن نستقصى نتائج عمليات "نادر" فلا شك أنه خلَّص إيران من براثن الأعداء وإن أنقص استبداده من قيمة هذه الخدمة، فقد أنقصت حملاته العديدة ضد الدولة العثمانية من قوتهم، وأعطى الفرصة لروسيا والنمسا لأن يكون لهما دور فى مسار الأمور فى أوربا الشرقية. وفى الشرق زلزلت حملاته إمبراطورية المغول وجعل هجوم "أحمد شاه " الدرانى فيما بعد على هذه الديار فى واقع الأمر سهلًا للسيطرة الإنجليزية.

وفى النهاية يمكن أن يقال إن "نادر" كان أهم قائد عسكرى فى زمانه وأوصل وطنه من أحط مراحل الانحطاط إلى أوج الكرامة، كما امتلك أكبر قوة عسكرية. ولكن من الأسف بدلاً من أن تؤمِّن فتوحاته رفاهية ثابتة لوطنه سرعان ما ضاعت هدرًا وصارت سببًا فى خسائر مالية فاحشة.

أ- "نادر" من حيث أسلوبه السياسى والإدارى :

كان نادر فى الأصل جنديًا، وكان يعد كل الأمور الأخرى فرعية بالنسبة للحرب، وكان يشرع فى التجهيز لحرب جديدة فى فترات السلام التى كانت بالنسبة له باعثة على الكسل، ومع كل ذلك كان يمكن أن يكون ملكًا فاعلاً، هكذا يقول "بازن" طبيبه الخاص. وعلى الرغم من أنه نشأ فى أسرة متواضعة، فإن القدر قد منحه صفات وضعته فى صف الأبطال حتى السلاطين الكبار، فظهور مثل هذا المليك على مسرح التاريخ بكل هذا النبوغ الوافر والذكاء الحاد والشجاعة النافذة أمر صعب كأن يسوق مشروعات متسعة ويختار أدواته جيدًا ويعد سبل التنفيذ قبل البدء فى العمل، وكان توجهه منعكسًا على جميع الأنحاء، ولم يكن شيء يخفى عليه أو ينسى شيئًا ما، ولم يكن يتعب من عمل أو يخشى من خطر، ودائمًا ما كان ينظر فى خططه إلى العوائق والمشاكل.

وإذا كان "نادر" قد هدف من هذا التحسين والثناء كسب رضاء شعبه فإنه كان يستطيع أن يكسب حبه أيضاً، ولكن فكره كان ينصرف دائمًا إلى التوسع، ومع وجود انتصاراته الجديرة إلا أن عناده الدائم الذى توخاه، وضرائبه الثقيلة التى جباها، والأسرة الصفوية التى اجتثها، ومذهب الشيعة الذى لم يرتضه جعل الناس يتكدرون منه فى النهاية.

وخلاف الموارد المعدودة – "مثال تخليص الإيرانيين فى "خيوك آباد" وتهيئة وسائل المعاش لهم" – فإنها كانت استثناء بالنسبة لرفاهية الناس، إذ كان ينظر لهم بعين الجندى وجباة الضرائب، فحروبه المستمرة أفقرت الناس. وحال رجوعه من الهند فإن الغنائم التى كان قد أحضرها بما يساوى عدة ملايين من الليرات كان من الممكن أن يعفى شعبه المُنهك من أداء الضرائب لسنوات ولكنه وضعها فى خزائن وطالب بضرائب باهظة، ووضع التجار والفلاحين تحت ضغط، وعلى الرغم من ذكائه لم ير النهاية الوخيمة لمثل هذا التصرف.

ومما لا شك أنه ينبغى التصديق بأنه أنقذ كل أنحاء وطنه من الخطر الخارجى وأوقف الهجمات المخرّبة للتركمان والأزبك فى الشمال الشرقى مع نقل قبائل الأفشار والكرد والبختيار إلى هذه الأنحاء، وخرج من قيود المذهب الشيعى بل عدّله ونقل العاصمة من أصفهان إلى مشهد وعرّف أولاده بكل أنواع التجربة العسكرية على خلاف أسلوب الصفويين المعتاد فى احتفاظهم بالأمراء لدى الحريم(*).

ويتبين من الأخبار أن "نادر" غيّر أيضا لباس الناس وأمر بصنع قبعة من أربع زوايا، كان يُلف حولها شال من الصوف. وإن كان لم يستطع أن يخلف سلالة إلا أن مثله مثل "هنرى الثامن" فى إنجلترا وفر مالية الخزانة عن طريق ضبط أراضى الأوقاف وغيرها، وكان يدير الوطن عن طريق البيكلربيكات". أما الحكام الذين كانوا فى زمانه ثلاثة أشخاص(**). وكان المسئولون الآخرون يعملون تحت إمرة هؤلاء الأشخاص الثلاثة، وكان الملك يعينهم جميعًا بنفسه وكانوا يراقبون بعضهم بعضًا بتحوط، وكان يمارس الشئون المالية بنفسه وكلما كان يجد فرصة كان يفحص الحسابات بواسطة المستوفين.

وكانت له بصيرة نافذة فى السياسة الخارجية، ولكن يُسبقها فى الأغلب بآرائه فى رعاية مصالح العامة.

والخلاصة أن "نادرشاه" كان حاكمًا مطلقًا لإيران، ولكنه كان أسير حرصه الناقص.

ب- خصال "نادر" وميوله:

من الأسف أن "ميرزا مهديخان" لا يذكر حديثًا عن خصال "نادرشاه" وميوله ولكن سائر معاصريه كتبوا بعض المطالب، يقول "وليام كوكيل" فى وصف شخص "نادر" الذى جاء فى آخر كتاب فريزر:

(*) كما فعل الشاه عباس مع الأمراء الصفويين، فلدى خروجهم من الحرملك لم يكن لهم من تجارب إدارية.

(**) جاء هذا منه حتى لا تكون السلطة مركزية.

«عمره حوالى الخامسة والخمسين وطوله يزيد على الستة أقدام، متناسق وقوى ومفتول ، وجهه مشوب بالحمرة، ويميل إلى السمنة ولكن العضلات البارزة تمنع ظهورها، وله عينان براقتان، وحاجبان سوداوان. والخلاصة أنه واحد من أجمل أجسام الرجال التى شاهدتها، وقد بدت حرارة الشمس وتعرية المناخ على قسمات وجهه القوية بمعالم السمرة.

كانت القوى الجسمانية لـــ "نادر" فى أول الأمر زائدة جدًا وكان يتحمل فى الحروب كل الشدائد كالجنود العاديين، وما شاهده "محمد بخش" - المؤرخ الهندى- فإن "نادر" كان يُخضب ذقنه وشاربه بالحناء عام ١١٥٢هــ/ ١٧٣٩م، لكنه فى كل حال كان يبدو شاباً. وفى هذا الوقت كان قد عبر الخمسين عاماً. وصورته موجودة الآن فى مكتبة الهند، ويبدو أنها أكثر الصور شبهًا له وبعد مرور خمس سنوات ، صرح "عبد الله بن حسين السويدى"(*) الذى كان قد وصل للقاء "نادر" فى النجف أن آثار السن تبدو على وجهه وأن بعض أسنانه الأمامية قد سقطت وهو يُرى كشخص فى سن الثمانين، وأن عينيه قد جحظتا، إلا أنه على الرغم من ذلك فإنه يشاهد بقوام حسن. ولا شك أن "السويدى" الذى كان ذا صلة بنادر شاه كان مغرضاً؛ فقد بالغ فيما يتعلق بالثمانين عامًا انصرافا على هذا الملك إذ يقول "بازن" الذى كان من ندماء مجلس "نادر" فى الشهور القليلة قبل مقتله : "أن ذقنه التى قد خضبت بحناء بُنى كانت تُرى بشعرات بيضاء متناثرة وله مزاج قوى وقدّ معتدل الطول وجسم متناسق حرقت الشمس خديه، وكان وجهه ذا استدارة أكثر منه استطالة، له أنف عقاب وفم مبسوط وكانت شفته السفلى ممدودة وعيناه صغيرتين وحادتين ونظرته حية ونافذة، كان صوته غليظًا وقويمًا يتلاءم منه مع موقعه كما يريد.

(*) لقاء السويدى باعتباره عالم دين سنى يثبت تعلق "نادر" بهذا المذهب داخليا.

وفيما يتعلق بخصاله فقد أوردنا إشارات تتصل بأنه كان رجلًا حديدى الإرادة، ولكن مع الغلظة التى كان يتميز بها لم يكن محرومًا من قوة الملاحظة، فمثلاً كان رحيمًا بأمه وحفيده "شاهرخ"، كان يعمل بطاقة كبيرة وكان يذهب بعد قضاء أعماله اليومية إلى الحرملك، وهذا ما ينقله "كوكل":

« كان يحرر نفسه من العمل فترة ويشرب مع جمع من مقربيه قدحًا "لترًا" أو أكثر، ويقضى هذه الفترة حرًا متسلياً. ولا يحق للكل أن يسوق الحديث فى مسائل عامة أثناء هذه الجلسات الخاصة، وفى موارد أخرى لا ينبغى استنادًا إلى هذا الأمر أن يسمح لنفسه بالمكوث أكثر مثلما يستطيع آخرون، وكما خرج شخصان من أصدقاء الليل عن الحد فى هذا الصدد وتجاسرا فى مكان عام أن يتحدثا عن عاداته أمر فى التو والحال أن يشنقا وقال: "هذان الأحمقان ليسا جديرين بالحياة، إذ لا يستطيعان التفرقة بين "نادرشاه" و"نادرقلى"».

ويردف "كوكيل" الذى ينقل عنه الوصف السابق قائلًا : «إن "نادر" كان يشرب باعتدال ويرتبط بنسائه كثيرًا ولذلك كان يعمل بالتنوع فى هذا الصدد. ولم يكن يغفل فى نفس الوقت عن مزاحهن مطلقاً»، وبناء على رواية "هانوى" كان لـ "نادر" فى الحرملك فى سنوات عمره الأخيرة ثلاث وثلاثون زوجة غير الجوارى. ويقول "ميرزا مهديخان" المنشى: "كان ما يتعلق به "نادر" – فى غير الحرب– عبارة عن بطيخ بلخ وهرات والحصان الأصيل، وكان يُفضل اللباس البسيط، ولكن سرعان ما تعلق أيضًا بالجواهر تدريجيًا، وكان يؤمّنها بوفرة من أسفاره إلى الهند.

وكان "نادر" يضحك بين الحين والآخر مع رفقائه ويقال إنه كان يتحدث التركية فى أحاديثه المعتادة، ولكنه كان يتحدث الفارسية أيضًا بسلاسة، وليس معلومًا أنه كان يعرف العربية.

جـــ- أحوال "نادر" المزاجية

كان "نادر" فى شبابه صحيح الجسم ولكنه من سن الخمسين إلى ما بعد، بدأ يعانى من أزمات جسمانية دورية بما كان يؤثر فى أخلاقه كثيرا.

يقول "عبد الكريم" فى كتاب "بيان الواقع : " عانى "نادر" قبل الهجوم على الهند من مرض الاستسقاء الذى كان يقترن أحيانًا بغم واعوجاج خلقى شديد، وربما أن فقدانه الضروس الخلفية كان يساعد على ذلك. وليس بعيدًا أنه قد أصيب فى مازندران بالملاريا، وبالإضافة إلى ذلك أن أوجاع التحركات العسكرية كانت تُعمل مخالبها فى جسده، ولمّا لم ير فائدة من الأطباء الإيرانيين استخدم فى دهلى "علويخان" الذى كان ذا خبرة عالية. فكان هذا الطبيب ينصح "نادر" بنصائح طبية غير تعاطى الدواء دون تخوف وكان يحذره من العصبية فكان مؤثراً، ولكن من أسف أن "علويخان" طلب الاستئذان عام ١١٥٤ هــ/١٧٤١م، وبمجرد رحيله عاد "نادر" إلى طبعه من جديد، وبعد سنة سمل عين "رضا قلى ميرزا" ولو أن الطبيب الهندى كان معه لما اتخذ هذا القرار. وبعد مدة عالجه حكيم آخر يدعى "دامين" حيث كان مرض الكبد قد بدأ ينتابه عندئذ، وفى عام ١١٥٧ هــ/١٧٤٤م مرض مرضًا شديدًا فى "دياندواب" إلى حد أنهم حملوه لعدة منازل فى "هودج"، وبالتواصل مع الشركة الشرقية عين "پربازن" طبيبًا لـــ "نادر" وقد عُرف أن "نادر" فى المراحل الأولية لمرض الاستسقاء قد عانى من المغص والانقباض وآلام الكبد. وبدأ علاج "بازن" فى كرمان عام ١١٥٩هــ/ ١٧٤٦م، ولكن حالات الأزمة وغضبه كانت تبرز فى كل نوبة وكانت تصل إلى حد الصرعة، وتشتد بالتدريج وتصير أسوأ، ويمكن القول إنها كانت قد صارت غير عادية تمامًا قبل موته. ويُظهر هذا الوضع كيف أنه من الممكن أن يتغير سير التاريخ بتغير الرجال الكبار؟.

د- الفنون فى زمان "نادر":

كان فن "نادر" الرئيسى هو الحرب وفنونها ويبحث "لطفعلى بيك آذر" المولود فى ١١٢٣ هـ/١٧١١م فى كتابه "آتشكده"(*) عن الفقر الأدبى فى هذه الفترة، ويذكر فى الجزء الخاص بأحوال المعاصرين عددًا ليس لأى منهم من شهرة إلا الشيخ "على حزين" والسيد "تقى صهبا" الذى كان طبيبًا فى بلاط "نادر" أيضًا، لكنه لم يزد عن حد المتوسط. فإذا لم نأخذ كلام "لطفعلى بيك آذر" الذى ألف كتابه "آتشكده" بعد وفاة "نادر" بثلاث عشرة سنة فى الاعتبار فقد كان "ميرزا مهديخان" والشيخ "على حزين" من الأشخاص المعروفين فى زمانه.

ورغم أن "نادر" لم تكن له علاقة بالأدب، فإنه مع هذا الحال قدم أربعمائة نسخة خطية إلى مكتبة "استان قدس رضوى" "الإمام الرضا" ﷺ، وأيضًا هو الذى أمر بتأليف كتاب "تاريخ نادرى" بواسطة "ميرزا مهديخان" كما شجع الشاعر الهندى "محمد على بيك" على نظم منظومة "نادر شاه نامه" والشاعر الوحيد الذى تربطه بـ "نادر" مودة هو "حافظ" وربما كان يأخذ الفأل من ديوان ذلك الشاعر.

وقد كان "نادر" فعَّالًا من حيث استحداث المدن والعمارة بصفة عامة. وقد مر بنا حديث عن "شماخى" الجديدة و"نادرآباد" و"خيوك آباد"، وكذلك يرد ذكر عن تكملة بناء البقعة المطهرة للإمام الرضا ﷺ وبناء "مولود خانه" "مسقط الرأس" بناحية "دستكرد" وإحداث الخزائن فى "كلات" كما أنه أنشأ العمائر فى شيراز ولكنها خُرِّبت فى النهاية بواسطة تمرد "تقيخان".

(*) هو كتاب أدبى يُعَرِّف بالشعراء فى مختلف العصور ويورد نماذج من أشعارهم.

أما فى "أصفهان" فلم ينجز عملاً(*) ولكنه أقام قصرًا فى قزوين تحدث عنه "هانوى" وأقام آخر فى "مازندران" أطلق عليه "چهل ستون" أى الأربعين عموداً(**) وصفه السير "وليام اوصلى" فى كتابه عن السياحة. وقد أمر "نادر" وقت إقامته فى دهلى أن ينقشوا تصاوير عنه كان إحداها أثرًا لـــ "غلام محى الدين" الهندى والأخرى فى متحف الهند، ويقال إن كليهما قد رُسم بواسطة فنانين إيرانيين فى القرن الثامن عشر، ولكن ليس معلومًا مدى معاصرتهما لـــ "نادر" كذلك نقش آخر فى حوزة شركة الهند الشرقية الذى قالوا عنه إنه من زمان "نادر"، أيضا أمر "نادر" إنجليزيًا يدعى "كاسل" فرسم له عدة من مجالس الحرب.

هــ- سياسة "نادر" الدينية:

مع أن تشيع أو تسنن "نادر" هو موضع البحث، فما يبدو ساطعًا فى نظرنا أنه لم يكن له يقين دينى خاصة فى أواخر عمره. يقول "پربازن" طبيبه الخاص وقوله مسموع فى هذا الصدد: « مشكل ما يقال: أى مذهب كان يتبعه "نادر"؟ يقول الذين يعرفونه جيداً. ليس له دين أصلاً. كان يقول أحيانًا بوضوح أنا أيضا مثل محمد ﷺ وعلى ﷺ فعظمة هذين الرجلين كانت من ممارستهما للحرب فى النهاية وقد وصلت فى ممارسة الحرب إلى مقام الاثنين»(***).

وأيًا كان عيب "نادر" فإنه لم يكن متعصبًا ومتشددًا وإذا كان قد وضع الشيعة أحيانًا تحت ضغط فقد كانت العلة فى هذا سياسية، وقد قبلت مطالب تتصل بانضمام "نادر" فى التوحيد بين التشيع والتسنن والتآلف بينهما، ولكن ينبغى العلم أن نظرته كانت متسعة وتنشد العالمية، وكان يريد أن يستقر على رأس عالم إسلامى متحد.

(*) ربما يرجع هذا إلى أن اصفهان كانت عاصمة للدولة الصفوية وهو من أقام دولته على أطلالها أو أن أصفهان تعج بآثار كثيرة أغلبها رهين بالدولة الصفوية.

(**) تشبهًا بالقصر الذى بناه الشاه طهماسب ثانى ملوك الدولة الصفوية فى أصفهان وما زال قائمًا حتى يومنا هذا وبه بعض اللوحات التاريخية.

(***) لو لم يكن هذا الرأى بنقل عن "پربازن" طبيبه الخاص لقلنا إنه رأى متزيد.

وليس واضحًا بالتمام وجهة نظره فى اتخاذ المذهب الجعفرى كمذهب خامس مقابل المذاهب السنية الأربعة. ربما كانت نيته إرضاء الشيعة بالاتحاد مع أهل السنة رغم أنه كان يعلم أن السنة متعصبون وأن الأتراك العثمانيين لن يستسلموا لذلك.

وقد كان يبدى الصبر بالنسبة للنصارى كما أن "كاتوليكوس" أو أسقف الأرامنة الأعظم كان يمدح تصرفه دائماً، وكان يُعلن عن هذا صراحة فى كنيسة "اشمبادزين" فى مراسم دعائهم، ولم يكن يمانع فى تنقل المبشرين النصارى، فكما رأينا أنه استخدم اثنين منهم وهما "بازن" و "دامين" كأطباء شخصيين. ويكتب واحد من الآباء اليسوعيين من جلفا فى رسالته المؤرخة ١١٥٧هـ / مايو ١٧٤٤م قائلًا: «إنه فى هذا الزمان وجد فى "جلفا" ٢٢ كنيسة أرثوذكسية وأربع كنائس كاثوليكية وأن عدد المسيحيين هناك فى حدود عشرة آلاف نسمة».

ويقال إنه كان فى سفره إلى الهند يقرأ الآية التاسعة والعشرين من السورة الثامنة والأربعين فى القرآن، فوجد نفسه أمام كلمة التوراة والإنجيل فسأل الملأ : هل التوراة والإنجيل موجودان؟ ولمّا عرف أنهما موجودان أمر ميرزا مهديخان أن تُعد ترجمة فارسية لهما، وأمر أن يستفاد من اليهود والنصارى من أجل هذا العمل، وظهر خلاف فى هذا العمل بين المترجمين الكاثوليك والأرثوذكس إلى حد أن واحدًا من الآباء يُدعى "پردوين" يكتب قائلاً: "فقط إنه أبرز مسلم بعقل سليم"، وقد تُرجمت معانى القرآن الكريم أيضا بأمر "نادر" إلى الفارسية".

استدعى "نادر" المترجمين بعد انتهاء عملهم إلى قزوين واستقبلهم وأعطاهم أجر عملهم، ولكنه قال : ليس لدىَّ وقت للاطلاع ولكنى أعلم أن الله واحد وأن الرسول أيضًا ينبغى أن يكون واحداً، وقد أغضبت تصريحات "نادر" قساوسة النصارى الذين طال انتظارهم.

ويقول "محمد مهدى" ابن "محمد رضا" مؤلف كتاب "نصف الدنيا فى تاريخ أصفهان"، إن "نادر" كان يتباحث مع آخر فى باب الجنة، فسأل هل فى الجنة حرب وانتصار على الخصم ؟ ولمّا أعطى المسئول جوابًا نافيًا، قال نادر أى لذة إذن فى الجنة؟. إذا كان هذا ممكنًا فإن هذا النوع من الروايات مجهول ولا أساس له.

الفصـــل الثـــامن

تاريـــــــخ نـــادر شـــــاه[1]

١

ظهوره :

إن "نادر شاه" الذى يعرف فى أوربا بـــ "قليخان" ولد فى "كلات" الواقعة فى إقليم خراسان وكان أبوه رئيسا لطائفة من الافشار وقائداً(*) لقلعة "كلات" وكان يتمركز فى القلعة المذكورة دائمًا عدد كاف من الجنود لمنع غارات التراكمة على خراسان؛ فوضعها الطبيعى على نحو يشرف على ممرات جبلية حيث يستطيع عدد قليل فيها أن يواجهوا جيشًا كبيراً. كان "نادرقلى" الذى أصبح فيما بعد "نادر شاه" طفلًا وقت أن مات أبوه. ولمَّا كانت حراسة هذه القلعة تنتقل من الأب إلى الابن على مدى الأجيال أخذ عم "نادرشاه" حراسة القلعة بهذا العرف لتُعهد إلى "نادر" بعد وصوله إلى سن الرشد، غير أنه عندما وصل إلى هذه السن لم يف عمه بما وعد به بحجة أنه ما زال صبيًا وفاتح طائفته فى أنه شاب قاس وظالم وليس جديرًا

(١) هذا الكتاب تأريخ لحياة نادر وأيضًا تأريخ مختصر لملوك المغول الذين حكموا فى الهند، ومؤلف الكتاب هو "جيمس فريزر" الذى شاهد "نادرشاه" بنفسه، واشترك فى بعض حروبه، وقد ضبط كل ما شاهده وأدركه بدقته المعهودة. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الفارسية المرحوم "أبو القاسم خان قراگزلو" "ناصر الملك" وطبع فى سنة ١٣٢١هـــ.ق/ ١٩٠٣م طبعة حجرية فى ٣٥٥ صفحة ثم طُبع فى كرمانشاه بالتجميع اليدوى والقطع الإطارى فى ١٧٠ صفحة، ثم أعيد طبعه على نفس الطريقة فى ١٧٠ صفحة (فهرست خانبابا مع الشروح، ص٣٤٣).

(*) رأى هذا المستشرق يختلف عن رأى بقية زملائه من المستشرقين حيث أن أسرة "نادر" أسرة متواضعة.

بالحراسة اللهم إلا إذا أرادوا أن يروا منه القسوة بدلًا من المواءمة، فرضى الافشار بما يذهب إليه عم "نادر" ورغبوا فى أن يبقى فى رئاستهم. ولمَّا كانوا قد عرفوا فيه الكفاءة والإنصاف فلم يريدوا أن يسوء وضعهم إذ هم مكّنوا لابن أخيه. ولم يستطع "نادرقلى" -بتآمر عمه على حرمانه من حقه بما له من كفاية وحماس فى ذهنه- أن يعيش بين قومه على هذا الحال، فذهب إلى مدينة مشهد المعروفة بمشهد الإمام على الرضا ودخل فى خدمة حاكم المدينة أى والى خراسان، وعين فى نيابة الحاجب، وعمل فى هذه الوظيفة على نحو صار معه رئيسًا لجمع من الفرسان، وهكذا أظهر انضباطه وتفوقه فى الدفاع المتكرر الذى كان يحدث ضد التركمان، حتى أنه وصل فى ظرف عدة سنوات إلى منصب القيادة، وبقى فى هذا المنصب حتى سن الثلاثين، وكان تُرى فيه دائمًا آثار الشجاعة والعزم المتين فأحبه جميع أصدقائه ومعارفه وقدروه وإن لم يكونوا مستأنسين به فكانوا ينتظرون عزله ولم يتوافقوا معه، وإن كان "نادر" قد عزم على أن يصل بعمله إلى أعلى درجة كلما وجد له فرصة، فإنه كان يخفى تصوراته المتصاعدة ويحرص على ذلك لربما يظهر منها شيء يهيئ أسباب حسد رؤسائه أو عداوتهم، ولكنه كان يُبدى الرضا عن المنصب الذى هو فيه فيما يبدو إلى أن حدث فى عام ١١٢٣هـ / ١٧٢٠م أن التركمان دخلوا خراسان باثنى عشر ألف فارس وأعملوا القتل والغارة، ولم يكن قائد القلعة مستعدًّا لأن يرسل فى مقابلهم بأكثر من أربعة آلاف فارس وألفين من المشاة، وطلب المشورة من أصحاب الرأى وقال لهم إن لم يقمع التركمان فإنهم سيستولون على كل خراسان بالغارة والتخريب والنهب والسلب وسيأسرون الرجال والنساء والأطفال وينهبون أموالهم قدر ما استطاعوا وستُقطع رقبتى. فقال علية القوم : إن العسكر الموجود ليس كافيًا لمواجهة العدو ولا يبدو أمل فى الانتصار على أى نحو، وبالتأكيد لو حدث إقدام على الحرب بهذا العدد المحدود سيؤاخذ الملك أن لماذا أعطينا الجيش الأمر بالقتال؟ ولمَّا رأى قائد القلعة أثر اضطراب الرأى على وجوههم، قال: سأذهب بنفسى على رأس الجيش الحاضر وأسعى لرفع الخطر أفضل من أن نجلس صامتين ومتفرجين ونترك التركمان يخرّبون

ويأمرون. كان "نادرقلى" حاضرًا فى هذا المجلس ولكن لم يكن مأذونا بالكلام حسب وظيفته قبل أن يُسأل من الجميع، ومع ذلك فقد نهض وطلب الإذن بأن يعرض رأيه فى هذا الصدد فسُمح له وقال: العدو على الأبواب وليس الوقت وقت الكلام، وما إن مرت عدة أيام أُخر إلا ويُقدم رؤساء العسكر على ما لا يريدونه الآن وشجاعة سيدنا ورئيسنا الذى يريد أن يذهب بشخصه لمواجهة العدو هى محل تقدير ولكن لا لزوم لأن يُلقى بنفسه فى مثل هذا الخطر الكبير من ناحية، وإذا حدث اتفاق معهم فليكن للمملكة بأسرها من ناحية أخرى، فالرأى الصواب إذن أن يبقى هو فى مدينة مشهد وأن يقوم بالمحافظة على المدينة بهذا الجمع من العسكر الذى يمكن أن يُجمع من الأطراف وأن يُؤمر الجيش الموجود فورًا لمواجهة العدو وأن يسدوا المعابر والمضايق ليمنعوه من التقدم حتى يصل عسكر آخر فى الصباح، وأردف قائلا: "إنى مطمئن بالتجربة لشجاعة وتفوق جيشنا الذى نملكه"، وحينما أتولى قيادته فأنا متيقن من الانتصار الذى أتعهد به إصرارًا، فسعد "البيگلربيگ" الحاكم بقدر من التصريح بهذه الطاعة ولم يسأل عن رأى الرؤساء الآخرين، وفى التو خاطب "نادر" وقال: "لقد أظهرت فى هذا المقام الذى أنت فيه رشادة وكفاية بما لا يدع مجالاً للشك فى حسن تصرفك مستقبلاً"، والآن وقد جهزت لك قيادة جميع العسكر ينبغى أن تتحرك بكل سرعة لمواجهة العدو وأن تجهز للحرب ضد التركمان أو تقف أمامهم بأى تدبير ترى فيه الصلاح. وبذلك صدر قرار مؤقت بقيادة "نادرقلى" لهذه المهمة ووعد الحاكم أنه إذا خرج من الخدمة فسيعرض الأمر على البلاط ويحصل على صدور قرار فى تفويض القيادة العامة لـــ "نادر قلى". ولكن أصحاب المناصب والأركان الذين كانوا مقدمين على "نادر" امتنعوا عن طاعته فعرض الأمر على "البيگلربيگ" فحكم أن يقعد أصحاب المناصب وأن يُعين "نادرقلى" أى شخص يريد فى مكانهم فعين "نادرقلى" أصحاب المناصب الأصغر بدلًا من هؤلاء الذين كانوا قد تقادموا فى مناصبهم، وتحرك العسكر وعزم الجميع مثل قائدهم على أن يهزموا العدو أو يُقتلوا على أيديهم. كان قائد التركمان على بعد أربعة منازل من مشهد عندما سمع أن العسكر قادمون

فجمع فرسانه الذين كانوا قد تفرقوا للقيام بالغارة على الأنحاء فتوجه "نادر" إلى العدو مباشرة وما إن وصل حتى رأى صفوفًا متراصة وجاهزة للحرب فنادى على عسكره بعقيرة عالية وقال لهم إن نصف عسكر التركمان مكلف بتأمين العلوفة والحفاظ على الأسرى والأموال وليس لديهم أكثر من ستة أو سبعة آلاف فارس يتمركزون مع بعضهم البعض بمسافة، ويستبين من عددهم أنهم كثرة، وإذا كان عددهم ضعفين أيضًا فليس لدىّ خوف لأنى قد رأيت رشادتكم وقوتكم مرات بالجد والاجتهاد وستدافعون عن روح ومال وحرية مواطنيكم، وفى هذه الأثناء حمل دفعة واحدة بضراوة وتابع الإيرانيون قائدهم واقتدوا به واستبسلوا فى الشجاعة.

أبدى الطرفان شجاعة وضغطًا واستعرت حرب ضارية وسفك للدماء جار ولم يكن معلومًا من هو الغالب لفترة. وفى النهاية بدا طالع الإقبال النادرى إذ قُتل قائد التركمان على يديه فولوا هاربين وتعقبهم عسكر "نادر" لعدة فراسخ وحاربوا فقُتل ستة آلاف نفر من التركمان، ولم يعد من الباقى إلا نصفه فقتلوا على يد الأهالى فى الأطراف والقرى أو أسروا. كان هذا النصر سببًا لإقبال "نادر" وذيوع اسمه، وما إن وصل إلى مشهد حتى قال له البيگلربيگ إننى قد طلبت من الملك قيادة خراسان كلها لك، غير أن شاه "سلطان حسين" الذى كان فى ذلك الوقت ملكًا على إيران كان ضعيف العقل ناقص الخبرة لم يلق بالًا لخدمات "نادر" وأعطى المنصب الذى كان جديرًا به لشاب من النبلاء لم يكن قد عانى الحرب فى وقت ما؛ بما أثار القادة المحتكين الذين كانوا قد شاركوا "نادر" المهمة وكانوا يخشون التركمان، بل كانوا يضيقون ذرعًا بذهاب "نادر" إلى الحرب.

ولمّا كانت لهم سبلهم فى البلاط والملك لا ممسك له فقد أوصلوا حقدهم وعداوتهم إليه فغضب على هذا الرجل الشجاع الذى لم يكن له من صديق فى البلاط وتم عزله. ثارت ثائرة "نادر" من هذا التصرف وذهب لمقابلة البيگلربيگ وقال له إن وعدك لم يتحقق فبدلًا من أن تبقونى فى منصبى عُزلت نتيجة الخدمات وها هو شخص مكلف بقيادة الجيش ليس له إلا أن يعيش مع النساء فى الحرملك،

ولمّا كان هذا الشاب يتصل بكم فمن المؤكد أن الوعد الذى وعُدت به بدلتموه لصالحه. أقسم البيگلربيگ أن ما حدث كان على خلاف رغبته ، ولمّا كان قد زاد فى حق "نادر" استحساناً فقد اضطرب من جسارته بما جعله يخلف وعده، وأصر "نادر" على ما كان قد قاله وجاءت على لسانه عبارات غير مناسبة بشكل لم يستطع معه البيگلربيگ أن يتحمله فقرر أن يربطوه إلى خشبة ويضربوه حتى انخلعت أظافر قدمه وطردوه من الخدمة.

ولم يعجب المطلعون أن كيف تكون العلاقة بمنصب كبير على هذا النحو من العقاب ؟ ولماذا يكون هذا الأمر فى إيران مع أشخاص ذوى الدرجات العليا إذا وقعوا على غير رغبة الملك فيكون هذا التصرف !! ويؤول أمر جميع النجباء الذين يقعون على خلاف رؤسائهم إلى هذا الحد من العقاب. وبعد أن انتهى "نادر" من المقابلة يئس من أن يصل إلى منصب ما مرة أخرى وفكر فى العودة إلى مسقط رأسه ويحصل على ميراث أبيه، وعندما وصل إلى هناك أبدى عمه ترحيبًا زائدًا به وعاش فترة مع أقاربه. وما إن تحدث عن خيال يلعب برأسه فى زعامة طائفة الافشار في خلواته نراه وقد وقف طالبًا حقه بإصرار. فتشدد عمه فى الحق لا يسلمه إليه وتصرف مع "نادر" بلا اعتناء وتحقير فاقتدى الموالون لـــ "نادر" بما فعل عمه، ولم يستطع "نادر" أن يتحمل بالحمية المعروفة عنه وكان أن وصلت حدته وبصيرته إلى حد أنه كان يقترض من أجل إقامة الأود، وهنا ضاق ذرعًا بهذا الحال وأعلن عن حقه لأنه قد أدى خدمات كبيرة وجديرة للملك ومملكته وأنه كان حريًا بالتقدير فإذ به قد وَجَد عزلًا وعقابًا فى مقابل الإحسان. ولمّا لجأ إلى أقاربه وطلب حقه المسلوب إذ بعمه يمنع عنه هذا الحق ويعاديه ومعه أولئك الذين من نسله كان عليهم أن يقفوا بجواره. طلت العداوة برأسها ولم تملك جهة من حيلة إلا أن تعده رشيدًا وجريئًا وتراه أعلى منهم همة. صمم "نادر" فى هذا الظرف من الجمود على أن ما لم يحصّله بالاتفاق ينبغى أخذه بالقوة، وتعاون مع جمعٍ من الرجال الأقوياء الذين كانوا قد ضاقوا ذرعًا مضطرين وقطعوا الطريق على قافلة وغنموا ثلاثة أو أربعة أحمال من الأمتعة وباعوها بسهولة لتأمين حاجاتهم اليومية من ناحية وشراء الأسلحة والعتاد من ناحية أخرى. وكلما ضاقوا ذرعًا بكل ما

تبينوه قاموا بقطع الطريق ؛ مما زاد عددهم فأغاروا بما يقرب من خمسة وعشرين فردًا على قافلة دفعة واحدة وغنموا ثلاثين حمل جمل ودابة وأمتعة وعلوفة وحملوها إلى وسط الجبال حيث كان يفد عليهم أشخاص خفية وكانوا يبدلون الأمتعة بأسلحة وبكل ما لزمهم. وعلى هذا النحو انشغلوا فترة بقطع الطريق فأخذوا أسلحة ولوازم وزاد عددهم برجال آخرين كان أغلبهم من العسكر الذين كانوا قد خدموا مع "نادر" حتى وصل عددهم إلى الخمسمائة، وطالب هؤلاء الرجال الأقوياء بأسلحتهم وخيلهم وحرابهم - كما جاء فى هذه الصفحات - الخراج من الأهالى وعندما امتنعوا هددوهم فى البداية ثم أغاروا على أموالهم وحرقوا منازلهم. هذه النقطة يلزم أن نقولها للقراء، ذلك أن "نادر" لم يكن ليستطيع أن يحكم على هذا المنوال وإلا لعاقبه جيش الملك وغلبه، غير أنه فى هذا الوقت كانت دولة إيران مشغولة بالحرب؛ إذ كان الأفغان برئاسة ابن الأمير ويس قد أخذوا أصفهان وأدخلوا جميع أنحاء الجنوب الشرقى من إيران فى طاعتهم، وكان العثمانيون قد دخلوا الأنحاء الغربية وسخّروا أغلب الأماكن، أما الروس فكانوا قد استولوا على جيلان والأنحاء الأخرى من سواحل بحر الخزر. ولم يعد يبقى للشاه "طهماسب" سوى إقليمين أو ثلاثة، وصار محاصرًا بالأعداء من كل جانب(١) فلم يكن لديه الجيش الذى يدفع "نادر" وكان يخشى الناس من أن يواجهوه أيضاً، وكان "نادر" مثلًا يأخذ كل ما كان لازمًا له هو ومرافقوه ويتقدم. وفى هذه الأثناء تغير مزاج الشاه "على سيف الدين بيگ" أحد قادة العسكر وكان رئيسًا لطائفة كبيرة تعرف بـ "بيات"(*) وأراد أن يقتله، وعرف الأخير بالأمر ففر ليلًا على رأس ألف وخمسمائة من أعوانه من المعسكر، ولمّا لم يجد أمنًا يلوذ به اتجه إلى حيث "نادرقلى" والتحق به فوصل عسكره وأتباعه إلى ألفين، وبذلك صار سببًا فى وحشة أهالى تلك المناطق وخراجهم الزائد فتخوف عم "نادر" من قوة ابن أخيه الذى لم يكن يبعد عنه أكثر من ثلاثين فرسخًا لربما يهاجمه، لذلك كتب إلى "نادر" وتعهد له إذا سلم وذهب إلى خدمة الملك فسيصفح عن ذنبه هو وأتباعه، فسعد "نادر" بهذا

(١) معنى ذلك أن إيران توزعت بين ثلاث قوى أجنبية.

(*) هى قبيلة مغولية كبيرة عُرفت بهذا الاسم قبل ظهور "جنكيزخان".

التعهد وأجاب عمه أنه إذا استطاع أن يصدر فرمان عفوه فسيكون مستعدًا لقبول هذا التعهد. وبناء على ذلك كتب عم "نادر" فى طلبه للشاه طهماسب وتوسط لابن أخيه.

لم يوافق الملك فى البداية على أن يصفح عن شخص كان مصدرًا لمثل هذه الأعمال والذنوب، ولكن عندما عرف بالتصرف الناقص الذى حدث فى حق الخدمات التى كان قد أداها "نادر" سابقًا وأنه كان مضطرًا إلى قطع الطريق، كما قيل إن "نادر" صاحب منصب راشد وإن عسكره سيكون فاعلاً. قبل الملك على أن وجود مثل هذا الشخص لازماً، وأرسل فرمان عفوه عنه إلى عمه الذى أبلغه على الفور إلى "نادر" فجاء مع "سيف الدين بيك" ومائة نفر من الفرسان الصفوة إلى "كلات" فاستقبله عمه بكل محبة وأقام فى اليوم التالى مأدبة كبيرة له ولمرافقيه وأراد أن يبقوا حتى ثلاثة أيام أخرى، ولم يكن يتوقع خيانة من طرف ابن أخيه، غير أن "نادر" كان يفكر فى الانتقام منه وكان يريد أن يتلافى الصدمة التى كان عمه قد ألحقها به بأن أهدر حقه وحقَّره فتباحث مع أعوانه، وقرر أن يتحرك خمسمائة فرد من أتباعه بعد يوم ويختفوا على مقربة من قلعة كلات" الجبلية. وفى هذه الليلة شاهد ما تم من إجراءات، وفى منتصف الليلة أصدر "نادر" أمره للأفراد الذين كانوا فى القلعة بأن يهجموا على الحراس فقتلوا بعضهم وأسروا البعض الآخر، وتوجه "نادر" إلى مقر عمه وقتله واستولى على مفاتيح القلعة وفتح البوابات ودخل الخمسمائة فرد الذين كانوا ينتظرون الإشارة إلى القلعة، فأستأسد أتباع عم "نادر" الذين كانوا حوالىّ المائة غير الحراس، ولكنهم لم يستطيعوا المقاومة، لأن أعوان "نادر" كانوا قد سدّوا دروب المنازل فأعلنوا الاستسلام، وفى اليوم التالى أعطوهم الأسلحة ولذلك لم يرق دم كثير سوى ما بين الخمسة عشر إلى العشرين فرداً، وعلى الفور أرسل "نادر" شخصا ليستدعى بقية أتباعه الذين كانوا فى الجبل فالتحقوا به بعد أيام .

هذه الواقعة حدثت فى عام ١١٣٩ هـ/ ١٧٢٦ م تقريبًا أى بعد ست سنوات من عزله من خدمة الملك فى مشهد.

٢

انتقـامـه

انتقم "نادر" بهذا التدبير الذى لا يدل على حُسن طوية من عمه أولًا ثم إنه أخضع أفراد عشيرته الذين سكنوا فى المدن والقرى على مقربة من "كلات" ثانيًا وإن لم يلحق بأى منهم أذى، بل إنه تصرف تجاههم بشفقة وأدب فدخل عدد منهم فى خدمته عن رغبة صادقة وما زالوا حتى الآن فى معيته بل وصولاً إلى مدارج أعلى، فحكم من خلالهم بكل اقتدار إلى حد أنه كان يأخذ الضرائب من بُعد عشرين فرسخا قدر ما كان يريد، ولما اطّلع الشاه "طهماسب" على أعمال "نادر" كاملةً تعكر صفوه من هذه التدابير التى صدرت عنه، وهو الذى كان قد عفا عن جرائمه السابقة فقد قتل عمه وسخّر قلعة محكمة لم يكن ليتيسر دفعه عنها إلا بقوة عسكر محتشد، ولكن لمّا كانت أمور السلطنة فى تدهور، وكانت تظهر يومًا بعد يوم علامة على خرابها، فقد كان الجيش العثمانى من ناحية ومن ناحية أخرى الأفغان قد حاصروا الشاه "طهماسب"، فوجد أنه من الأفضل أن يطلب "نادر" لمساندته وأن إرسال جيش لدفعه لن ينقص من أمره شيئًا فكان أن أحاط "نادر" علمًا بأنه إذا أطاع وجاء إلى البلاط فستُحسن وفادته وسيُعين فى منصب قائد المدفعية، كما سامح "سيف الدين بيگ" عن تقصيره أيضًا وأعاد إليه منصبه. قَبِل "نادر" التكليف وترك واحدًا من كبار معاونيه مع خمسمائة فرد فى حكم "كلات" وجاء هو وبقية أتباعه لمقابلة الملك. وفى البداية وبّخه على ما كان قد صدر منه، ولكنه قال: "لقد صفحتُ عن تقصيرك ومن اتبعك وأثق أن تصرفكم المقبل سيتلافى الأعمال السابقة"، فاعتذر "نادر" عن تقصيره قدر ما استطاع وعرض سوء تصرف الحكومة فى خراسان بالنسبة له، فقد أخرجوه من الخدمة بدلًا من التقدير بعد

الحرب مع التركمان والتغلب عليهم، كذلك الصدمات التى كان قد تلقاها من عمه وقومه وأنه كان قد اضطر من أجل تحصيل معاشه إلى قطع الطريق، والآن وقد شملتنى الرعاية الملكية فإنى آمل أن أكون أهلًا لها؛ لأنه كان فى هذا الوقت حريًا بأن يثبت رشادته وحُسن تدبيره ولم يمض طويل وقت حتى صار محل نظر الملك وسائر العسكر.

وبالنسبة للعثمانيين الذين كانوا ينتصرون دائما قبل وصول "نادر" بحيث يقال إنهم كانوا مصممين أن يقضوا على الدمار الذى خلَّفه الإيرانيون وأن يقسموا المملكة بينهم وبين الأفغان الذين كانوا قد تصالحوا معهم وتحالفوا إلا أنهم كانوا يغلبون مرات ويُقتلون، مع أن عسكرهم كانوا أكثر أضعافًا من جيش إيران. وفى كل الحروب والمعارك كان "نادر" فى المقدمة وإن لم يكن له المنصب الكبير، حتى أن الملك جعله فى وضع القائد فى نهاية الأمر، ومن أجل هذا عزل اثنين من كبار المسئولين. وفى هذه الأثناء كان "نادر" يستطيع أن يجتمع بالملك فى أى وقت، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح محلاً لرعاية خاصة، والشخص الذى كان ينافس "نادر" فى هذا الصدد وله من الاعتداد ما هو كثير هو "فتحعليخان قاجار"، وكان "نادر" يُبدى الصداقة معه فى الظاهر ولكن لأسباب خاصة من أعوان "نادر" طلب الملك "فتحعليخان" وسأله عن وضع العسكر فعرض "نادر" الذى كان حاضرًا إننى منذ مدة أعرف بالاضطراب الذى يحدث، وإن لم يتم تحسين جديد فى أداء رواتب العسكر وانتظامهم فسيهرب الجميع، وهم يشكون الآن من عدم وصول رواتبهم وتسميتها بمسميات مختلفة، فتغير الملك بشدة على "فتحعليخان" وقال: إذا كان ما عُرض صحيحًا فسيحكم بقتله.

لم يستطع "فتحعليخان" أن يبرئ نفسه متعللاً بأن هذا هو ما كان موجودًا وهو ما فعله الآخرون فى السابق وما درجوا عليه؛ وهنا حَكَم الملك بقتله وعين "نادر" فى القيادة العامة فوافق على الفور خلاف ما كان متبعًا فى ذلك الوقت من إبداء عدم القدرة والاستطاعة وطلب الإعفاء. وهذه المسألة وقعت فى عام

١١٤١هـ / ١٧٢٨م بعد سنة من صفح الملك عن "نادر" ودخوله الخدمة. أظهر "نادر" بعد الوصول إلى هذا المنصب الكبير من حُسن الإدارة والكفاية ما هو كثير، إلى حد أن الملك فوّضه في أمور العسكر تمامًا ولم يعد يتدخل فيها أبداً. صمم "نادر" استحقاقًا لهذه الثقة التي مُنحت له على أن يشرع في إصلاح شئون العسكر فعزل الأشخاص الذين كان يتصور أنهم لا يدينون له بالوفاء، وعين مكانهم أولئك الذين كانوا يرتبطون به. وكان يعطي رواتب العسكر بيده كلما كانت الأموال تصل إليه ويحسب لهم لباسهم بالقيمة التي كان يُثمن بها، ولمَّا التفت إليه العموم بهذه الطريقة طائعين لم يكن يدور بخلده سوى مواجهة العدو ودفعه، غير أن جيشه الذي لم يكن يزيد على حوالي العشرين ألفًا لم يكن كافيًا للهجوم على العثمانيين، ومن ثم شق على نفسه قدر ما يستطيع بالحملات المختلفة عليهم من الأطراف مما جعل العثمانيين لا يقوون على الخروج من معسكراتهم، بما جعلهم يرسلون إلى الشاه "طهماسب" متعهدين بأنه إذا عهد إليهم بالأماكن التي سخّروها فإنهم سيتصالحون ويتركون إيران بحالها على أن يسترد متصرفاته من الأفغان، فأجاب "طهماسب" أنه سينظر في هذا الأمر على الفور إلى أن يصل الرد على البعض من تصريحات حكومة إيران من طرف السلطان العثماني، فقبل العثمانيون واستقروا على ألا يتنازعون حتى يصدر الحكم من الباب العالي وأن تُرسم حدود جيشهم من طرف في "همدان" ومن طرف آخر في "تبريز" و"أردبيل".

وأرسل الشاه "طهماسب" إلى إستانبول ببعض التعهدات منها أن يُعقد اتفاق فيما بين الطرفين، ولكنها كانت تعهدات يُعرف أنها لن تُقبل. كما أنه أوصى سفيره ألا يتحجج بعذر غير مقبول على نحو يجلب سوء الظن عندهم فيتعطل مثلًا في الطريق ويتأخر في الوصول إلى إستانبول. وكان قصد الشاه "طهماسب" هو قتل الوقت، وكان يريد أن يجد فرصة ليتوجه إلى "خراسان" دفعًا للملك "محمود" حاكم "مشهد" الذي كان يتمرد في هذه الاضطرابات ويدّعي السلطنة، وقد أُسر الملك "محمود" وصودرت أمواله بحسن كفاءة "نادر" وشجاعته. وتحرك من هناك على

رأس اثنى عشر ألفًا من الفرسان بعزم تأديب الأفغان الأبداليين، ذلك أنهم كانوا قد أخذوا "هرات" فى زمان الشاه "سلطان حسين" وكانوا فى هذا الوقت يستعدون للدخول إلى "خراسان" بجيش ضخم ومحاصرة "مشهد"، فالتقى على بعد ثلاثة منازل من "هرات" مع الأفغان الأبداليين بجيشهم المكون من ثلاثين ألفًا من الخراسانيين، ومن هنا كان الملك يخشى الأبداليين من أفغان "قندهار" الذين كانوا قد جاءوا لتسخير "أصفهان" وكانوا معروفين بالشجاعة، إلا أن "نادر" الذى لم يكن له نظير فى النزال طمأن الملك قائلًا : "إن الانتصار مربوط بثبات الجيش وتحركه وليس بكثافة العدد، وهاتان الصفتان موجودتان فى جيش الملك". ذكر هذا ورتب الصفوف وخاطب الجيش بأن نتيجة الهزيمة فى الحرب تعنى دمار إيران وإن لم ينتصر فسيكون أولادكم وأخلافهم أسرى وعبيدًا على الدوام، فرفع الجميع أصواتهم متشوقين فسمع الأفغان الأبداليون الذين كانوا قد اصطفوا فى المقابل أصواتهم فصاحوا هم أيضًا وهاجموا الإيرانيين تصحبهم غضبة تامة، واحتفظ "نادر" بعسكره فى وضع احتشاد، ومن المرتفع الذى كان به أمر بإطلاق المدفعية الصحراوية الصغرى فسقط عدد كبير من الأفغان صرعى وصبر حتى وصل العدو إلى مقربة ما بين أربعين إلى خمسين ذراعاً. وعندئذ أعطى أمرًا بإطلاق البنادق فحصدت أرواح الأفغان فاضطروا إلى التقهقر. ووجد جيش إيران فرصة فى تعمير البنادق ثانية.

والخلاصة أنه بعد عدة حملات قاوم فيها الإيرانيون بشجاعة تامة وقعت حرب ضروس أثبت فيها "نادر" كفاءة لا حد لها بلغت سمعتها الأطراف وإن سبقتها حروب وصحبتها دعوة للإمداد كلما دعت الحاجة. وفى النهاية هُزم الأفغان وأسر منهم خمسة آلاف وقُتل وجُرح خمسة عشر ألفاً، بينما لم يقتل من الإيرانيين ما يقرب من ألف وخمسمائة فرد. وبعد هذه الحرب تقدم الجيش صوب "هرات" وحاصرها لعدة شهور حتى دخل العدو فى الطاعة وقبل بتقديم مبلغ من النقد وآخر من الخراج السنوى شريطة أن يُعين الملك حاكمًا عليهم من طائفتهم، فقبل هذا

الشرط وأقسم الجميع على طاعته. ومن الآن فصاعدًا ترسمت زعامة إيران، وكان الملك في رفقة الجيش ولكنه لم يكن يُصدر فرمانًا وعزم على الذهاب إلى "مشهد"، وجاء "نادر" حسب المتعارف عليه بعده فوصل إليها في عام ١١٤٢هـ / أغسطس ١٧٨٩م.

٣

حروبه ضد الأفغان :

عندما عرف الشاه أن "أشرف" رئيس الأفغان الذى كان فى مكان "محمد ابن ميرويس" بأصفهان على وشك التحرك بجيش بعد أن سمع بفتوحاته، إذ وجد نفسه إبان خطر شديد إذا أخذ "نادر" فرصته فى تدعيم جيشه، ولذلك صمم على أن يتم عمله فى البداية وتحرك فى ١١٤٢هـ / ١٧٢٩م بثلاثين ألفًا من أصفهان متجهًا إلى "خراسان". وقد أوقع هذا الخبر وحشة فى داخل "طهماسب" و"نادر" ولكن جيشه كان لا يزال فرحًا من أثر الفتوحات الأخيرة ومشتاقًا لمواجهة العدو، وكان "نادر" سعيدًا من حال الجيش خاصة أنه لم يكن لديه رغبة الزيادة فى عدده من حيث إن حربًا ضارية على وشك أن تقع وما من شخص كان مرشحًا دخل فى الجيش، ومع ذلك فباستثناء حامية "مشهد" احتشد ستة عشر فردًا وتحركوا من منزل إلى آخر القادمين إلى "دامغان"، حيث اختاروا موقعًا مناسبًا فى انتظار وصول العدو، وما إن وصل "أشرف" ووجد "نادر" فى أكثر من موقع محكم لم يُرد أن يحمل عليه، غير أن ذوى الرأى كان لهم رأى آخر وقالوا إنهم إذا تجنبوا الحرب فسينتصر العدو بأقل مجهود وسيتصور أهل الأطراف أن الأفغان يخشون مواجهة الإيرانيين وسينقلبون عليهم وسيسدون طريق الإمداد. فقال "أشرف": من الأفضل أن نذهب إلى "مشهد" ونواجه "نادر" نحو هذا الرأى. وصدر فرمان أمر الحرب وأثبتت

نتيجتها خطأ أصحاب الشورى الأفغان. وكسب الإيرانيون الحرب بما لهم من مواقع حصينة تمامًا وإن قُتل منهم أكثر من أربعة آلاف فرد، أما على الجانب الآخر فقد قتل اثنا عشر ألفا منهم هم أفضل أصحاب الرأى عندهم. وعاد "أشرف" أدراجه إلى "أصفهان" بعد هذه الهزيمة ولم يعد يبقى معه أكثر من ثلث جيشه ، فقد هرب منه بعد تلك الحرب عدد كبير خاصة الإيرانيين الذين كانوا فى خدمته، وكان الشاه الذى حضر هذه الحرب معجبًا بشجاعة قائده وكفاءته التى كان يراها رأى العين، وقال له : "إنى لا أجد جائزة تجدر بك إلا أن تحمل اسمى"، وقرر أن يدعوه "طهماسب قليخان"[١]. وعندئذ هيأ لنفسه جيشًا للزحف إلى "دامغان"، وتحرك صوب "أصفهان"، وعندما سمع الأفغان باقترابه هربوا نحوها من المواقع التي توجد بها حاميات لهم فكان الإيرانيون يقتلون الكثير منهم، وأظهروا الطاعة للشاه "طهماسب" فى كل مكان، وبعثوا الأفراد والأموال إلى "طهماسب قليخان" قدر ما استطاعوا إلى حد أنه ما إن وصل إلى "كاشان" التى تبعد عن "أصفهان" أربعة منازل، بلغ الجيش أكثر من أربعين ألفًا من الفرسان والمشاة، وكان الأفغان قد جمعوا إمدادات زائدة فى المدينة وصمموا على أن يجتهدوا فى الدفاع قدر ما يستطيعون، ولكن قائدهم "أشرف" رأى أن يفتح جبهة أخرى قبل أن يُحاصَر، وبناء على ذلك جمع جيشًا قدر ما استطاع قوامه ثلاثون ألفًا من الأفغان اللزكيين والهزارة[*] والإيرانيين وغيرهم، ولا يمكن إثبات أن الأكثر من هذا كانوا مستعدين. وتحرك إلى "مورچه خورت" التى يفصلها عن المدينة عشرة فراسخ وضرب المعسكر هناك منتظرًا مجىء "طهماسب قليخان"، ولمَّا لم يصل بتلك السرعة التى كانت متوقعة وجد فرصة فى أن ينتقم من الإيرانيين فى "أصفهان" وأطرافها، وقرر فى البداية أن يقتلوا جميع الأعيان ثم يفعلوا ذلك بكل شخص يرونه فى الأزقة، فلم يكن يُرى رجل إيرانى لمدة عشرين يومًا اللهم إلا النساء اللائى كن يجئن لتحصيل القوت والعلوفة.

(١) سنذكره من الآن حتى وصوله للسلطنة باسم طهماسب قليخان.

(*) هى قبائل أفغانية معروفة بشدة البأس.

وأخيرًا وصل "طهماسب قليخان" وحارب الأفغان وأظهر تفوقًا قُتل خلاله سبعة آلاف فرد من الأفغان فلجأ "أشرف" إلى مدينة "أصفهان". وهناك وجد هو وأتباعه أن من المصلحة التصميم على قتل جميع الأهالى وإحراق العمائر والمنازل، وبعد ذلك يتحركون من أصفهان بما يمكنهم حمله من الأموال، وما إن كانوا بصدد تنفيذ هذا القصد اللاإنسانى حتى أخبر الجواسيس "أشرف" أن جيش إيران يتحرك صوب المدينة، فلما سمع أشرف هذا الخبر استدعى أتباعه إلى المقر، وقرر أن يحملوا الأموال التى كانت مبلغًا كبيرًا ويأخذوها معهم، ولمَّا لم يكن الفرار لا بُدّ منه فقد عجّلوا فى تنفيذ الفرار حتى أنه لم يكن يُشاهد أفغانى فى المدينة لساعتين بعد الظهر، وخرج الإيرانيون الذين كانوا مختبئين وشرعوا فى نهب المنازل، كما هجم جمع كبير من مزارعى الأطراف أيضًا على المدينة ليأخذوا جزءًا من الغنيمة إلا أن ألفًا وخمسمائة فرد من جيش "طهماسب قليخان" ظهروا فاختفى جميع الأوباش ودخل أصحاب المناصب إلى داخل المقر، ووضعوا الحرس على البوابات ووصل "طهماسب قليخان" بجيشه إلى "أصفهان". فى اليوم التالى وكان ذلك فى سنة ١١٤٧هـ/ ١٧٣٠م، وشرع فى إعداد زى لجيشه وأخذ الأموال التى نهبها الأهالى ووزعها على الجنود، أما الجمع الذى لم يُسرع فى إثر الأفغان فقد وقفوا مشدوهين لذلك، وعُلم بعد عدة أيام أن الشاه "طهماسب" سيصل بعد ثلاثة أسابيع، ولدى وصوله صرح "طهماسب قليخان" قائلاً: "إنه إن لم تمنح له السلطة كاملة بحيث يجبى الضرائب اللازمة لتأمين نفقات الجيش فى أى مكان فإنه سيتنحى عن القيادة وسيعود أدراجه من حيث أتى؛ لأنه تيقن من أن المكلفين الذين ينبغى عليهم إيصال العتاد إليه سيتجاهلون ذلك وسيُفقدونه تدبيره". لم يسعد الملك بهذا التكليف ودار فى ذهنه أن يعزل "طهماسب قليخان" ولكن لم يجد أحدًا غيره يجدر به هذا المقام، وأسرَّ برأيه لبعض من قادة الجيش فوجد الجميع على هذا الرأى، وأن من التعقل مسايرته حتى يأتى وقت مناسب لا تكون خدماته فيه لازمة ويمنحه وسامًا على جرأته، كما قيل أيضًا إن الجيش فى هذا الوقت لن يرضى بقيادة آخر. وفى النهاية رضى الملك على مضض بطلب "طهماسب قليخان" لأنه بهذا التفويض سهّل افتقاد

قدرة التاج والعرش، ولم يكتف بهذا بل أضاف عليها امتيازات أخرى فجعله القائد العام وحاكم خراسان وزوّجه من عمته، فما كان من "طهماسب قليخان" إلا أن أظهر التضحية فى العمل بعد هذه الإنعامات. وحتى يثبت صداقته للجميع تحرك بجيشه فى إثر الأفغان فى وقت اشتداد البرد، وعندما رأى الأفغان أن أحدًا لم يتعقبهم بعد أن تحركوا من "أصفهان" توقفوا لقضاء الشتاء فى "شيراز" وقاموا بعمليات شائنة من النهب والتخريب، بينما هلك ثلاثة آلاف فرد من جيش "طهماسب قليخان" فى الطريق من قسوة الشتاء. ولمَّا كان التحرك صوب الجنوب فقد ازداد الجو اعتدالًا بالتدريج، وأصبح الجيش على مقربة من "شيراز" فأخرج "أشرف" أتباعه وصمم مرة أخرى على أن يجربوا حظهم فى الحرب فقضوا ساعات عصيبة، ولكنهم انهزموا فى النهاية مُخلّفين وراءهم الخزائن والنساء والأطفال، وفرّوا بتعقب جزء قوى من جيش إيران فأسر بعضهم وتوجه "أشرف" بألف من أتباعه إلى "قندهار" مباشرة، وفى الطريق تفرق جمع من حوله ولم يعد معه أكثر من مائة فرد فحمل عليهم مجموعة من البلوج فجأة وحاربهم بهذه القلة بشجاعة وتضحية، ولمَّا كان عدد العدو متفوقًا تفرق هو وأتباعه فرادى وجماعات وبقى "طهماسب قليخان" شهرًا فى "شيراز" ومن هناك قصد "همدان" حتى يسخّرها وسائر أنحاء المملكة التى كان العثمانيون قد أخذوها فى هذه الاضطرابات.

٤

مواجهته للعثمانيين :

عندما وصل "طهماسب قليخان" إلى مشارف "همدان" قابله "عبد الله باشا" بجميع جيشه ولكنه هُزم فى النهاية وهرب إلى "كرمانشاه" وتعقبه "طهماسبقليخان" وهزمه للمرة الثانية، وبقى فيها لعدة أيام وترك هناك حامية وعزم على الذهاب إلى "تبريز" وسخّرها من حيث هى ذات موقع مهم وأرسل جزءًا كبيرًا من الجيش إلى "اردبيل". فلما علم العدو بهذا الخبر أخلاها ورحل، وطلب العثمانيون هدنة فقبل "طهماسب قليخان" بسرعة من حيث إن طائفة الابداليين كانوا قد أعلنوا العصيان من جديد وكوّنوا جيشًا قويًا فأخلى الأماكن التى كان قد أخذها وعهد بها إلى حاميات كافية واتجه إلى "هرات" وحاصرها بعد هزيمة الابداليين، ولمّا كانت القلعة قوية فى تحصينها فلم يقو على تسخيرها حتى استسلم الأهالى بسبب القحط والغلاء فقتل "طهماسبقليخان" الحاكم والرؤساء ووطّن جمعًا من الإيرانيين هناك، وترك فيها حامية وعاد إلى "مشهد". وفى هذه الأثناء سمع الشاه "طهماسب" الذى كان فى "أصفهان" أن الدولة العثمانية كانت بصدد إرسال جيش من "استانبول" وأماكن أخرى إلى حدود إيران، فجمع عشرين ألفا من الجنود وتحرك صوب "تبريز" والتحقت بالجيش حاميتها التى كان "طهماسبقليخان" قد تركها واتجه إلى "ايروان" حيث هزم جمعًا من الجيش العثمانى وشرع فى حصار القلعة، ولمّا لم يستطع إيصال العلوفة إلى الجيش اضطر إلى العودة إلى "تبريز" وفى ذهنه التوجه إلى "كرمانشاهان" ولكن "أحمد باشا" وصل بجيش أقوى فغلبه، وبعد عدة أيام من حرب القائد العثمانى أحاط علمًا أن لديه إذنًا من السلطان بأن يتصالح فقبل الشاه تكليف "أحمد باشا" على عجل وكان التكليف على هذا النحو : أن يترك الطرفان الأراضى

التى فى حوزتيهما، فثار "طهماسبقليخان" من سماع هذا الخبر وكتب إلى الملك ونفر من الأعيان أنى سأحضر سريعًا إلى المجلس الملكى وسأثبت فسخ هذه المصالحة المخزية، وبناء على ذلك خرج من "مشهد" فى ١١٤٥هـ / أغسطس ١٧٣٢م على عجل ووصل إلى "أصفهان" بجيشه كاملًا الذى كان يزيد على ستين ألفا من رجال الحرب المدربين وذهب لمقابلة الملك وقال إنه فى البداية ينبغى جعل الأشخاص الذين وافقوا على قبول الصلح وهذه الفضيحة الكبرى عبرة للآخرين، وبعد ذلك محاربة العدو بضراوة. غير أن الملك لم يكن يميل للحنث بالعهد الذى كان قد ضربه مع العثمانيين . بعد ذلك قال "طهماسبقليخان" للملك إن أغلب رجال البلاط أعداء لى وكانوا يسعون إلى حض الملك على قتلى، وأصر الملك على أن معلوماته محل خطأ، ووضع "طهماسبقليخان" عدة مكاتيب أمام الملك على الفور وقال إن الاطلاع على هذه المكاتيب ستُعلم الملك أن من حقى أن أخشى على نفسى، قال هذا وخرج، وكان بعضُ من أعيان البلاط قد كتبوا هذه المكاتيب لـ "طهماسبقليخان" وأخبروه بأعمالهم وتصوراتهم وفحشوا القول لبعضهم البعض، ومن الأقوال التى كانت قد وقعت فى حضور الملك أنهم قد بالغوا فى نقص اللياقة عنده وحب الخير عند "طهماسبقليخان" فتعجب الملك من قراءة هذه الكتابات ورأى الخيانة أكبر وأوسع بما لا يمكن معه العقاب اللهم إلا إذا أراد أن يقتل أكبر عدد من نجباء البلاط ولذلك مزق الأوراق ورأى أنه من الأفضل وضع القائد فى موقع أنسب جزاءً لخيانتهم. وانتظر "طهماسبقليخان" الذى كان قد ضرب معسكره خارج البوابات ماذا يحدث من أثر هذه المكاتيب فى ذهن الملك ؟ وعندما رأى أنه لم يكترث بها جمع قادة جيشه وبحث معهم ما كان قد وضع فاتفق الجميع معه فيما ذهب إليه بأن الشاه يفكر فى قتله هو وأعوانه وتشتيت الجيش وإجراء المصالحة المخزية التى وقّعها مع العثمانيين خاصة أن الفرصة والموقف مهيآن لأن يُنفذ ما يصبو إليه.

قال "طهماسبقليخان" لهم: إن ذريعة خلاصى وخلاصكم هو أن نعزل الملك ونُجّلس ابنه بدلًا منه، وبهذه الطريقة سنمتلك حجة قوية فى نقض ما اصطلحنا عليه مع الدولة العثمانية فوافقه أصحاب الرأى ونفذوا هذا القصد على النحو التالى: دعا "طهماسبقليخان" الملك لزيارة قيادة الجيش فجاء إلى المعسكر فسُرّ لحاله وتدريبه وأثنى على قادته فى ملأ، وعندما كان يمر من بين الصفوف أعرب بعض من أركان الجيش والجنود بصوت عال عن طاعتهم العمياء للملك فتعجب "نادر" فى البداية من هذه الحركة، ولكنه طلب من الملك كما كانت عادته – فى لمح البصر أن يقول لهم واجبكم هو أن تطيعوا "طهماسبقليخان" القائد العام وتقبل الملك طلبه. ثم ذهب إلى خيمة القائد وسط احتفال كانوا قد أعدُّوه وهناك أفرط فى الشراب. ويقال إن مواد مخدرة كانت قد امتزجت به فاستغرق فى النوم على حافة المسند وقرر "طهماسبقليخان" أن ينقلوه إلى قصر كان فى حديقة "هزار جريب" فوقف مرافقو الملك معترضين على "طهماسبقليخان" وقائلين : واجبنا فى هذا المكان أن نحافظ على الملك. فهددهم "طهماسبقليخان" وأرادوا أن يهربوا فوقف الحراس فى طريقهم وألقوهم فى الحبس.

وبعد أن تحفظ "طهماسبقليخان" على الملك وعهد به إلى الحراس عاد إلى خيمته. وهنا سأل جمعًا من أصحاب المناصب الذين كانوا قد اندهشوا من مشاهدة هذه الأحوال ماذا ينبغى فعله مع الملك ؟ فأجابوا لا شىء مطلقًا سوى ذلك الذى حدث. ولكن "طهماسبقليخان" أقنعهم أنه من الضرورى أن يحبسوه فى مكان بعيد، وبناء على ذلك أرسله إلى "مازندران" بعد ثلاثة أيام بمعية ستة آلاف فرد تحت المراقبة، وكان قليل من هؤلاء الأشخاص إيرانيين أما الأغلبية فهم أفاغنة وجمع من السنة، كما بعث بعد التحفظ على الملك فيلقًا قويًّا من الجيش إلى المدينة.

صادروا القصر الملكى ووضعوا الحراس عند البوابات وفى الشوارع وتترسوا بها وأعلنوا قبل طلوع الشمس أن أى شخص يخرج من بيته سيكون جزاؤه القتل، ولمَّا رأوا عند الظهر أن الأمر عادى تقرر أن ينشغل كل شخص

بعمله ويخرج كما هو معتاد، وكان الإيرانيون جد محزونين وكانوا يتصورون أن الملك قد قُتل، ثم عادوا وعرفوا أنه ما زال حيًّا وتعلقت قلوبهم بهذا الأمل وأن الجيش سيثور من أجل الحفاظ عليه. وفى اليوم التالى لذلك اليوم الذى أخرج فيه "طهماسبقليخان" الملك توجه إلى سراى الحكم بأبهة أتم ما تكون وأمر أركان الجيش الذين كانوا فى معيته أن يُخرِّجوا ابن الملك من القصر ويضعوه فى مهد مقابل العرش وتاج السلطنة أعلى رأسه وبجانبه السيف والدرع ثم دعوه سلطانًا فى مراسم لائقة باسم "الشاه عباس" وأقسم "طهماسبقليخان" على القرآن أنه سيخدم بالصدق وأن الآخرين سيكونون على هذا النحو أيضًا، وبعد هذه التشريفات الخادعة بقى "طهماسبقليخان" فى عمارة القصر لينظر فى شئون العاصمة، وغيَّر حكام الولايات الذين لم يكن يثق بهم. وبعد ذلك توجه بجيشه صوب العثمانيين وتمركز على بعد عدة منازل من "بغداد" وواجه "أحمد باشا" بجيشه الذى لا حصر له وأنزل به هزيمة ساحقة ثم ولَّى وجهه صوب "بغداد" وحاصرها وكان أفراد حاميتها كثيرين فحفظوا المدينة مدة طويلة، غير أن قحطًا شديدًا وقع بينهم وأوشكوا على الاستسلام، وعندئذ وصل القائد "طوبال عثمان باشا" وبرفقته عدد من الباشوات الآخرين وعسكر كثيرون بعدتهم وعتادهم بما يزيد على مائتى ألف فرد فاضطر "طهماسبقليخان" أن يرفع يده عن الحصار وأن يحاربهم فحمل جيش إيران بما يصل إلى مائة وخمسين ألفا ضاغطًا وقاهرًا ووجها لوجه غالبًا ، فكان العثمانيون على وشك الهلاك. وفى هذه الأثناء أصيب حصان "طهماسبقليخان" فحارب مترجلًا لفترة إلى أن وصله آخر وتصور حامل العلم أنه قُتل فغير العلم، فألقت هذه المسألة الرعب فى قلوب العسكر فاستداروا وولّوا وجوههم فارّين.

وحاول "طهماسبقليخان" جاهدًا أن يُثبت من عزائم العسكر ولكن دون جدوى، وتعقبهم العثمانيون بغيظ شديد وأحدثوا حربًا ضروسًا قُتل فيها من الإيرانيين ستون ألفا ومن العثمانيين قرابة نفس العدد فكان أن أيأست هذه الهزيمة العسكر جميعًا إلا "طهماسبقليخان" الذى فاقت همته كل أشكال السوانح فتوقف فى

"همدان" وما إن مرت عدة أيام حتى التحق به أغلب عسكره الذين تفرقوا وقال لهم "طهماسبقليخان" تبينت بالتحرى أن العثمانيين قد تخلفوا عن التعقب ووزعوا عسكرهم جماعة جماعة حتى يُحصّلوا العلوفة والآذوقة بيسر، وأنا مصمم على أن أهاجمهم واحدة إثر أخرى فإما أن أنتصر أو أقتل؛ لأن مملكتى لن ترحمنى بعدما فعلناه ولا ينبغى أن ندخل مملكتنا دون فتح وانتصار، وإذا أعطينا الفرصة للعثمانيين فسيستريحون ويجمعون شتاتهم وسيغلبوننا بالتأكيد، فاتفق أركان الجيش معه فى الرأى وداهموا العدو بسرعة وهاجموا جزءا من الجيش العثمانى الذى كان يتوقع أن "طهماسبقليخان" بعيد ووصوله متعذرًا وأنزلوا الهزيمة بالعسكر العثمانى جماعة فى إثر جماعة، وفى النهاية وقعت المواجهة مع "طوبال عثمان باشا" بجيشه المكوّن مما يقرب من ستين ألفا فأصيب الباشا فى بداية الحرب بطلقة وهُزم جيشه. وبعد هذه الحرب لم يعد العثمانيون بقادرين على مواجهة " طهماسبقليخان " فى الميدان، وسخّر بعض الأماكن بالقهر والغلبة.واستسلم البعض الآخر حتى انتزع جميع الأماكن التى كان العثمانيون قد سخروها فى وقت الاضطراب الأخير.

هذه الفتوحات غير المتوقعة أذاعت شهرته بل كانت تزيد من إقبال المتطوعين عليه من الأنحاء المختلفة للانضمام إليه فجمع جيشًا مختارًا جاهزًا وسارع إلى محاصرة بغداد مرة ثانية، وكان أمر الحصار قد سبق سريعًا لدى معرفة أن "محمد خان بلوچ"(*) أحد قادته قد تمرد واستدعى الشاه "طهماسب" من جديد وأخذ مدينة "شيراز" بقوة عددها ثلاثون ألفا كانوا يتزايدون يومًا بعد يوم. وما إن سمع "طهماسبقليخان" هذا الخبر تخلى عن الحصار وأسرع إلى إخضاع المتمردين فوصل فى وقت لم يكونوا ينتظرونه وسمع المتمردون باقتراب عسكره واحتشدوا لمواجهته بتوقع أن قسمًا من العسكر سيصل بقيادة أحد الأركان ولكنهم ما إن تقدموا سبعة أو ثمانية فراسخ حتى التقوا بــ "طهماسبقليخان" نفسه بمقدمة قوامها اثنا عشر ألفا، فسر "محمد خان" كثيرا من أنه سيواجه "طهماسبقليخان" بعدده

(*) هو زعيم قبائل البلوچ التى تسكن إقليم بلوچستان المتاخم لباكستان.

القليل وقال لأركانه : إن مواجهتنا لــ "طهماسبقليخان" ستكون نزالًا سهلًا قبل أن يصله المدد وسنهزمه؛ لأن جيشه متأخر لمنزل. فما إن اتصل المدد بعضه ببعض وسمعوا صيحة أوامر "طهماسبقليخان" غلبت عليهم وحشة فلم يقووا على مواجهة الموجة الأولى وفروا هاربين، أما "محمد خان بلوج" الذى كان شجاعا فى الحرب فقد وجد "طهماسبقليخان" وحيدًا فهاجمه، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا ورجع فاتحًا طريقه بالسيف، وكان يرغب فى أن يعبر به واحد من عرب الخليج فى سفينة غير أن الأنذال الذين كانوا هناك أخذوه على أمل المكافأة وحملوه إلى "طهماسبقليخان" الذى أمر بحبسه حتى يبوح بسر أعوانه وخزائنه وأتباعه، إلا أن قصد "طهماسبقليخان" لم يتحقق، فما إن بقى "محمد خان بلوج" وحيدًا حتى علّق نفسه ومات ولم يتخلف عنه أيضًا مكتوب يفيد أى أشخاص تآمروا معه وأين خزائنه التى كانت تحوى مبالغ باهظة، وبذلك انتهت حياة هذا الرجل الشجاع التى كانت صفاته محل قبول العامة على هذا النحو، وإن لم يسعفه الإقبال فإنه كان يواجه أكبر رجال الحرب فى المشرق وأفضل فارس فى الديار الإيرانية.

بقى "طهماسبقليخان" عدة أيام فى شيراز، وقتل أولئك الذين شاركوا فى هذا التمرد وصادر أموالهم ثم جاء إلى أصفهان وأعطى قرارًا فى بعض الأمور وتحرك صوب "جرجستان" وأخذ "تفليس" قهرًا وغلبة فى طريقه وخضعت له تلك المملكة كلها ثم جاء إلى "ايروان" عاصمة "أرمينيا" وسخّرها واستسلمت "شماخى" وأخذت "گنجه" بالقوة، وفى هذه الأثناء أرسل سفيرًا إلى روسيا وكلفه بطلب إخلاء "جيلان" وسائر أنحاء بحر الخزر حسب الاتفاق وإلا سيصل الوضع إلى أن يصطدم معهم. ولمّا كان الروس لا يميلون أبدًا إلى أن يدخلوا معه فى حرب أخلوا جميع الأماكن التى كانوا قد أخذوها فى محيط هذا البحر ما عدا "دربند" و"بادكوبه" التى فُرضت لهم، وبناء على هذا عقد "طهماسبقليخان" مع الروس صلحًا محكمًا كما صالح العثمانيين أيضًا بعد فترة.

٥

مـؤتمر "معـان":

بعد أن أقر "طهماسبقليخان" الصلح مع هاتين الدولتين أصدر أمره إلى جميع الحكام فى الولايات وشيوخ القبائل ورؤساء المدن بأن يحضروا فى يوم مخصوص إلى صحراء "مغان" ومن لم يحضر سيلقى عقابًا شديداً، فحضروا جميعًا هناك فى الموعد المحدد وكان عددهم أكثر من ستة آلاف شخص. كان "طهماسبقليخان" قد حشد عسكره المائة وخمسين ألفًا هناك وطلبهم للحضور وقال لهم: "طلبتكم حتى أقول لكم إننى قهرت وغلبت جميع أعداء مملكة إيران ما عدا أفاغنة "قندهار" الذين سأهاجمهم فى القريب وأدخلهم بعد ذلك فى طاعتى وأرى أن أقضى بقية عمرى براحة، اللهم إلا إذا احتاجت المملكة إلى خدماتى من جديد، وقد تصالحت مع العثمانيين والروس وأخضعت التركمان وسائر الأعداء المجاورين للمملكة إلى حد أنهم سيسكنون فيما يبدو لفترة، والآن أعلن لكم أن تختاروا ملكًا على مسئوليتكم .. اختاروا الشاه "طهماسب" ملككم القديم أو ينبغى أن تنتخبوا أى شخص ترونه جديرًا وأنا أطلب منكم الإجابة خلال ثلاثة أيام"، قال لهم ذلك ودخل خيمته وقرر أن يضيّقوا الرؤساء الذين كانوا قد حضروا إلى المعسكرات لفترة بينما كان أتباعه مكلفين بأن يتصلوا بأشخاص ذوى اعتبار، على أنه من المستحسن أن ترحبوا بالقائد ونائب مملكتكم سلطانًا ونحن على يقين من أنه سيتردد فى القبول. وبعد انقضاء الأيام الثلاثة ذهب الرؤساء لمقابلة "طهماسبقليخان" وعرضوا اقتراحهم متضمنًا الخدمات الكبيرة التى كان قد قدمها لإيران وطلبوا منه أن يقبل التاج والعرش وأن يتعهد بقيادة المملكة وقالوا: إننا سنتعاون فى أى موقع مع الرعية بكل صدق وتضحية، وقال لهم "طهماسبقليخان": إنى أشكر لكم تقديركم وتكليفكم ولم

يكن قصدى من مطالبتكم بهذه المسألة بأى وجه من الوجوه، ولكن قولكم هو إلهام من الله، وينبغى أن أقبل مشاق التاج والعرش من أجل خير الرعية وأغض الطرف عن الراحة ولا أشك فى أننى سأجعل الشعب الإيرانى بفضل الله ومعاونتكم والتفافكم حولى فى أوج الازدهار بما لم يفعله واحد من السلاطين القدامى(*)، ولأننى تصرفت فى أول الأمر معكم كصديق فلن يكون هناك خلاف، وينبغى أن تقبلوا ثلاثة أشياء ربطًا بالقسم :

أولًا : أن تكون السلطنة فى أسرتى على الدوام.

ثانيًا : أن لا يتحجج أى شخص ميلًا فى السلطنة القديمة أو منسوبيها برفع السيف أو يُسهّل بها شائبة التمرد بكلمة على طرف اللسان، وإذا حدث ذلك يُقتل عقابًا وتُصادر أمواله.

ثالثًا : لما كانت الاختلافات المذهبية بين إيران وجيرانها عثمانيين وهنود وتركمان سببًا فى الاضطراب والصدام الدائم فإنى أرغب فى أن يجتمع عدد من علماء الشيعة والسنة ويقرّوا طريقة واحدة يرفعون بها الخلاف، وفى اعتقادى أن الأسباب التى أدت إلى الخلاف بين الشيعة والسنة تفتقد الأهمية، ومن السهل أن يُعطى قرار بشأنه فيما بينهم.

قبل جميع الأعيان المبدأين الأول والثانى وطلبوا فيما يتعلق بالمبدأ الأخير أن يُسأل المرجع شيخ العلماء إبداء رأيه ثم يقبلوا به. بعد ذلك عرض المرجع على "طهماسبقليخان" ما يلى: إنه فيما يتعلق بأمور المذهب فمرشدنا هو أحكام الله وأحاديث الرسول ولا ينبغى أن يغير السلاطين أو يجددوا فيها، ولذلك أعرض على الجناب الملكى ألا تكون بداية السلطنة مقترنة بتجنيب المذهب المفروض(**)

(*) إن دل هذا على شيء فإنما يدل على ذكاء "نادر" الفطرى.

(**) إشارة إلى أن الشاه إسماعيل قد فرض هذا المذهب على الناس بالقوة.

وإلا سيكون لهذا الإقدام نتائج خطيرة بلا شك. فحكم "طهماسبقليخان" بخنق المرجع حتى لا يتبع الجمهور تصريحه هذا. وبالتأكيد لو لم يكن هذا التدبير السريع قد أصدم القلوب لكانوا قد ساروا فى إثره. وقد سأل بعض الحضور هل أنتم مستعدون لأن تقبلوا تكليفى بقيد القسم؟، فقبل الجميع على عجل، وفى اليوم التالى من عام ١١٤٨هـ / مارس ١٧٣٥م استقر فى سلطنة إيران وعُرف باسم "نادر شاه" وضربوا السكة باسمه وكان أحد وجهيها على هذا النحو :

رُقم بالذهب اسم السلطنة فى الدنيا ∴ نادر إيران وملك الدنيا الفاتح

ونقش على الوجه الآخر عبارة : "الخير فيما وقع".

وبعد ثلاثة أيام استضاف الأشخاص الذين كانوا قد حضروا ضيافة مجللة، وخلع عليهم الخلع ورُخص لهم بالعودة وتصرف مع الجميع على نحو مرض اللهم مع العلماء الذى كان يعلم أنهم بدأوا فى خصومة شديدة بسبب قتل المرجع من ناحية، وأنه عازم على التغيير فى المذهب من ناحية أخرى، ولكنه أرسل إلى رؤسائهم ليسد الطريق على ضررهم وسأل على أى وجه يصرفون مبالغ الأوقاف الباهظة ؟ فأجابوا أنها تصرف فى وجوهها المعروفة من قبيل وظائف العلماء والطلاب ورعاية المدارس والمساجد العديدة وأنهم يدعون كل يوم بل فى كل ساعة فى المساجد بالنصر وإقبال الملك وعمران المملكة. قال: "نادرشاه" مجيبًا "عُرف بالتجربة أن دعاءكم لا يستجاب لأن الأمة كانت فى تنزل مدة خمسين عامًا وفى النهاية تخربت بسبب غلبة العدو من الخارج وانقلاب الداخل، حتى وصل الأمر إلى استخلاص إيران بانتصار جيشى. والآن فإن جميع العسكر يفدون بأرواحهم خلود إيران وعظمتها، وهؤلاء الطلاب المساكين أيضًا أى الجنود الكثيرون فقراء وينبغى أن تزال حاجتهم بأى وسيلة، ولهذا فالرغبة الملكية تقوم على ضرورة ضبط الأملاك الموقوفة ومنافعها وتحوّل للصرف على العسكر.

نُفذ هذا الحكم وبالتأكيد كان يعود بما يقرب من تسعة ملايين تومان. تغير العلماء من هذا العمل كثيرًا واجتهدوا قدر ما يستطيعون فى أن يثيروا حفيظة العسكر والرعية، ولكن أكثر من نصف العسكر كان سنيًا فلم يكن لهم من عمل سوى السخرية بتعاليمهم، وعندما رأى الرعية ما حدث لم يكونوا راضين بأن مبلغًا من ضرائبهم سيصيبه النقصان بهذه الطريقة، وبعد هذا الحكم طالب "نادرشاه" جميع الرؤساء والأعيان وأخبر الأركان وقال: "إذا كنتم تريدون الملالى فينبغى أن تدفعوا نفقاتهم، فأنا لا يلزمنى نظامهم أبدا ولن أتحمل إنفاقًا من أجلهم"، وأصدر فرمانًا وحكم بأن يتبع جميع الرعايا الطريقة السنية وإلا سيكونون محلاً لتعقبه وترجمة الفرمان المذكور على هذا النحو(*):

« ليعلم أصحاب الجاه الصدور عالىّ القدر والحكام والمجتهدون وعلماء دار السلطنة فى أصفهان المباهون بالألطاف الملكية أنه فى الأوقات التى ارتفعت فيها رايات الظفر فى صحراء "مغان"(**) واستقر الرأى فى الجلسات المتعددة على نحو أنه لمّا كانت الطريقة الحنفية والجعفرية توافق ما وصل إلينا من أسلافنا، وأنهم كانوا موافقين على الخلفاء الراشدين ﷺ، وكانوا يعدّون أنفسهم خلائف سيد المرسلين ﷺ وآله، فبعد مرور الأيام فلأسماء كل واحد من الخلفاء الأربعة التى تُذكر وتلهج بها الألسنة بكل تعظيم بالإضافة إلى أنه فى بعض أنحاء بلادنا يذكرون لفظ على ولى الله على طريقة الشيعة فى الأذان والإقامة. وهذه الجملة مخالفة لأهل السنة ومنافية للاتفاق الذى كان معمولًا به لدى الأسلاف. وبغض النظر عن ذلك فمن الواضح أمام كل العالم أن أمير المؤمنين أسد الله الغالب ﷺ مختار وممدوح ومحبوب من الله المتعال وهو بالشهادة مخلوق على المقام ورتبته لن تزيد فى رحاب الأحدية. وبحذف هذه الأوصاف لن ينقص شيء من ضياء

(*) فرمان نادر شاه للتوحيد بين الشيعة والسنة وقد ترجم من جديد عن اللغة الإنجليزية إلى الفارسية .

(**) إشارة إلى المؤتمر الذى أقامه فى مغان، وأعلن فى نهايته المبادئ السابق ذكرها.

زعامته. وذكر هذه العبارة موجب لاختلاف وبغض وعداوة أهل الشيعة وأهل السنة الذين هم شركاء فى متابعة شريعة سيد المرسلين المطهرة بما سيجلب خلافًا لرضاء الرسول ﷺ وأمير المؤمنين ﷺ. لهذا فبمجرد الاطلاع على مضمون هذا الفرمان العالى إلى جميع المسلمين من الأعلى والأدنى، الكبير والصغير ومؤذنى المدن والتوابع والأطراف، ينبغى أن يُعلم أنه من الآن فصاعدًا لا تذكر هذه العبارة التى هى على خلاف أهل السنة، وأيضًا فمن المعمول به بين الحكام الدعاء فى المجالس بعد الفاتحة والتكبير للملك ولى النعمة بطول العمر. وهذا النحو تعظيم فارغ ولا معنى له، خاصة أننا نأمر ونقرر أن الخوانين أصحاب السمعة والمعرفة تلهج ألسنتهم بحمد أنعم الملك الحقيقى فى هذا الوقت، وينبغى أن يتعهد عموم الرعايا والبرايا بإطاعة هذه الأحكام والأوامر، وكل من يتخلف عن ذلك سيكون محلًا للغضب الملكى – التاريخ شهر صفر سنة ١١٤٦م/يولية ١٧٣٣م».

اكتسب هذا الفرمان مسرة عدد كثير من أهالى إيران فنصف سكان إيران كانوا سنة خصوصًا الأتباع والعسكر، فقد سعدوا كثيرًا لأن أكثرهم سنة ومن ثم زاد إقدامهم فداء لـــ "نادر". كان هذا الإقدام يخالف صلاح المملكة ولكن لم يبد للنظر سوى هذه الوسيلة من أجل استقرار "نادرشاه" وأولاده على عرش المملكة، وفضلًا عن ذلك فإنها كانت مفيدة جدًا للتصورات التى تدور فى ذهن "نادر" بالنسبة للممالك المجاورة لأن مذهب بعضها هو المذهب السنى الذى استقر عندئذ فى إيران، وما إن مضت فترة بعد أن انتخب "نادرشاه" سلطانًا وصار معروفًا لأهل الدنيا حتى جاء إلى "قزوين"، حيث أجريت مراسم التتويج فتمنطق بسيف السلطنة ووضع التاج على رأسه وأقسم بأن يحكم وفق الشريعة المطهرة على نحو ما هو معمول به وأن يُخلّص إيران من جميع أعدائها، ثم اتجه بجيشه صوب "أصفهان" حيث توقف فيها لفترة وشاهد تهيئة الأسباب للزحف صوب "قندهار" وتلقى تهنئة الدول المجاورة عندما كان فى "أصفهان".

واعترف به السلطان العثمانى ملكًا على إيران، فقد أقر مذهب السنة فيها ولم يؤيد المذهب السابق فهنأه، وتحرك "نادرشاه" من "أصفهان" فى عام ١١٤٩ هـ/ ديسمبر سنة ١٧٣٣م بجيش قوامه أكثر من ثمانين ألفًا، كان أغلبهم من الفرسان صوب "قندهار" عن طريق كرمان وتبعه "طهماسبخان وكيل" بما يقرب من أربعين ألفًا آخرين، ولم يعرف الشخص الفاضل الذى كان قد أعطانى مذكراته وكتبت الأحداث عنها حتى ذلك التاريخ شيئًا عن هذه الحوادث إلى ما بعد ذلك، اللهم أنه كان قد سمع فى وقت تحركه من إيران إلى الهند فى عام ١١٥٠ هـ/ شهر فبراير عام ١٧٣٧ م أن "نادرشاه" قد حاصر "قندهار". وسأكتب الوقائع بعد هذا عن النُسخ الخطية الإيرانية التى ذكرتها فى المقدمة إضافة إلى المذكرات والصحف التى أُعطيت لى، وقد تلطف هذا الشخص الفاضل علىَّ بتفصيل عن أخلاق هذا الملك الكبير وعاداته الشخصية التى سترد بإذن الله فى آخر الكتاب.

بعد أن استقر "نادرشاه" على العرش، ونظم أمور الحكم ترك "رضاقلى ميرزا" فى مكانه وقاد الجيش إلى "قندهار" وقاوم "حسين خان" حاكمها الذى كان قد جمع عُدة وعتادًا حربيًا كبيرًا لمدة ثمانية عشر شهرًا وطال الحصار. وفى النهاية استسلم دفعة واحدة، وقد اجتهد أكثرهم بشجاعة وقاتلوا وأُخذ "حسين خان" وابنه أسيرين، ودخل الإيرانيون القلعة واستولوا عليها، وما إن مضت مدة كان "نادرشاه" فيها مشغولًا بتنظيم "قندهار" وتحصينها وكان يُرغّب أهل هذه المناطق فى الإقبال عليه، حتى وصلته مراسلات من "نظام الملك" و"سعادتخان" يدعوانه فيها إلى الذهاب للهند، فكتب "نادرشاه" فى رده أن مشاكل المرور من مضايق الجبال وعبور الأنهار كبيرة جدًا والأفغان والقبائل المحاربة يقيمون فى المواجهة وسيطبق "ناصرخان صوبه" أى حاكم "كابل" و"زكريا خان" حاكم "لاهور" على الطريق. ولكى تسحق أقدامى هذه العوائق ينبغى أن أحارب بجيش قوى مثل جيش الهند، وأجرّب حظى فى مثل هذه الحرب. فكتب "نظام الملك" و"سعادت خان" من جديد أن هذه التصورات والخوف لا داعى لهما أبدًا قبل أن تعبر نهر "دانج" وسترى أى قدر من المساندة ستكون من جانبنا وعلى أى نحو سنكون على استعداد لأن نُيسّر عبور الجيش. فقوى قلب "نادر" بهذه المخاطبات وزحف بجيش قوامه خمسة

وعشرون ألف فارس من "القزلباش" و"الگرجيين" و"الترك" و"الخراسانيين" و"البلخيين" وغيرهم الذين كانوا قد تدربوا على المتاعب وتحمل المشاق. وكان الجيش مستعدًا لهذا الزحف بكل الأسباب، وكان "نادر شاه" يُحمس أفراده ويؤملهم ليس فقط فى أن يرفع بهذا الزحف عن كل منهم حاجته بل سيحصّلون لمملكتهم الثروة والعزة والازدهار من غنائم الهند.

فى هذا الوقت كان كل من "نظام الملك" و"سعادتخان" يهيئ الأسباب فى الخفاء لتقدم زحف "نادرشاه" فكتبا رسالة إلى "شرزه خان" حارس قلعة "كابل" و"ناصر خان" حاكمها اللذين كانا من صنائع "خان دوران" و"زكريا خان" حاكم "لاهور" بهذا المضمون «إنه لمّا كان "نادر شاه" قد اطلع على أوضاع الهند بالكامل وعرف أن ملكها مع أعوانه المشغولين بالشراب ومعاشرة النساء صمم على أن يُنزل ضربة بهذه السلطنة، وأنتم تعرفون جيدًا أن الأمراء القائمين فى البلاط ليسوا على دراية بميدان الحرب حتى يواجهوا من يصل إليها، مع أنه مقبل على ركبه. ولمّا كان الحال على هذا المنوال فلا يمكن أن تنالوا الأمل فى الإمداد من هذه الناحية فالأفضل من هذا أن تتحركوا باحتياط وتنقذوه من الخطر».

هذه المراسلات زادت قلوبهم قوة وبعثت الأثر الذى كان مقصودًا فى قلب "ناصر خان" و"زكريا خان" . وصل نادر شاه إلى كابل بعد تسخير "غوربند" و"غزنين" وتثبيت حامية هناك وحاصرها، وزحف "ناصر خان" قبل وصول "نادرشاه" واتجه إلى "بيشاور" ولكن "شرزه خان" حافظ بشجاعة على المدينة وقلعتها ستة أسابيع وكتب ثانية إلى "ناصر خان" والبلاط طالبًا المدد؛ غير أن أحدًا لم يصل لنجدته بما جعل جيش "نادر شاه" يستولى على المدينة والقلعة زحفًا ويقتلوه هو وابنه، ووجد فيها "نادر شاه" خزينة مملوءة بالجواهر والأسلحة وغير ذلك كانت قيمتها تصل إلى مبلغ كبير وكانت محفوظة فى أراضيها منذ زمان الملك "بابر"(*). ولمّا وصل خبر أخذ "كابل" إلى الهند قرر الملك أن يكون الجيش مستعدا بما يلزم من أجل الحرب.

(*) هو مؤسس الدولة المغولية فى الهند التى عُرفت أيضًا بالدولة البابرية نسبة إلى اسمه والتيمورية أيضًا نسبة إلى جده "تيمور".

كتب الراجا "جسنيك" الذى كان مخلصا لـــ "خان دوران" أكثر من سائر الأمراء بأن مجيء "نادر شاه" أمر قد خططوه بتدبير، ومن ثم ينبغى أن تنتبهوا إلى أن الأمراء المغول أى أولئك الذين أصلهم إيرانى وتترى وكأنهم اتفقوا على الخيانة؛ فـــ "ناصر خان" و"شرزه خان" قد شدوا من أزر البلاط دائما بذلك أن أحدهما قد ضحى بنفسه فى خدمة البلاط، أما الثانى فقد فر إلى "بيشاور" خشية القتل، ولو أن "زكريا خان" حاكم "لاهور" قاوم لوجد جيشنا فرصة في أن يتقدم ويقف فى وجه العدو، فقد جعلنا "الچپوت"(*) مستعدين لأن نرفع الراية الملكية ونلتحق بها من حيث إن "خان دوران" كان يعرف أن "الراجا" خيّر فكشف عن مراسلاته للملك وقال : ليس من المصلحة أن يتحرك الملك من العاصمة وأن يشترك فى الحرب، وفى النهاية تقرر أن يزحف الجيش إلى "لاهور" وحتى يذهب الملك إليها أمر الجيش من هناك بالتوجه تحت قيادة "نظام الملك" واثنين من الأمراء الآخرين إلى "كابل" وبناء على هذا ذهب إلى حديقة "شاليمار" وبمعيته عتاد للزحف فتعجب الناس من أن "خان دوران" عاد من هذا المكان إلى المدينة، وأنه أعاق الزحف فى الوقت الذى كان "نظام الملك" يستطيع فيه أن يُعجل ولو بقدر. معنى ذلك أن المقربين من الملك مثل "خان دوران" الذين كانوا يعدّون أنفسهم فداء لولى نعمتهم قد هيأوا العوائق أمام الزحف بقدر، فوجد "نادرشاه" فرصة سانحة ونظّم شئون "كابل" وتحرك إلى مسافة أطول صوب "بيشاور" فأنزل الأفغان والقبائل هناك مشقة به وأعاقوه لمدة ستة أسابيع وشغلوه فقُتل وجُرح جمع كثير من جيشه، وعندما رأى "نادرشاه" أنه بدون إراقة دماء أكثر فمن المستحيل أن يعبر بقوة من المعابر وسيمنعه الأفغان الذين تحصنوا أعلى الجبال، فأرسل إليهم بعقد صلح فقبلوا اقتراح "نادرشاه" لمّا رأوا بدورهم أن إمدادًا لا يصل من الحكام، وأنه لم يكن قد وصلهم دينار كرواتب طبقًا لرسومهم فأقرضهم "نادرشاه" مبلغاً. ولمّا رأى الأفغان ذلك لم يحولوا بينه وبين العبور فحسب بل دخل جمع منهم فى جيشه

(*) من طوائف الهند المعروفة وتعرف أيضًا بـــ "الراجبوت".

وتبعهم الأفغان الآخرون بسماعهم الخبر وأخّر "نادرشاه" صفوة الجيش ووصل هو وفى رفقته عشرة آلاف من زبدة الفرسان القزلباش فى سبعة أيام إلى "بيشاور" حيث كان "ناصر خان" قد ضرب معسكره ذا السبعة آلاف فارس خارج المدينة وكان يظن أن "نادر" سيُعاق فى عبوره من تلك المعابر، وعندما سمع بخبر وصوله بعسكر كثير وقع الخوف فى قلبه، وذهب جمع من الأشخاص الذين كانوا قد جاءوا مددا له وبقى معه عدد قليل غير رفقاء الركب وقاوموا معه بشجاعة ولكنهم هزموا وأُسر "ناصر خان"، وما إن رأى البعض من الأفغان الذين كانوا قد انتظروا أعلى الجبال نتيجة الحرب حتى جاءوا وطلبوا الالتحاق بالخدمة. ودخل "نادرشاه" "بيشاور" بعد هذا الفتح واستولى عليها، وما إن وصل الخبر إلى بلاط الهند حتى خرج "نظام الملك" و"خان دوران" و"قمر الدين خان" وسائر الأمراء بأمر الملك عام ١١٥١ هـ / فى الثانى من يونيو ١٧٣٨م من المدينة بجيش كبير ومدفعية كثيرة وسائر معدات الحرب لمقابلة "نادرشاه" ونزلوا على مقربة من حديقة "شاليمار".

ألقى "نظام الملك" الذى كان مُحركًا لهذه الفتنة بقدر ما يستطيع رعبًا فى القلوب من سطوة عسكر "نادر شاه" وأعلمهم أن المقاومة لا فائدة منها وشغل فى الوقت نفسه خاطرهم وصرفهم عن التقدم، ولكن الملك أصدر أحكامًا بأن يتعجل "نظام الملك" وسائر الأمراء وأنه سيلحق بهم سريعاً، لذلك تحرك "نظام الملك" متقدمًا الجميع بموجب هذه الأحكام وضربوا المعسكرات فى صحراء "كرنال" التى تبعد ثلاثة وثلاثين فرسخًا عن "دهلى" وتحرك الملك فى ٢٨ رمضان عام ١١٥١ هـ / ١٨ يناير عام ١٧٣٨ م . وانضم إلى الجيش فى الرابع من فبراير. وبعد أن سخّر "نادرشاه" "بيشاور" عبر نهر "اتك" ووصل إلى "لاهور" مباشرة. وكان "زكريا خان صوبه"(*) الحاكم فيما يبدو قد حصّنها على النحو الضرورى وحفر خندقًا فى خارجها وكان مشتاقًا لدفع العدو، ولكن ما إن وصل جيش "نادرشاه" إلى مقربة من الخنادق فكما كان قد عرف تكليفه من مراسلات "نظام الملك" ترك الخنادق هو

(*) صوبه : لفظه تدخل على الحاكم أو الوالى أو حارس القلعة.

والجيش دفعة واحدة، واتجه إلى القلعة فظل "زكريا خان" يقصف جيش إيران من القلعة ثلاثة أيام ثم سلم بعدة شروط كان أحدها أن يحفظ أهل القلعة، فأرسل "نادر شاه" ألفا من الفرسان القزلباش واستولوا عليها وتوقف أسبوعا فى قلعة "شاليمار" القريبة من هذه المدينة كان بعدها فى اتصال مع جميع الجيش إلى أن حل بقرية "بتلوود" القريبة من "كرنال".

٦

مراسلاته :

قبل أن نشرع فى ذكر الوقائع بعد وصول "نادر" إلى "كرنال" نورد بعضًا من المراسلات التى كُتبت قبل عبور جيش إيران لنهر "اتك".

مراسلات "نادر" إلى الشاه "محمد الهندى" بتاريخ جمادى الأولى عام ١١٥١ هـ/١٧٣٨م :

لا يخفى على رأى فاتح الدنيا عالى الجناب "همايون" أن حضورى إلى "كابل" وتسخيرها كان مجرد غيرة إسلامية وودية بالنسبة لكم. ولم أكن أتصور مطلقًا أن يقوى "أشقياء الدكن" أى طائفة الـ "ماداتاها"(*) على أخذ الخراج من متصرفات ملك الإسلام. وتوقفى فى هذه الناحية على ساحل "اتك" لهذا النحو إنه إذا تحرك هؤلاء الكفار صوب "دهلى" فسأصدر أمرى إلى جيش القزلباش المظفر بأن يلقوا بهم إلى الجحيم، فصفحات التاريخ مملوءة بالصلات ما بين سلاطيننا وأجدادكم الكرام. وأقسم بعلى المرتضى أنى لم ولا أقصد مطلقًا غير الصداقة ونفع

(*) من طوائف الهند القوية.

المذهب. وإذا كنتم تظنون غير ذلك فأنتم مُخيّرون! وأنا على الدوام صديق هذه الأسرة المشهورة وسأظل.

وبعد شهر أُرسلت مراسلة أخرى مع سفير من طرف "نادر" إلى "محمد شاه" كان يبغى فيها خمسة وعشرين مليون تومان وأربع ولايات.

مراسلة واحد من القزلباش كتبت من معسكر "نادرشاه" فى جلال آباد إلى صديق له فى "دهلى" :

رافق "نادرشاه" ستة وثلاثون ألفًا من الفرسان و"قاسم بيك خان"، "ناظم مناظم"، "معتبر الملك"، "اعتماد الدولة"، و"مصطفى" صاحب ديوان الرسائل فتحاور مع الاثنين الأخيرين إذ لا يستطيع أحد غيرهما أن يعرض رسالة أو مطلباً، فمن هذا الجيش ألف فارس يلزمهم نقيب وألف فرد يلزمهم قاذف يتقدمون ويصيحون أن النصر لملك الملوك وألف فرد حارس مخصوص وألف فرد يتقدمون وأحيانًا يترجلون ويسيرون حول الملك(*). ولكن لا أحد معه مطلقًا فى وقت الحرب فكل شخص يظاهر عدوًا ويقتله على الفور، وخمسة آلاف تحت إمرة "حاجى بيگ خان" قائد الكرد، والآن وقد وصلنا "پيشاور" سندلف إلى منافذ "ناصر خان" محاربين وألف فارس من عشيرة "نادر شاه" تحت إمرة "جوانقلى بيگ باشى" وألفا فارس أزبكى وألفا فارس تركمانى وألفا فارس قزلباشى تحت إمرة "سردار بيگ افشار" وأربعة آلاف فارس أفغانى تحت إمرة "صفى خان" و"شاهين خان" من أصحاب المناصب لدى "حسين خان حاكم "قندهار"، واثنا عشر ألفا من الفرسان بمعية "نادرقلى" وصلوا حديثًا من "بلخ" فى إثرهم ألف وخمسمائة يبقون على استعداد يرافقهم أربعة آلاف فرد من المهنيين الذين يدفع الملك نفقاتهم، وإذا تضرروا فهم فى عهدة الديوان، وكان "نادرشاه" يجلس على العرش بعد صلاة

(*) أشبه بحرس الشرف فى الوقت الحالى.

الصبح وعلى رأسه مظلة ذهبية بينما يقف ألف من الشباب رافعين علمًا حريريًا أحمر اللون وحاملين ما يشبه الرصاصة المعلقة فى خيط حريرى على مسافات معينة بالتوالى، كما يصطف خمسمائة غلام سيماهم حسنة بين سن الثانية عشرة إلى العشرين نصفهم فى اليمين والنصف الآخر فى اليسار، ويقف الأعيان فى المقابل يتوسطهم صاحب ديوان الرسائل مستعدًا للعرض ويقدم العرائض مرة واحدة ولا يُعرف فى هذا الوسط داسٌ لماذا؟ ذلك لأن المخبرين كانوا يُطلعون "نادر" عما يدور، أما المقصرون فقيرهم وغنيهم كبيرهم وصغيرهم فجزاؤهم العقاب والقتل. وهو حتى الظهر جالس وعندئذ يتناول غداءه ويستريح لفترة ويعود للجلوس بعد صلاة الظهر والعصر حتى صلاة العشاء(*) ثم يلقى خمسة سهام فى أرض العامة(**) ويذهب إلى الحرملك.

مراسلة من "سربلندخان" فى "دهلى" إلى "ميرزا مغول" ابن "ميرزا ملى محمد خان" فى أحمد آباد فى ١٥ شوال عام ١١٥٠ هـ/ يناير ١٧٣٩م :

يتضح من هذه الرسالة أوضاع "دهلى" والأوضاع التى كانت تسود قبل مجىء "نادرشاه". كما تتحدث فى هذه الشهور الثمانية الأخيرة من وصوله : جاء "نادرشاه" إلى "قندهار" ومنها وصل إلى "كابل" المحاذية للهند واستولى عليها وأرسل منها سفيرا إلى "محمد شاه"، وسمعنا بخبر مجىء السفير وأخذ "كابل" فى شهر ربيع الأول فضرب إيوان الملك فى الخارج للذهاب إلى محاربة "نادر" إلا أن الذهاب قد تأخر بسبب اختلاف الأمراء، وأُرسل ما يقرب من مليون ونصف مليون تومان بالتدريج كنقد لنواب "ناصر خان صوبه"، إذ كان الأفغان قد ضموا هذه الأنحاء لهم ليقفوا فى مواجهة "نادر شاه" فقاد نواب "ناصر خان صوبه" الجيش

(*) أداء الصلوات الخمس دليل على تدين "نادر" على العكس مما ذكره البعض الآخر من المستشرقين من أن صلته بالدين كانت ضعيفة.

(**) إشارة إلى نهاية المجلس.

وتهيأ للحرب، وبذلك خرج جيشه من المدينة واستعد للقتال، وبعد أن بدأت الحرب وانطلقت دُفعة من دانات المدافع انشغل "زكريا خان" بإعداد دُفعة أخرى؛ وإذ بالقزلباش والجرجيين يخترقون صفوفهم بسيوف مسلولة وتصاعد القتال بشدة، وعاد "زكريا خان" من حيث أتى وأسرع فرسان "نادر شاه" يتعقبونهم حتى ذهب "زكريا خان" إلى منزله، ودخل عسكر "نادر شاه" إلى القلعة وأطلق المنادى هذا الخبر بما تسبب فى غضب شديد، فاستدعى "محمد شاه" صباح الاثنين التاسع عشر الأمير "سلطان أحمد" فحضر بتجمل وأبهة كبيرة وكان قد جلس فى هودج مرصع بالجواهر القيمة، بينما الملك قد امتطى جواده ساعتين قبل الظهر متجهًا للحرب. فخرج "نادر شاه" من القلعة وأنعم على الأمير بألقاب ومناصب كبيرة وجعله قائدًا على مقدمة العسكر وأرسله إلى حديقة "شاليمار" ودار فى خيالهم أن يتحركوا فى الغد ويلتحقوا بالأمراء الذين ذهبوا وكتبوا أنهم لن يتحركوا أيضًا حتى يصل الملك، ولما لم يصل "سعادتخان" عندئذ قالوا إنه فى الطريق إلى حوض نهر "كنك" بينما التمرد والشغب هناك مستمرين، وتجول جمع من الأعيان والتجار طوال اليوم ولجأوا إلى مناطق بعيدة وقلاع الراجات، ومزق "نادرشاه" أجساد ثمانين قزلباشيًا فى "كابل" وكانت جريرتهم فقط هى أن كلا منهم قد تحرش بامرأة.

أما جريدة "وقائع" فإن الأوضاع التى سجلها "ميرزا زمان" كاتب "سربلند خان" فى "دهلى" بعد وصول "نادر شاه" إلى الهند فقد نُقلت عن أصلها الإنجليزى.

كان معسكر "محمد شاه" قد أقيم فى الثانى عشر من شهر ذى القعدة فى صحراء "كرنال" فى محيط يقترب من أربعة فراسخ وكانوا قد حصّنوه بخنادق وخمسة آلاف عرّادة مدفع تتبع الملك والأمراء الفرسان، وكان فى خلف الملك منطقة مركزية، أما فى مواجهته فنفق أى خندق لـــ "نظام الملك" و"سعد الدين خان" وكانوا قد أقاموا فى هذه الخنادق مدفعية الملك الخاصة مزودة بلوازمها. وكان فى الميمنة كل من "خان دوران و"مظفرخان" و"على حميد خان"، "ميرقلى شهداد خان" و"خان زمان". وفى الميسرة "قمر الدين خان"، و"عظيم الله خان"، و"جانى خان سيد

نيازخان" وفى خلف إيوان الملك "سربلند خان" يظاهره "محمد خان بن كوش" خلف سرادقات "خان دوران گير بارام" مع طائفة "الراجات" وفى خلف خيام الوزير "هربنندامول كوطپوطلى" وعلى اليمين بمقربة من غرف الفنون أى صالة العزف مجموعة "بهروز خان" و"إسحاق خان" و"اصلح عليخان" أما فى خلفهم طائفة الأهبر. وكان كل من هؤلاء الأمراء يصاحبه عسكر خاص به. وكان عدد العسكر المستعد فى المعسكر مائتى ألف من الفرسان والمشاة. وفى نفس اليوم وصل خبر مؤداه أن "حاجى خان" الحارس الأول لـــــ"نادر شاه" قد وصل إلى قرية "تيلورى" التى تبعد عن المعسكر ثلاثة فراسخ وفى معيته ثلاثة آلاف من الفرسان الكرد، كما شوهد فى اليوم الثالث عشر بعض من فرسان القزلباش فى أطراف المعسكر كانوا قد قتلوا أو أسروا جمعًا كان يباغت المعسكر من الخارج وأحضروا أربعة من القزلباش المأسورين إلى نظام الملك.

٧

وقائع حروبه فى الهند :

فى اليوم الرابع عشر ترك "نادر شاه" قسمًا من العدة والعتاد فى "شاه آباد" التى تبعد منزلًا عن الهند وقسما آخر فى "طاتيسر" وحل برفقة أربعين ألفا من الفرسان بـــ "تيلورى" وكان ضمن هذا الجيش حاملو الحراب ورماة السهام وقاذفو البنادق ولكل فارس ثلاثة من الخدم وحارس وراع للجمل وكانوا كلهم شبابًا أقوياء ومسلحين وفرسانًا، وبعضهم امتلك جملًا والبعض الآخر بغلًا والبعض الثالث حصانً، ولم يكن فى جيش "نادر" كله مترجلاً، ومن السهل أن تجد خيَّامين ومهنيين كانوا يجيئون إلى المعسكر وكلهم مسلحون وكان عددهم مجتمعين مائة وستين ألفا، ولا يلاحظ فى وقت الحرب فرق بين السيد والخادم، ولم يكن أحد يستطيع أن

يفرق بين الخيَّامين والمهنيين عن الجندى والخادم ، وكانوا محاربين جسورين صامدين ومستعدين لكل عمل شاق ومعهم ما يقرب من ستة إلى سبعة آلاف امرأة كانوا قد أسروهن من التركمانيات والقندهاريات، ولم يكن يفرقن فى وقت التحرك عن الجنود. وكن جميعًا يرتدين غطاء مطر فوق لباسهن ويعقدن الوسط ويغطين وجوههن بنوع من النقاب ويربطن شالًا مثل العمامة على الرأس، وكن يلبسن حذاء لأسفل الركبة فى القدم مثل الرجال. وفى هذا اليوم وصلت عدة رسائل إلى "نظام الملك" بأن يعقد اتفاق صلح فرفض الجميع وعادوا للحرب. وفى يوم ١٥ ذى القعدة تحرك "نادر شاه" من "تيلورى" لضيقه من نقص الماء، ونزل فى المحل الذى كان يقع خلف معسكر "خان دوران" بمسافة فرسخين.

فى صباح هذا اليوم وصل "سعادتخان" وتوجه لمقابلة الملك ووصله خبر فى حدود ساعات ثلاث قبل الظهر بأن مقدمة جيش إيران حملت على أتباع "سعادتخان" وعتاده فبعضهم بعيد عن المعسكر والبعض الآخر خارج الخنادق فكان أن وقعوا ما بين معسكر "نادر شاه" و"خان دوران" فقتلت جمعًا ونهبت أموالاً، وما إن سمع "سعادتخان" هذا الخبر خرج من البلاط وأسرع فى تخليص أنصاره ولحق به "خان دوران" القريب منه على رأس جيش قوامه مائتا ألف وصحبه أيضا "مظفر خان، "سيد حسنخان"، "خانزمانخان"، "ميرقلى شهداد خان"، و"أصلح عليخان" وغيرهم، وذهب معه اثنان وعشرون واحدًا من الأمراء وأصحاب المناصب الكبار مع أتباعهم. وعندما عرف "نادر شاه" الذى كان قد وصل حديثًا من "تيلورى" وتوجه إلى هناك اختار من عسكره أربعة آلاف، ألفا من الكرد وألفا من الغجر وألفا من البختيار وألفا من حملة البنادق، ووضع ثلاثة آلاف منهم فى أماكن مختلفة فى كمائن وأرسل خمسمائة من حملة البنادق فى مواجهة "سعادتخان" وخمسمائة آخرين فى مواجهة "خان دوران" ليحاربوا فى الداخل. وما إن استخدم هذا التدبير وشغلوا به اندفع الفرسان من كمائنهم فى ثلاث نواح دفعة واحدة وحملوا بضراوة غير أربعة آلاف فارس من جيش "نادر" الذين لم يشترك واحد منهم فى هذه

الحرب، اللهم هو الذى كان يتحرك بألف من فرسان الافشار صوب الأطراف. وكان يُشجع الفرسان ويخطط برنامج العمل، أما بقية العسكر فكانوا قد اصطفوا بعيدًا حسب الأمر. وكانت كل طائفة تلتزم بمكانها مستعدة لأن تأتى مددًا بإشارة، ولكن لم يصدف أن حدثت الحاجة إليها. حارب هؤلاء الأربعة أو الخمسة آلاف حتى العصر بجد فاستسلم عسكر الهند وأُسر "سعادتخان و"شيرجنگ"(*) وابن "خان دوران" الصغير وأصيب "خان دوران" بجروح غائرة فحملوه إلى خيمته، كما قُتل عدد آخر من أصحاب المنصب وجُرح آخرون وعادوا إلى المعسكر، وأصيب "سيد حسنخان" وذهب إلى "دهلى" ودُفن عدد كثير فى ميدان الحرب وعندما عاد الفارّون من الحرب صارت فوضى ووقع هياج غريب فى المعسكر ونهب أتباعهم خيام "خان دوران" ومتاعه و"مظفرخان" و"سعادتخان".

ذهب الملك أى "محمد شاه" فى أثناء هذا الاضطراب إلى خندق "نظام الملك" الذى كان فى مقابل المعسكر وخرج باتفاق مع الوزير وسائر الأمراء من الخنادق وصفُّوا العسكر الذين لم يتركوا العدو يتقدم أكثر. ولو لم يكن الليل قد جن لما كانت هذه التدابير قد أتت بفائدة؛ ولكان العمل فى هذا اليوم قد ضاع هباء. عاد الملك بعد ساعة من الغروب إلى خيمته وهرب جمع من عسكر الهند الذين تخلوا عن الحرب وجمع آخر منهم كانوا مكلفين بالمتاع والأحمال إلى "دهلى". وقد أغاروا على أكثرهم وقتلوهم؛ إذ كانت بعض أماكن المعسكر خالية من التجمع بحيث لم يكن يُرى شخص عندما طلب الملك "نظام الملك" فى المسافة ما بين خندقه وخيمة الملك. ظل "نظام الملك" و"سربلندخان" و"قمر الدين خان" وسائر الأمراء الذين كانوا قد بقوا فى حضور الملك للتشاور إلى وقت متأخر عادوا بعده إلى مقارهم.

وعندما رأوا فى اليوم السادس عشر أن المعسكر خال من التجمعات وكان هناك تخوف من حملة القزلباش تهدف إلى تضييق محيط المعسكر وتقريب

(*) يعنى هذا الاسم أسد الحرب.

المعسكرات من بعضها البعض بجعلها على قدر العسكر الذين كانوا قد بقوا؛ فاجتمعت فى صحن خيمة الملك وخندق "نظام الملك"، وكانوا طوال اليوم تحت السلاح ويترصدون فى كل دقيقة مجىء العدو، وأقاموا قرب العصر خيمة صغيرة للملك ورتبوا لجميع العسكر مكانًا كل فى محله وقضى العسكر طوال الليل تحت السلاح بينما الخيول ترعى وهى مسروجة.

مضى اليوم السابع عشر فى وحشة واضطراب. وفى هذا اليوم طلب "سعادتخان" أتباعه وعتادهم بأمر من "نادر شاه"، وكان بعضهم موزعًا بين أرجاء المعسكر فذهبوا إليه ونقلوا معهم الأشخاص الذين كانوا قد بقوا كما كانت خيولهم وعتادهم قد راحت نهباً، وأمر "نادر شاه" فأقاموا خيمة قريبة من إيوانه لـــ "سعادتخان" و"شيرجنگ" وابن "خان دوران" وأقاموا أتباعهم وعتادهم خارج المعسكر ولم يجرؤ أحد على أن يذهب لرؤيتهم، ولم يكن مرخصًا لهم أن يمتلكوا اللوازم وما يحتاجون إليه. وفى اليوم الثامن عشر توجهوا إلى معسكر "نادر شاه" للصلح، وبقوا هناك ست ساعات عادوا بعدها ولم يعرف أحد ماذا دار.

وعند العصر مات "خان دوران" متأثرًا بجرحه الذى كان قد أصيب به، ومر يوم التاسع عشر أيضًا فى هياج وحراك، وفى المساء توفر لـــ "نظام الملك": خلعة وصار القائد العام وأمير الأمراء، وفى صباح اليوم العشرين حملوا جثمان "خان دوران" من المعسكر إلى قرية "كرنال" وجلس الملك فى "التختروان" تحت مظلة وأمامه جواد راقص وطبل، ثم خرج مع "غازى الدين خان عظيم الله خان" ابن الوزير وعدد من السادة ومائتى فارس من المعسكر، وما إن سار مسافة حتى أشار فتوقف الفرسان وذهب مع السادة والأمراء الذين أخذوا خدمًا فى ركبهم إلى معسكر نادر شاه .

وفى وسط الطريق خف "طهماسبخان" النائب لاستقباله خادمًا له، ثم وصل "نصر الله ميرزا" ابن "نادر شاه" إلى "التختروان" وترجل وأدى مراسم الاحترام حسب طقوس مملكته فصحبه "نصر الله ميرزا" واتجها حيث المدفعية وتقدم الحرس

وعبر الملك برفقة بعض السادة الأمراء واستقبلهم "نادر شاه" لدى وصولهم إلى باب خيمته واحتضنه وأجلسه إلى جواره وبعد التعارف والسؤال عن الأحوال خاطب نادر شاه الملك قائلاً: « من العجيب أن تكونوا على هذا النحو فى أموركم منفكّين غير مبالين، فعلى الرغم من أننى كتبت لكم مرارا وبعثت بالسفراء وأبديت المودة ؛ يبدو أن وزراءكم لم يروا أنه من اللازم إرسال الرد الكافى إلىَّ، وبسبب عدم تنفيذ أوامركم وإدارتكم قُتل واحد من سفرائى على خلاف جميع القوانين فى المملكة، من السهل مادمتم لا تكترثون بأموركم فعندما أدخل إلى مملكتكم أن ترسلوا لتسألوا من أكون ؟ وما يدور فى ذهنى، وعندما وصلت إلى "لاهور" لم يحضر أحد من جانبكم يحمل رسالة أو سلاماً!! ألا يكون جوابكم خاليًا من السلام علىَّ، لكن بعد أن أفاق أمراؤكم من ثباتهم وغفلتهم قطعوا كل طرق الصلح واحتشدوا بكل الفوضى ليقفوا فى طريقى وأوقعوا أنفسهم فى الشرك. بهذا القدر لم يتوفر لديهم الحزم والتحوط ليتركوا فرصة لاتفاق إذا حدث يستطيعون به عمل شيء وإصلاح ذات البين. وبغض النظر عن كل هذا اجتمعوا فى خنادقهم بدون توخ لإعمال الذهن. فلا تتصوروا أنه إذا كان العدو أقوى منكم فلن تستطيعوا أن تعيشوا بدون ماء وطعام وعلوفة. وإذا كان أضعف منكم فلم يكن لازمًا بل غير لائق أن تحضروا بأنفسكم، وإذا كنتم لا تبالون بالعدو وتظنونه شخصًا متهورًا بلا ضابط، فلم يكن ينبغى أن تعرّضوا شهرته وشخصه للخطر؛ ولكن هكذا اغتررتم بخيالاتكم الصبيانية وعزمكم الجاهل فلم تصغوا لأى من المفاوضات الجادة ولم تتبينوا صلاحًا لكم، حتى رأيتم الحرب فى النهاية بعون رب العالمين وقوة سيف المحاربين المنتصرين . هذا ما حدث بالإضافة إلى أن أجدادكم كانوا يأخذون الجزية من الكفار بينما أنتم تعطونهم الخراج عبر عشرين عامًا من هذا الزمن وأنتم صاغرون إلى حد أنهم استولوا على المملكة. ولكن لمَّا لم يصل أذى وضرر من أسرة "تيمور" للأسرة الصفوية والشعب الإيرانى فلن أخلعكم من السلطنة بدورى. أما وقد أجبرنى عدم انضباطكم وغروركم لأن أقطع مسافة بعيدة إلى هنا فقد تكبدت مبالغ باهظة وجيشاً متعبًا من التحرك الزائد، وضائقًا من نقص العلوفة

والاحتياجات، وينبغى أن أجىء إلى دهلى وأبقى فيها أيامًا حتى يتعافى العسكر ويتسلم الهبات التى قررها "نظام الملك" سأترككم بعد ذلك فى حالكم لتمارسوا شئونكم.

لم يحر "محمد شاه" طوال الوقت جوابًا وكان ساكتًا وظهرت عليه علامات تغير القسمات والخجل، ولم يكن يحضر المجلس أحد غير "جوادخان وبهروز خان وغازى الدين خان"، وعند العصر عاد الملك "محمد شاه" فعرض عدد من أصحاب المناصب على الملك أن العلافين قد رفعوا سعر الغلة، فحكم بأن يغيروا على دكاكينهم فصار هذا الإقدام من أسباب ارتفاع الأسعار بدلاً من إصلاح الأمر .

٨

وقائع نائب السلطنة فى الدكن :

فى اليوم الحادى والعشرين حضر "نظام الملك" والوزير و"عظيم الله خان" و"غازى الدين خان" إلى مجلس "نادر شاه" وعندما كانوا يستأذنون تشرف "نظام الملك" بمنحه كرة تستخدم فى الحروب وجُبَّة وحصاناً، كما أنعم على "عظيم الله خان" و"غازى الدين خان" بجبة وقباء، وما إن مضت ثلاث ساعات من الليل حتى جاءوا لمجلس "محمد شاه" وعرضوا ما كان قد بحثوا فيه عند "نادر شاه"، ولكن لم يعرف شخص ماذا حدث؟ وفى نفس اليوم حكم "محمد شاه" أن يدفنوا خمسمائة من جثث القتلى فى "يلدار"، وكان سبعة عشر من عسكر الهند قد قتلوا وتبعثرت جثثهم فى مسافة أربعة فراسخ، وحثى أهل "يلدار" قدرًا من التراب على أجسادهم وعادوا. وقد ذُكر أن أربعمائة من جيش نادر قتلوا وأن سبعمائة آخرين قد جرحوا، ولكن لم يُر أى من قتلاهم فى ميدان الحرب وكانوا قد دفنوهم فى نفس الليلة، كما أن جمعًا

من الجيش الهندى كانوا قد جرحوا جرحًا لم يعودوا قادرين معه على الحركة، ومع هذا لم يرحمهم شخص بأن يخرجهم من ميدان الحرب ويعالجهم فمات المساكين فى أقل زمن بين أجساد القتلى، كما قُتل ثلاثة أفيلة أيضاً.

وفى هذا اليوم الذى هو الحادي والعشرون، لم تكن الغلال تتحصل بسهولة فالكيل الصغير بروبية والزيت كذلك يصل السعر للوزن القليل أربع روبيات. وعلة هذا الغلاء هو أنه بعد حدوث الحرب بات المعسكر محصورًا فى الحقيقة وأن العلوفة لا تستورد من الخارج، ولم يكن أى من العسكر يجرؤ على أن يخرج من الخنادق. أما فى معسكر نادر شاه فلمًا كانت المسافة تمتد من ثمانية عشر إلى أربعة وعشرين فرسخًا فإنهم يحصلون على العلوفة من الأطراف فالقمح يباع بروبية لكل ثلاثة منات. ووصل عدد الأشخاص الذين قتلوا فى الطرق والأنحاء على يد عسكر "نادر شاه" الذين يخرجون للإغارة والنهب ما بين أربعة عشر إلى خمسة عشر ألف شخص.

وفى اليوم الثانى والعشرين جاء "قاسم بيگ" من معسكر "نادر شاه" وظل حتى العصر عند "نظام الملك" وتحرك "مير حسنخان" الذي كان قد جرح فى الحرب صوب "شاه جهان آباد"، ولكنه عاد خشية عدم توفر الأمن ووصل اليوم إلى المعسكر.

وفى اليوم الثالث والعشرين حرّكوا معسكر جيش الهند ناحية "كرنال" فى مواجهة عسكر "نادر شاه". وأثناء تحرك المعسكر ومسيرة القزلباش نقلوا معهم سبعة وعشرين فيلًا وخمسة وعشرين جملًا وأطلقوا فى الليل قذائف نارية.

وفى اليوم الرابع والعشرين استدعى "نادر شاه" "نظام الملك" إلى معسكره، حيث احتفظ به وبرفقته خمسة إلى ستة من خدمه وصدر الأمر إلى جمع من القزلباش بالتوجه إلى "طانيسر" فأغاروا عليها وقتلوا السكان وعادوا بغنائم وفيرة. وفى معسكر "محمد شاه" إذا وجُدت غلة فيباع الكيل الصغير بروبيتين ونصف إلى

ثلاث روبيات. وكل شخص يذهب إلى معسكر نادر شاه مسموح له أن يشترى الغلة بقدر ما يستهلك، ولكنه لا يستطيع أن يحملها إلى الخارج. وما إن مضت ساعتان من الليل وصل فرمان من "نادرشاه" إلى الوزير بهذا المضمون:

«ليعلم "قمر الدين" الوزير أنه يجب على "محمد شاه" و"سربلند خان" و"محمد خان بن كوش" و"عظيم الله خان" أن يحضروا غداً، ولهذا ينبغي أن تكلفوا رعيتكم بألا يتفرقوا وألا يذهبوا إلى الخارج وأن يحضر هو بعد إقرار هذه المسألة».

وعندما وصل هذا الخبر إلى "محمد شاه" استدعى "سربلندخان" وسائر الأمراء، وظل المجلس متوترًا حتى منتصف الليل . وفى النهاية قال الملك : «لقد ضاعت الأمور من بين يدى، ويجب أن أفعل واحدًا من ثلاثة: أن أتحرك غدًا بالعسكر وأضحى بروحى، أو أتجرع السم وأنهى عملى وأرفع كل تصوراتى ومأساتى، أو أن أخضع لأى أمر يحدث مختارًا وحسب ما يمليه "نادر شاه"؛ وإن لم يصرح به فليكن على نحوه الأخير».

وفى اليوم الخامس والعشرين حضر "سربلند خان" و"محمد خان" وغيرهما، كل منهما بأتباعه ليستعدا فى أى وقت يرى فيه الملك الحرب، وإذا أراد الاستسلام لـــ "نادر شاه" وأمر بذلك فليوافقاه ويكونا فى صحبته حسب تقديره، ولكن فى ذلك اليوم لم يُنفذ أى منهما ما يدور فى ذهن صاحب المقام، ولم تكن الغلال متوفرة مطلقًا وكان لحم البقر النتن على الرغم من أنه كثير الوزن القليل منه بروبية، وفى المساء جاءت رسالة من "نادر شاه" على هذا النحو : «اسعد واهنأ "سربلندخان" واحضر إلى هنا قبل أن يتحرك "محمد شاه"».

فى اليوم السادس والعشرين تحرك "سربلندخان" بعد الحصول على إذن صوب معسكر "نادر شاه" وطبقًا للاتفاق وضع أتباعه وعتاده فى الميمنة، وأدخل نفسه مع "خانزادخان" ثلاثة فرسان وأربعة أو خمسة خدم إلى المعسكر واتصل بالبلاط وأقام خيمة صغيرة له فى مقر "سعادتخان". وقبل ظهر هذا اليوم بنحو ثلاث ساعات جلس "محمد شاه" حسب الاتفاق فى التختروان السلطانى ووضع

مظلة على رأسه وكان فى ركبه "أمير خان" و"إسحاق خان" وعدد من السادة فى طريقه إلى معسكر "نادرشاه"، وعندما وصل ترجل عند الخيمة التى كان نادر شاه قد أمر بإقامتها من أجله أمام المعسكر، حيث جاء إذن العدد الذى يلزمه من الخدم طبقًا لأصنافهم بأن يجيئوا وعُين ألف فارس قزلباشى، وما إن مضت ساعتان من الليل ذهب "محمد شاه" فى ذلك اليوم إلى مجلس "نادر شاه" طبقًا للدعوة وبقى هناك ثلاث ساعات، رجع بعدها إلى معسكره وكان قد تقرر ألا يذهب أحد من الأمراء لرؤيته.

وفى اليوم السابع والعشرين استدعى "سربلندخان" فذهب إلى بلاط نادر شاه وتقرر أن يذهب إلى قائد الطابية وقائد النظام، وكان لكل من هذين الشخصين مائتا فارس، وصدر الأمر لقائد الطابية أن يتحفظ هو و"سعد الدين خان" على كل مدفعية "محمد شاه" وأمرائه، كما صدر الأمر لقائد النظام بمعاونة "نور الدين خان" بأن يصادر خزانة وجواهر وبيت السلاح وجميع الأثاث والمتعلقات والأسلحة التى كانت فى حوزة "محمد شاه" والأمراء القتلى وأن يرسل "سلطان أحمد" ابن "محمد شاه" الملكة "ملك الزمانى" إلى "محمد شاه"، وأن يبلغ قمر الدين خان" و"سعد الدين خان" أن ينشغل جميع الخدم والعسكر القديم بالعمل لديه وأن يأتوا فى صحبته. أما العسكر الجديد فيذهبون إلى حيث يريدون، وبناء على ذلك ذهبوا إلى "محمد شاه" و"ملك الزمانى" وسائر الحريم بمقتضى حكم "نادر شاه". وحدث اضطراب وهياج غريب فى جهاز "محمد شاه" وشُخص كثير مما كان موجودًا وفقد طريقه. وكان جمع من أهل المعسكر يعودون إلى الأطراف حافظين خيامهم وأسبابهم من الخوف ليقوا أرواحهم فى ناحية ما خاصة أرباب الصنائع وأهل الخدمة.

وفى اليوم الثامن والعشرين ذهب "محمد شاه" بعسكره ومتاعه إلى معسكر "نادر شاه"، وكانت المدفعية من خلفه. وفى الطريق رُخص للعسكر الجديد بما اُتفق عليه وأن يذهبوا إلى حيث يريدون. وأن يقيم خدم "محمد شاه" القديم فى طرف من المعسكر الذى يفصله عنه نهر صغير بمقتضى حكم خاص.

سُلمت أموال "محمد شاه" والأمراء الذين كانوا قد أحضروهم إلى "نادر شاه"، وأرسلوا إلى كابل مائتى عرادة مدفع بأدواتها مختارة من مدفعية "محمد شاه" مع الخزانة وسائر الأموال التى كانت قد صودرت فى حراسة ألف فارس من مدفعية "محمد شاه" وألفين من فرسان القزلباش حتى تُرسل من هناك إلى قندهار. وفى هذا اليوم منح نادر شاه رواتب ثلاثة أشهر كاملة لجميع أفراد معسكره من جنود وحراس وحرفيين فى المعسكر وغيرهم، كما كان قد أعطاهم وقت أخذ قندهار. وصدر الأمر إلى "طهماسب وكيل"(١) قائدًا لأربعة آلاف من الفرسان والمشاه بالتوجه إلى "شاه جهان آباد" لتسخير القلعة كما صدر الأمر إلى "سعادتخان" بحراسة المدينة والأبنية ومتاع الأمراء.

صدر الأمر أيضًا إلى "غظيم الله خان" بحراسة النهر، فذهب كل بأتباعه وعتاده بصحبة بعض من المكلفين بالفرسان، وتقرر على وجه التأكيد ألا يسمحوا بإلحاق أذى أو ضرر بأهل المدينة وتوجه "سربلندخان" إلى جهازه حسب الحكم.

وفى غرة ذى الحجة شُغل "نادر شاه" بتهيئة الذهاب إلى "شاه جهان آباد"، وما إن أصبح الصباح حتى تحرك بعشرين ألفًا منتخبين، كما صدر أمر لأربعة آلاف من حاملى البنادق أن يفرقوا بين ناحية كانت تمر فيها الحريم وخمسة فراسخ أخرى تفصلها بالعسكر. ولم يكن مسموحًا لإيرانى أو هندى أن يذهب فى هذا الطريق وإن خالف يعاقب بالقتل. وكانت مسافة كل جماعة وقت التحرك تبعد عن بعضها بطول سهم وكان "محمد شاه" على بُعد نصف فرسخ برفقة أربعين إلى خمسين شخصًا من المعتبرين مع عشرة آلاف فارس قزلباشى وألفين من حملة البنادق خلف "نادر شاه"، وكان فى طرف "سربلندخان" بأتباعه وعتاده وخلفه خدم "محمد شاه" وعتاده، وفى طرف آخر أتباع "نظام الملك" و"قمر الدين خان" وعتادهما، وكان فى خلفهما "محمد خان ابن كوش" بأتباعه وعتاده، والمسافة بين

---

(١) هو نائب طائفة القاجار التى تحالفت مع "نادر" وصاحبته واشتركت معه فى فتح قلعة "كلات" حصنها الحصين.

كل مجموعة ربع فرسخ ومدار أو أكثر، وكان قد عهد إلى جماعة من فرسان القزلباش بألا تسمح أن تنضم إلى بعضها البعض أو تتجاوز المكان الذى كان قد حُدد لها، وكانوا يقطعون فى التحرك مسافة ثلاثة فراسخ طولًا وفرسخ ونصف فى العرض من الصحراء، وكان هذا النحو مقررًا كل يوم، وبعد خمسة أيام من التحرك المتصل وصلوا إلى "سنپوت" وحدث فى عرض الطريق أنهم لم يغيروا فقط بل قتلوا أهلها كما نهبوا "پانى پت" و"سنپوت".

وتحركوا يوم الثلاثاء ٦ ذى الحجة من "سنبوت" إلى "تيرلا"(*) وفى منتصف الليل أبدى "سربلندخان" انزعاجه وسُمح له بأن يتجه إلى المدينة فوصل فى الصباح إلى منزله.

وفى يوم الأربعاء السابع من ذى الحجة وصل "نادر شاه" إلى حديقة شليمار.

وفى يوم الخميس الثامن من ذى الحجة جلس "محمد شاه" بأمر من "نادر شاه" فى التختروان السلطانى وكان على رأسه مظلة وبيرقان، وقد وصل القلعة بمائتين من الفرسان والمشاة خدم له وأربعة آلاف فارس قزلباشى برفقته، وحُددت له بناية قريبة من مكان عيشه، وكان "نادر شاه" قد سمع أن أهل المدينة ليسوا على هدوء ويدور فى أذهانهم فكر التمرد فلم يرد أن يصل فى المساء بل يصل القلعة فى الصباح وبمعيته عشرون ألفًا من الفرسان باحتياجات كاملة وترك بقية العسكر فى معسكر خارج المدينة، وبعد أن ترجّل جاء "محمد شاه" مهنئًا بمقدمه وتناولا الغذاء سويًّا وظلا مشغولين بالحديث حتى العصر، وكان "نادر شاه" يتصرف معه بكل مودة ومحبة ظاهرة وصدرت أحكام صارمة منها : ألا يُلحق الجنود ضررًا أو سوءًا بالأهالى وحكم على مسئولى النظم المشرفين على هذه الأمور ألا يتأذى أى شخص من الهنود وألا يضايقوهم بأى نوع من العقاب من قبيل قطع الأذن والأنف والضرب بالخشبة؛ وبذلك لم يجرؤ أى من القزلباش كبيرًا أو صغيرًا على أن

(*) يبدو أنها "كيرلا" وهى منطقة مشهورة فى الهند.

يحتك بالأهالى إذ كان أغلب الناس قد خشوا من هيئة عسكر "نادر" الموحشة وبشرتهم الصارمة إلى حد أنهم كانوا يتجنبون التعامل والحديث معهم.

استدعى "نادر شاه" سعادتخان فى الليلة التاسعة وتحدث معه بعنف فى باب جمع الهدايا التى كان "نظام الملك" قد قررها، وتعادل قيمتها خمسة وسبعين مليونا من التومانات ووجَّه له بعض الألفاظ الحادة. وفى اليوم التالى وقد بقى على طلوع الشمس ساعتان ودع "سعادتخان" الدنيا لما أصابه من ضعف وسقم، وقد قيل إنه هلك من شدة التوتر بسبب السلوك الذى كان قد رآه أو أن البعض الآخر يذهب إلى أنه أهلك نفسه من غائلة تجرع السم.

وفى يوم السبت العاشر من الشهر الذى كان عيد الأضحى، تحولت الشمس إلى برج الحمل بعد ساعتين واثنتى عشرة دقيقة بعد طلوعها، واتجه "سربلندخان" إلى القلعة بناء على الاستدعاء حيث كان هناك "طهماسبخان وكيل" و"مصطفى خان" مسئول العرض و"نظام الملك" و"قمر الدين خان" مشغولين بالحديث طوال اليوم عن كيفية جمع وجوه الهدايا.

وفى ظهر هذا اليوم أرسل "طهماسبخان" تسعة أفراد من المسئولين عن النظم إلى "پهركنج" أى ميدان الغلال وحكم بأن تفتح المخازن وأن تحدد قيمتها، فذهب المسئولون عن النظم وفتحوا أبواب المخازن وباعوا ما يقرب من المَنيّن والنصف بروبية، ولمّا لم تكن هذه القيمة موافقة لميل أصحاب الغلة اجتمعوا قرب العصر وانضم إليهم جمع من المحتجين وقتلوا مسئولى النظم مع جمع من القزلباش الذين كانوا قد جاءوا لشراء الغلال، وراج الخبر عند المغرب بأن "نادر شاه" قد أُسر وقال البعض أنه قد سُم، ولهذا خرج المجتمع عن حد التصور، وتحولق الغوغاء والأوباش من ناحية بالأسلحة التى كانت تصل إليهم وتدفقوا على القلعة كالطوفان.

ومن عسكر "نادر"، أولئك الذين كانوا فى خارج القلعة وأعلى جدرانها، فدلف فريق إلى داخلها وجمع آخر فى الفاصل ما بين القلعة والنهر كما قتل جمع منهم، ومن القزلباش من اختفى فى ميدان "خان دوران" والمبانى الكبيرة وكانوا

طوال الليل مواظبين على الحفظ والحراسة، وانطلقت بعض طلقات المدافع والبنادق من القلعة والمنازل التى لجأ إليها القزلباش حتى أنهم لم يدعوا المتمردين يقتربون منهم، إلا أن عددًا منهم كانوا يتصلون ببعضهم بعضًا فيزيدون غضبًا على غضب؛ فحبس "سيدنياز خان" صهر "قمرالدين خان" بعضًا من مسئولى النظم الذين كان قد طلبهم لحراسة منزله فأدخلهم فى حجرة وأضرم النار فيها.

وفى يوم الأحد الحادى عشر، ما إن مضت ساعتان من النهار وعندما وصل الهياج إلى ذروته؛ خرج "نادر شاه" فى أشد حالات التوتر من القبة وامتطى صهوة حصان، واتجه إلى ميدان "چاندنى جوك" ليخمد فتنة الناس الذين كانوا يرتكبون أعمالًا غريبة هناك فشاهد نعوشًا لبعض عسكره الذين كانوا قد قُتلوا فى المساء وأرسل فيلقًا قويًّا ليسكت الناس.

وحكم بأنه إذا كان التهديد والوسائل الأخرى لا تُجدى نفعًا فليفتحوا النيران إعمالًا للقتل، ولكن ليس على أولئك الذين لم يرتبطوا بالتمرد. تحرك عسكر "نادر" بهدوء ولكن الناس بدلًا من أن يركنوا إلى الهدوء زادوا على جسارتهم وتبجحهم وشرعوا فى استخدام السهام والبنادق دون تَوَقُّف، وذهب "نادر شاه" إلى مسجد "روشن الدولة" القريب من محكمة "كوتوال". فاتجه أهل المدينة إلى المسجد واعتلوا سقفه وشرعوا فى إلقاء الحجارة ورموا من إحدى النوافذ بطلقة بندقية هدفها "نادر شاه" فأخطأته وقتلت واحدًا من أصحاب المناصب الذى كان يقف قريبًا منه، وتسبب هذا فى تخلص "نادر" من كظم غيظه وحكم بأن يشرعوا من هذا المكان بسفك الدماء فقفز الجنود فى لمح البصر من أعلى الجدران والأسقف وبدأوا فى إعمال القتل والنهب الذى استعر فى مسافة من "سوق الصرافين" أمام القلعة حتى مقر العيد القديم الذى كان يبعد فرسخا ونصف فرسخ وانشغلوا بالقتل من طرف حتى مقبرة "جيت لى" ومن آخر حتى سوق بائعى الدخان وجسر "ميطانى"، ونُهبت كل الحارات والأسواق والشوارع والمخازن فى كل أطراف "سوق خانم" وأطراف المسجد الجامع وسوق القطن وبائعى الجواهر تماماً، واحترقت أغلب الأماكن وكل شخص كان كبيرًا أو صغيرًا رجلًا أو امرأة وجدوه فى محل أو منزل أو حارة أو زقاق ودكان لم يسلم من سيوفهم، حتى الحيوانات لم تخلص من قهرهم وغضبهم وأسروا جمعا من النساء.

أما "لطفعليخان" الذى صدر له الأمر بإعمال القتل فى الضاحية المجاورة لـ "ميدان سعد الله خان" وبوابة دهلى فما إن وصل إلى منزل "سربلندخان" حتى تعجب من لقائه ودُهش وقال: إن أهل هذه الضاحية لم يرتكبوا ذنبًا ووعد أن يدفع مبلغًا من المال، فما كان منه إلا أن انصرف عن القتل والغارة ولكنه استمر فيها مع حرق المنازل بنحو عنيف فى أماكن أخرى. وعاد "نادر شاه" بعد صدور هذا الحكم إلى القلعة وما إن مضت ساعتان بعد الظهر حتى ذهب "محمد شاه" و"نظام الملك" إلى مجلسه وتشفعا لأهل المدينة فحكم بأن يتوقفوا عن القتل وأعلن عن طريق النداء ألا يُنزلوا أذى بالأهالى .

لقد طال سفك الدماء من أربع ساعات قبل الظهر حتى ثلاث أخرى بعده وقُتل مائة قزلباشى ولم يسلم أهل المدينة كبيرًا أو صغيرًا من القتل إذ حصد حد السيف منهم مائة وعشرين ألف فرد، ويرى البعض أنهم بلغوا مائة وخمسين ألفاً.

وأحضروا إلى "نادر شاه" ما كان قد نُهب من النقد والأشياء العينية غير أن أكثرها تلف أثناء الحرائق. وفى أكثر منازل الهنود لم يكن قد بقى شخص واحد حيًّا بينما تراكمت النعوش بجثثها بعضها على بعض، وكانت تُحرق وهذا هو المعتاد فى الأزقة. ولم يقتل بعض الأشخاص نساءهم فحسب من أجل الشرف بل أهلكوا أنفسهم أيضاً، فعندما رأى واحد من هؤلاء المساكين الجنود يقتربون من منزله أحرق عشرين امرأة من أبناء أسرته وكان ينتظر أجله إن دخلوا بيته فسيقتلونه، وحدث أن عبروا ذلك البيت ولكن كان قد اختل فى رأسه(*) فخرج ولجأ إلى الجنود وأعادهم وأراهم بيته قائلاً: "هنا نفر وأموال زائدة" فنهبوها ثم قتلوه وواصلوا عملهم فمن حيث أراد المسكين أن ينقذ نفسه أحرقوا جمعًا كثيرًا خاصة النساء والأطفال فى منازلهم.

(*) دليل على ما انتاب الناس من شدة الهلع.

٩

نادر شاه يمارس السلطة فى الهند :

فى يوم الاثنين الموافق الثانى عشر أعادوا بأمر "نادر شاه" الأسرى خاصة النساء إلى بيوتهم ولكن بعيون باكية وفى حال لا يمكن معه تصوير ذلك القبح.

فى يوم الثلاثاء الموافق الثالث عشر كان "نادر شاه" قد أمر قسما من الجيش بأن يستولوا على مدافع قصر "روح الله خان" فحاصرهم الأهالى بالاتفاق مع المغول الذين كان أغلبهم من قبائل التاتار، فأرسلت جماعة أخرى من الجيش للإمداد فقتلوا ما بين خمسة إلى ستة آلاف من الأهالى وقيدوا نفرًا من فيلق المدفعية مصحوبًا بالأركان وأصحاب المناصب، وأنعم على "سيد پولاد خان" بخلعة، وأُقر فى وظيفة حراسة القلعة، وأُعلن بالطبل أن يعود جميع الناس إلى أعمالهم ولا تأخذهم وحشة من العسكر، وصدرت الأوامر لمجموعة منهم بحراسة مخازن قلعة "بهركنج" فختموا المخازن وعهدوا بها إلى حراسها وصودرت أموال "سعادتخان" ومنحوا "نظام الملك" و"قمر الدين خان" مبلغًا من النقد وبعض الأشياء العينية التى كانوا قد صنَّفوها، وقد كُتبت فى قائمة المنح كما صودرت أيضًا أموال "خان دوران" و"مظفر خان" أيضًا ولم تكن مجوهرات الأول ونقده غير ما اقتناه فى المعسكر تزيد عن أربعة ملايين تومان، أما أموال "مظفر خان" فكانت تقترب من خمسة عشر مليونًا من التومانات، وعُهد بأمر "نادر شاه" فرض الحراسة فى أنحاء المدينة وسواحل النهر والميدان الذى كان فى مقابل القلعة ومنعوا أن يخرج شخص من المدينة دون تصريح ولكنهم لم يمنعوا أحدًا من الدخول.

كانوا قد قيدوا أيدى بعض الأشخاص وقطعوا رءوسهم وألقوهم على رمال ساحل النهر.

وفى يوم الأربعاء الموافق الرابع عشر كان جمع من الفقراء يرغب فى الخروج من المدينة وتجولوا فيها للتسول فأخذهم الحراس وقطعوا آذانهم وأنوفهم وأعادوهم.

وفى يوم الخميس الموافق الخامس عشر، لمَّا كانت جثث عدد كبير قد سقطت فى أطراف القلعة والأسواق أو الأنحاء المختلفة وكانت قد تعفنت فقد أجبروا أى شخص رأوه فى زقاق على إخراج الجثث وربطوا بعض الجثث بحبل وسحبوها خارج المدينة وألقوا بعضها فى النهر وكوَّموا بعضًا من الذين كانوا يظنون أنهم هنود، وأشعلوا النار فيهم بأخشاب وألواح المنازل المتهدمة.

صدر فرمان يوم الجمعة الموافق السادس عشر أن مملكة إيران معفاة من الضرائب لثلاث سنوات مقرونة برسالة مؤداها أن تُعطى رواتب العسكر المتأخرة والرواتب المساعدة حتى سنة وما يعادل ستة أشهر مواجب فى شكل إنعام لجميع أفراد المعسكر حتى الأفراد المعاونين وتجار المعسكر، هذا غير أى شخص كان جنديًا فى المعسكر. كما تقرر فى مرسوم صادر لـــ "نصير محمد خان" بمعية ألف فارس أن يذهبوا لإحضار خزانة "سعادتخان" من بوريب.

استدعى فى يوم السبت الموافق السابع عشر سربلند خان إلى البلاط وبقى هناك حتى بعد الظهر فأمره "نادر شاه" «إننى على يقين أنك لا تهتم بسبب الضعف والشيخوخة بجمع وجوه المنح وتتركها للرؤساء والتجار وأنا أنصحك أن تكترث بهذا الأمر أكثر وتنجزه بأسرع ما يمكن».

فى يوم الأحد الموافق الثامن عشر توجه "سربلندخان" من جديد إلى البلاط وكان كل من "نظام الملك" و"قمر الدين خان" حاضريْن وبقوا هناك حتى وقت الظهر وكان "طهماسبخان" ومصطفى خان" مصرَّان على وجوه المنح فوجه سربلند خان النظر إلى "نظام الملك" قائلا: إنه منذ مدة مضت عانيت مرارة هذا اليوم، وعرضت على "محمد شاه" تكرارًا أنه قبل أن تفلت الوسيلة من بين أصابع اليد له

أن يتخذ قرارًا قبل أن تضيع الفرصة ولا يعد أى حادثة غير قابلة للحل وسهلة بطمأنة الخاطر ويداوم على ألا يفتقد التحوط، وعرضت عليه أن يختار شخصًا محنكًا أمينًا فى عمله ويفوضه فى أن يقدم مبلغًا من النقد والأشياء القيمة بقيد المنح إلى "نادر شاه" فيقرره ويرفع هذا البؤس ويصادق عليه كما كان فى السابق. تصور الجميع أن لى قصدًا وغرضًا شخصيًّا، ولم يفكروا بدورهم فى أمر آخر، ولم يثقوا فيما كان قد فكر فيه الآخرون حتى وصل الأمر إلى هذا الحد فوقع البؤس وفُرض الخنوع. فلم يحر "نظام الملك" جوابًا واتجه "طهماسبخان" إلى "قمر الدين" قائلاً : إن "نادر شاه" قد كرر التوبيخ والملامة التى كان قد وجهها إلى "محمد شاه" فى لقائه الأول فقال: يجب أن يُنسى الماضى. الآن يريد ملكنا المال فينبغى أن تجمعوا المال بأى وسيلة تكون حتى لا تبتلون بأكثر من ذلك، قال "سربلندخان" مجيباً: بالتأكيد سنجمع المال من أى مكان يتوفر فيه، ولو كان لدى مال لكنت قد أرسلته لكم فى قندهار وما كنت أتركهم تتحملون وعثاء الطريق إلى هنا.

الخلاصة مما جرى فى هذا المجلس أنه قد عُرف أن "نادر شاه" بعد الانتصار واستقرار قوته كان قد طلب خمسة وسبعين مليون تومان من نظام الملك بالإضافة إلى الجواهر والذهب والأدوات المرصعة وسائر الأشياء النفيسة التى كانت قد صودرت من مقتنيات الملك والأمراء لكى يجمعها بأى نحو من خزانة الملك وأمواله ومعه الأمراء وسائر الأغنياء وأهالى المدينة، وهذا المبلغ لم يكن موجودًا فى خزانة الملك وأموال الأمراء، ذلك أن الموجود فيها من مسكوكات الذهب والفضة كان أكثر قليلًا من إحدى عشر مليونًا من التومانات، أما الموجود فى دفائن الخزينة الداخلية التى كانت ممهورة لسنوات طوال ولم يكن أحد يعرف من مهرها، وماذا فيها، فقد وُجد فيها أكثر مما كان فى الخزانة، فقدم "نظام الملك" ما يقرب من إحدى عشر مليونًا من التومانات وجواهر ونقد وسائر الأشياء وقدم "قمر الدين خان" نفس القدر وكان "سعادتخان" قد قرر سابقًا إعطاء ثلاثة ملايين ونصف تومان إلا أنه لم يستطع أن يوفر أكثر من مليون ومائة وخمسة وعشرين

ألف تومان، وإن ما كان قد بقى له من مخلفات الغارة ليس أكثر من ذلك، فوعد بأن يطلب الباقى من ولايته، أما "سربلندخان" فقد أُعفى من هذا التقسيم بسبب العجز فتقرر أن يحصّلوا الإحدى عشر مليون تومان توزيعًا على أصحاب المناصب والأغنياء كل بنسبته، وكان جمع المال فى السابق بعهدة "طهماسبخان" وحُول هذا الأمر بعد موته وإعمال القتل ونهب المدينة إلى عهدة "سربلندخان" ومعه سائر الأمراء الذين كانوا قد حضروا فى ذلك المجلس حيث أكد "طهماسبخان" على هذا الأمر كثيراً.

وبناء على ذلك تقرر أن يجتمع "عظيم الله خان" و"چوكل كشور" نائب "سيتارام" والى "البنغال" وجميع أصحاب المناصب ورؤساء المحاكم وغيرهم فى منزل "سربلندخان" وأنجزوا هذا الأمر وحُكم على أصحاب المناصب والأهالى الذين يتمتعون بالثراء أن يقدّموا ما يملكون من النقد وصناديق المقتنيات وأن يحضروا عند "نادر" ويقروا بأن يأخذ كل ما يريد وأن كل ما يُعطى يكون من مالهم، وأن أى شخص يدّعى الفقر ينبغى أن يلتزم ويتعهد بأنه قد قال خلافًا للواقع يعاقب بعد ذلك. وفى هذا اليوم جاء المذكورون إلى منزل "سربلندخان" وبقوا حتى العصر وقدم البعض القوائم وعادوا إلى منازلهم.

وفى يوم الاثنين الموافق التاسع عشر اجتمع هؤلاء الأشخاص مرة ثانية حيث شُغلوا بكتابة الأسماء والقوائم. وفى هذا اليوم حكم "نادر شاه" على "سيد نيازخان" بالإعدام شنقًا بالشال؛ ذلك أنه كان قد حَبس نفرًا من القزلباش فى حجرة فى الليلة السابقة على إعمال القتل العام وأشعل النار فيهم، كما عوقب "شهسوارخان"و "ريبان" اللذين استثارا الفتنة تلك الليلة فقطعوا رأس الأول، ومزقوا أمعاء الآخر.

وفى يوم الثلاثاء الموافق العشرين كان "سربلندخان" قد استدعى إلى البلاط ومُنح قباء قيّمًا وعاد إلى منزله وصحبه "عظيم الله خان" وغيره فى الأمر الذى شُغلوا به.

وفي يوم الأربعاء الموافق الواحد والعشرين صدر الأمر لـ "رحيم بيگ" مسئول الآلات الحربية ومعه مائتان من الفرسان والمشاة ليفرضوا على أصحاب المناصب أن يُخرجوا الأفيلة والأحصنة والجمال وكل ما يمتلكونه وأن يصادر كل ما يصلح لإسطبل "نادر شاه".

وفى يوم الخميس الثانى والعشرين شُغل المحصلون بهذا العمل. وفى يوم الجمعة الموافق الثالث والعشرين اجتمع "سربلندخان" و "عظيم الله خان" وغيرهما حسب الحكم فى القلعة وعقدوا مجلسًا لتحديد أموال المنح وتقرر أن يُبلغ "مريد خان" على رأس خمسين فارسًا من الفرسان التابعين لـ "سربلندخان" الأمر الملكى إلى "شجاعت خان"(*) حاكم البنغال أن يُحصلوا خراج السنوات الثلاث ووجوه المنح وأعطيت خمس وسبعون تومان من الخزانة الملكية كنفقات لـ "مريدخان" وألف ومائتان من التومانات إلى الفرسان الخمسين الذين كانوا فى معيته.

وفى يوم السبت والأحد والاثنين انشغلوا بمسألة المنح، وفى هذه الأثناء كانت النيران والمصابيح تضىء سماء ساحل النهر من أجل زواج "نصر الله ميرزا" ابن "نادر شاه" على ابنة "يزدان بخش" ابن "كام بخش" حفيدة "اورنگ زيب".

وفى مساء الخميس كان الزفاف. وأرسل "محمد شاه" للعروس هدية من الجواهر والحُلى تعادل قيمتها ثمانية عشر ألفًا وسبعمائة وخمسين تومان وثمانية عشر ألفًا وسبعمائة وخمسين تومان من النقد. وبعد الزواج أرسل "نادر شاه" إليه جواهر وحُلى بما يساوى مائة وسبعة وثمانين ألفًا وخمسمائة تومان. وانعقد مجلس لتقنين وجوه المنح واستمر حتى ظهر عاشوراء فى القلعة القريبة من ديوان العدالة.

(*) خلط المستشرق بين اثنين هما "سيتارام" و "شجاعت خان" على أنهما حاكما البنجاب، ولكن الاسم الأول مذكور بلفظة هندية ، والاسم الثانى بلفظة فارسية فهذا أمر يؤدى إلى فهم أن أحدهما نائب للحاكم والثانى حاكم. وفى نظر مترجم الكتاب إلى العربية أن "شجاعت خان" هو الحاكم نظرًا لأن هذا من باب ممارسة "نادر شاه" للحكم فى الهند بأن يكون الحاكم من أتباعه.

وكان "طهماسبخان" و"مصطفى خان" وأمراء "محمد شاه" حاضرين، وبقوا هناك من طلوع الشمس حتى غروبها كل يوم، كما اشترك جميع الأركان وأصحاب المناصب على الدوام وكانوا يرجعون إلى منازلهم فى المساء بدون حارس أو حافظ، وفى هذه الأيام وما تلاها وجد بعض الأشخاص يأخذون أموالهم وأهاليهم وعيالهم، وأيًّا كان الوضع فقد فرّوا من المدينة وكانوا سعداء بأنهم أنقذوا أنفسهم على الأقل، وقد اضطر عدد من أفراد "محمد شاه" أن يبقوا فى القلعة طوال اليوم فى نوم ووحشة ويرجعون فى الليل إلى منازلهم دون أن يرافقهم خيل أو خدم. وفى أيام المحرم لم يكن شخص من الهنود والقزلباش ليجرؤ على أن يذكر اسم التعزية والمآتم. وكان البعض من عسكر "نادر شاه" الذين كانوا قد ضربوا معسكرهم خارج المدينة قد ناحوا وضربوا صدورهم أيام عاشوراء فجرى عليهم عقاب شديد. وفى هذه الفترة نزلت عقوبة شديدة بالنسبة للجمع الذى كان ينبغى أن يُعطوا وجوه المنح إلى حد أنهم قتلوا عددًا منهم لإثبات الجدية وحفظ الكرامة، ومن هؤلاء "عليم الله" ابن "خوانده" ونائب "سيد فولادخان" الذى كان متخصصًا فى شئون الحراسة ليكون رادعًا لغيره، وفضح أمره بين الناس بل مزقوا بطنه يوم الخامس من المحرم بالخنجر ولم يطل الوقت عليه حتى أسلم الروح.

وفى اليوم السادس استدعى "طهماسبخان" وكيل مجلس الرأى النائب "قمر الدين خان" وحُكم فى حضور سيده بقطع أذنه، وأراد "قمر الدين خان" أن يتوسط فانتقل "طهماسبخان" قائلًا له بلهجة شديدة : " إن نوبتكم ستحل" فسكت "قمر الدين خان" وكانت حياة أعضاء مجلس الرأى قد ضاقت ذرعًا من هذا الأسلوب، وبدا لهم فى الثانى عشر من هذا الشهر أن يقتلوه، كما ضربوا بعضا من مسئولى "محمد شاه" بالخشبة فى حضور "طهماسبخان" حتى أن الدم سال على وجوههم وأجسادهم، كما ضربوا "سيارام جكى كشور" بالخشبة ضربًا شديدًا على ظهره وجنبه، وبعد أن أُعدت قوائم الأسماء أمر "نادر شاه" "نظام الملك" وسربلند خان وقمر الدين خان وعظيم الله خان ومرتضى خان أخا "مريدخان" أن يجمعوا ويسلموا وجوه المنح

التى كانت قد حُددت فى قوائم الأسماء وهى مبلغ مائة وعشرة ملايين تومان وأن يوزعوا المبلغ والأسماء على خمسة أقسام. وصدر الأمر لألف فارس من القزلباش حتى يكونوا فى معيتهم، ويرافق كل منهم مئتان من الفرسان ويصلوا بقسم منها، وتحدد أن يُضرب بالخشبة كل شخص جاء اسمه فى القوائم ويتأخر فى القيام على قسمه.

فى اليوم العاشر عند الظهر شُغل الأمراء المذكورون ومعهم الفرسان بجمع منح الوجوه ولم يُعدّل القسم الذى كان يُحدد النظر إلى حال الشخص، والبعض الذى كان يعلو على ما قدره ثلاثة ونصف مليون تومان كانوا يفرضون عليه ألفا وتسعمائة تومان، والآخرون الذين لم يكونوا يمتلكون أكثر من أربعة آلاف مجتمعين فقد سجلوا عليهم ما يقرب من خمسة آلاف تومان بأسمائهم، ولم تنشأ هذه المسألة من مساعدة كُتّاب القوائم بالنسبة للبعض أو عنادهم للبعض الآخر بل إنه تسبب من حسن الحظ أو سوئه تجاه أشخاص، فبعد أن يُحدّد دَيْنُ شخص ما فإنه لا يتغير؛ وقد قتل جمع أنفسهم لقسوة عمل الجباة فى جمع الوجوه اضطرارًا، ومات البعض من صدمة الضرب بالخشبة، والذين ضحوا بأرواحهم كانت أياديهم أو أقدامهم معيوبة، ولم يكن للجباة من الصباح حتى المساء من عمل سوى جمع الوجوه، ولم تف شدة أو غلظة بما لم يفعلوا هذا التصرف مما أدى إلى جعل الأهالى على هذا النحو من الذل إلى حد أنه إذا كان رجل قزلباشى يتنقل بين عشرة آلاف شخص فهو يُنزل برءوسهم كل بلاء يريده، حتى جاء اليوم الذى رحل فيه "نادر شاه" عن المدينة والحال كذلك، وإذ بهم حمّلوا قرابة اثنى عشر مليونًا على الخزانة وخمسة عشر مليونًا من التومانات على الناس والباقى بين الأمراء وقدر آخر بين ألف فارس. وقد ضاع مبلغ كبير بسبب نقص القيمة الشرائية، فمثلاً الحصان الذى كانت قيمته تقرب من المائة والتسعين تومان كانوا يأخذونه بخمسة تومانات فى ذلك الوقت وهى تعادل سبعة وثلاثين تومانًا ونصف فى الوقت الحالى عوضًا عن النقد من أجل استيفاء وجوه المنح. ولسنوات كانوا يقبلون ما يساوى العشرين تومانًا بسبعة تومانات وأيضا الجواهر والأشياء الأخرى بنفس هذه النسبة المنخفضة، ومهما كان "نادر شاه" يطلب تعديل الوضع إلى نقد يُسلم للخزينة ما من

فائدة! وبعد اليوم الذى جرى فيه سفك الدماء كان القزلباشى قد صادر كل ما خُزّن مما أدى إلى ارتفاع الأسعار بالنسبة للقمح والأرز والزيت غير أن "سربلندخان" و"عظيم الله" استدركا الوضع وأرسلا العرادات الشاحنة لإحضار الغلال إلى "فريد آباد" وكان جمع من الفقراء يرافق هذه العرادات.

نزلت قيمة القمح قليلًا ووصل المن والثلاثة مكاييل بروبية واحدة، وكان يباع الخمسة والعشرين مكيالاً بروبية، أما الزيت فالسبعة مكيالات بروبية، وكانت قوة القزلباش فى هذه الفترة تواصل هجومها على أنحاء "فريد آباد" وسائر الأماكن من كل ناحية بمسافة ما بين اثنى عشر إلى ثمانية عشر فرسخًا.

وكانت تنهب المزارع والقرى منهم على رأس الطريق، وإذا تصدى الأهالى مدافعين يقتلون. وكان القزلباشيون يعطون خيولهم وجمالهم الشعير والعشب تعويضاً، بينما أهل المدينة لم يكونوا يستطيعون أن يحصلوا على العشب والشعير بأى قيمة؛ فتلف أغلب متاعهم إلى أن تقرر فى آخر المحرم بإشارة من "نادر" ألفان وخمسمائة تومان كمنحة لـ "دانشمندخان" أخى "على أكبر" مرجع الملالى ونصب فى منصب رئيس المتاع فى جهاز "محمد شاه" أى منظم البلاط، إلا أنه مرض بعد قرار "نادر شاه" وتوفى فى الرابع عشر من ربيع الأول ولم يوص "نادر شاه" الملك بشخص آخر غيره.

وفى اليوم الثالث من شهر صفر حضروا بأمر من "نادر شاه" فى مجلس "محمد شاه" قبل شروق الشمس ولُبست هناك اثنتان وأربعون خلعة كان "نادر شاه" قد أرسلها للأمراء. وكانت خلعة "نظام الملك" و"سربلندخان" و"قمر الدين خان" و"محمد خان بن كوش" على هذا النحو : قباء من نوع الحرير الأطلس أعلاه نقوش صيد بلون الذهب مطعمة بقطع من الحرير الذهبى وأعلى الأكتاف منديل نفيس بقبضة سيف وإطار وغلاف ذهبى لخنجر وإطار وغلاف لازوردى. وكانت سائر الخلع متفاوتة بعضها بخمس قطع من الحرير والبعض بأربع والبعض بثلاث والبعض باثنتين والبعض بقطعة واحدة. والمذهبات أو الفضيات كانت متفاوتة بتفاوت المرتبة.

وما إن مضت ساعتان على شروق الشمس حتى توجه "محمد شاه" فى التختروان الملكى بمظلته العالية إلى الديوان العالى، وكان فى إثره عدد من الأمراء والفرسان بفاصل قليل، وعندما وصلوا إلى الديوان أمر "محمد شاه" "سعد الدين خان" ألا يُسمح لشخص غير الأمراء الكبار وعدد من أصحاب المناصب المهمة بالحضور. وفى الديوان ترجل الأمراء وساروا نحو طريق البناية التى بها "نادر شاه" حيث نزل "محمد شاه" واستقبله "نادر" بالأحضان ثم تناولا الغداء كما قُدم الغداء للأمراء أيضًا وبعده أُنعم على "محمد شاه" بقدر من الهدايا: تاج مطعم بالجواهر، عمامة، قبضة وحزام وكلها مطعمة بالجواهر، سيف مرصع وسيف سائد ومشهور بـــ "دهوب" وقداره لازوردية، ووضع "نادر شاه" التاج بيده على رأس "محمد شاه" واعتذر عما حدث وقدم له بعض النصح وودّعه وكانت خلاصة نصائحه على هذا النحو :

فى البداية أن تنزعوا إقطاعيات الأمراء وتعطوهم رواتب نقدية على قدر مناصبهم ومكانتهم من الخزينة، ولا تتركوا أحدًا يحتفظ لنفسه بعسكر وأتباع مخصوصين، ويجب أن تحتفظوا دائمًا بستين ألف فارس منتخبين وتحددوا للشخص الذى يترأسهم اثنين وعشرين تومان راتبًا شهريًا ونصّبوا لكل عشرة أفراد قائدًا "ده باشى" ولكل مائة شخص "يوزباشى" قائد أو لكل ألف شخص قائدًا "مين باشى"، ويجب أن تعرفوا جدارة واسم وأسرة وعشيرة كل شخص، ولا تتركوا صاحب منصب أو جنديًا وغيرهم أيًا منهم يعتدْ على البطالة والكسل. وأينما يحدث اصدروا الأمر إلى عدد كافٍ من العسكر بقيادة شخص يكون سلوكه وصدقه وشجاعته محل ثقة، وبعد أن ينتهى العمل استدعوهم فورًا ولا تتركوا أحدًا يبقى قائدًا لفترة طويلة؛ لأنه لن يحقق نتيجة طيبة وخصوصًا "نظام الملك" احتاطوا من تصرفه فمثلما فهمت أنه مزور ومغرض، وما يدور في رأسه من هوى يتجاوز الآخرين.

عرف "محمد شاه" أن هذه النصائح من باب حب الخير فشكر له كثيرًا وطلب أنه ما دامت السلطنة تتعلق بـــ "نادر شاه" فليعين للمناصب الكبرى الشخص الذى يراه جديرًا.

فقال "نادر شاه" : "هذا العمل على خلاف مصلحتكم(*) فصاحب المنصب الذى أعينه لن يكترث بكم حال غيابى(**) وبعد رحيلى، كل منصب تعلمون بأنه جدير بشخص أعطوه له، وإذا ما تمرد شخص فسأرسل لكم من يعاقبه بمجرد سماع الأخبار إذا كان ذلك لازمًا. وكلما اقتضى الأمر فسأرسله لكم من قندهار(***) خلال أربعين يومًا ولا تتصوروا أنى بعيد عنكم". وبعد هذا الحوار ودع "محمد شاه" وعاد إلى مقره وهناك رخّص للأمراء بالعودة إلى منازلهم.

وفى يوم الأربعاء الرابع من الشهر استدعى "نادر شاه" "نظام الملك" و"سربلندخان" وسائر الأمراء وأقرهم على طاعة "محمد شاه" وهدد بقوله: "إذا تمردتم فسيكون العقاب" ولدى النهوض قال:

ذُكر أن "نادر شاه" كان قد قال فى حضور بعض من أمرائه مثل "طهماسب خان" و"لطفعليخان" وآخرين : إنى لم أتحرك فى عملى هذا إلا بعد تدبيرين: أحدهما أننى فوضت السلطنة إلى "محمدشاه" لأنه ليس جديرًا بهذا الأمر وستصير أوضاع الهند مضطربة أكثر من ذى قبل، والآخر إننى أمنت "نظام الملك" فهو نبيه ومزور بما يحتمل معه أن تتهيأ أسباب الانقلاب. وعلى كل حال كنت قد أعطيته الأمان بالتقدير الإلهى ولم يكن لى أن أعمل على خلاف ذلك.

وفى يوم الجمعة الموافق السادس من الشهر ذهب المنادى أمام المقر الملكى بـــ "شاليمار" وأطلق نداءه أن بعد تحرك العسكر فليس فى وسع واحد من القزلباش

(*) فكر سابق لأوانه من نادر شاه.

(**) من الممكن القول بأنك أنت الذى لم تنصبنى ولا أتبعك.

(***) باعتبار أن قندهار هى الأقرب.

والأشخاص الذين جاءوا مرافقين للجيش أن يبقوا فى المدينة وألا يحتفظ أحد بأى منهم فى منزله ويتستر عليه ، وألا يُحضر أفراد المعسكر أحدًا رجلاً كان أم امرأة من الهنود أسيرًا فى حوزته، اللهم إلا إذا كان غلامًا اشتروه بنقد وكتبوه على ذمة البائع فيعطى الشاهد شهادته على رغبة البائع ورضائه أو المرأة التى عقدوا عليها خارج القانون. هذا الغلام أو المرأة المعقود عليهما على غير رغبتهما لا ينبغى أن يتحركا وكل شخص يتخلف عن هذه الأحكام تزهق روحه ويُصادر ماله. وبعد هذا الحكم عندما وجد جميع الأشخاص الذين كانوا قد تزوجوا فى دهلى أنه لا ميل لهم أن يخرجوا من وطنهم استردوهم إلا عددًا قليلًا من الرؤساء وأصحاب المناصب أرضوا الزوجات فيما يبدو بوسائل طيبة استحوذوا عليها، غير أنه بعد أيام من تحرك "نادر شاه" عُرف بالخبر وحُكم بأن يستعيدوهن.

وفى يوم السبت السابع من الشهر ذهب "نادر شاه" إلى "شاليمار" وأصدر أحكامًا قاطعة بأن يتحرك العسكر من المدينة.

وفى يوم الأحد الثامن من الشهر نفسه حُكم قبل التحرك بأن يصطف العسكر وعُرف أن أربعمائة من العسكر وأفراد الخدمة قد هربوا فحُكم على "سيد فولادخان" الحارس أن يتحراهم ويرسلهم إلى المعسكر تحت الحراسة. كما صدر الأمر لعدد من مسئولى النظام بمعاونته، وتبين الحارس بعد تفتيش دقيق ستين شخصًا من الفارّين فأرسلهم مع مجموعة من فرسانه وعدد من مسئولى النظم فوصلوا إلى المعسكر قرابة حدود الهند، وحكم "نادر شاه" عليهم جميعًا بقطع الرءوس، وفى هذه الأثناء عثر "سيد فولادخان" على عدد آخر من الفارّين وكان يرغب فى إرسالهم ولكنه عندما كان قد تنامى إلى سمعه أن الستين السابقين قد قُطعت رءوسهم توجه إلى "محمد شاه" وعرض الموقف فقال له : «من المؤكد أنك لو أرسلتهم ستقطع رءوسهم أيضًا فلماذا تشارك فى نزيف الدم بهذا القدر بغير حق؟ اتركهم يذهبوا حيث يريدون».

كان "نادر شاه" متنقلاً فى حركته حتى وصل إلى مقربة من لاهور، ومن نحو الأخبار التى وصلت إلى هناك أنه حكم بأن يُغار على أهل "طانيسر" وعدة قرى أخرى ويُقتلوا. وكان هذا القرار قائمًا على أن الفلاحين ينتهزون الفرصة ويقتلون جماعات الفرسان المتفرقة وينهبون عتادهم ويهاجمون معسكراتهم ليلاً ويسرقون كل ما يصل إلى أيديهم انتقامًا من وصول جماعات العسكر التى كانت تذهب على الدوام إلى الأطراف لتحصيل الغلال والعلوفة. وما إن وصل العسكر إلى لاهور حتى فُقد ألف من الدواب والجمال والبغال، وقد تسبب هذا فى توتر "نادر شاه"، كما وصل خبر مؤداه أن "نادر" طلب من حاكم "كرنال" التى فتحت فى هذه الأنحاء أن يدفع ألفًا وتسعمائة تومان ليُعمر بها قرية فى محيط معسكر "نادر" يسميها "فتح آباد".

وقد أرسل "نادر شاه" قبل التحرك من دهلى قسمًا من جيشه إلى لاهور وعندما اقترب العسكر منها وعرف "زكريا خان" بالخبر جمع الأعيان، والتجار، والصرافين والأغنياء فى المدينة وقرروا أن يخرجوا منها ومعهم "زكريا خان" ويبعثوا برسالة إلى قائد العسكر على هذا النحو: إذا كانوا مصممين على قتل الأهالى فنحن مستعدون، وإذا كانت غارة فقد خرجنا من المدينة وأموالنا هناك، وإذا كنتم تريدون مالًا فوالى المدينة وأهلها من الممكن أن يوفروا أكثر من ثلاثة ملايين وربع من التومانات. والآن نفذوا قصدكم ودستور عملكم. هذه المدينة مدينة صغيرة وليست مثل دهلى لديها طاقة قهر وغلبة جيش، فقرر قائد العسكر بعد هذه الرسالة أن يطلع "نادر شاه" على الأخبار، فحكم "نادر" من جانبه أن يُقبل طلب أهل المدينة ولا ينزل بهم أذى، وبعد تسليم الأموال تحرك جميع الجيش ولحقوا بالمعسكر العام وعبر "نادر شاه" منزلا بمنزل قرابة لاهور.

وفى يوم الثالث عشر من الشهر وضع "سربلندخان" حارسًا حول محيط القلعة وكان فى ذلك اليوم مسئول حراستها، وفى اليوم التالى تقرر أن يُبعد حارسه على أن تكون حراستها فى عهدته فى أيام الأحد، وبعد أن ذهب من القلعة طلب أن

يلتقى بـــ "نظام الملك" عندما كان فى منزل "قمر الدين خان"؛ فذهب حيث هما والتقى بالاثنين ثم عاد إلى قصره . وعندئذ كانت جثث القتلى منذ اليوم الذى حدث فيه القتل العام ما زالت ملقاة فى الحارات وأصابها التحلل والعفن.

وفى يوم الخميس الثانى عشر صباحًا ذهب اثنان أحدهما "عظيم الله خان" والثانى "قمر الدين خان" للقاء "سربلندخان" بعد الظهر.

وفى يوم الأحد الخامس عشر جاء "محمد شاه" من مقره إلى الديوان العالى وجلس هناك ساعة ونصف، وحضر الأمراء ، وقدموا الهدايا، وتوجه نظام الملك بعد عودته من القلعة إلى منزل "سربلندخان" ولم يكن هذان الشخصان قد التقيا منذ مجيء "نظام الملك" من الدكن حتى اليوم الذى ذهب فيه "سربلندخان" للقائه.

وفى يوم الجمعة العشرين من الشهر أُنعم على "أمير خان" بخلعة وصندوقين من الخشب، وتقرر له منصب أمير قسم ثالث، كما أُنعم على "إسحاق خان" أيضًا بخلعة وصندوق من الخشب مع منصب ديوان الخاصة، وارتدى "عظيم الله خان" خلعة وصار صدرًا ولبس "احتشام خان" ابن "خان دوران" خلعة وأصبح رئيسًا للحرس الخاص.

وفى يوم الرابع عشر من ربيع الأول توفى "دانشمندخان" الذى كان قد صار رئيس المتاع بتوصية من "نادر".

وفى السادس عشر، ارتدى "سعد الدين خان" خلعته واستقر فى رئاسة المتاع أيضاً.

ومنذ اليوم الذى تحرك فيه "نادر شاه" من دهلى حتى اليوم الذى هو السادس والعشرون من ربيع الأول لم تُتخذ إجراءات فى أمور المملكة، ولم يجروا مفاوضات حتى حول ذلك البلاء المفاجئ الذى حل بمملكة الهند إلى حد أنه كانت تُروَّج أخبارًا عن قيام القيامة، ولم يفق النائمون الذين ركنوا إلى الراحة والغفلة والكسل والذين سكروا بشراب الغرور والعجب؛ فالجميع اتفقوا فى شيوع الفساد

بالنسبة لبعضهم البعض، وكان حديثهم وحواراتهم فى الحسد والحقد والبذاءة. أما المبانى التى خُربت فى القتل العام كان خراب بعضها أقل؛ فسكنوها مرة أخرى، والباقى ظل خرابًا وإن لم يُعمر قبل فصل المطر فستهدم كلها.

وكان أهل المدينة مندهشين ومبهوتين من هذه الفاجعة ووحشتها ولم يكونوا قد عادوا إلى أنفسهم، والأغرب من كل ذلك أنه مع وجود التجاوزات والتعديات التى وصلت بعد تحرك "نادر شاه" إلى أهل هذه المملكة أنهم يذكرون العبارات غير اللائقة والحركات البذيئة لجنود "نادر شاه"، التى دخلت فى أحاديث الناس فى المجالس بلا رغبة ولذة، وتقليدا وسخرية ولا يتألمون أبدًا من تخيل المآسى والموبقات الماضية، بل إن أوقاتهم تزداد مرارة من رحيل "نادر شاه" فيما يبدو. وكان "سربلندخان" مستأنسًا من هؤلاء الناس فقد عاش هذه البلية منذ سنوات ثلاث مضت وابتعد عن خدمة الدولة.

والأمراء الذين كانوا فى هذا الوقت على رأس العمل يُشاهدون، وكان "نادرشاه" يخشى من نتيجة أعمالهم وكان مُجبرًا على أن يأمرهم بجمع وجوه المنح فى الوقت نفسه على خلاف رغبته. ومن أجل ذلك تعاطف بقدر ما استطاع مع جمع منهم على نحو ألا يعلموا من أين وصل المدد؟ غير أن الأشخاص المزورين والجهلاء الذين لم يكن لديهم ميل الشفقة مع العامة تلوكوا بالقول البذىء وشكوا إلى "سربلندخان". والخلاصة أن هذا الرباعى بالعربية كاف فيما يتعلق بهذا الشخص البرىء.

قيل إن الإلــــــه ذو ولد   قيل إن الرســول قد كهــنا

ما نجى الله والرسول معًا   عن لسان الورى فكيف أنا؟

ما إن انتهت حرب "نادر شاه" حتى استدعى "محمد شاه" بمتاعه وجهازه إلى معسكره، وعرض عليه واحد من الأمراء أن فى المعسكر الهندى مائة ألف حصان وعدد كبير من الجمال، ولمّا كانت الرأفة الملكية ترعاها ففى أى وقت يأمر فيه

بمصادرة جمل وحصان يليق بالإصطبل الملكى فإن هذا لن يكون صعبًا عليهم كثيرا. قال "نادر شاه" مجيبًا : «لقد أعطينا الأمان لهؤلاء الناس من كل صوب وبغض النظر عن هذا فإن وسيلة المعيشة لدى التابع ركوب خيله بينما أغلبهم مساكين وفقراء، فإذا ما خرج حصانهم عن أيديهم فسيمد أهليهم وعيالهم اليد تسولًا وسيموتون جوعاً. والآن وهم تحت أيدينا فلا نسبُهم خلافًا عن توخى الإنسانية. وبناء على ذلك لا تصدموهم ولا تسبوهم». وعندما رأى "محمد خان بن كوش" الذى ظل مدة طويلة – وخاصة بعد رحيل "نادر شاه"– يأمل فى تولى الحكم حال تغيير ولاية "الله آباد" وأن لا أمل فى تفويض هذا الأمر إليه. تحرك فى اليوم السابع والعشرين من صفر وذهب إلى منزله وفى عرض الطريق أغار على عدة قرى، وأعاد فى الطريق جماعات المكارى الذين كانوا يحملون الغلال إلى "شاه جهان آباد" وحمل معه بعد أيام عدة "على حميد خان وعلى أمجد خان وعلى أصغر خان ، خان زمان وتراب عليخان وعظيم خان" وآخرين بمجموع اثنين وعشرين شخصًا من الأمراء وأصحاب المناصب الذين كانوا قد فروا من ميدان الحرب، وكان محمد خان كوش قد مكث فى منزله دون إذن، وقد عُزل الجميع من الخدمة وكتب "نظام الملك" و"قمر الدين خان" إليه بأنه إذا عاد بنفسه أو أرسل ابنه إلى البلاط فمن الممكن أن يعطوه المنصب والإقطاع من جديد وإلا لا ينبغى أن يكون له أى أمل.

أجاب محمد خان إذا قُبل طلبى فسأحضر وإلا سأذهب إلى ديارى، وبعد حرب "كرنال" حتى الوقت الذى تحرك فيه "نادر شاه" من "شاه جهان آباد" كان الضرر والخسائر التى حلت بالملك وأهالى الهند من الجواهر والنقد والأموال والمتاع وخراب المزارع غير خراب المنازل يقترب من ثلاثمائة وخمسة وسبعين مليون تومان، وحمل "نادر شاه" معه من هذا المبلغ حوالى مائتين وخمسين مليون تومان من الجواهر والأسباب الأخرى كما حمل مرافقو "نادر" من أصحاب المناصب والعسكر خمسة وثلاثين مليون تومان، أما نفقات العسكر حتى الوقت

الذى كان فيه هناك مع الرواتب المتأخرة والإنعامات وما التهمته النيران ودُمر فى المزارع يعتقد أنه خمسة وسبعون مليون تومان. وما حمله "نادر" معه على هذا النحو:

-الجواهر من مال "محمد شاه" وسائر الأمراء ثلاثة وتسعون مليون تومان وربع.

-المذهبيات وأسلحة اليد المرصعة وعرش الطاووس وعشر عروش مرصعة أخرى بما قيمته ثلاثة وثلاثون مليون تومان ونصف المليون ومائتان وخمسون ألف تومان أخرى.

-سبائك ذهب وفضة بما قيمته ثلاثة وتسعون مليون تومان وربع.

-ظروف ذهبية وفضية مكسورة ومنقوشة بما قيمته سبعة عشر مليون تومان ونصف.

-حرائر نفيسة قيمة من كل صنف ما قيمته سبعة ملايين تومان ونصف.

-متاع منزل وسائر الأشياء القيمة إحدى عشر مليون تومان ونصف .

-أسلحة ومدافع وغيرها بما قيمته ثلاثة ملايين تومان ونصف كما حملوا معهم من الهند ألف فيل وسبعة آلاف حصان وعشرة آلاف جمل ومائة أسطى وثلاثة عشر كاتبًا ومائتى حداد وثلاثمائة بناء ومائة نحات ومائتى تاجر.

أمر "نادر شاه " فخططوا لبناء القلعة ومدينة "شاه جهان آباد" ولهذا حُدد لأرباب الصنائع عدد من الأحصنة وحملة الأثقال وما كان لازمًا لهم مع مبلغ معين أو ربطهم بهذا الشرط: أنهم سيقضون مدة ثلاث سنوات فى قندهار كل مشغول بصنعته ثم يحررون بعد مدة مماثلة وإذا رغبوا فى العودة يعودون وإذا رغبوا فى البقاء يبقون. ولكن جمعًا منهم هربوا فى عرض الطريق إلى لاهور وعادوا إلى دهلى، وقد هلك منذ وصول "نادر شاه" إلى الهند حتى الوقت الذى وصل فيه إلى

لاهور مائتا ألف شخص من أهالى الهند على هذا النحو : فى تحرك الجيش النادرى من "لاهور" إلى "كرنال" فى الطريق والقرى قُتل ثمانية آلاف شخص فى حرب "كرنال"، سبعة عشر ألف شخص فى ثلاثة أيام بعد الحرب فى الشوارع وأطراف المعسكر، أربعة عشر ألف شخص فى وقت المجىء إلى دهلى قتلوا فى "سنبوط وبانى بت" وسائر القرى وهم الذين نُهبوا فى الطريق، سبعة آلاف شخص قُتلوا فى سفك الدماء بإحصاء محقق، مائة وعشرة آلاف قتلوا بعد سفك الدماء فى قصر "روح الله خان" فى القرى والمزارع التى تقع على مسافة ثمانية عشر فرسخاً من أطراف جيش "نادر شاه" وكانوا يذهبون للغارة، خمسة وعشرون ألف شخص قتلوا فى عودة المعسكر إلى "طانسير" وسائر القرى. اثنا عشر ألف شخص هلكوا. أما النساء اللائى القين بأنفسهن فى الماء واشتعلت النيران فى أجسادهن والأشخاص الذين هلكوا من القحط وسائر الشدائد فعددهم سبعة آلاف، وقد سجلوا المجموع على أنه مائتا ألف. ومسطور أن "محمد شاه" قد أعطى لــ "نادر شاه" حوض نهر "أتك" بناء على التفويض بجميع الأراضى الواقعة فى المغرب.

وكان وزراء جناب الحضرة بهرام الصولة مريخ السطوة قهرمان الزمان سلطان سلاطين الدوران ملك ملوك العالمين ظل الله للمسلمين ملاذ حشمة الإسكندر عرّاش سرير السلطان العادل وملك الفلك "نادر شاه" خلد الله ملكه وسلطانه والسفراء الكبار فى هذا البلاط قد أُرسلوا من أجل إقرار بعض الأمور، وكنا أيضًا نميل إلى الموافقة. وبعد ذلك وصل "محمد خان تركمان" بدوره من قندهار للتذكير، ولكنّ وزراءنا ومسئولينا عوّقوا السفراء المذكورين وأخّروا جواب جناب الحضرة، ولذلك حدث خلاف فيما بين الطرفين فى هذا الصدد، وتحرك جيشهم الميمون إلى حدود الهند والتقينا نحن الطرفين فى صحرائها عند "كرنال" واضطرمت حرب ملكية حيث كان التقدير الإلهى بأن أشرقت شمس النصر

والانتصار من مشرق إقبالهم الذى لا يزول. ولما فقد جناب حضرة جمشيد(*) القدرة المعظم منبع الرأفة والفتوة تأسيسًا على رجولته واتكاله الدائم من أجل مصاحبتهم فى مسرة اللقاء تلاشت بهجة الحديث فى بهاء الفردوس، وحثنا بعد ذلك ملك الدنيا فعرض الخزينة وأنعم علينا بنحو لائق، فقبل جناب الحضرة البعض منهم برغبتنا وتفقد لعلو الهمة وفرط المحبة برعاية الأسرة الجورجانية فخر الشجرة الطرخانية(**). فعهدوا إلينا بعرش التاج الهندى، وإزاء هذه الرعاية التى لا تظهر إلا من الأب للابن ومن الأخ للأخ عهد بجميع الممالك الواقعة فى غرب نهر "اتك" ونهر السند ونالاسنگرا، التى هى شعبة من شعب حوض نهر السند أى بيشاور ومتصرفات ولاية "كابل" و"غزنين" وصحروات أفغانسان "هزاره جات" والمضايق ومساكن الجوكيين والبلوچ وغيرهم بانضمام قلعة "دام" وقرية "طرفين شهرچن سموالى وكترا" وغيره من أعمال "تته" مع جميع الأراضى والقرى والقلاع والمدن والبنادر ابتداء من منبع نهر "اتك" مع جميع المضايق والعمران التى يحيط بها حوض نهر "اتك" مع شعبه حتى "نالاسنگرا" التى هى مصب النهر إلى البحر.

والخلاصة أن جميع الأماكن الواقعة فى مغرب نهر "اتك" وتلك البقع وغرب نهر "السندونا لاسنكرا" أجزاء من ممالك هذا الملك قوى الشوكة. ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا دخل عماله ومسئولوه البقع المذكورة واستولوا عليها ليأخذوا بزمام الحكومة وحكم هذه البقع وأهاليها. أما عمالنا ومسئولونا فيجب أن يخلوا البقع المذكورة وأن يسقطوها من الممالك ويعدوها من ممالكنا ويسقطوا جميع حقوقهم الحالية والماضية بالحكم والنظم والنسق وأخذ الضرائب منها، وستكون القلعة

(*) إشارة إلى الملك الإيرانى القديم فى العصر القديم بما له من صفات خالدة.

(**) إشارة إلى مجد الأسر الجرجانية وما صاحبها من أوصاف باقية.

ومدينة "لهرى بندر" مع جميع الممالك الواقعة فى مشرق نهر "اتك" ونهر السند و"تالاسنكرا" جزءًا من سلطنة الهند كما فى السابق.

فى الرابع من محرم سنة ١١٥٤ هـ فى شاه جهان آباد

تفصيل خصال "نادر شاه" وأخلاقه :

له من العمر ما يقرب من خمس وخمسين سنة ، قده يقترب من ستة أقدام، متناسق فى خلقته مفتول العضلات وقوى البنية، أحمر الوجه، مزاجه يميل إلى الحدة، ولكن تحمّله للشدائد يمنع ظهورها، له عينان ثاقبتان وحاجبان كثيفان سوداوان وسيماء طيبة أقل ما رأيت مثلها، وقد ترك تأثير الشمس وتعرية الطقس أثرًا على صدغيه وشكلا رجوليًا، وعقيرته عالية الصدى وقوية إلى حد أنه يأمر على بعد مائة ذراع فى الغالب ويحتسى الخمر باعتدال ويرغب فى النساء بدون حد، ويهتم بتغييرهن وعددهن، ولا يحول اتخاذ القرار من هذه المسألة.

والساعات التى يقضيها مع النساء فى الداخل قليلة، وأحيانًا كان يقضى مع بعضهن ساعة والبعض الآخر خمس ساعات ثم يخرج.

غذاؤه قليل جدًا بسيط أغلبه أرز والأغذية المعتادة وإذا تراكمت الأمور الحكومية كثيرًا يغفل عن الغذاء، ويضع قليلًا من حبات الحمص فى جيبه على الدوام ويقنع بشربة ماء بعد تناولها. وهو فى المعسكر أو المدينة دائما فى الخارج كأنه من العامة ولا يكون هكذا فى مجالسه، وكل شخص يستطيع أن يعرض رسالته بشخصه بلا واسطة، ويتصدى لصف الجيش وتقسيم الرواتب ولباس العسكر بنفسه، ولا يترك أصحاب المناصب يأخذون دينارًا كرسم أو هدية من الجندى بأى وجه من الوجوه، وكل شهر تصله أخبار عن أوضاع جميع الأنحاء فى المملكة، وهو يكاتب عيونه الذين فى الأنحاء ، أضف إلى ذلك فقد عهد إلى شخص فى كل ولاية ومدينة أن يقوم كلامهم فعمله هو أنه كان مكلفًا بأعمال الحاكم

وأخباره ويثبت ما يراه، ولا يمر أى من الأمور المهمة دون حضور صاحب هذه الوظيفة، وأنه بدون الموافقة التى ينبغى أن يرسلها الحاكم كل شهر عليه أن يعلم أن كلامه متى كان لازمًا له أن يرسل معلوماته من جانبه ولا يُطلع الحاكم وليس لهذه المهمة رواتب أو مرسوم فخدمتها أو عقابها متعلقة بوجهة نظر "نادر شاه". ومن ثم فهذه الرقابة الصارمة من شأنها أن تمنع كثيرًا من الحكام من التجاوز على الرعية أو حتى مجرد التفكير فى الخيانة والعصيان.

و"نادر شاه" سخى الفطرة خاصة بالنسبة للجند الذين هم فى خدمته ويتصرفون حسناً، وهو دائمًا مبسوط اليد دائم الإحسان، ومع ذلك قاس ومنظم يعاقب الذين يرتكبون خطأ كبيرًا بالقتل وأولئك الذين ذنبهم أقل بقطع آذانهم، ولا يصفح مطلقًا عن مقصر أيًا كانت منزلته ودرجته، وإذا بحث بعد ذلك عملا فإنه يتفحصه بدقة ، وكان يكره أن يتوسط أحد ، فقط يسمح لأى شخص أن يبدى رأيه دون الأخذ به. وأثناء الحرب فهو مع الجيش فى التحرك يأكل ويشرب وينام مثله مثل أى جندى وكل أصحابه معتادون على هذا الأسلوب.

بنيته قوية وكما رآه الأغلب ينام فى الهواء المعتدل وعلى الأرض فى الصحراء ليلاً بغطاء عقده بنفسه واضعًا سرج الحصان أسفل الرأس، وأحيانًا كان يعد السرعة والحركة والتعجيل لازماً. يخرج من إيوانه ويحمل على العدو الذى لم يكن يترصده أبدا(*)، وبقدر ما هو سعيد فى حله وترحاله وسوق الجيش فلم يكن يبقى فى مكان إلا وينشغل برفع ما حل بالعسكر من نصب ، وبعد رفع التعب وزوال الشكوى يعجل كثيرا فى التحرك، ولم يكن غذاؤه يطول عن نصف الساعة وبعده يبدأ فى العمل، والأشخاص الذين يعملون فى خدمته يستبدلون فى اليوم ثلاث أو أربع مرات، ولا ينشغل أبدا فى يومه بالتسلى والطرب ولكنه دائما ما يذهب بعد الغروب إلى مجلس الخلوة ويرفع عنه عبء العمل ويشرع فى صحبة ثلاثة أو

(*) هذا شأن كل صاحب نفوذ يتصور أن الآخرين يترصدونه بل سيقتلونه.

أربعة من ندمائه فى تناول الطعام وتعاطى الشراب الذى لا يزيد على ثلاثة أو أربعة كئوس، فيمر وقته بتحرر ومزاح وليس مسموحًا فى وقت الخلوة أن يساق ولو كلمة واحدة عن أمور الدولة، وفى أوقات أخرى لا ينبغى لندمائه بحجة أو أخرى وبما لهم من ألفة ومؤانسة أن يتصرفوا بنحو محرم. وقد حدث أن اثنين من الندماء فى البارحة تحدثا خطأ فى مجلس عام على سبيل النصيحة فأمر فورًا بقتلهما، وقال: هذان السفيهان اللذان لا يفرّقان ما بين "نادر شاه" و"نادر قلى"(*) لا يستحقان الحياة. أما عن الأشخاص الذين يسعدونه فى حديث المسرة ولا يخرجون عن حد الأدب والتعظيم فى الخارج فيلقون منه عطفًا زائداً، ولكن لا يُلاحظون خارج المكان ولا يسمع حديثهم أكثر من أقرانهم. وكانت أم "نادر شاه" تعيش حتى عام ١١٥١ هـ / ١٧٣٧ م ، وطبقًا لرغبة البعض الذين كانوا يُخلصون الحب للبيت الصفوى كانت تتوجه لابنها بعد أسر الشاه "طهماسب"(**) بطلب أن يقره ثانية فى السلطنة وكانت تقول: «أنا واثقة أن الملك سيصفح وسيقرك قائدًا للجيش حتى النهاية». فسألها "نادر شاه" : «هل أنت معتقدة بما تقولين فى الواقع؟» فأجابت: «أنا واثقة». ضحك "نادر" وقال: «لو كنت شيخًا يجوز أننى كنت على هذا الخيال! ولكن آمل ألا تتدخلين فى أمور الدولة ولا تشفقين على نفسك».

كانت زوجته عمة الشاه "طهماسب" والأخت الصغرى للشاه "سلطان حسين" وقد سمعت أن ليس له أخت غيرها، وكان له عدة أطفال من زوجات صيغة(***) وولدان من زوجة له فى سابق الأيام قبل الشهرة، ابنه الكبير "رضاقلى" ميرزا" له من العمر خمسة وعشرون عاماً، تربى منذ الطفولة بين العسكر ووصل من الجندية إلى القيادة بالتدريج وصار نائبًا للسلطنة فى وقت سوّق الجيش إلى الهند.

(*) هذا هو لقبه السابق كما نعرف.

(**) هذا يدل على اعتقاد الناس الراسخ فى البيت الصفوى.

(***) هو زواج المتعة.

أما ابنه الثانى فهو "نصر الله ميرزا" له من العمر أحد وعشرون عاماً، وهو حاكم مشهد اسمًا ووالى "خراسان"، وكُل له شخص تابع يرعى أموره. وعندما كان ابنه الكبير نائبًا كان يُقر العمل براتب النيابة ولا يتقاضى شيئًا عن سائر المناصب الأخرى التى تولاها. ولم يكن "نادر شاه" يعتنى به أكثر من أصحاب المناصب، وكان قد سمح بأن يجلس إليهم ونهض موضحًا له بأنه إذا صدر تقصير عنه أو غفل عن أمره يُجرى الآخرون عليه العقاب بشدة، وكلما أحسن "رضا قلى ميرزا" الخدمة ترقى. من السهل أن يزيد على محبة الأب له وأنا لم أره، ولكن أولئك الذين يعرفونه فرأيهم قائم أنه سيصير معروفًا فى العالم بقدر أبيه "نادر شاه" لماذا لم يدر فى ذهنه الشجاعة والتدبير فى الحروب. لقد ظهرت فى زمان "نادر شاه" فى الهند عنه كفاية لا حد لها، وبناء على المعلومات الشخصية التى وصلتنى من إيران أنه ساق جميع أمور المملكة بكل مهارة واحتفظ بالمملكة فى هدوء واستقرار.

وبين صفات "نادر شاه" التى لا نظير لها، حافظة ليست خالية من الغرابة فما أقل الشيء الذى يفعله أو يقوله ثم ينساه. هو ينادى قادة عسكره الكثيرين بالاسم ويعرف جميع العسكر الذين خدموه فترة من الفترات.

إذا أحسن أو عاقب شخصًا فإنه يتذكر ذلك. ويقرر كاتب أو اثنان هذا ويسجلانه. كان يحكم فى سائر الأمور فى نفس الوقت. وقد سمعت أنه يرتبها ويُفندها، وكان تكنيكه العسكرى فى وقت الحرب عجيباً، فلا يمكن أن يُصدّق بأية سرعة! كان يشخص الطرف الغالب والمغلوب(*) وبأى اهتمام كان يُمد جيشه!. فإذا خرج واحد من أركان الجيش الكبار من الميدان متهاونًا فى هزيمة العدو فإن "نادر" يذهب إليه بشخصه ويقتله بالمعول الذى كان يمسك به على الدوام، ويعهد

(*) ربما كان ذلك أساسًا لعلم الرياضيات الإكتوارية المتبعة فى وقتنا الحالى فى مجال تقدير قوة العدو والتى استخدمتها القوى الغربية فى حرب ١٩٦٧م، واستخدمها الجيش المصرى تقريبًا فى حرب ١٩٧٣م.

بالمنصب إلى من يليه شرط أن يكون فى مقدمة الجيش فى كل الحروب والنزاعات والحصارات على الدوام، ولم يُصب بجرح أو بدّل أحصنة قتلت تحته، أو أن رصاصات اخترقت زيه العسكرى. وأستطيع أن أنقل كثيرًا من الأشياء العجيبة الأخرى التى رأيتها وسمعتها عن هذا الرجل العظيم.

والأعمال التى صدرت عنه حتى الآن هى دليل قوى أمام العالم على أنه ما أقل نظرائه فى العصور السالفة بالنظر إلى ما ظهر عنه من مثل هذه الآثار الغريبة بينما هو كان خاوى اليد من المال والأفراد. فماذا كان يجب أن يُنتظر منه بهذه الخزائن التى امتلكها عندئذ لو أنه عاش لثلاثين سنة أخرى. ففى هذه الفترة إذا نال مقاصده فسيصير معلومًا إلى أى حد سيرتقى هذا الشخص عالى الهمة والشجاع فى مدارج العلو والعظمة (*).

(*) هذا تقدير "فريزر" بعقليته الغربية، أما نحن فنقول الله أعلم.

شجرة الأسرة الافشارية

خريطة الدولة الافشارية فى أقصى اتساعها

المترجم الفارسى فى سطور:

- "ولد رضا زاده شفق" فى تبريز عام ١٨٩٢م، ودرس فى المدرستين الكاثوليكية والأمريكية بها، وحصل على درجة الليسانس من تركيا ودرجة الدكتوراه من ألمانيا.
- أتقن اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والتركية.
- عُين أستاذًا فى جامعة طهران. كان ضمن الأحرار فى حقبة الحياة النيابية، وانتخب عضوًا فى مجلسى النواب والشيوخ من دورة.
- أصدر جريدة "شفق" فى تبريز، وكتب فيها المقالات السياسية والاجتماعية. له مؤلفات وتراجم عديدة.
- اختير عضوًا فى مجمع اللغة الفارسية.
- اشترك فى كثير من المؤتمرات الدولية. نظم أشعارًا كثيرة بالإضافة إلى أنه شارك فى فعاليات وطنه السياسية والاجتماعية.

المترجم العربى فى سطور:

- أستاذ غير متفرغ للدراسات الإيرانية بجامعة عين شمس

- ألف وترجم عددًا من الكتب والمراجع فى موضوعات تهم الدراس والمثقف والقارئ.

- منحته الجامعات المصرية والعربية شهادات تقدير لمشاركته فى فعالياتها الثقافة.

- سافر إلى الجامعات العربية معارًا وزائرًا.

- أسهم فى تحكيم الأبحاث والكتب من الجامعات المصرية والعربية، وفى تخريج عدد كبير من الأساتذة المصريين والعرب ودارسى اللغة الفارسية فى العالم العربى.

- شارك فى كثير من المؤتمرات المحلية والعربية والإسلامية بدعوة من المحافل العلمية.

- ورد اسمه فى الجزء الأول من الموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة نشر الهيئة العامة للاستعلامات.

التصحيح اللغوى: حسام فرج
الإشراف الفنى: حسن كامل



هذا الكتاب يروى سيرة مؤسس الدولة الأفشارية وفتوحاته ومحاولته للتقريب بين المذاهب الإسلامية منذ ثلاثة قرون وما يزيد.

هذه السيرة؛ يروى أحداثها ووقائعها عدد من المستشرقين المختلفين فى جنساياتهم، ممن عاصروا "نادر شاه" أو لحقوا به فجاءت رواياتهم لسيرته موضوعية فى الحكم عليه، وهى من هذه الناحية تعد جديدة فى المكتبة العربية، عن هذا الفاتح الكبير الذى وضعوه فى مصاف الإسكندر ومحمود الغزنوى وتيمور لنك، بينما لا يعرفه الكثيرون، خاصة أنهم أخذوا فى إبداء آرائهم فيما ذهب إليه الكتاب الفرس ومن أهمهم مهدى خان الاسترابادى كاتبه الخاص.

سيجد القارئ بين دفتى الكتاب تبيان ما وقع بين المستشرقين من اتفاق أو اختلاف حول هذا الفاتح بنظرة موضوعية، كما يشاهد صورة للوضع الحضارى فى عدد من دول المشرق بما فيه من تق وتخلف عندئذ.

أبرز هؤلاء المستشرقين "بول برايسى" و "مينورسكي و "لكهات" و "فريزي" منهم من عاصره أو لحق به، بل شاركه ف بعض فتوحاته والتقى به، فوقفوا على مفاتيح شخصيته وتفاصيـ حياته، ووقائع فتوحاته فى الداخل والخارج، واتجاهات فكره. ومن أجل ذلك اعتبروه بحق نادرة عصره وسابقة زمانه.

تصميم الغلاف : مروة أحمد